AHMAD OWEIDI AL-ABBADI

د. أحمد عويدي العبّادي

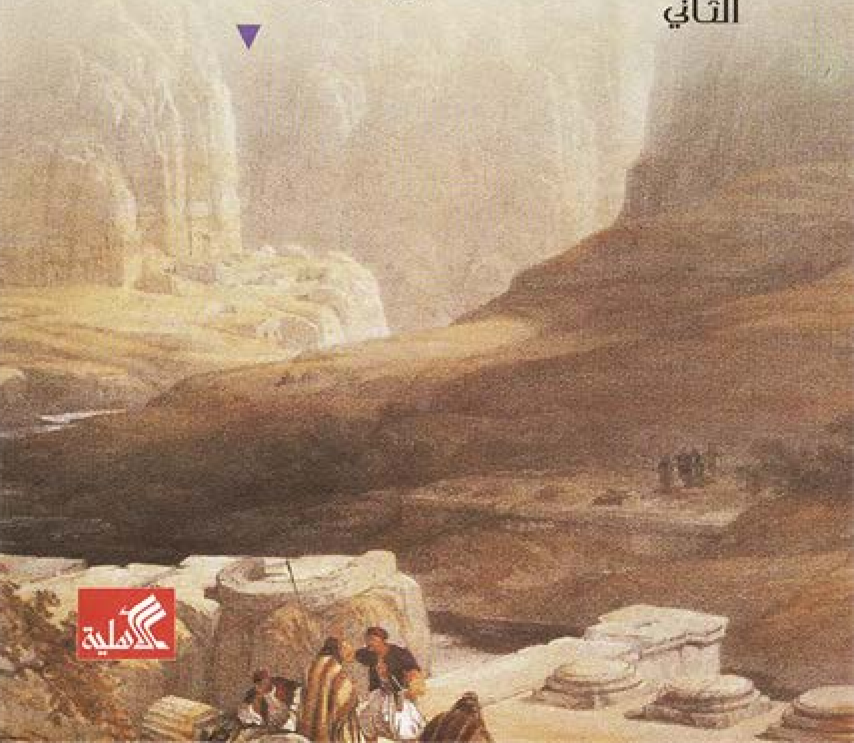
الأردنّ

في كتب الرحّالة والجغرافيّين المسلمين حتّى عام 1881

2

الجزء الثاني

شواهد مفصّلة وتضمينات



الأهلية

الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان ، وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب : 7772 عمّان 11118
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ، مقابل طيران الشرق الأوسط (ممم)
بجانب البنك المركزيّ ، مكتب القاصمة
مكتب بيروت
لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات
هاتف : 824203 1 00961 ، مقسم 19

الأردنّ في كتب الرحّالة والجغرافيين المسلمين حتّى عام 1881م

الجزء الثاني / شواهد مفصّلة وتضمينات

د . أحمد عويدي العبادي / الأردنّ

الطبعة العربيّة الأولى ، 2006

تصميم الغلاف : زهير أبو شايب 95297109 7 00962 ، الأردنّ

[illegible]

الصفّ الضوئي : إيمان زكريا حطّاب ، عمّان ، هاتف 079/5349156

ISBN: 9957-39-013-9 (ردمك)

تاريخ

د. أحمد عويدي العبّادي

دكتوراه في العلوم السياسيّة من جامعة كيمبردج البريطانيّة

E mail: oweidi2005@yahoo.com

الأردنّ

في كتب الرحّالة والجغرافيّين المسلمين حتّى عام 1881

شواهد مفصّلة وتضمينات

الجزء الثاني

الأهلية

المحتويات

(الجزء الثاني)

شواهد مفصلة وتضمينات

-1-

الأردن

(ابن خرداذبة / صفحات متفرقة أدناه)

أورد ابن خرداذبة في كتابه المسالك والممالك: كلمة الأردن في أكثر من موضع فورد ما جاء في كتابه عن كورة الأردن وما تتضمنه، قال ما يلي[1]:

« كورة طَبَريّة، كورة السامرَة، كورة بَيْسَان، كورة فحْل، كورة جَرَش، كورة بَيْتُ رَاسٍ». قال حسّان: «كأن سَبيةً من بيت رأس يكون مزاجَهَا عَسَلُ وماءٌ. كورة جَدَر، كورة آبل، كورة سُوسية، كورة صَفّورية، كورة عَكا، كورة قَدَس، كورة صور، وخراج الأردن ثلاثمائة ألف وخمسون ألف دينار» (ص 78).

ثم ورد ذكر الأردن في معرض حديثه عن سكك طريق المغرب. « ... ثم إلى دِمَشْق تسع سكك، ثم إلى دَيْر أيوب سبع سكك، ثم إلى الطَّبريّة وهي قصبة الأردن ست سكك، ثم إلى اللجون[2] أربع سكك » (ابن خرداذبة: ص 117).

---

(1) من البيت المقدس إلى البحيرة المُنتنة بلا شك أربعة أميال ويخرج من البحيرة المنتنة ملح، يصلح للصاغة وقَيْر يسمى الحُمَر وهو قفر اليهود، وخراج فلسطين 500 ألف دينار (ص78-79).
وذكر ابن خرداذبة (ق3هـ) أيضاً: أن الأردن يتكون من 12 كورة، ومن الملحوظ أنه أضاف السامرة (نابلس) إلى الأردن، رغم أنها من فلسطين، أما جَدَر فهي جدارا (أم قيس) شمال مدينة إربد، وأما آبل فهي عابل جنوب الطفيلة، وأما صفورية فهي شمال فلسطين الآن وكانت جزءاً من الأردن، وأما قدس فهي منطقة بحيرة الحولة التي تم تجفيفها أو بحيرة بانياس الآن من قِبَل الاحتلال الإسرائيلي، أما عكا وصور فهما من ثغور الأردن التي تم سلخها عه بعد نهاية العصر العباسي. وبذلك نجد أن الأردن في زمن ابن خرداذبة (ت 280 هـ) يشمل الأردن الحالي حتى البحر الأحمر (خليج العقبة) ويمتد حتى سواحل البحر المتوسط. ولعل ذلك من أوضح ما ذكره الجغرافيون والرحالة المسلمون بشمل متكامل في نص واحد.

(2) اسم اللجون يطلق على موقعين هما: اللجون في وادي الموجب مما يلي الكرك، واللجون في الذراع الشمالي للأردن الممتد نحو البحر المتوسط، وهو الآن جزء من فلسطين، وهو المشار إليه هنا في هذا النص، وهو قريب إلى طبريا وبيسان.

وفي بند من كتاب الخراج وصنعة الكتابة لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي والذي تضمنه كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ورد ذكر الأردن ضمن ما ذكره أبو الفرج من أسماء المواضع وعدد أميال وأطوال المسافات بين تلك المواضع.

« ... ومن كفر ليلى إلى طبرية خمسة عشر ميلاً وفي هذا الطريق جبّ يوسف ﷺ وإن أخذ الطريق إلى جبال الأردن من دمشق فالطريق المستقيم من دمشق إلى الكسوة إثنا عشر ميلاً » (ابن جعفر: 219)[1].

« ... ثم أعمال جند الأردن من الشام وارتفاعها مائة ألف وتسعة آلاف دينار ثم أعمال جند فلسطين من الشام ومدينة الرملة وبيت المقدس وارتفاعها من العين مائة ألف وخمسة وتسعون ألف دينار » (ابن جعفر: ص 247).

---

(1) يذكر ابن خرداذبة في القرن الثالث الهجري بلاد الأردن بكل وضوح، ويستخدم كلمة إجبال الأردن ليدل على السلسلة الشرقية لوادي الأردن المسماة الآن (القرن العشرين والحادي والعشرين): جبال الأرض أيضاً، أي أن التسمية كانت ناضجة وواضحة جغرافياً لدى العرب والمسلمين والمؤرخين والرحالة، بهذا الاسم والموقع والتحديد منذ أكثر من اثني عشر قرناً. وتشتمل جبال الأردن تلك الممتدة في حوران (جنوب الكسوة ثم شمال ووسط وجنوب الأردن حتى جنوب إيلة، بما فيها من المنحدرات المطلة على الغور، وتلك التي تذوب في البادية، وهذا أكبر دليل وبرهان على وضوح ووجود الهوية الجغرافية الأردنية آنذاك، وأن جلمة: أخذ الطريق إلى جبال الأردن، يبيّن أن الطريق السلطاني/ أو طريق الملوك الذي أشارت له التوراة حوالي ألفي عام من زمن ابن خرداذبة، وخمسة وثلاثين قرناً من وقتنا الحاضر، أقول هذه الطريق بقيت معروفة ومطروقة بالأردن عبر عشرات القرون والأجيال. وأصبحت في العصر الحديث تسمى الطريق الصحراوي التي تنطلق من معان باتجاه شرق عمان فالزرقاء فالبادية الأردنية، وتلك التي تسمى طريق البرية التي عبرت الحسا والموجب وذيبان وعمان وجرش واربد أو الرمثا ثم إلى الكسوف فدمشق.

وفي الباب السابع من كتاب الخراج وصنعة الكتابة السالف ذكره وردت كلمة الأردن من بين ثغور الإسلام التي ذكرها أبو الفرج في كتابه: « ... وسواحل جند الأردن صور وعكا وبصور صناعة المراكب » (ابن جعفر: ص 255).

وقد ورد لفظ الأردن أيضاً في بند من كتاب الخراج وصنعة الكتابة لأبي الفرج في وصفه للطريق الآخذ إلى أكناف نواحي المغرب ويبدأها من بغداد فيقول: «... ومن دمشق إلى دير أيوب آخر عملها سبع سكك، ومن دير أيوب إلى طبريّة ست سكك، ومن طبريّة قصبة الأردن إلى اللجون من عمل الأردن أربع سكك، ومن اللجون إلى الرملة قصبة فلسطين تسع سكك» (ابن جعفر: ص 228).

وورد في مكان آخر حول خراج بلاد الأردن، فقال: « جند الأردن مائة ألف وتسعة آلاف دينار » (ابن جعفر: ص 251).

-2-
أَمْرُ الأُرْدُنّ
(البلاذري (ق 3 هـ) : **159-161**)

قال: « حدّثني حفص بن عمر العُمَري، عن الهيثم بن عَدِيّ، قال: افتتح شُرَحْبيل بن حَسَنَة الأردنَّ عنوة ما خلا طَبَريَّة، فإنَّ أهلها صالحوه على أنصاف منازلهم وكنائسهم.

وحدّثني أبو حفص الدِّمَشْقي عن سعيد بن عبدالعزيز التَّنُوخي عن عدة منهم أبو بشر مؤذّن مسجد دمشق أن المسلمين لما قدموا الشام كان كلُّ أمير منهم يقصد لناحية ليغزوها ويبثّ غاراته فيها فكان عمرو بن العاصي[1] يقصد

(1) من خلال إرسال الجيوش العربية الإسلامية من قِبَل خليفة رسول الله ﷺ سيدنا أبو بكر الصديق، نجد أن هناك وضوح كامل لعرب مكة المكرمة عن الكيانات الجغرافية وبلدانية بلاد =

لفلسطين، وكان شُرَحْبيل يقصد للأردن، وكان يزيد بن أبي سفيان يقصد لأرض دمشق[1]، وكانوا إذا اجتمع لهم العدو اجتمعوا عليه، وإذا احتاج أحدهم إلى معاضدة صاحبه وإنجاده سارع إلى ذلك، وكان أميرهم عند الاجتماع في حربهم أوّل أيام أبي بكر ﷺ عمرو بن العاصي حتى قدم خالد بن الوليد الشام فكان أمير المسلمين في كل حرب، ثم ولي أبو عبيدة بن الجرّاح أمر الشام كلّه وأمّره الأمراءُ في الحرب والسلم من قبل عمر بن الخطاب ﷺ وذلك أنه لما استخلف كتب إلى خالد بعزله وولّى أبا عبيدة[2]. ففتح شُرَحْبيل بن حَسَنَة

= الشام، مما استوجب إرسال جيش إلى كلّ واحدة من هذه ، وكان عمرو بن العاص على رأس الجيش الذاهب إلى فلسطين، ثم تجاوزها إلى مصر، لأنه كان يعرف مصر وأهميتها عندما كان تاجراً معها في الجاهلية، وكان يتطلع ويتمنى يوماً يأتي ليحكم فيه ذلك البلد العظيم، فوجدها فرصة أن قام بالتحرك نحوها بدون علم قائده الأعلى وبدون موافقته وهو سيدنا عمر بن الخطاب الذي جاء بعد أبي بكر مباشرة رضي الله عنهم جميعاً. أما شرحبيل فكان على رأس الجيش المتجه نحو الأردن، وقد مات بالطاعون ودُفن في الغور الشمالي الأردني شرقي النهر ولا زال ضريحه إلى الآن (معروفاً).

(1) يزيد بن أبي سفيان من بني أمية من قريش كان على رأس الجيش المتجه لفتح دمشق، ذلك أن يزيد كان على معرفة ودراية بدمشق والأردن وبلاد الشام وطريق التجارة إليهما بسبب تجارة بني أمية معها، وحيث كان لهم دور وبيوت وأطيان وعلاقات وصداقات، وبالتالي فقد توجه إلى البلد التي يعرفها ويعرف أهلها جيّداً من قبل. كما يدل هذا على أن إرسال القادة لم يكن اعتباطياً بل انطوى على حكمة. فمن عرف أرضاً أو رغبها، أو عرف عنها، قادَ الجيش إليها لفتحها. ومن ذلك من قبل أن سيدنا محمد ﷺ أرسل زيد بن حارثة الكلبي الأرني على رأس جيش مؤتة في بلاد الأردن، وكأنه يعطي رسالة للجميع بضرورة تحرير أوطانهم من الكفر والاحتلال، فضلاً عن تحرير الناس من الشرك والعبودية للبشر، وإرسال عمرو بن العاص إلى فلسطين وتحركه بعدها إلى مصر حيث كان يتاجر مع الأخيرة في الجاهلية..

(2) هكذا سيطر هؤلاء العمالقة على العالم، فهم في الحرب يعرفون من يتقدم على الآخر، بعيداً عن المال والجاه، والأقدمية في الإسلام، لأنهم في معركة، ويجب أن يقودهم من يُحْسن قيادة القتال وتحقيق النصر والحفاظ على المسلمين، وإنجاز الفتح العظيم. ومن خلال هذا النص نجد أن ترتيب هؤلاء العمالقة من الصحابة الكرام كانوا عسكرياً وقيادياً (ولا أقول إيمانياً) على =

طبريّة صلاحاً بعد حصار أيام على أن أمن أهلها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم إلا ما جلوا عنه وخلّوه، واستثنى لمسجد المسلمين موضعاً[1].

ثم أنهم نقضوا في خلافة عمر، واجتمع إليهم قوم من الروم وغيرهم، فأمر أبو عبيدة عمرو بن العاصي بغزوهم فسار إليهم في أربعة آلف ففتحها على مثل صلح شُرَحْيل، ويقال بل فتحها شرحبيل ثانية، وفتح شرحبيل جميع مدن الأردنّ وحصونها على هذا الصلح فتحاً يسيراً بغير قتال ففتح بَيْسان، وفتح سُوسيَة وفتح أفيق، وجُرَش، وبيت راس، وقَدَس، والجَوْلان، وغلب على سواد الأردنّ وجميع أرضها. قال أبو حفص: قال أبو محمد سعيد بن عبدالعزيز ويلغني أنّ الوَضين بن عَطاء، قال: فتح شرحبيل عكا وصور وصَفُورية[2]، وقال

= النحو التالي: خالد بن الوليد، ثم عمرو بن العاص، وكان كل واحد منهم يتقدم الآخرين إذا اجتمعوا أما إذا انفردوا، فيبقى شرحبيل بن حسنة قائد جند الأردن، ويزيد بن أبي سفيان قائد جند دمشق وعمرو بن العاص قائد جند فلسطين، يقودهم جميعاً خالد إذا اجتمعوا. وعندما آلت الخلافة إلى سيدنا عمر بن الخطاب أعطى إمرة الأمراء في الحرب لأمين الأمة، واحد المبشّرين بالجنة، بعد أن تحققت الفتوحات اللازمة، كلهم عمالقة وكلهم كرام رضي الله عنهم جميعاً.

(1) نلاحظ سماحة الإسلام، عندما ترك الكنائس على حالها، بل وأخذ الناس أماناً على أنفسهم، وأموالهم، وأولادهم، وأعراضهم، وكنائسهم ومنازلهم، إلا تلك التي جَلَوا عنها وخلّوها، ذلك أن الجيش الإسلامي لم يكن جيش التطهير العرقي ولم يكن يطرد الناس، بل كان يعاقب من يتخلّى عن بيته وأرضه أن تُصادَر لبيت مال المسلمين، وتصبح نفعاً عاماً للجميع، وهذا مغاير تماماً لجميع الجيوش عبر التاريخ قبل وبعد الجيش الإسلامي. وهذا سرّ من أسرار نجاحهم ولجاتهم، وأن الإسلام يسمح لكل صاحب دين أن يبقى على دينه وأماكن عبادته دونما أذى.

(2) هذه العبارة تبين مناطق شمال الأردن التي أصبحت الآن جزءاً من ثلاث دول هي: لبنان وسوريا وفلسطين المحتلة. وان الدفعة الأولى من الفتح كانت عمان البلقاء وجبال الطفيلة. والشراة ومؤاب، ثم كانت المرحلة الثانية المذكورة هنا في هذه العبارة، ثم كانت المرحلة الثالثة وهي عكا وصور وطبريا واللجون الشمالي. وبذلك نجد الأردن في زمن الفتح الإسلامي أربع =

أبو بشْر المؤذن أن أبا عبيدة وجّه عمرو بن العاص إلى سواحل الأردنّ فكثر به الروم، وجاءهم المدد من ناحية هِرَقْل وهو بالقسطنطينية، فكتب إلى أبي عبيدة يستمدّه، فوجّه أبو عبيدة يزيد وعمرو سواحل الأردن، فكتب أبو عبيدة بفتحها لهما وكان لمعاوية في ذلك بلاءٌ حسن وأثر جميل[1].

وحدّثني أبو اليسع الإنطاكي عن أبيه عن مشايخ أهل إنطاكية والأردن قالوا نقل معاوية قوماً من فُرْس بَعَلَبَكّ وحِمْص وإنطاكية إلى سواحل الأردن صور وعكا وغيرها سنة 42، ونقل من أساوِرَة البصرة والكوفة وفُرْس بَعَلَبَكّ وحِمْص إلى إنطاكية في هذه السنة أو قبلها أو بعدها، بسنة جماعة فكان من قُوّاد الفرس مُسْلِم بن عبدالله جدّ عبدالله بن حبيب بن النعمان بن مُسْلِم الإنطاكي.

وحدّثني محمد بن سعد عن الواقدي، وأخبرني هشام بن الليث الصُّوري عن مشايخ من أهل الشام قالوا رَمَّ معاوية عكا عند ركوبه منها إلى قُبْرُس ورَمَّ صور، ثم إن عبدالملك بن مروان جدّدهما وقد كانتا خُرِبتا[2].

= مناطق: الجنوب حتى وادي الموجب، ثم الوسط من وادي الموجب حتى نهر الزرقاء، ثم الشمال من نهر الزرقاء حتى شمال الجولان ويضم جبل الشيخ وحوران وباديتها الجولان، ثم الرابع وهو لساحل البحر الأبيض المتوسط والسهول والسلاسل الجبلية الممتدة من العمق الأردني.

(1) هنا نجد الإنجازات التي حققها سيدنا أبو عبيدة ﷺ بعد أن أصبح أمير الأمراء والقائد العام لجيش الفتح في الشام، حيث كان يهمه ثغور الأردن، ووجه عمرو بن العاص (المتخصص أصلاً لفتح فلسطين)؛ فقد تجمع الروم في ساحل الأردن لأنهم يعرفون أن ضيعها منهم يعني ضياع بلاد الشام كلها، وهو سرّ استودعه الله بلاد الأردن، ويبدو أن سيدنا أبو عبيدة يعرف ذلك السرّ، ويعرف أن عمرو بن العاص من الدهاء بحيث يستطيع القتال والتحايل معاً على الروم، ولكن أعدادهم كانت كبيرة، فطلب المدد، فوجّه إليه أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان قائد جند دمشق، فهزموا هرقل وجنده من ساحل الأردن كما هزموه في اليرموك وبذلك نجد أن النهاية الحقيقية للروم كانت على الأرض الأردنية في مؤتة وطبقة فحل واليرموك والساحل الأردني، فسبحان الله رب العرش العظيم.

(2) وتدخل الأردن مرة أخرى في تاريخ الأمة الإسلامية، حيث انطلق منها أول جيش إسلامي بحري زمن معاوية بن أبي سفيان الذي أمر بترميم مينائي صور وعكا، وبنى فيهما القوة =

وحدّثني هشام بن الليث قال: حدثني أشياخنا قالوا: نزلنا صور والسواحل وبها جند من العرب، وخلق من الروم، ثم نزل إلينا أهل بلدان شتى فنزلوها معنا، وكذلك جميع سواحل الشام، وحدثني محمد بن سَهْم الإنطاكي عن مشايخ أدركهم، قالوا: لما كانت سنة 49 خرجت الروم إلى السواحل وكانت الصناعة بمصر فقط، فأمر معاوية بن أبي سفيان بجمع الصنّاع والنجّارين فجُمعوا ورتّبهم في السواحل، وكانت الصناعة في الأردن بعكا، قال فذكر أبو الخطاب الأزْدي أنه كانت لرجل من ولد أبي مُعَيْط بعكا أرجاء ومستغلات فأراده هشام بن عبدالملك على أن يبيعه إيّاها فأبى المُعَيْطي ذلك عليه، فنقل هشام الصناعة إلى صور، واتخذ بصور فندقاً ومستغلاً. وقال الواقدي لم تزل المراكب بعكا حتى ولي بنو مروان فنقلوها إلى صور فهي بصور إلى اليوم، وأمر أمير المؤمنين المتوكل على الله في سنة 248 بترتيب المراكب بعكا، وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة»[1] (البلاذري: ص 159-161).

-3-

كور الشام

كُوَرُ الشام حَلَب وقِنَّسرين وإنطاكية وشَيْزَر وحماة وحمص وفاميّة وبعلبكَ ودمشق والطبريّة والرملة وإيليا، ومن الشام كور تسمى الثغور الشامية وهي

= البحرية الإسلامية في خلافة سيدنا عثمان بن عفان ﷺ . وأن معاوية جمع الصنّاع والمهرة من بلاد الشام والعراق، والمهرة من الروم والعرب، واستخدمهم في إعمار الميناءين وبناء السفن ونافس بذلك موانئ مصر وتفوق عليها.

(1) نجد أن موانئ الساحل الأردني بقيت هي الأهم للصناعة حيث كانت عكا حتى زمن عبدالملك ابن مروان الذي نقل الاهتمام إلى ميناء صور، وكلاهما كانا جزءاً من الأردن، حيث كانت هذه ثغور مشحونة بالمقاتلين. وهذا دليل واضح على أن خلفاء بني أمية أدركوا السرّ الهام، وهو أن من يسيطر على الأردن يسيطر على بلاد الشام، ومن يفقدها يفقد بلاد الشام التي كانت حاضرة الخلافة الأموية وأهم المواقع بالنسبة لهم. وكذلك الأمر زمن العباسيين، عندما أمر المتوكل بترتيب المراكب في عكا، وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة. وبذلك نجد العباسيين يحذون حذو الأمويين في جعل موانئ الأردن هي الأساس ومركز القوة البحرية والثغور المائية.

أذَنَة والمَصِّيصة وطرسُوس، وعين زَرْبَة والهارونيّة والكنيسة السوداء والعواصم وإنطاكية وتيزين وقُورُس ومَنْبِج ودُلُوك ورَعْبان، وكان أيام عمر بن الخطاب ﷺ يرد عليه وفود اليمن وغيرهم من العرب فإذا اجتمعوا أمّر عليهم والياً وأمضاهم إلى ناحية الشام فجنّد عمر الشام أربعة أجناد متفرّقة في أيدي عُمّاله وهم أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن أبي العاص فبقيت الشام على ذلك التجنيد حتى زاد فيها يزيد بن معاوية قنّسرين وكانت من أرض الجزيرة فصارت أجناد الشام أربعة جند فلسطين وهي الرملة وجند الأردن وهي الطبرية وجند دمشق وجند قنّسرين. (ابن رستة: ص 107) [1].

« وكور الشام إنما هي جند فلسطين وجند الأردن وجند حِمْص وجند دمشق وجند قِنّسْرين والعواصم والثغور » (الاصطخري ص 43).

وأما جند فلسطين – وهو أول أجناد الشام مما يلي الشام – فإنه تكون مسافته للراكب طول يومين من رفح إلى حدّ اللجون[2]، وعرضه من يافا إلى ريحا يومان، وأما زُغَر ديار قوم لوط والجبال والشراة فمضمومة إليها، وهي منها في العمل إلى أيلة، وديار قوم لوط والبحيرة الميتة وزُغَر إلى بيسان وطبرية تسمى الغور لأنها بين جبلين، وسائر بلاد الشام مرتفع عليها، وبعضها من الأردن وبعضها من فلسطين في العمل[3]، وأما نفس فلسطين فهو ما ذكرته،

---

(1) ويبدو أنه يقصد خمسة أجناد، لأن حمص كانت جنداً، ولم يذكرها هنا. ونجد أن الاصطخري يذكرها على أنها خمسة هي: جند الأردن، جند فلسطين، جند دمشق، جند حمص، جند قنّسْرين.

(2) إن القول بأن طول فلسطين من رفح جنوباً إلى اللجون شمالاً هو مسير يومين كلام لا يتفق مع الحقيقة، واعتقد أنه بحاجة لأكثر من خمسة أيام.

(3) نجد دقّة الاصطخري هنا في التفريق بين أن تكون الأرض جزءاً من الأردن جغرافياً وإدارياً، وبين أن تكون منها جغرافياً وهي من فلسطين إدارياً بقوله: «وهي منها بالعمل»، أي ليست منها بالجغرافيا والسياسة والاجتماع، وإنما بالإدارة التي تتغير بتبدل الأحوال والأزمان والسلطات. وقد شرحنا ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب.

وفلسطين ماؤها من الأمطار، وأشجارها وزروعها أعذاء إلا نابُلس، فإن بها مياهاً جارية، وفلسطين أزكى بلدان الشام، ومدينتها العظيمة الرملة، وبيت المقدس يليها في الكبر، وبيت المقدس مدينة مرتفعة على جبال يصعد إليها من كل مكان قصد من فلسطين، وبها مسجد ليس في الإسلام. (الاصطخري: ص 43).

-4-

جنـــد الأردن

قال اليعقوبي في القرن الثالث الهجري: « ومن مدينة دمشق إلى جند الأردن أربع مراحل[1] أوّلها جاسم من عمل دمشق وخِسْفين من عمل دمشق وفيق ذات العُقَبَة المذكورة ومنها مدينة طبريّة وهي مدينة بالأردن وهي في سفل جبل على بُحيرة جليلة يخرج منها نهر الأردن المشهور وفي مدينة طبرية مياه تنبع حارة تفور في الصيف والشتاء ولا تنقطع فتدخل المياه الحارة إلى حمّاماتهم ولا يحتاجون لها إلى وقود وأهل مدينة طبرية قوم من الأشعريين هم الغالبون عليها ولجند الأردن من الكورة صور وهي مدينة السواحل وبها دار الصناعة ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم وهي حصينة جليلة وأهلها أخلاط من الناس[2] ومدينة عكا وهي من السواحل وقَدَس وهي من أجل كوره، وبيسان، وفَحْل، وجَرَش، والسَّواد، وأهل هذه الكور أخلاط من العرب والعجم افتُتحت كور الأردن في خلافة عمر بن الخطاب افتتحها أبو عبيدة بن الجراح

---

(1) المقصود بـ «جند الأردن» هنا: أي طبريا لأنها كانت عاصمة جند الأردن آنذاك.

(2) نلاحظ هنا: أن صور كانت هي المنطقة الصناعية للدولة بكل ما تعنيه الكلمة والمهنة في ذلك الزمن ونجد هنا عبارة هامة، وهي أن المراكب التي كانت تغزو الروم تخرج من الأردن وتحديداً من صور «ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم» . ونجد أن سكان صور لم يكونوا جميعاً من العرب، بل هم أخلاط من الناس، لأنها منطقة ساحلية يأتيها الناس والأجناس من البر والبحر معاً.

خلا مدينة طبرية فإن أهلها صالحوه وغيرها من كور جند الأردن افتتحها خالد بن الوليد وعمرو بن العاص من قبل أبي عبيدة بن الجراح سنة أربع عشرة وخراج جند الأردن يبلغ سوى الضياع مائة ألف دينار (اليعقوبي: ص 338)[1].

-5-

طبرية عاصمة الأردن

وأما الأردن فإن مدينتها الكبرى طبرية، وهي على بحيرة عذبة الماء طولها إثنا عشر ميلاً في عرض فرسخين أو ثلاثة، وبها عيون جارية حارة، مستنبطها على نحو فرسخين من المدينة، فإذا انتهى الماء إلى المدينة على ما دخله من الفتور بطول السير إذا طُرحت فيه الجلود امعطت، ولا يمكن استعماله إلا بالمزاج، ويعمّ ذلك الماء حماماتهم ومياضئ لهم، والغور أوله هذه البحيرة، ثم يمتد على بيسان حتى ينتهي إلى زُغَر وريحا إلى البحيرة الميّتة، والغور ما بين جبلين غائر في الأرض جداً، وبه عيون وأنهار ونخيل، ولا تستقر به الثلوج، وبعض الغور من حدّ الأردن إلى أن تجاوز بيسان، فإذا جاوزته كان من حدّ فلسطين، وهذا البطن إذا امتد فيه السائر أداه إلى أيلة؛ وصور بلد من أحصى الحصون التي على شط البحر، عامرة خصبة، ويقال إنه أقدم بلد بالساحل، وإن عامة حكماء اليونان منها، وبالأردن كان مسكن يعقوب النبي ﷺ ، وجبّ يوسف ﷺ على اثني عشر ميلاً من طبرية، على ما يلي دمشق ومياه طبرية من البحيرة (الاصطخري: ص 44-45).

---

(1) ما ذكره اليعقوبي (ت 292 هـ) هنا في منتهى الأهمية أن بلاد الأردن لم يفتحها قائد واحد أو جيش واحد، وأنه رغم ما جرى من تخصيص شرحبيل بن حسنة لفتحها، لكننا نجد هنا أن قادة الجيوش الأربعة اشترك كل منهم بجزء من أجزاء الأردن، لأنها مفتاح بلاد الشام كلها، ومفتاح شمال جزيرة العرب. وتحتاج هذه الفقرة التي ذكرها اليعقوبي لدراسة عميقة جداً.

« وأما الأردن، فإن قصبتها طبرية، فمنها إلى صور يوم ومنها إلى عقبة فيقا (فيق) يوم، ومنها إلى بيسان يومان خفيفان، ومنها إلى عكا يوم، والأردن أصغر أجناد الشام مسافة » (الاصطخري: ص 49).

« وأما الأردن فإن مدينتها الكبرى طبرية وهي على بحيرة عذبة الماء طولها اثنا عشر ميلاً، في عرض فرسخين أو ثلاثة وبها عيون جارية حارة مستنبطها على نحو فرسخين من المدينة فإذا انتهى الماء إلى المدينة على ما دخله من الفتور بطول السير إذا طُرحت فيه الجلود امعطت ولا يمكن استعماله إلا بالمزاج ويعمّ ذلك الماء حماماتهم ومياضئ لهم والغور أوّله هذه البحيرة ثم يمتد على بيسان حتى ينتهي إلى زُغَر وربما إلى البحيرة المنتنة (الاصطخري: ص 58).

-6-

الغَـوْر

والغَوْر ما بين جبلين غائر في الأرض جدّاً وبه عيون وأنهار ونخيل ولا تستقر به الثلوج وبعض الغور من حدّ الأردن إلى أن تجاوز بيسان فإذا جاوزتَهُ كان من حدّ فلسطين، وهذا البطن إذا امتدّ فيه السائر أدّاه إلى أيلة وصور بلد من أحصن الحصون التي على شط البحر عامرة خصبة ويقال إنه أقدم بلد بالساحل وأن عامة حكماء اليونان منها وبالأردن كان مسكن يعقوب النبي ﷺ، وجبّ يوسف على اثني عشر ميلاً من طبرية على ما يلي دمشق، ومياه طبرية من البحيرة (الاصطخري (ت 346هـ): ص 59)[1].

---

(1) من هذا النص الذي ذكره الاصطخري في القرنالرابع الهجري نجد ما يلي:
أ- أن صور بلد أردني في ذلك القرن، وأنه من أحصن حصون الثغور الإسلامية العربية الساحلية، وأنها عامرة بالسكان مزدهرة بالاقتصاد، محاطة بأراضٍ خصبة، تتوفر فيها المنتجات وذلك دلالة على الأمطار الكثيرة الوفيرة. =

-7-

جنـد الأردن

« والأردن أصغر أجناد الشام وأقصرها مسافة » (الاصطخري: ص 7)

وجند الأردن وجند حِمْص وجند دمشق وجند قِنَّسْرين والعواصم والثغور، وبين ثغور الشام وثغور الجزيرة جبل اللُكام وهو الفاصل بين الثغرين وجبل اللكام هو جبل داخل في بلد الروم ويقال أنه ينتهي في بلد الروم إلى نحو من مائتي فرسخ ويظهر في بلد الإسلام من مَرْعَش والهاروبية وعين زربة فيسمى اللكام إلى أن يجاوز اللاذقية ثم يسمى جبل بَهْراءَ وتنوخ إلى حِمْص ثم يسمى جبل لُبْنَان ثم يمتدّ على الشام حتى ينتهي إلى بحر القلزم.

جند فلسطين

وأما جند فلسطين وهو أول أجناد الشام مما يلي المغرب فإنه تكون مسافته للراكب طول يومين من رفح إلى حدّ اللجون وعرضه من يافا إلى ريحا يومين، وأما زُغَر وديار قوم لوط والجبال والشراة فمضمومة إليها وهي منها في العمل إلى أيلة، وديار قوم لوط والبحيرة المُنْتِنة زُغَر إلى بَيْسَان وطبريّة تسمى الغَوْر لأنها بين جبلين وسائر بلاد الشام مرتفع عليها وبعضها من الأردن وبعضها من فلسطين في العمل (الاصطخري: ص 56).

-8-

المسـافـات

فأما المسافات بالشام فإن طولها من حد ملطية إلى رفح والطريق من ملطية على منبج وبينهما أربعة أيام ومن منبج إلى حلب يومان ومن حلب إلى حمص

= ب- من الشائع أن مسكن سيدنا يعقوب في جنوب فلسطين، ولكن الاصطخري يرى أن الأردن هي مسكن النبي يعقوب ﷺ ، وكذلك الجب الذي أُلقي فيه سيدنا يوسف ﷺ وهذه رواية تتعارض مع المتعارف عليه.

خمسة أيام ومن حمص إلى دمشق خمسة أيام ومن دمشق إلى طبرية أربعة أيام ومن طبرية إلى الرملة ثلاثة أيام ومن الرملة إلى رفح يومان فالجميع خمسة وعشرون يوماً، وعرضها في بعض المواضع أكثر من بعض وذلك أن أعرضها طرفاها وأحد طرفيها من الفرات من جسر منبج على منبج ثم على قورس في حدّ قنسرين ثم على العواصم في حد إنطاكية ثم يقطع جبل اللكام إلى بياس ثم إلى التينات (ابن حوقل: ص 185).

« ومن ريحا إلى زغر مرحلتان ومن زغر إلى جبال الشراة مرحلة ومن جبال الشارةإلى آخر جبال الشراة مرحلة[1] ، وقصبة الأردن طبرية ومنها إلى صور يوم ومنها إلى عقبة فيق مرحلة ومنها إلى بيسان مرحلتان خفيفتان ومنها إلى عكا يوم، والأردن أصغر أجناد الشام وأقصرها مسافة، ولم تزل في يد أبي منصور أحمد بن العباس محلولة ومعقودة سنين كثيرة بمائتي ألف دينار » (ابن حوقول، صورة الأرض: ص 186-187).

-9-

الشـام

يقول ابن حوقل (ت 367 هـ) في كتابه: صورة الأرض: « وأما الشام فإن غربيّها بحر الروم وشرقيّها البادية من أيْلَة[2] إلى الفرات ثم الفرات إلى حدّ الروم وشماليّها بلاد الروم وجنوبيّها مِصْر وتيه بن إسرائيل وآخر حدودها مما يلي مصر رفح ومما يلي الروم الثغور المعروفة كانت قديماً بثغور الجزيرة وهي ملطية والحَدَث ومرعش والهارونيّة والكنيسة وعين زربة والمصّيصة وآذنه وطرسوس –

---

(1) جبل الشارة هنا: هو جبل الطفيلة المسمى جبّال.

(2) وهذا برهان جديد أن العقبة من بلاد الشام، أي أنها من الأردن وليست من مصر أو الحجاز أو فلسطين.

هذا في زمانه وأما في زماننا هذا فإن شماليّها إلى طرف بحر طرابزون والخزر بيد المسلمين قد افتُتح الكثير منها في تاريخ ثمانين وخمس مائة والحمد لله ربّ العالمين – والذي يلي المشرقيّ والمغربيّ فالنواحي التي قدّمت ذكرها في تصوير الشام وفي إعادتها تطويل.

إيضاح ما يوجد في صور الشام من الأسماء والنصوص

« قد كُتب في النصف الأيمن من الصورة موازياً لساحل بحر الروم الساحل وعليه من المدن ابتداءً من الأعلى الفرما، ميماس، تيدا، عسقلان، الماحوز، يافا، قيسارية، عكا، اسكندرية، صور، عذنون، صرفند، صيدا، الجية، الناعمة، بيروت، جونية، الماحوز، جبيل، بشرون، انفة، القلمون، طرابلس، انطرطوس، مراقية، بلنياس، جبلة، اللاذقية، فاسرة، السويدية، الصخرة، الإسكندرية، بياس، وفي أسفل الصورة ينصبّ في البحر ثلاثة أنهار عليها من المدن كفر بيا، المصيصو، عين زربة، أذنة، طرسوس، ورُسمت في البحر ثلاث مدن وهي الكنيسة، أرسوف، نسدين، وكتب في البر عن يسار قيسارية وعكا وبينهما حيفة والقصور المضافة إلى حيفة، وتوازي الساحل سلسلة جبلية وكتب في أعلى الساحة التي بينها والبحر نواحي مصر ومغرب الشام وبلد فلسطين وفي هذا القسم مدينتا الرملة وكفر سابا، ثم يليهما إلى الأسفل اتصالاً للجبل بانياس، أقذار، عرقة، حصن، برزوية، بغواس، الهارونية، الكنيسة، وبين حصن برزوية والصخرة نهر وكُتب في أسفل هذا القسم شمال الشام.

وكُتب في الجانب الأيسر من الجبل عند أعلاه جبل طور سينا وعن يسار ذلك تيه بن إسرائيل، وعن يسار ذلك مدينة القلزم وبحر القلزم ومن أسفل ذلك جنوب الشام، وكُتب من طرفي هذا القسم الأعلى من الجبل آخر مخطوط فلسطين وفيه مدينتا بيت إبراهيم وبيت المقدس ومن أسفلهما نابلس، ثم بحيرة

طبرية ونهر الأردن الذي يفضي إلى بحيرة زغر وعليها مدينة زغر، وكُتب عند الجبل فيما يسامت بانياس جبل لبنان وتقابله في البرّ مدينة دمشق وبين دمشق وزغر من المدن البلقاء، رقيم، رواث.

وكُتب عند القسم الأوسط من الجبل جبل بهرا وهنا مدينة حمص وبين حمص ودمشق طريق عليه من المدن جوسية، اللبوة، بعلبك الزبداني، ومن أسفل حمص مدينة فامية، ثم كُتب عند القسم التالي من الجبل جبل السُماق وقرب ذلك مدينة إنطاكية ويأخذ منها طريق إلى حلب ثم إلى بالس على نهر الفرات، وعلى الطريق من حلب إلى حمص من المدن قنسرين، كفر طاب، شيزر، حماه، وبين شيزر وإنطاكية مدينتا معرة النعمان ومعرة مصرين، وكُتب على خط مستطيل من بالس إلى القلزم حدّ الشام وعليه من المدن الرصافة، الخناصرة، تدمر، سلمية، معان، وتحت الخط هذه صورة الشام وذلك عنوان الصورة وعن يسار ذلك نواحي ديار العرب والبادية.

وعلى نهر الفرات من جانبه الأيسر الرافقة، الرقة، الجسر، جربلص وكُتب وراء ذلك مشرق الشام، وبين حلب وجربلص مدينة منبج ثم على ضفة الفرات من هذا الجانب سميساط ملطية وعن يمينهما، شمشاط، ويأخذ من شمشاط طريق إلى الجبل وعليه (ابن حوقل ص 166).

-10-

جنـد الأردن[1]

ويواصل ابن حوقل (ت367هـ) كلامه عن الأردن في كتابه: صورة الأرض:

---

(1) ما ذكره ابن حوقل هنا في غاية الأهمية، حيث أنه يجعل كورة الشراة التي تمتد حتى مياه العقبة، وجبال التي تغطي بقية مناطق جنوب الأردن، أقول يجعلها، أو يذكرها كجزء من جند الأردن، وذلك ما يطرد الشك باليقين حول التشكيك بأردنية منطقة العقبة، ويحسم الجدل حول ذلك منذ القرن الرابع الهجري.

7- والجبال والشراة فناحيتان متميزتان أما الشراة فمدينتها اذرح والجبال مدينتها رواث وهما بلدان في غاية الخصب والسعة وعامة سكانهما العرب متغلّبون عليها[1].

8- وأما الأردن فمدينتها الكبرى طبرية وهي على بحيرة عذبة الماء طولها اثنا عشر فرسخاً في عرض فرسخين أو ثلاثة وبها عيون جارية حارة ومُستنبَطُها على نحو فرسخين من المدينة فإذا انتهى الماء إلى المدينة على ما دخله من الفتور بطول السَيْر إذا طُرحت فيه الجلود تمعّطت لشدة حرّه ولا يمكن استعماله إلا بمزاجٍ ويعمّ هذا الماء حماماتهم وحياضهم، والغور مع أول هذه البحيرة ثم يمتد على بيسان حتى ينتهي إلى زغر ويرد البحيرة الميتة والغور ما بين جبلين غائر في الأرض جداً وبه فاكهة وأبٌّ ونخيل وعيون وأنهار ولا يسقط به الثلوج وبعض الغور من حد الأردن إلى أنه يجاوز بيسان فإذا جاوزه كان من حدّ فلسطين وهذا البطن إذا امتدّ فيه السائر أدّاه إلى أيلة، وكأن الغور من بين البلاد لحُسنه وتبدُّد نخيله وطيبه ناحية من نواحي العراق الحسنة الجليلة[2]، ومدينة صور من الحصن الحصون التي على شط البحر عامرة خصبة ويقال إنه أقدم بلد بالساحل وإن حكماء اليونانية منها، وبالأردن كان مسكن يعقوب النبي ﷺ وجبّ يوسف

---

(1) كان في أذرح سيل ماء غزير، أذكر باباه عام 1968 عندما كنت ضابطاً برتبة ملازم ثاني في معان، وقد جفّ الآن بسبب زحف التصحّر، وشُحّ الأمطار واستنزاف الماء الجوفي بحفر المزيد من الآبار الارتوازية للشرب ومزارع التفاح في المنطقة ويبدو من نص ابن حوقل أن ماءها كان وفيراً، وزرعها كان كثيراً، وتعج بالسكان، أما رواث فهي بقايا قرية تغطيها التربة الآن (نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين الميلادي)، وهناك بنايات متفرقة لأصحاب الأرض فيها، وقد سبق وتحدثت عنها في هذا الكتاب.

(2) إشارة إلى مزارع النخيل بالغور، ونتمنى أن تعود الآن كما كانت. فقد تحول الغور إلى ملجأ لأنواع البعوض، وموئلاً لارتفاع الحرارة رغم توفر المكيّفات. لقد تغيرت الدنيا، فسبحان الله ربّ العرش العظيم.

على اثني عشر ميلاً من طبرية مما يلي دمشق وجميع مياه طبرية فمن بحيرتها »[1] (ابن حوقل ص 173-174).

-11-

جمل شؤون هذا الإقليم[2]

أي إقليم الشام ومن ضمنه جند الأردن

(المقدسي (ت 380 هـ) في كتابه: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ص 179-189)

« هو إقليم متوسط الهواء إلا وسطه من الشراة إلى الحُولة فإنه بلدة الحرّ والنيل والموز والنخيل[3] وقال لي يوماً غسّان الحكيم ونحن بأريحاءَ ترى هذا الوادي قلتُ بلى قال هو يمدُّ إلى الحجاز ثم يخرج إلى اليمامة ثم إلى عمان وهجر ثم إلى البصرة ثم إلى بغداد ثم يصعد إلى ميسرة الموصل إلى الرقّة وهو وادي الحرّ والنخيل، وأشدّ هذا الإقليم برداً بعْلبك وما حولها ومن أمثالهم « قيل للبرد أين نطلبك قال بالبلقاء فقال فإن لم نجدك قال بعلبك بيتي، وهو إقليم مبارك بلد الرخص والفواكه والصالحين وكلما علا منه نحو الروم كان أكثر أنهاراً وثماراً

(1) نلفت الانتباه إلى هذه العبارة التي تتحدث عن جب يوسف في غرب الأردن ولا يوجد لدي ما ينفي أو يثبت ذلك، بل نتركها لعلماء التاريخ والشريعة الإسلامية.

(2) نجد المقدسي في هذه المقتطفات التي ننشرها فيما يلي؛ أقول نجده يعطي وصفاً دقيقاً، لما هو عليه حال الزراعة والصناعة والحياة الاجتماعية والأطعمة والأشربة، ومزاولة العبادات وبخاصة في رمضان، والمكاييل والموازين وما يعلّقون في المساجد من الأسرجة، والألبسة، وأنواعها صيفاً وشتاءً وعملية الطبخ والخبز في الأفرنة المعتمدة على تحمية الحصى باستخدام روث الحيوانات والحطب ومن خلال ذلك نجد أن الكثير من هذه الأشياء لا تزال موجودة في الأردن وفلسطين بعد أكثر من ألف عام من وصفه.

(3) المقصود هنا هو غور الأردن، وليس المناطق الجبلية، ذلك أن الشراة تمتد غرباً حتى الغور لذا جاء على ذكرها هنا. والمقصود بالشارة هنا ليس الجبال فحسب، وإنما الكورة التي تشتمل الغور أيضاً حيث يوجد فيه الموز والنخيل والنيل وهي لا تنبت في الأرض الجبلية الباردة.

وأبرد هواءً وما سفل منه فإنه أفضل وأطيب وألذ ثماراً وأكثر نخيلاً، وليس فيه نهر يسافر فيه إنما يعبر قليل العلماء كثير الذمّة والمجذّمين ولا خطر فيه للمذكورين والسامرة فيه من فلسطين إلى طبرية ولا تجد فيه مجوسياً ولا صابئاً. مذاهبهم مستقيمة أهل جماعة وسنّة. وأهل طبرية ونصف نابلس وقدس وأكثر عمّان شيعة ولا ماء فيه لمعتزليّ إنما هم في خفية[1] وبييت المقدس خَلْقٌ من الكرّاميّة لهم خوانق ومجالس ولا ترى به مالكياً ولا داودياً وللأوزاعية مجلس بجامع دمشق والعمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث والفقهاء شافعيون وأقل قصبة أو بلد ليس فيه حنفي وربما كانت القضاة منهم فإن قيل لِمَ لَمْ يُقَل والعلم فيه على مذهب الشافعي والصدور ثم شفعوية قيل له هذا كلام من لا تمييز له لأن مذهب الشافعي الجهر بالبسملة والقنوت في الفجر ولا نقنت إلا في النصف الأخير من شهر رمضان في الوتر وغير ذلك ما لم يكن يستعمله أهل الشام وينكرونه. الا ترى أن ملكهم لمّا أمر بالجهر بالبسملة بطبرية كيف تظلّموا منه إلى كافور الإخشيديّ واستبشعوا ما فعله واليوم أكثر العمل على مذاهب الفاطميّ ونحن نذكرها مع رسومهم في إقليم المغرب إن شاء الله تعالى. والغالب فيه من القراءات حروف أبي عمرو إلا بدمشق فإنه لا يؤمّ في الجامع إلا من يقرأ لابن عامر وهي شائعة فيهم مختارة عندهم وقد فشت قراءة الكسائي في الإقليم ويستعملون السبع ويجتهدون في ضبطها.

---

(1) يشير المقدسي هنا أن أهل الأردن سنّة في القرن الرابع الهجري، ولكن سكان عمان شيعة. ويستخدم العبارة التالية: وأكثر عمان شيعة، ولم يقل أهالي عمان أو المواطنين فيها، ولم يكونوا كلهم كذلك. وإنما أكثرهم، وهذه الإشارة الوحيدة التي وقعت بين يدي حول هيمنة المذهب الشيعي على أكثر سكان عمان. وليس لأهل المعتزلة مكان فيه، وهم أصحاب المذهب العقلي. ويبدو أن كل ذي صاحب فكر ومذهب عقلي سياسي لا مكان له في عمان حتى الآن؟! ولا أدري، هل هي طبيعة المكان أم طبيعة السكان أم طبيعة تقلّب الأزمان؟ .

والتجارات به مفيدة يرتفع (أي يتم استيراد) من فلسطين الزيت والقُطّين والزبيب والحبوب والملاحم والصابون والفوط، ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزبيب العينونيّ والدوزيّ غاية والتفّاح وقضم قريش الذي لا نظير له والمرايا وقدور القناديل والإبر، ومن أريحاء نيل غاية، ومن طبرية شقاق المطارح والكاغد وبز ومن قدس ثياب المنيّرة والبلعيسيّة والحبال، ومن صور السكّر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات، ومن مآب قلوب اللوز، ومن بيسان الرز، ومن دمشق المعصور والبلعيسي ودياج ودهن بنفسج دون والصفريات والدغد والجوز والقطّين والزبيب، ومن حلب القطن والثياب والأشنان والمغرة، ومن بعلبك الملابن، ولا نظير لقطّين وزيت الأنفاق وحوّاري وميازر الرملة ولا لمعنّقة وقضم قريش وعينونيّ ودوريّ وترياق وترذوع وسُبّاح بيت المقدس».

«واعلم أنه قد اجتمع بكورة فلسطين ستة وثلاثون شيئاً ولا تجتمع في غيرها فالسبعة الأولى لا توجد إلا بها والسبعة الثانية غريبة في غيره والإثنان والعشرون لا تجتمع إلا بها وقد يجتمع أكثرها في غيرها مثل قضم قريش والمعنّقة والعينونيّ والدوريّ والجاص الكافوريّ وتين السباعيّ والدمشقيّ والقلقاس والجمّيز والخرنوب والعكّوب والعُنّاب وقصب السكر والتفاح الشاميّ والرطب والزيتون والأترجّ والنيل والراسن والنارنج واللُّفّاح والنبق والجوز واللوز والهليون والموز والسُّمّاق والكرنب والكماة والترمس والطريّ والثلج ولبن الجواميس والشهد وعنب العاصميّ والتين التمريّ، وأما القُبّيط فقد يرى مثله غير أن له طعماً آخر وقد ترى الخسّ غير أنه في جملة البقل إلا بالأهواز فإنه غاية، ويفرد عن البقل أيضاً بالبصرة.

وأما المكاييل فلأهل الرملة القفيز والوَيْبة والمكّوك والكيلجة فالكيلجة نحو صاع ونصف والمكّوك ثلاث كيلج والويبة ومكّوكان والقفيز أربع ويبات وينفرد

أهل إيليا بالمدى وهو ثلثا القفيز وبالقبّ وهو ربع المدى ولا يستعمل المكُوك إلا في كيل السلطان ومدى عمّان ست كيالج وقفيزهم نصف كيلجة وبه يبيعون الزبيب والقّين وقفيز صور مدى إيليا وكيلجتهم صاع وغرارة دمشق قفيز ونصف بالفلسطيني» .

والأرطال من حمص إلى الجفار ستمائة غير أنه يتفاوت فأملاه رطل عكّا وأزلُه الدمشقيّ وأوقيتهم من خمسين إلى بضع وأربعين وكل رطل اثنا عشر أوقية ورطل قنّسرين ثلثا هذا. والسنج متقاربة الدرهم ستون حبّة وحبّتهم شعيرة واحدة والدانق عشر حبّات والدينار أربعة وعشرون قيراطاً والقيراط ثلاث شعيرات ونصف.

ورسومهم أنهم يقدون القناديل في مساجدهم على الدوام يعلّقونها بالسلاسل مثل مكّة وفي كل قصبة بيت مال بالجامع معلّق على أعمدة وبين المغطّى والصحن أبواب إلا أريحاءَ ولا ترى الحصى إلا في صحن جامع طبرية والمناير مربّعة وأوساط سقوف المغطّى مجمّلة وعلى أبواب الجوامع وفي الأسواق مطاهر ويجلسون بين كل سلامين من التراويح وبعض يوتِرون بواحدة وكان وترهم في تقديم ثلاثاً وفي أيّامي أمر أبو إسحاق المروزيّ حتى قطعوه بإيليا وإذا قام إلى كل ترويحة نادى منادى الصلاة: ورحمكم الله ويُصَلُّون بإيليا ستّ ترويحات والمذكّرون به قصّاص ولأصحاب أبي حنيفة بالمسجد الأقصى مجلس ذكر يقرءون في دفتر وكذلك الكرّاميّة في خوانقهم وكان الحرّاس يهلّلون بعد صلاة الجمعة ويجلس الفقهاء بين الصلاتين وبين العشائين وللقرّاء مجالس في الجوامع.

ومن أعياد النصارى التي يتعارفها المسلمون ويقدّرون بها الفصول: الفصح وقت النيروز والعنصرة وقت الحرّ والميلاد وقت البرد وعيد بَربَارة وقت الأمطار ومن أمثال الناس « إذا جاءَ عيد بَربَارة، فليتّخذ البنّاءُ زمّارَه »، يعني

فليجلس في البيت والقَلَنْدِس ومن أمثالهم « إذا جاءَ القَلَنْدِس، فتدفّئ واحتبسْ »، وعيد الصليب وقت قطاف العنب وعيد لُدّ وقت الزرع.

وشهورهم روميّة تشرين الأول والثاني كانون الأول والثاني شباط آذار نيسان أيّار حزيران تموز آب أيلول وأقل ما ترى به فقيهاً له بدعة أو مسلماً له كتابة إلا بطبريّة فإنها ما زالت تخرج الكُتّاب وإنما الكتبة به وبمصر نصارى لأنهم اتّكلوا على لسانهم فلم يتكلّفوا الأدب كالأعاجم وكنتُ إذا حضرتُ مجلس قاضي القضاة ببغداد أخجل من كثرة ما يلحن ولا يرون ذلك عيباً وأكثر الجهابذة والصبّاغين والصيارفة والدبّاغين بهذا الإقليم يهود وأكثر الأطباء والكتبة نصارى. واعلم أن خمساً في خمسة مواضع من الإسلام حسن رمضان بمكة وليلة الختمة بالمسجد الأقصى والعيدين باصقلية ويوم عرفة بشيراز ويوم الجمعة ببغداد وأيضاً ليلة النصف من شعبان بإيليا ويوم عاشوراء بمكة حسن.

ولهم تجمُّل يلبسون الأردية كل عالم وجاهل ولا يتخففون في الصيف إنما هي نعال الطاق وقبورهم مسنَّمة ويمشون خلف الجنائز ويسلُّون الميت ويخرجون إلى المقابر لختم القرآن ثلاثة أيام إذا مات ميت ويكشفون المماطر ولا يقورون الطيالسة ولأجلّة البزّازين بالرملة حمر مصرية بسروج ولا يركب به الخيل إلا أمير أو رئيس ولا يتدرَّع إلا أهل القرى والكتبة ولباس القرايتيين (القرويّين) برستاق إيليا ونابلس كساء واحد حسب بلا سراويل.

ولهم الأفرنة واللقريانيين الطوابين تنور في الأرض صغير قد فرش بالحصى فيوقد الزبل حوله وفوقه فإذا احمرّ طرحت الأرغفة على الحصى وبه طبّاخون للعدس والبَيْسار ويقلون الفول المنبوت بالزيت ويصلقونه ويباع مع الزيتون ويملحون الترمس ويكثرون أكله ويصنعون من الخرنوب ناطفاً يسمونه القُبَّيط

ويسمون ما يتخذون من السكر ناطفاً ويصنعون زلابية في الشتاء من العجين غير مشبّكة وعلى أكثر هذه الرسوم أهل مصر وعلى أقلّها أهل العراق وأقور.

وبه معدن حديد في جبال بيروت وبحلب مغرة جيدة وبعمّان دونها وبه جبال حمر يسمى ترابها السمقة وهو تراب رخو وجبال بيض تسمى الحوّارة فيه أدنى صلابة يبيّض به السقوف ويطيّن به السطوح وبفلسطين مقاطع حجارة بيض ومعدن للرخام ببيت جبريل وبالأغوار معادن كبريت وغيره، ويرتفع من البحيرة المقلوبة ملح منثور، وخير العسل ما رعى السُّعتَر بإيليا وجبل عاملة وأجود المُرى ما عمل بأريحاء. وقد ذكرنا أكثر المشاهد في عنوان الإقليم وإن ذكرنا مواضعها طال الكُتّاب غير أن أكثرها بإيليا ثم بساير فلسطين ثم بالأردن. ومياه هذا الإقليم جيدة إلا ماء بانياس فإنه يطلق وماء صور يحصر وماء بيسان ثقيل ونعوذ بالله من صُغر وماء بيت الرام رديء ولا ترى أخفّ من ماء أريحاء وماء الرملة مري وماء نابلس خشن وفي ماء دمشق وإيليا أدنى خشنة وفي الهواء أدنى يبوسة. وفيه عدة من الأنهار تقلب في بحر الروم إلا بَرَدَى فإنه يشق أسفل قصبة دمشق فيسقي الكورة وقد شقّ منه شعب يتدوّر في أعلى القصبة ثم ينقسم قسمين بعض يتبحّر نحو البادية وبعض ينحدر فيلقى نهر الأردن ونهر الأردن ينحدر من خلف بانياس فيتبحّر بإزاء قدس ثم ينحدر إلى طبرية ويشق البحيرة ثم ينحدر في الأغوار إلى البحيرة المقلوبة وهي مالحة جداً وحشة مقلوبة منتنة فيها جبال وليس فيها أمواج كثيرة، وبحر الروم يمد على طرفه الغربي وبحر الصين يمسّ طرفه الجنوبي وبإزاء صور تقع جزيرة قبرص يقال أنها اثنا عشر يوماً كلها مدن عامرة وللمسلمين فيها رفق وسعة لكثرة ما يحمل منها من البحيرات والثياب والآلات وهي لمن غلب، المسافة إليه في البحر إقلاع يوم وليلة ثم إلى بلد الروم مثل ذلك » (المقدسي: ص 180-184).

ويستمر المقدسي بالقول: « ومن العجائب بإيليا مغارة بظاهر البلد عظيمة سمعت بعض العلماء وقرأت في بعض الكتب أنها تنفذ إلى قوم موسى وما صحّ لي ذلك وأنها مقاطع للحجارة وفيها طرق يدخل فيها بالمشاعل، بين فلسطين والحجارة التي رمى بها قوم لوط على طريق الحجّاج مخطّطة صغار وكبار. بطبرية عين تغلي تعمّ أكثر حمامات البلد وقد شقّ إلى كل حمام منها نهر فبخاره يحمّي البيوت فلا يحتاج إلى وقيد وفي البيت الأول ماء بارد يمزج مقدار ما يتطهرون به ومطاهرهم من ذلك الماء وفي هذه الكورة ماء مسخن يسمى الحمّة حارٌ من اغتسل فيه ثلاثة أيام ثم اغتسل في ماء آخر بارد وبه جرب أو قرح أو ناسور أو أي علة تكون برأ بإذن الله. وسمعت الطّبرانيين يذكرون أنه كان عليها بما يدور بيوت، كل بيت لعلة فكل من به تلك العلة واغتسل فيه برأ إلى وقت أرسطاطاليس ثم سال ملك ذلك الزمان هدم هذه البيوت لئلا يستغنوا عن الأطباء وصحّت لي هذه الحكاية لأن كل من دخله من أصحاب العلل وجب أن يخوض الماء كلّه ليوافق موضع شفائه. وبحيرة صُغَر أعجوبة يقلب فيها نهر الأردن ونهر الشراة فلا يحيل فيها ويقال أنها لا تُغْرِق سريعاً وإن احتقن بمائها أشفى من علل كثيرة ولها موسم في شهر آب يذهب إليها الأحداث وأصحاب العلل، وفي جبال الشراة أيضاً حمّة. ينزل على فلسطين في كل ليلة الندى في الصيف إذا هبّت الجنوب حتى يجري منه مزاريب المسجد الأقصى، أبو رياح حمص طلسم جُعل العقارب ومن أخذ طيناً وضعه عليه نفع من لدغ العقارب بإذن الله تعالى فالعمل للطبع لا للطين. مدن سليمان عليه السلام بعلبك وتدمر[1] من العجائب وقبّة الصخرة وجامع دمشق وميناء صور وعكّا من العجائب.

---

(1) من الخرافات الإسرائيلية أن كل بناء ضخم يفوق قدرة البشر العاديين، ينسبونه إلى الجن أنه بناه بأمر من النبي سليمان عليه السلام . وهذا كلام لا يتفق مع الحقيقة والموضوعية، فلا توجد علاقة ما بين سليمان وبعلبك وتدمر، بل إن هاتين المدينتين عربيتين من حيث التاريخ والإنسان والهوية والبقاء. وبالتالي فإن هذه الخرافة أنها من مدن سليمان ليس لها أساس من الصحة.

ووضع هذا الإقليم ظريف هو أربعة صفوف فالصف الأول يلي بحر الروم وهو السهل رمال منعقدة ممتزجة يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن السواحل والصف الثاني للجبل مشجر ذو قرى وعيون ومزارع يقع فيه من البلدان بيت جبريل وإيليا ونابلس واللجون وكابل وقدس والبقاع وإنطاكية والصف الثالث الأغوار ذات قرى وأنهار ونخيل ومزارع ونيل يقع فيه من البلدان ويلة وتبوك وصغر وأريحاء وبيسان وطبرية وبانياس[1] والصف الرابع سيف البادية وهي جبال عالية باردة معتدلة مع البادية ذات قرى وعيون وأشجار يقع فيه من البلدان مآب وعمّان وأذرعات ودمشق وحمص وتدمر وحلب، وتقع الجبال الفاصلة مثل زيتا وصدّيقا ولبنان واللكام في الصف الثاني وسرّة الأرض المقدسة في الجبال المطلة على الساحل[2].

وكنت يوماً في مجلس أبي محمد الميكالي رئيس نيسابور وقد حضر الفقهاء للمناظرة فسُئل أبو الهيثم عن دليل جواز التيمُّم بالنورة فاحتجّ بقول النبي ﷺ جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فعمّ الأرضين كلها فقال السائل إنما عنى

(1) نجد هنا أن الأغوار تعني المناطق المنخفضة عما حولها، وقد شملت وادي الأردن من أيلة (العقبة) حتى طبريا، ونهر بانياس الذي هو أحد روافد نهر الأردن. ومن الملفت للنظر أنه شَمَلَ تبوك ضمن الصف الثالث وهو الأغوار، وهو ما يبرهن على أن تبوك أرض أردنية، أو على تخوم الأردن في العصور الغابرة، وأنها كانت تابعة لكورة الشراة التي تشمل الأغوار، وأن زُغر كانت عاصمتها، وبالتالي جاء ذكرها هنا على أنها من أراضي الغور، أي ضمن كورة كانت الأغوار مركزها وجزءاً منها. وقد سبق ورأينا كيف تحدث الرحالة والجغرافيون عن مدين أنها على ساحل البحر الأحمر بموازاة تبوك، وأنها (أي) مدين أرض أردنية.

(2) نجد المقدسي هنا يقسِّم الأردن وفلسطين تقسيماً طبيعيّاً، ويسمي كل قسم: صفاً، حيث يقول أن وضع هذا الإقليم (بلاد الشام) ويقصد منه الأردن وفلسطين، وضع ظريف، وهو أربعة صفوف: الساحل والجبل الغربي، والغور والجبل الشرقي (الأردن)، وسيف البادية، وذكر في كل صف أو قسم ما به من مدن وقرى.

السهل لا الجبل ثم كثر الكلام والجلبة وأعجبوا بقولهم فقلت لأبي ذرّ بن حمدان وكان أشغبهم ما تنكر على قائل لو قال العلة ما ذكرها هذا الفقيه الفاضل لأن الله تعالى قال: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾ [المائدة: 21] وهي جبال فجعل يخردل في كلامه ويورد ما لا ينقض ما ذكرناه ثم قال الفقيه سهل بن الصعلوكي إنما قال ادخلوا الأرض ولم يقل اصعدوا الجبل ووقف الكلام، فإن قال قائل لِمَ لم يقل أن الباب بأريحاء والله أمرهم بدخوله وأريحاء بالغور لا بالجبال فصحّ ما قاله الإمام ابن الإمام قيل له لنا في هذا جوابان أحدهما فقهيّ: وهو أن الأرض المقدسة جبال لا محالة وأريحاء في سهولها ومن أتباعها فظاهر الآية مصروف إلى حقيقة القدس وهي إيليا وإنما هي في الجبال لا إلى التبع من السهول والأغوار.

فإن قال بل الآية مصروفة إلى مدينة الجبّارين وهي أريحاء التي أمروا بدخولها فتفيد الآية أمرين دخول الأرض المقدسة والمدينة المذكورة وفائدتها على ما ذهبتَ إليه مقصورة على الأرض حسب وكلما حملنا القرآن على كثرة الفوائد كان أحسن، قيل إن الله عزّ اسمه قد أوضح ما ذهبنا إليه بقوله: ﴿ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف: 137] فدخلت سهول فلسطين وجبالها تحت هذه الآية وصار قولهم إن فيها قوماً جبارين يعني في نواحيها.

والجواب الآخر إقليميّ: وذلك أنهم أُمروا بدخول القدس والجبّارون بأريحاء وهي في غور بين الجبال والبحيرة ولا يجوز أن تقول أنهم أُمروا بركوب البحر فلم يبق إلا دخلوها من نحو الجبال وكذلك فعلوا لأنهم دخلوها من تحت البلقاء وعبروا الأردن إلى أريحاء مع أنه يلزم صاحب هذه المقالة شيئان: إما أن يقول أنهم لم يؤمروا بدخول جبال القدس وما أن يقول أن جبال إيليا والبلقاء

ليست من الأرض المقدسة ومن زعم شيئاً من هذين فترْك الكلام معه أصوب[1]، وقد كان الفقيه أبو ذرّ لما ضيّقت عليه هذه المسألة قال لي إنك لم تدخل بيت المقدس ولو دخلتَها لعلمتَ أنها سهل بلا جبل حتى قال له الرئيس أبو محمد هو منها. وسمعتُ خالي عبدالله بن الشوا يقول أراد بعض السلاطين أن يتغلّب على دير شمويل وهي قرية على فرسخ من إيليا فقال لصاحبها صِفْ لي قريتك قال: « هي أيّدك الله قريبة من السما، بعيدة من الوطا، قليلة الأبروط، كثيرة البلّوط، محتاج إلى الكدّ، ولا تزكى بأحد، يغالب غرّ، ولوز مرّ، ازرع قبّاً وخذ قبّاً، إلا أن الذي نذرتَ كان أنبل جبّاً » فقال اذهب لا حاجة لنا في قريتك.

وأما الجبال الشريفة فجبل زيْتا يطل على بيت المقدس وقد ذكرناه وجبل صِدِّيقا بين صور وقدس وبانياس وصيدا ثمّ قبر صدّيقاً عنده مسجد له موسم يوم النصف من شعبان يجتمع إليه خلق كثير من هذه المدن ويحضره خليفة السلطان واتفق وقت كوني بهذه الناحية يوم الجمعة في النصف من شعبان فأتاني القاضي أبو القاسم بن العباس حتى خطبت بهم فبعثتهم في الخطبة على عمارة ذلك المسجد ففعلوا وبنوا منبراً وسمعتُهم يزعمون أن الكلب يعدو خلف الوحش فإذا بلغ ذلك الحدّ وقف وما يشبه هذه من الحكايات.

وأما جبل لبنان فهو متصل بهذا الجبل كثير الأشجار والثمار المباحة وفيه عيون ضعيفة يتعبّد عندها أقوام قد بنوا لأنفسهم بيوتاً من القشّ يأكلون من تلك المباحات ويرتفقون بما يحملون منها إلى المدن من القصب الفارسيّ والمرسين وغير ذلك وقد قلّوا به، وجبل الجَوْلان يقابله من نحو دمشق على ما

(1) يبيِّن المقدسي هنا أن القدس والبلقاء من الأرض المقدسة. والبلقاء في تصنيف ذلك الزمان (ق 4 هـ) وما قبله وبعده، كانت تشمل من تبوك إلى جبل الشيخ ومن أريحا في وادي الأردن، إلى الجوف في البادية الشرقية.

ذكرنا وبه لقيتُ أبا إسحاق البلُّوطيّ في أربعين رجلاً لباسهم الصوف ولهم مسجد يجتمعون فيه ورأيتُه فقيهاً عالماً على مذهب سفيان الثوريّ ورأيتُ تقوُّتهم بالبلوط ثمرة على مقدار التمر مرّ يفلق ويُحلى ثم يطحن وثم شعير نقي يخلط به، وأما جبل لُكام فإنه أعمر جبال الشام وأكبرها وأكثرها ثمراً هو اليوم بيد الأرمن وطرسوس من ورائه وإنطاكية دونه.

والولايات لصاحب مصر وقد كان سيف الدولة غلب على أعلاه. والضرائب فيه هيّنة إلا ما يكون على الفنادق فإنه منكر على ما ذكرنا من بيت المقدس، وجباياته ثقيلة على قنّسرين والعواصم ثلاثمائة ألف وستون ألف دينار وعلى الأردن مائة ألف وسبعون ألف دينار وعلى فلسطين مائتا ألف وتسعة وخمسون ألف دينار وعلى دمشق أربعمائة ألف ونيف وقرأت في كتاب ابن خرداذبة خراج قنّسرين أربعمائة ألف دينار وخراج حمص ثلاثمائة ألف وأربعون ألفـ وخراج الأردن ثلاثمائة ألف وخمسون ألفاً وخراج فلسطين خمسمائة ألف دينار.

وأما الجبال الشريفة فجبل لبنان وجل الجولان فيهما: عُبّادٌ عند عيون ضعيفة قد بنوا لهم أخصاصاً من القصب والحلفاء يتقوّتون بشيء يقال له البلوط على مقدار التمر عليه قشر وهو مرٌّ إلا أنهم يلقونه في الماء حتى يحلو ثم إذا جفّ طحنون وخبزوه واخلطوا عليه شيء (شيئاً) من شعير ينبت عندهم مباح(1).

(1) البلوط، هو كما وصفه المقدسي، ويؤكل عند الأردنيين، والمؤلف (أنا) يستطيب أكله بعد شويه على جمر الحطب، ويتميّز أنه يقفز من النار ويشكل خطراً أو أذى للجالسين حوله، لذا فإنهم يقومون بهَرْس مؤخرة حبّة البلوط قبل إلقائها في النار، ليكون للمواد المتفجرة متنفساً يحول دون قفزها. ويبدو أن عادة أكل البلوط ليست جديدة، بل ضاربة أعماقها في تاريخنا منذ أكثر من ألف سنة، ونحن في حديثنا نفتخر أننا نأكل البلوط.

وفي هذين الجبلين ثمار كثيرة وهو موضع طيب ورأيت رئيسهم أبا إسحاق البلوطي فرأيته عاقلاً فقيهاً على مذهب سفيان الثوري، وأما جبل صديقا فإنه متصل بجبل لبنان فيه مشهد لهم موسم يوم النصف من شعبان واتفق يوم الجمعة في النصف من شعبان وأنا ثم فبعثني القاضي أبو القاسم بن العباس حتى خطبتُ بهم ورغّبتهم في بناء ذلك المسجد في الخطبة فجمعوا له شيئاً كثيراً وعمّروه أحسن عمارة وبنوا فيه منبراً، وجبل الشام تكون: اللكام خلف إنطاكية قد غلب عليه الأرمن في الساحل والطرق، غير أن بني حمدان قد غلبوا.

وخراج فلسطين مائة ألف دينار وخراج حمص ثلثمائة ألف وأربعين (sic) ألف دينار وخراج دمشق أربعمائة ألف دينار ونيف وخراج قنسرين أربع habet مائة ألف ألف (sic) دينار وخراج الأردن ثلثمائة ألف دينار وخمسون ألف[1]، وطول الشام من مدائن (مدين 1) شعيب إلى الثغور تسع وثلاثون يوماً وأما العرض فيختلف لأن رأس الشام الحجازيّ أدق والثغريّ أعرض » (المقدسي: ص 179-189).

-12-

إقليم الشام

(المقدسي (ت 380 هـ): ص 151-155)

يقول المقدسي في القرن الرابع الهجري عن إقليم الشام: « إقليم الشام جليل الشان، ديار النبيين، ومركز الصالحين ومعدن البدلا، ومطلب الفضلا، به القبلة الأولى، وموضع الحشر والمسرى، والأرض المقدسة، والرباطات الفاضلة والثغور الجليلة والجبال الشريفة ومهاجر إبراهيم، وقبره وديار أيوب وبئره

---

(1) نجد هنا أن خراج الأردن ثلاثمائة ألف دينار وخمسون ألف ديناراً وهي بذلك تأتي بعد دمشق وقنسرين، وتتقدم على حمص وفلسطين في كمية الخراج.

ومحراب داود وبابه وعجائب سليمان ومدنه وتربة إسحاق وأمّه ومولد المسيح ومهده وقرية طالوت ونهره ومقتل جالوت وحصنه وجبّ أرميا وحبسه ومسجد أوزيّا وبيته وقبّة محمد وبابه وصخرة موسى وربوة عيسى ومحراب زكريا ومعرك يحيى ومشاهد الأنبياء وقرب أيوب، ومنازل يعقوب، والمسجد الأقصى، وجبل زيتا، ومدينة عكا، ومشهد صِدّيقا، وقبر موسى ومضجع إبراهيم ومقبرته، ومدينة عسقلان، وعين سُلْولن، وموضع لقمان، ووادي كنعان، ومدائن لوط وموضع الجنان، ومساجد عمر ووقف عثمان، والباب الذي ذكره الرجلان، والمجلس الذي حضره الخصمان، والسور الذي بين العذاب والغفران، والمكان القريب ومشهد بيسان، وباب حُطّة ذو القد والشان، وباب الصور وموضع اليقين وقبر مريم وراحيل ومجمع البحرين، ومفرق الدارين، وباب السكينة وقبّة السلسلة ومنزل الكعبة مع مشاهد لا تحصى، وفضائل لا تخفى، وفواكه ورخا، وأشجار وآميا، وآخرة ودنيا، به يرقُّ القلب وينبسط للعبادة الأعضاء.

ثم به دمشق جنّة جنة الدنيا، وصُغر البصرة الصغرى، والرملة البهيّة وخبزها الحوّاري، وإيليا الفاضلة بلا لاوى، وحمص المعروفة بالرخص وطيب الهوا، وجبل بُصرَى وكرومه، فلا تنسى، وطبرية الجليلة بالدخل والقرى، ثم البحر يمدّ على غربيّه فالحمولات فيه إليه أبداً وبحر الصين متصل بطرفه الأقصى، له سهل وجبل وأغوار وأشيا، والبادية على تخومه كالزقاق منه إلى تيما، وبه معادن الرُّخام وعقاقير كلّ دوا، ويسار وتجار ولباقة وفقهاً، وكُتّاب وصنّاع واطبّا، إلا أنهم على خوفٍ من الروم وفي جلا، والأطراف قد خربت وأمر الثغور قد انقضى، وليسوا كالأعاجم في العلم والدين والنهي، بعضٌ قد ارتدّ وبعضٌ للجزية في أداء يقدّمون طاعة المخلوق على طاعة ربّ السما، عامّتهم جهّال غوغا، لا نهضة في جهاد ولا حميّة على الأعداء.

ويقال إنما سميت الشام لأنها شامة الكعبة وقيل بل من تشاءُم الناس إليها وقيل بل لشامات بها حمر وبيض وسود، وأهل العراق يسمون كل ما كان وراء الفرات شاماً ولهذا أرسل محمد بن الحسن القول في دواوينه وليس وراء الفرات من الشام غير كورة قنّسرين حسب والباقي بادية العرب والشام من ورائها وإنما هو من ورائها وإنما الشام كلما قابل اليمن. وكان الحجاز بينهما[1] فإن قال قائل ما تنكر أن يكون طرف البادية إلى حدود العراق من الشام ليصحّ ما قاله أهل العراق قيل قد قسمنا الإقليم ورسمنا الحدود فلا ينبغي لنا أن ندخل في إقليم من غيره، فإن قال قائل فمن أين لك أنه ليس منه في القديم قيل له لم يختلف فقهاء الشريعة وأهل هذا العلم أن هذه الأرض المتنازع فيها أنها من جزيرة العرب ولو جعلها أحد من الشام لا مجازاً لكان لنا أن نقول له حدود الشام التي رسمناها مُجْمَع عليها وما زدتم مختلف فيه وعلى من ادّعى الزيادة الدليل.

وقد أعرضنا عن ذكر طرسوس وأعمالها لأنها بيد الروم، وأما الكهف فإن المدينة هي طرسوس[2] وبها قبر دقيانوس وبرستاقها تل عليه مسجد قالوا هو على الكهف، وحدّثنا الفقيه أبو عبدالله محمد بن عمر البخاري قال حدّثنا أبو طالب اليماني قال حدّثنا الحسن بن يحيى قال حدّثنا أبي قال حدثنا محمد بن

---

(1) نلاحظ هنا أن أهل العراق في العصور الخوالي يعتبرون كل ما هو وراء الفرات شاماً، وذلك يعني شمول الجوف ووادي السرحان ضمن بلاد الشام وبالتالي ضمن الأراضي الأردنية. بل إن الشام هو ما كان في شمال جزيرة العرب، وذلك أنها تقابل اليمن في الجنوب، وكل ما يحاذي الحجاز شمالاً فهو: شام، وما كان جنوب الحجاز فهو: يمن. وبذلك نجد أن الشام يبدأ من تبوك أو من شمالها مثلما تحدثنا في الجزء الأول من هذا الكتاب. والله المستعان.

(2) أشبعنا هذه النقطة بحثاً في الجزء الأول، لأن الكهف والرقيم في الأردن إلى الجنوب من عمان، في موقع يحمل الاسم نفسه: الرقيم (الرجيب) والكهف أو أهل الكهف، وقد سبق وقلنا أنه قد تكون هناك كهوف مشابهة لما هو في منطقة عمان، وقلنا: ربما يكون ما ورد في القرآن الكريم: مرادفة الكهف والرقيم معاً، قد يكون تمييزاً لها عن كهف مماثل وكهوف مماثلة، ولكنها ليست كهفاً ورقيماً معاً.

سهل الخراساني قال قرأت على هشام بن محمد حدثنا مجاهد بن يزيد قال خرجت مع خالد البريديّ في أيام وجّه إلى الطاغية سنة 103هـ وليس معنا ثالث من المسلمين فقدمنا القسطنطينية ثم خرجنا منصرفين إلى عمُّورية ثم أتينا اللاذقية المحترقة في أربع ليالٍ ثم انتهينا إلى الهويّة وهي جوف جبل فذكر لنا أن به أمواتاً لا يُدْرَى ما هم وعليهم حرّاس دخلونا سَرَباً طوله نحو خمسين ذراعاً في عرض ذراعين بالسُّرُج وإذا وسط السرب باب من حديد ومكمن لعيالهم إذا يجيئهم العرب يرى منها السماء وإذا كهف ذلك المكان إلى جوف ذلك الجبل فانطلق بنا إلى كهف مما يلي الجوف من الهوية طوله نحو من عشرين ذراعاً وإذا فيه ثلاثة عشر رجلاً رقوداً على أقفيتهم على كل رجل منهم جبّة لا أدري من صوف أو وبر إلا أنها غبراء وكساء أغبر يتقعقع كما يتقعقع الرقُّ وقد غطّى بكسائه وجه وسائر جسده وإذا هي ذوات هداب وعلى بعضهم خفاف إلى أنصاف سوقهم وبعض بنعال وبعض بشمشكات والجميع جُدُد فكشفتُ عن وجه أحدهم فإذا شعر رأسه ولحيته لم يتغير وإذا بشرة وجهه منيرة ودم وجهه ظاهر كأنما رقدوا تلك الساعة وإذا أعضاؤهم كألين ما يكون من أعضاء الرجل الحيّ وكلُّه شباب غير أن بعضهم قد وخطه الشيب وإذا بأحدهم قد ضربت عنقه فسألتهم عن ذلك فقالوا غلبت علينا العرب وملكت الهويّة فأخبرناهم خبرهم فلم يصدّقونا فضرب أحدهم عنق هذا وزعم أهل الهويّة أنه إذا كان رأس كل سنة في يوم عيد لهم يجتمعون فيه يقيمونهم رجلاً رجلاً فيتركونهم قياماً ويسمحونهم وينفضون غبار ثيابهم ويَرُدُّونَ أكسيتهم عليهم فلا يسقطون ولا يتحرّجون ويضجعونهم وأنهم يقلّمون أظفارهم في السنة ثلاث مرات ثم تنبت فسألناهم عن أسبابهم وأمرهم فزعموا أنهم لا علم لهم بشيء من أمرهم غير أنا نسمّيهم الأنبياء، قال مجاهد وخالد فيظنّ ومثاله في الصفحة المنقلبة[1].

(1) هذه القصة التي رواها المقدسي، قصة خرافية، يبدو أنها من الإسرائيليات، لا تتفق مع منطق =

وقد قسمنا هذا الإقليم الشام ستّ كور أوّلها من قبل أقور قِنّسرين ثم حِمْص ثم دمشق ثم الأردنّ ثم فلسطين ثم الشراة. فأما قِنّسرين فقصبتها حَلَب ومن مدنها إنطاكية بالِس السُّوَيْدِيّة سُمَيْسَاط مَنبجُ بَيّاس التِّينات قِنّسرين مَرْعَش إسْكَنْدرُونَة لَجُون رَفَنِيَّة جُوسِيَة حَمَاة شَيْزَر وادي بُطْنَان مَعَرَّة النُّعْمان مَعَرَّة قِنّسْرين. وأما حمص فاسم القصبة أيضاً ومن مدنها سَلَمِيَّة تَدْمُر الخُناصِرَة كَفَرْ طَاب اللاذِقيَّة جَبْلَة أنطَرْسُوس بُلُنْيَاس حصن الخَزَابي. وأما دمشق فاسم القصبة أيضاً ومدنها بانِيَاس صَيْدَا بَيْرُوت أطْرَابُلُس عَرْقَة وناحية البقاع مدينتها بَعْلَبَكُّ ولها كامِدُ عَرْجَمُوش الزَّبْدَانيُّ ولدمشق ستُّ رساتيق الغُوطَة حَوْرَان البَثَنِيّة الجَوْلاَن البقاع الحُولَةُ. وأما الأرْدُنّ فقضبتها طَبَرِيّة ومن مدنها قَدَس طُور عَكّا اللُّجُون كابُل بَيْسان أذرِعَات[1] وأما فلسطين فقصبتها الرَّمْلَة ومدنها بَيْتُ المَقْدِس بَيْتُ جِبْرِيل غَزَّة ميماس عَسْقَلان يَافَة أرْسُوف قَيْسَارِيَّة نابُلُس أريحا عَمّان[2] وأما الشّرَاة فجعلنا قصبتها صُغَر ومدنها مَآب مُعَان تَبُوك أذرُح ويَلَة مَدْيَن. وفي هذا الإقليم قُرىً أجلُّ وأكبر من أكثر مدن الجزيرة مثل داريّا وبيت لِهْيَا وكَفَرْ سَلاَّم وكَفَرْ سَابَا غير أنها على رسوم القرى معدودة فيها وقد قلنا أن عملنا موضوع على التعارف » (المقدسي: ص 151-155).

محمد البكري (ت 487 هـ) في القرن الخامس الهجري، يتحدث عن الأردن ومواقعه في كتابه: المسالك والممالك. يقول البكري:

= ولا طبيعة ولا عقيدة، ولا قانون يخص البشر بعد مماتهم. وللأسف الشديد أن المقدسي لم يمحّص الرواية، بل سردها وكأنها حقيقة، رغم أنها من ضرب الخيال والأوهام وهنا لابد من الإشارة إلى عدم موضوعية بعض المؤرخين والجغرافيين في الروايات المشابهة، وأيضاً عدم تمحيصها والتوكد من صحتها أو عدمه.

(1) هذه إشارة من المقدسي أن أذرعات وعكا والحولة وبيسان أجزاء من الأردن.

(2) هذه إشارة نادرة بوضع عمّان جزءاً من جند فلسطين.

الأُرْدُنّ: بضم أوّله، وبالدال المهملة المضمونة والنون المشددة: نهرٌ بأعلى الشام. قال يعقوب: وأصل هذه التسمية في اللسان النُّعَاس؛ وأنْشَدَ:

وقَــــدْ عَلَــــتْني نَعْسَــــةٌ أُرْدُنٌّ

وقال الراجز:

حَــنَّتْ قَلُوصِــي أمْــسِ بــالأُرْدُنِّ
حــنِّي فمــا ظُــلِّمْتِ أنْ تَحِــنِّي
ضــاربٌ صَــنْجَيْ نَشْــوَةٍ مُغَــنِّي
بــــين خَوَابِــــي قَــــرْقَفٍ ودَنِّ

ومن حديث مَكْحول: « أن جزيرة العرب لما افتتحت، قال رجل عند ذلك: أبْهُوا الخَيْل والسلاح، فقد وضعت الحرب أوزارها. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فردّ قوله عليه وقال: لا تزالوا تقاتلون الكفار حتى يقاتل بقاياكم الدجّال ببطن الأردن، أنتم من غربيّه، والدجال من شرقيّه ». قال الراوي: ما كنت أدري أين الأردن حتى سمعته من رسول الله ﷺ (البكري: ص 137-138).

-13-

الأردن ضمن الجزء الخامس من الإقليم الثالث

(الإدريسي (ت560هـ): ص 347)

يقول الإدريسي في القرن السادس الهجري في كتابه: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق:

إن هذا الجزء الخامس من الإقليم الثالث تضمن قطعة من بحر القلزم وفحص التيه وبعض البحر الشامي بما عليهما من المدن والمراسي والحصون العامرة وأرض فلسطين والشام وأسفل أرض الحجاز مع قطعة من غربي البادية

وفيها من البلاد المشهورة القلزم وفاران والأيلة ومدين وخيبرة ووادي القرى والحجر وتبوك ودوما ومعدن النقرة والعادي والسيالة، وراهط ثم الفرما وعسقلان وغزة والرملة وبيت المقدس وطبرية ونابلس ودمشق وبعلبك وحمص ويافا وقيسارية وأرسوف وعكة وصور وبيروت والناعمة وجبيل واطرابلس وانطرطوس وبيسان وجبلة واللاذقية والسويدة وإنطاكية ونحن ذاكرون لما في كل واحدة منها من المباني والعجائب والطرق والمصنوعات وما يجلب إليها وما يخرج عنها وما بينها من الأميال والفراسخ وأمكنتها على التقصي بحول الله (الإدريسي: ص 347).

-14-

المواقع الأردنية المحاذية لفلسطين

(الإدريسي (ق 6 هـ): ص 354)

« وأما حدود فلسطين وهي أول أحواز الشام وحدودها مما يلي المغرب مقدار أربعة أيام وذلك من رفح إلى اللجون وعرضه من يافا إلى ريحا مسيرة بيومين وزغر وديار قوم لوط والبحيرة المنتنة وجبال الشراة مضمومة إليها وهي منها في العمل إلى حدود أيلة. وديار قوم لوط والبحيرة المنتنة وزغر إلى بيسان وطبرية وتسمى الغور لأنها بقعة بين جبلين وسائر مياه الشام تنحدر وتجتمع فيكون منها نهر زخار أوله من بحيرة طبرية فيأخذ من طبرية وجميع الأنهار تصب إليه مثل نهر اليرموك والحد وأنهار بيسان وما ينصب من كور مآب وجبال بيت المقدس وجبل قبر إبراهيم عليه السلام وجميع ما ينصب أيضاً من نابلس فإنه يجتمع الكل منها حتى يقع في بحيرة زغر وتسمى بحيرة سادوم وغاموراء وهما كانتا مدينتين لقوم لوط فغرقهما الله تعالى فعاد مكانهما بحيرة منتنة وسميت البحيرة الميتة لأن ما فيه شيء له روح ولا حوت ولا دابة ولا شيء

متكون مثل ما يتكون في سائر المياه الراكدة والمتحركة وماؤها حار كريه الرائحة وفيه سفن صغار يسافر بها في تلك الناحية وتحمل عليها الغلات وصنوف التمر من زغر والدارة إلى ريحا وسائر أعمال الغور وطول هذه البحيرة ستون ميلاً وعرضها اثنا عشر ميلاً » (الإدريسي ص354)[1].

ومن ريحا إلى زغر يومان.
من زغر إلى جبال الشراة ومن جبال الشراة إلى آخر الشراة يومان.
ومن ريحا إلى بيت المقدس مرحلة.
ومن بيت المقدس إلى عمان والبلقاء يومان.
(ومن الرحلة إلى قيسارية مرحلة كبيرة) (الإدريسي: 355).

«وريحا المذكورة من أجمل بقاع الغور وعمتا وبيسان وأكثر غلات بلاد الغور النيلج وأهله سمر بل إلى السواد أقرب».

«والجي بلد من بلاد فلسطين صغيرة ماؤها حار وهواؤه وخيم».

«وأما مدينة بيسان فصغيرة جداً وبها نخل كثير وينبت بها السامان الذي يعمل منه الحصر السامانية ولا يوجد نباته البتة إلا بها وليس في سائر الشام شيء منه».

«وفلسطين ماؤها من الأمطار والسيول وأشجارها قليلة وديار فلسطين حسنة البقاع بل أزكى بلاد الشام ومدينتا الشام هما الرملة ثم بيت المقدس.

فأما الرملة فهي مدينة حسنة عامرة وبها أسواق وتجارات ودخل وخرج ومنها إلى يافا التي على ساحل البحر الملح نصف يوم.

---

(1) هذه إشارة من الإدريسي عن وجود قوارب وزوارق في البحر الميت لنقل الغلال من التمر والحبوب بين الأردن وفلسطين وبين أجزاء شواطئ البحر أيضاً.

ومن الرملة إلى نابلس يوم.

ومن الرملة إلى قيسارية مرحلة كبيرة.

ونابلس مدينة السامرية وبها البئر التي حفرها يعقوب عليه السلام وبها جلس السيد المسيح وطلب من المرأة السامرية الماء ليشرب وعليه الآن كنيسة حسنة ويزعم أهل بيت المقدس أن السامرية لا يوجد أحد منهم إلا بهذه المدينة.

وبآخر مدن فلسطين مما يلي الجفار وطريق مصر مدينة غزة وبينهما من الأميال ثلاثون ميلاً. ومن فلسطين إلى مدينة عسقلان مرحلة كبيرة.

وبين عسقلان وغزة نحو من عشرين ميلاً وهي الآن عامرة بأيدي الروم ومرسى غزة تيدا (الإدريسي: ص 356).

«ومن ميماس إلى عسقلان شرقاً عشرون ميلاً.

والعريش مدينة كانت ذات جامعين مفترقة المباني والغالب على أرضها الرمال ولها ثمار وفواكه وهي على مقربة من البحر.

وأيضاً فإن الطريق من الرملة إلى يبني نصف مرحلة ومنها إلى يزدود في البر مرحلة ومن يزدود إلى غزة وقد تقدم ذكرها مرحلة.

ومن غزة إلى مدينة رفح وهي مدينة صالحة مرحلة ومنها إلى العريش مرحلة ومن العريش إلى الورادة وهي منزل قرب البحر مرحلة.

ومن الورادة إلى الفرما وهي مدينة على بحر الشام مجاورة لبحيرة تنيس مرحلة (الإدريسي: ص 357).

« وأما مدينة عسقلان فهي مدينة حسنة ذات سورين وبها أسواق وليس لها من خارجها بساتين وليس بها شيء من الشجر واستفتحها صاحب القدس

بعساكر الروم من الإفرنج وغيرهم في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وهي الآن بأيديهم وعسقلان معدودة في أرض فلسطين ويقابلها في جهة الجنوب ناحيتان جليلتان وهما جبال وشراة فأما جبال فمدينتها تسمى دراب[1]؛ وشراة أيضاً مدينتها تسمى أذرح وهما في غاية الخصب وكثرة أشجار الزيتون واللوز والتين والكروم والرمان وعامة سكانها من قيس » (الإدريسي: ص 357).

« وكذلك بين جنوب منها وشرق قرية مؤتة ومنها إلى عمّان تمر فيها بين شعبي جبل يقال له الموجب وهو وادٍ عظيم عميق القعر ويمر فيما بين هذين الشعبين وليسا بمتباعدين وذلك يمكن أن يكون مقدار ما يمكن أن يكلم إنسان إنساناً وهما واقفان على ضفتي النهر فيسمع بعضهما بعضاً ينزل فيه السالك ستة أميال ويصعد ستة أميال » (الإدريسي: ص 357-358).

« وعلى قبر العازر يؤخذ طريق وادي الأردن وبين وادي الأردن وبيت المقدس مسافة يوم واحد ومن قبل أن تصل إلى وادي الأردن مدينة ريحا السابق ذكرها وبينها وبين الوادي ثلاثة أميال وعلى الوادي المسمى الأردن كنيسة عظيمة على اسم شنت يوحنا يسكنها رهبان الإغريقيين ووادي الأردن يخرج من بحيرة طبرية ويصب في بحيرة سادوم وغاموراء اللتين كانتا مدينتي قوم لوط فغرقهما الله بذنوب أهلها، ومما يلي قبله وادي الأردن برية متصلة » (الإدريسي: ص 361). ومن بيت المقدس إلى عمان والبلقاء يومان وبعض يوم.

ومن بيت المقدس إلى طبرية تسعون ميلاً وكذلك من طبرية إلى الرملة ثلاث مراحل وطبرية مدينة الأردن الكبرى وهي قصبتها فمنها إلى صور يومان

---

(1) رغم معرفتي بمحافظة الطفيلة وقراها، إلا أنني لا أعرف أي القرى هذه التي يشير إليها الإدريسي على أنها عاصمة جبال (منطقة الطفيلة). ولكن يبدو أن دراب هي رواث نفسها، وأنه كتبها خطئاً لبُعد مكانه عن مكانها، ولأنه لم يَزُرْها.

كبيران ومنها إلى عقبة أفيق نحو يوم ومنها إلى بيسان بعض يوم ومنها إلى عمتا[1] مدينة الغور إلى آخر عمل الأردن ومنها إلى موضع يعرف بالجميلة.

« ومن طبرية إلى عكة يومان خفيفان وهي (طبرية) مدينة جليلة على جبل مطل طويلة في ذاتها قليلة العرض وطولها نحو من ميلين وأسفلهما من جهة المشرق بحيرة عذبة الماء طولها اثنا عشر ميلاً في عرض مثلها وبها مراكب سابحة تُحمل فيها الغلات إلى المدينة ولها سور حصين ويعمل بها من الحُصُرْ السامانية كل عجيبة وقليلاً ما يصنع مثلها في بلد من البلاد المعروفة وفي هذه المدينة حمامات حامية من غير نار توقد لها فهي حارة في الشتاء والصيف وفيها حمام يُعرف بحمام الدماقر وهو كبير عظيم وماؤه في أول خروجه حار تسمط فيه الجداء والدجاج ويسلق فيه البيض وماؤه ملح وبها حمام اللؤلؤ وهو أصغر من حمام الدماقر وماؤه حار عذب وهذا الماء الحار يخترق في الدور المجاورة له وبه يغتسلون ويتصرفون ومن حماماتها حمام المنجدة وماؤه حار عذب وليس فيها حمام توقد له النار إلا الحمام الصغير الذي بها وذلك أنه بناه أحد الملوك الإسلامية في داره ليدخله هو ومن له من أهل وولد وحاشية فلما مات أُخرج وجعل للناس عامة فهم يدخلونه وماؤه يسخن بالنار وحده وفي جهة الجنوب منها حمامات كثيرة مثل عين موقعين وعين الشرف وغيرهما تصب إليهما عيون مياهها حارة مدى الدهر ويقصد إليها من جميع النواحي أهل البلايا من الناس مثل المقعدين والمفلوجين والمرياحين وأصحاب القروح والجرب فيقيمون بها في الماء ثلاثة أيام فيبرؤون بإذن الله من ذلك » (الإدريسي: ص 363-364).

« وحيفا تحت طرف الكرمل وهو طرف خارج في البحر وبه مرسى حسن لإرساء الأساطيل وغيرها ومدينة حيفا هي فرضة لطبرية وبينهما ثلاث مراح

---

(1) لا أعرف أين تقع عمتا هذه، وهي من أعمال الأردن، وفي منطقة الغور. (المؤلف).

خفاف. ومن حيفا إلى مدينة عكة مرحلة في البر وهي من الأميال ثلاثون ميلاً وفي البحر رؤوسية ثمانية عشر ميلاً ومدينة عكة كبيرة واسعة الأرجاء كثيرة الضياع ولها مرسى حسن مأمون وناسها أخلاط فمن طبرية إلى عكة يومان ومن عكة إلى حصن الزيب اثنا عشر ميلاً وهو حصن حسن على ضفة البحر الملح.

ومنه إلى النواقير وهي ثلاثة جبال بيض شواهق مطلة على ضفة البحر نحو من ثمانية عشر ميلاً ومن وسط النواقير إلى مدينة الإسكندرية خمسة أميال. ومن الإسكندرية إلى مدينة صور خمسة عشر ميلاً وهي مدينة حسنة على ضفة البحر وبها للمراكب إرساء وإقلاع وهو بلد حصين قديم والبحر قد أحاط به من ثلاثة أركانه وهذه المدينة ربض كبير ويعمل بها جيد الزجاج» (الإدريسي: ص365).

ويلي كورة فلسطين من جهة المشرق « كورة الأردن وأكبر بلادها مدينة طبرية ومنها اللجون ومنها كورة السامرية وهي نابلس وبيسان وريحا وزغر وعمتا وحبيس وجدر وآبِلْ (عابل) وسوسية وكورة عكة وكورة ناصرة وكورة صور ويليها من جهة المشرق أرض دمشق ومن كورها الغوطة وأرض بعلبك والبقاع وإقليم لبنان وكورة حولة وكورة اطرابلس وكورة جبيل وكورة بيروت وكورة صيداء وكورة البثنية وكورة حوران وكورة جولان وكورة ظهرة وكورة البلقاء وكورة جبرين الغور وكورة مآب وكورة عمان وكورة الشراة وبصرى والجابية.

ويلي هذه الأرض من جهة المشرق أرض البادية ويليها من ناحية الجنوب أرض السماوة وأرض عاد ويلي أرض دمشق أرض العواصم وأرض قنسرين وسنذكرها أيضاً في أمكنتها عند اتصالها بالمصورة الآتية من الإقليم الرابع.

ومدينة دمشق قطب ومدار لمدنها فمنها إلى بعلبك مرحلتان ومنها إلى حمص خمسة أيام ومن دمشق إلى طبرية أربع مراحل ومن دمشق إلى اطرابلس على بحر الروم مسيرة خمسة أيام ومن دمشق إلى بيروت يومان ومن دمشق إلى

صيداء يومان ومن دمشق إلى أذرعات وهي البثنية أربعة أيام ومن دمشق إلى الجولان يومان.

والشام أول طوله من ملطية إلى رفح والطريق من ملطية على منبج وبينهما أربع مراحل ومن منبج إلى حلب يومان ومن حلب إلى حمص خمسة أيام ومن حمص إلى دمشق خمسة أيام ومن دمشق إلى طبرية أربعة أيام ومن طبرية إلى الرملة ثلاثة أيام ومن الرملة إلى رفح يومان فذلك خمس وثلاثون مرحلة.

نجز الجزء الخامس من الإقليم الثالث والحمد لله ويتلوه الجزء السادس منه إن شاء الله » (الإدريسي: ص 377-238).

-15-

اجنـــاد الشـــام

(الحموي (ت 626هـ) معجم البلدان: ج1، ص103)

يقول الحموي في القرن السابع الهجري في كتابه معجم البلدان:

أَجْنادُ الشام: جمع جُنْد، وهي خمسة: جُنْدُ فلسطين، وجُنْد الأُردنّ، جند دمشق، وجند الحمص، وجند قنّسرين. قال أحمد بن يحيى بن جابر: اختلفوا في الأجناد، فقيل سمّى المسلمون فلسطين جُنْداً، لأنه جمع كوراً، والتجنُّد: التجمُّع، وجَنَّدْتُ جُنداً أي جمعت جمعاً، وكذلك بقية الأجناد. وقيل: سميت كل ناحية بجُند كانوا يَقْبضون أعطياتهم فيه. وذكروا أن الجزيرة كانت مع قنّسرين جنداً واحداً، فأفردها عبدالملك بن مروان وجعلها جنداً برأسه، ولم تَزَلْ قنّسرين وكورها مضمومة إلى حمص حتى كان ليزيد بن معاوية، فجعل قنّسرين إنطاكية ومَنْبج جنداً برأسه، فلما استُخلف الرشيد، أفرد قنسرين بكورها، فجعلها جندً، وأفرد العواصم، كما نذكره في العواصم إن شاء الله؛ وقال الفرزدق:

فقـلـتُ: مـا هو إلا الشام تَرْكَبُهُ،   كأنمـا المـوتُ في أجـناده الـبَغَرُ

والبَغَرُ: داءٌ يصيب الإبل، تشرب الماء فلا تَروَى (الحموي: ج 1، ص 103).

-16-

الأردن عند الحموي

(معجم البلدان: ج 1، ص 147-149)

الأُرْدُنُّ: بالضم ثم السكون، وضم الدال المهملة، وتشديد النون؛ قال أبو علي: وحُكْ الهمزة إذا لحقت بَنَات الثلاثة من العربي أن تكون زائدة حتى تقوم دلالة تخرجُها عن ذلك، وكذلك الهمزة في أسْكُفَّة والأسْرُبّ، والأردن: اسم البلد وإن كنّ معربات؛ قال أبو دَهْلَب أحد بني ربيعة ابن قُرَيع بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم:

حَـنَتْ قَلُوصـي أمـسِ بـالأُرْدُنُّ؛
حِـنّي فمـا ظُـلِمْتِ إن تَحِـنّي؛
حَـنَّت باعـلى صـوتها المُـرِنُّ،
في خَـرْعَبٍ اجـشُّ مُسْـتَجَنُّ
فيـه كـتهزيم نواحـي الشَّـنُّ

قال أبو علي: وإن شئت جعلت الأُرْدُنُّ مثل الأبْلُم، وجعلت التثقيل فيه من باب سَبْسَبٌ، حتى إنك تجري الوصل مجرى الوَقْف، ويُقَوِّي هذا أنه يكثر جيئه في القافية غير مشدّد؛ نحو قول عدي بن الرقاع العاملي:

لـولا الإلـه وأهل الأُرْدُن اُقْتُسِمَتْ   نـارُ الجماعـةِ، يـومَ المـرجِ، نيرانا

قالوا: والأُرْدُنُّ في لغة العرب النُّعاس؛ قال أُبَاق الزبيري:

وقـــد عَلَـــتني نعســـة الأُرْدُنّ ومُوْهِـــبٌ مُـــبْرٍ بهـــا، مُصِـــنّ

هكذا يقول اللغويون: إن الأردن النعاس، ويستشهدون بهذا الرجز، والظاهر أن الأردن الشدة والغلبة فإنه لا معنى لقوله وقد علتني نعسة الأردن[1]؛ قال ابن السكيت: ولم يُسمع منه فعل؛ قال: ومنه سمي الأردن اسم كورة؛ وأهل السير يقولون: إن الأردن وفلسطين ابنا سام بن ارن بن سام بن نوح، ﷺ، وهي أحد أجناد الشام الخمسة، وهي كورة واسعة منها الغور وطبرية وصور وعكا وما بين ذلك؛ قال احمد بن الطيب السرخسي الفيلسوف: هما أُرْدُنّان، اردنٌ الكبير وأردن الصغير، فأما الكبير فهو نهر يصب إلى بحيرة طبرية، بينه وبين طبرية، لمن عَبَر البحيرة في زورق، اثنا عشر ميلاً، تجتمع فيه المياه من جبال وعيون فتجري في هذا النهر، فتسقي أكثر ضياع جند الأردن مما يلي ساحل الشام وطريق صور، ثم تنصب تلك المياه إلى البحيرة التي عند طبرية.

وطبرية على طرف جبل يُشرف على هذه البحيرة، فهذا النهر عني الأردن الصغير فهو نهر يأخذ من بحيرة طبرية البحيرة؛ وأما الأردن الصغير[2] (يقصد

---

(1) إن النُعاس مقترن بالأمن والطمأنينة كما ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ [آل عمران: 154] وقوله سبحانه: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ [الأنفال: 11]. إذن فإن من معاني الأردن: الأمن والطمأنينة، ومثل هذا المعنى جعله موئل العابرين والمارّين والمهاجرين الباحثين عن الطعام من الجوع والأمن من الخوف وذلك عبر الدهور والعصور حتى يومنا هذا في مطلع القرن الحادي والعشرين. وبالتالي فإن قول الشاعر: وقد علتني نعسة الأردن، أنه ليس غلبة النعاس فحسب، بل إن النعاس لا يغلب الإنسان إلا ويأتي معه بالأمن والطمأنينة، لأن النعاس يؤدي إلى النوم وبالتالي إلى الراحة والطمأنينة. ولا يكون النوم مع الأرق ولا مع الخوف بل بذهابهما أو غيابهما للحظة أو لحظات، حيث يأتي بدلاً منه: النعاس ويأتي الأمن والطمأنينة.

(2) هناك خطأ في التصنيف قد يكون أساسه مطبعياً أو كتابياً في المخطوطة، حيث يرى أن الأردن الكبير هو الروافد حتى بحيرة طبريا وما بقي فهو الأردن الصغير. والحقيقة التي نراها متفقة مع =

الكبير) فهو نهر يأخذ من بحيرة طبرية ويمر نحو الجنوب في وسط الغور، فيسقي ضياع الغور؛ وأكثر مستغلّتهم السكر، ومنه يُحمل إلى سائر بلاد الشرق، وعليه قُرى كثيرة، منها: بيسان وقَراوا وأريحا والعوجاء، وغير ذلك.

وعلى هذا النهر قرب طبرية قنطرة عظيمة ذات طاقات كثيرة تزيد على العشرين، ويجتمع هذا النهر ونهر اليرموك فيصيران نهراً واحداً، فيَسقي ضياع الغور وضياع البثنية، ثم يمر حتى يصب في البحيرة المنتنة في طرف الغور الغربي. وللأردن عدة كور؛ منها: كورة طبرية وكورة بيسان وكورة بيت رأس وكورة جَدَر وكورة صفّورية وكورة صور وكورة عكا وغير ذلك مما ذكر في مواضعه.

وللأردن ذكر كثير في كتب الفتوح، ونذكر ههنا ما لابد منه؛ قالوا: افتتح شُرْحبيل بن حسنة الأردن عنوةً ما خلا طبرية، فإن أهلها صالحوه على أنصاف منازلهم وكنائسهم، وكان فتحة طبرية بعد أن حاصر أهلها أياماً، فآمنهم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم إلا ما جَلَوا عنه وخلّوه، واستثنى لمسجد المسلمين موضعاً، ثم إنهم نقضوا في خلافة عمر ﷺ أيضاً واجتمع إليهم قوم من سواد الروم وغيرهم، فسيّر إليهم أبو عبيدة عمرو بن العاص في أربعة آلاف ففتحها على مثل صلح شرحبيل، وكذلك جميع مدن الأردن وحصونها على هذا الصلح فتحاً يسيراً بغير قتال؛ ففتح بيسان وأفيق وجرش وبيت رأس وقدس والجولان وعكا وصور وصفورية، وغلب على سواد الأردن وجميع أرضها، إلا أنه لما انتهى إلى سواحل الروم، كثرت الروم فكتب إلى أبي عبيدة يستمده، فوجه إليه أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان، وعلى مقدمته معاوية أخوه، ففتح يزيد

= المنطق والحقيقة، والواقع هي أن الأردن الصغير هو ما كان ممتداً من المنابع حتى بحيرة طبريا، أما الأردن الكبير فهو ما امتد من طبريا حتى يصب في البحر الميت، وإن كنت بذلك أخالف ما ورد في الكتب القديمة، ومن بينها ما ورد لدى الحموي.

وعمرو سواحل الروم، فكتب أبو عبيدة إلى عمر، ﷺ ، بفتحها لهما، وكان لمعاوية في ذلك بلاء حسن وأثر جميل.

ولم تزل الصناعة من الأردن بعكا إلى أن نقلها هشام بن عبدالملك إلى صور، وبقيت على ذلك إلى صدر مديد من أيام بني العباس، حتى اختلف باختلاف المتغلبين على الثغور الشامية، وقال المتنبي يمدح بدر بن عمّار، وكان قد ولي ثغور الأردن والساحل من قبل أبي بكر محمد بن رائق:

تُهنّا بصور، أم نهنئها بكا، ... وقلَّ الذي صورٌ، وأنت له لكا
وما صَغّرَ الأردنُّ والساحل الذي ... حُبيت به، إلا إلى جنب قدركا
تحاسدت البلدان، حتى لو أنها ... نفوس، لسار الشرق والغرب نحوكا
وأصبح مِصرٌ، لا تكون أميرَهُ، ... ولو أنه ذو مُقلة وفَمٍ، بكى

وحدث اليزيدي قال: خرجنا مع المأمون في خرجته إلى بلاد الروم، فرأيت جارية عربية في هودج، فلما رأتني قالت: يا يزيدي أنشدني شعراً قلته حتى اصنع فيه لَحْناً؛ فأنشدتُ:

ماذا بقلبي من دَوام الخَفْقِ، ... إذا رأيتُ لمَعَانِ البَرقِ
من قِبَلِ الأرْدُنِّ أو دمشق، ... لأن من أهوى بذاك الأفق؛
ذاك الذي يَمْلِكُ مِنّي رِقّي ... ولستُ أبغي ما حَيِيتُ عِتقي

قال: فتنفّستَ تنفساً ظننت أن ضلوعها قد تقصفت منه؛ فقلت: هذا والله تنفسُ عاشق فقالتْ: اسكت ويلك أنا أعشق؟ والله لقد نظرتَ نظرةً مريبة، فادّعاها من أهل المجلس عشرون رئيساً ظريفاً.

وقد نسبَت العربُ إلى الأردنّ حسان بن مالك بن بَجْدل بن أنيف بن دَلَجة بن قُنافة بن عدي بن زُهَيْر بن حارثة بن جَنَاب بن هُبَل الكلبي، لأنه كان

والياً عليها وعلى فلسطين، وبه (أي الأردن) مُهِّدَ لمروان بن الحكم أَرَمُه وهزم الزبيرية، وقتل الضحاك بن قيس الفهري في يوم مرج راهط، وكانت ابنته مَيسون بنت حسان أمّ يزيد بن معاوية وإياه عَنَى عدي بن الرقاع بقوله:

لـولا الإلهُ وأهلُ الأردن اقتُسمت نـارُ الجماعـة، يـوم المـرج، نيرانـا

وإياه عنى كثيّر بقوله:

إذا قيـل: خَيْلَ اللهِ يوماً الا إِرْكَبِي، رضيتُ، بكفِّ الأردنيُّ، انْسَحالَها

ونُسب إلى الأردن جماعة من العلماء وافرة؛ منهم: الوليد بن مسلمة الأردني، حدّث عن يزيد بن حسان ومسلمة بن عدي، حدث عنه العباس بن الفضل الدمشقي، ومحمد بن هارون الرازي، وعبدالله بن نُعيم الأردني، روى عن الضحاك بن عبدالرحمن بن عَزْرَب، وروى عنه يحيى بن عبدالعزيز الأردني، وأبو سلمة الحكم بن عبدالله بن خُطّاف الأردني، والعباس بن محمد الأردني المرادي، روى عن مالك بن أنس وخُلَيد بن دعلج ذكره ابن أبي حاتم في كتابه، وعُبادة بن نُسَيّ الأردني، ومحمد بن سعيد المصلوب الأردني مشهور وله عدة ألقاب يُدلّس بها، وعلي بن إسحاق الأردني حدث عن محمد بن يزيد المستملي، حدث أبو عبدالله بن مندة في ترجمة خشب من معرفة الصحابة عن محمد بن يعقوب المقري عنه، ونُعيم بن سلامة السبّائي، وقيل الشيباني، وقيل الغساني، وقيل الحميري مولاهم الأردني، سمع ابن عمر وسأله وروى عن رجل من الصحابة من بني سليم، وكان على خاتم سليمان بن عبدالملك، وعمر ابن عبدالعزيز، وروى عنه أبو عبيد صاحب سليمان بن عبدالملك، ورجاء بن حياة، والأوزاعي، وعطاء الخراساني، ومحمد بن يحيى بن حبّان، وعُتبة بن حكيم أبو العباس الهمداني الأردني، ثم الطبراني سمع مكحولاً، وسليمان بن

موسى، وعطاء الخراساني، وعباس بن نسي، وقتادة بن دعامة، وعبدالرحمن بن أبي ليلى، وابنه عيسى بن عبدالرحمن، وابن جُريج وغيرهم؛ روى عنه يحيى بن حمزة الدمشقي، ومسلمة بن علي، ومحمد بن شعيب بن شابور، وإسماعيل بن عباس، وبقية بن الوليد، وعبدالله بن المبارك، وعبدالله ابن لهيعة وغيرهم؛ وقال ابن معين: هو ثقة، وكذلك أبو زُرْعة الدمشقي ومات بصور سنة 147.

-17-

اللَجُّــون[1]

(الحموي: ج 5، ص 13)

اللَجُّون: بفتح أوله وضم ثانيه. واللُّجْنُ واللُّزْجُ واحِدٌ، وهو بلد بالأردن وبينه وبين طبرية عشرون ميلاً وفي اللجون صخرة مدورة في وسط المدينة وعليها قبة زعموا أنها مسجد إبراهيم عليه السلام ، وتحت الصخرة عين غزيرة الماء، وذكروا أن إبراهيم دخل هذه المدينة في وقت مسيره إلى مصر ومعه غنم له وكانت المدينة قليلة الماء فسألوا إبراهيم أن يرتحل عنهم لقلة الماء فيقال إنه ضرب بعصاه هذه الصخرة فخرج منها ماء كثير فاتسع على أهل المدينة فيقال إن بساتينهم وقراهم تُسقى من هذا الماء والصخرة قائمة إلى اليوم.

---

(1) في الأردن موقعان بهذا الاسم (اللّجون) الأول في الكرك وهو قديم، وكانت به حامية عسكرية رومانية، وهو موقع أثري هام جداً لا زال قائماً ومعروفاً حتى يومنا هذا (مطلع القرن الحادي والعشرين)، كما أشار إليه الرحالة الأجانب الذين زاروا الأردن أو تجوّلوا بها في القرنين التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وصفوها بدقّة. أما المكان الثاني المسمى اللجون أيضاً، فهو في شمال الأردن التاريخي، وهو الآن جزء من شمال فلسطين المحتلة، وهو المشار إليه هنا في هذا المقام الذي نحن بصدده، وقد ذكرنا ذلك في أكثر من موضع في الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب.

واللجُّون: مرج طوله ستة أميال كثير الوحل صيفاً وشتاءً. واللجُّون أيضاً: موضع في طريق مكة من الشام قرب تيماءَ وسماه الراعي لجّان في قوله[1]:

فقلت والحرّة الرُّجلاءُ دونهم وبطن لجّان لمّا اعتادني ذكري
صلّى على عزّة الرحمن وابنتها ليلى، وصلّى على جاراتها الأُخَرِ

-18-

الأُرْدُنّ

(القزويني (ت 682 هـ): ص 141-2)

في كتابه: آثار البلاد وأخبار العباد، يقول القزويني في القرن السابع الهجري ما يلي:

« ناحية بأرض الشام في غربي الغوطة وشماليها، وقصبتها طبرية، بينها وبين بيت المقدس ثلاثة أيام، بها البحيرة المنتنة التي يقال لها بحيرة طبرية. ودورة البحيرة ثلاثة أيام[2]، والجبال تكتنفها فلا ينتفع بهذه البحيرة ولا يتولد فيها حيوان، وقد يهيج في بعض الأعوام فيهلك أهل القرى الذين هم حولها كلهم حتى تبقى خالية مدة، ثم يأتي يسكنها من لا رغبة له في الحياة. وإن وقع في هذه البحيرة شيء لا يبقى منتفعاً به، حتى الحطب إذا وقع فيها لا تعمل النار فيه البتة، وذكر ابن الفقيه أن الغريق فيها لا يغوص بل يبقى طافياً إلى أن يموت، ويخرج من هذه البحيرة حجر على شكل البطيخ يقال له الحجر اليهودي، ذكره

(1) هذه اللّجّون كما يلفظها الأردنيون، والتي ظهر لي في هذا النص أنها وردت: اللجون (بتشديد اللام والجيم) ولَجّان، كما ورد في شعر الراعي. وهي في الطريق إلى مكة المكرمة للقادم من الشام، ذلك أنها كانت محطة لاستراحة الحجاج، لتوفر الأمن والمياه والمرعى فيها، ولأنها بمحاذاة درب الحاج.

(2) هذه إشارة إلى أن البحر الميت كله أردني.

الفلاسفة واستعمله الأطباء لحصاة المثانة، وهو نوعان: ذكر وأنثى، فالذكر للرجال والأنثى للنساء. وبها منزل يعقوب النبي، ﷺ، وبها جبّ يوسف الصدّيق، وإلى الآن باقٍ، والناس يزورونها ويتبرّكون بها.

وينسب إليها الحواريون القصّارون؛ قال لهم عيسى ﷺ: من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله (القزويني: ص 141-142)(1).

---

(1) هذه إشارة هامة من القزويني أن منزل سيدنا يعقوب، وجبّ يوسف عليهما السلام موجودان بالأردن، في الأجزاء التي أصبحت الآن جزءاً من فلسطين. كما أن القزويني يشير إلى نقطة هامة أخرى أيضاً وهي: أن الحواريين أتباع سيدنا عيسى ﷺ هم أردنيون؛ ذلك أن الأردني بطبعه لا يقنع بسهولة وإن اقتنع لا يتراجع، وأنه كان يخاطب المسؤول بدون رتوش وإطراء أو ألقاب، وهذه صفات الحواريين الذين قالوا لسيدنا المسيح: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: 112-115]. فهم لم يقولوا يا نبي الله أو يا كلمة الله، وإنما قالوا: يا عيسى ابن مريم، باسمه المجرد من أية صفة أو تبجيل هذه كانت من صفات الأردنيين في المخاطبة. وهم يقولون لسيدنا عيسى: هل يستطيع ربّك، ولم يقولوا: الله أو ربّنا، إلا أن سيدنا عيسى دعا الله سبحانه بقوله: اللهم ربّنا. وعندما نزلت المائدة عليهم اطمأنت قلوبهم بالإيمان، ولم يتخلّوا عن المسيح وهم الذين حملوا راية التوحيد الذي أصابه الشرك بعد فترة من موتهم، وجرى الافتراء عليهم شأن الأمر بالافتراء على الأردنيين عبر التاريخ حتى الآن. فنحن شعب مظلوم مهضوم الحقوق، منذ زمن الحواريين، وزمن قوم سيدنا شعيب ﷺ، ومن قبل، ومن بعد إلى يومنا هذا.

وبذلك نجد في النص القرآني الكريم أن الله أنزل المائدة وتوعّد بمن يكفر منهم بعذاب لا يعذبه أحداً من العالمين. وإن مضاعفة العذاب هذه للأمم والأقوام والمجتمعات المسخوطة لم تكن إلا لمن يكفر من أهل الأردن، بسبب قدسية المكان، بحيث أن الكفر يستوجب مثل هذا العذاب المشدّد الذي لم نشهده حلّ بأحد من الناس والشعوب في مواقع أخرى. ولكنهم آمنوا، ثم وقع عليهم الظلم كما قلنا بالانحراف عن التوحيد، ونكرر القول أن الظلم يقع على الأردنيين عبر التاريخ حتى الآن سواء الظلم التاريخي أو السياسي أو الاجتماعي.

-19-

اللَجُّونُ

(القزويني: ص 259)

« مدينة بالأردن. في وسطها صخرة كبيرة مدوّرة، وعلى الصخرة قبّة مزار يتبرّكون بها. حكي أن الخليل ﷺ ، دخل هذه المدينة، ومعه غنم له، وكانت المدينة قليلة الماء، فسألوه أن يرتحل لقلة الماء، فضرب بعصاه هذه الصخرة فخرج منها ماء كثير اتّسع على أهل المدينة، حتى كانت قراهم ورساتيقهم تسقى من هذا الماء، والصخرة باقية إلى الآن » (القزويني: ص 259).

-20-

ذكر الشام

(أبو الفداء (ت732هـ): ص 225-229)

في القرن الثامن الهجري، نجد أبو الفداء: إسماعيل بن محمد، يتحدث عن الأردن في كتابه: تقويم البلدان، ما يلي:

« لما فرغ من ذكر الجزائر التي ببحر الروم انتقل إلى ذكر الشام وقد حدّدوا الشام على وجه دخل فيه بلاد الأرمن وهي المعروف في زماننا ببلاد سيس والذي يحيط بالشام من جهة الغرب بحر الروم من طرسوس التي ببلاد الأرمن إلى رفح التي في أوّل الجفار بين مصر والشام ويحيط به من جهة الجنوب حدّ يمتد من رفح إلى حدود تيه بني إسرائيل إلى ما بين الشوبك وأيلة إلى البلقاء ويحيط به من جهة الشرق حدّ يمتد من البلقاء إلى مشاريق صرخد آخذاً على أطراف الغوطة إلى سلمية إلى مشاريق حلب إلى بالس ويحيط به من جهة الشمال حدّ يمتد من بالس مع الفرات إلى قلعة نجم إلى البيرة إلى قلعة الروم إلى سميساط إلى حصن منصور إلى بهسنا إلى مرعش إلى بلاد سيس إلى طرسوس إلى بحر الروم

من حيث ابتدأنا وبعض هذه الحدود تقع شرقية عن بعض الشام وهي بعينها جنوبية عن بعض آخر مثل البلقاء فإنها جنوبية عن حلب وما في سمتها وهي شرقية عن مثل غزّة وما في سمتها فليعلم العذر في ذلك، وإنما سمي شاماً لأن قوماً من بني كنعان تشآموا إليه أي تياسروا إليه لأنه عن يسار الكعبة وقيل سمي شاماً بسام بن نوح واسمه بالسريانية شام بشين معجمة وقيل سمي شاماً بشامات له بيض وحمر وسود أي أن به أراضي على هذه الألوان ووقعت على كتاب لأحمد بن أبي يعقوب الكاتب في المسالك والممالك قد أثنى فيه على العراق وذمّ الشام ومصر فقال عن الشام الوبّى هواؤه الضيقة منازلُه الحزنة أرضه المتصلة طواعينه الحفاة أهله.

وقال عن مصر هي بين بحر رطب عفن كثير البخارات الردية التي تولّد الأدواء وتفسد الغذاء وبين جبل وبرّ يابس صلد ولشدة يبسه لا ينبت فيه خضراء ولا يتفجر فيه عين ماء. قال ابن الأثير: واعلم أن الشام خمسة أجناد أولها من الفرات جند قنّسرين ثم جند حمص ثم جند دمشق ثم جند الأردن ثم جند فلسطين، قال وكل جند من هذه عرضة من ناحية الفرات إلى ناحية فلسطين وطوله من الشرق إلى البحر وفلسطين بكسر الفاء وفتح اللام وسكون السين وكسر الطاء المهملتين وسكون المثناة التحتية وفي آخرها نون قال وهي كورة كبيرة تشتمل على بيت المقدس وغزّة وعسقلان.

قال ابن حوقل جند فلسطين أول أجناد الشام من جهة الغرب، من رفح إلى حدّ اللجّون وعرضه من يافا إلى ريحا[1] نحو يومين وأما زغر وديار قوم لوط

(1) في هذه الملحوظة نجد أن اللجّون (في الشمال) كانت في هذه الفترة نقطة حدودية بين جند الأردن وجند فلسطين، ونجد أن أريحا كانت الحد الشرقي لفلسطين أيضاً، وتدخل في حدود الأردن.

والجبال والشراة فمضمومة إليها وهي منها في العمل إلى حدّ أيلة وديار قوم لوط والبحيرة المتتنة وزغر إلى بيسان وإلى طبرية يسمى الغور لأنه بين جبلين وسائر بلاد الشام مرتفع عليه وبعضها من الأردن وبعضها من فلسطين في العمل.

وقال ابن حوقل أيضاً الغور أوله بحيرة طبرية ثم يمتد على بيسان حتى ينتهي إلى زغر وأريحا إلى البحيرة المنتنة ويمتد كذلك إلى أيلة. وفلسطين ماؤها من الأمطار وأشجارها وزروعها اعذاء[1] إلا نابلس فإن فيها مياهاً جارية وفلسطين أرخى بلدان الشام ومدينتها العظمى الرملة وبيت المقدس يليها في الكبر بيت المقدس مرتفع على جبال يصعد إليها من كل مكان وبه مسجد ليس في الإسلام أكبر منه وبه الصخرة وهي حجر مرتفع مثل الدكّة وعلى الصخرة قبّة عالية جداً وارتفاع الصخرة من الأرض قريب القامة ينزل إلى تحتها بمراقي (أي درج أو سُلّم) إلى بيت يكون طوله بسطة في مثلها وليس ببيت المقدس ماء جارٍ سوى عيون لا تسع للزروع وهي من أخصب بلاد فلسطين ومحراب داود بها.

قال الحسن بن أحمد المهلّبيّ في كتابه المسمى بالعزيزي أن الوليد بن عبدالملك لما بنى القبة على الصخرة ببيت المقدس بنى أيضاً هناك عدة قباب وسمى المحشر قال وإنما فعل ذلك ليعظم موقع القدس في نفوس أهل الشام وينتهون به عن الحجّ إلى بيت الله الحرام قال فإنه كان يكره مسيرة الناس إلى الحجاز لئلا يطلعوا من أهل الحجاز على فضل آل بيت رسول الله ﷺ فيتغيرون على بني أمية.

---

(1) أي بعل يعيش على المطر والندى ورطوبة الجو، وخصوبة التربة. ويقول الأردنيون: البلاد عَذِيّة: إذا كانت خصبة التربة وافرة المطر والندى والرطوبة، بحيث ينبت الزرع والكلأ فيها من الوابل والطلّ. ويقولون: عذّي المُهر: أي تدريب ابن الفرس مع العناية بعلفه بحيث يشرب حليب الإبل ويأكل الشعير. ويقولون: نياق (مفردها ناقة) مُعَذّيات أي سِمان تتمتع بصحة ممتازة، تدل على وافر المرعى وغزارة الماء، ولطافة الأجواء، وجودة العناية والرعاية.

ومن بلاد فلسطين لُدّ (أي اللُدُّ) قال في اللباب بضم اللام وتشديد الدال المهملة وهو موضع بالشام وبه يقتل الدجّال على شوط فرس من الرملة[1] ومن تلك الأماكن اللجّون بفتح اللام وضمّ الجيم المشددة وهي قرية على نصف مرحلة من بيسان في جهة الغرب عن بيسان وذكر في كتاب الأطوال أن موضعها حيث الطول نرمه والعرض لـ 8 .

ومن الأماكن المشهورة بالشام الرقيم وهو بليدة صغيرة بقرب البلقاء وبيوتها كلها منحوتة من صخر كأنها حجر واحد والبلقاء إحدى كور الشراة وهي خصبة قاعدة البلقاء حُسْبان بضم الحاء وسكون السين المهملتين وفتح الباء الموحدة ثم ألف ونون في الآخر وهي بلدة صغيرة ولحسبان وادٍ وبه أشجار وأرحية وبساتين وزروع ويتصل هذا الوادي بغور زغر[2]. والبلقاء عن أريحا

---

(1) من الأمثلة الفلسطينية الشعبية التي تدل على قرب الرملة من اللُدّ قولهم: شِدّ شِدّ قرْبت الرملة على اللُدّ، (ويلفظونها بكسر اللام).

(2) قلنا سابقاً أن مركز البلقاء كان يتداور (يتناوب) بين عمان وحسبان والقسطل حسب القرار السياسي والإداري والظروف المحيطة كلٌ في الزمن الذي تم اختيار أيٌ منها لتكون مركزاً. ونجد هنا مزجاً بين الشراة وهي جنوب الأردن وتنتهي بمحاذاة تبوك لتشمل معان وحِسْمى وسَرْغ (المدورة) والديسة ووادي رم والنقب والعقبة حتى تحاذي البحر الأحمر، ومن هذه نرى أن الأرض الأردنية مهما تم التفريق بينها بالإدارة، فإنها تعود لتلتحم وتتحد معاً في جند واحد أو كورة واحدة. أما وادي حسبان ففيه مدينة أثرية قديمة تعود ثانيةً لمختلف العصور وأهمها زمن مملكة حشبون التي كانت مزدهرة عند عبور بني إسرائيل خلال الأردن إلى فلسطين، وكان في حسبان سيل غزير جداً، وذكره الرحالة الأجانب في القرن التاسع عشر، إلا أن أسباباً عدة، ومن أهمها حفر آبار ارتوازية في مناطق أم البساتين واليادودة أثّر على المصادر الجوفية للنبع، حتى أنني رأيته جافاً في فصل الصيف في السنوات العجاف في تسعينات القرن العشرين. وقد بنى الشيخ علي ذياب العدوان قلعة رائعة في وادي حسبان آلت إلى أحد أحفاده الذي اعتنى بها لتكون معلماً أثرياً وتراثياً أردنياً، يبرهن على أن الأردنيين كانوا أصحاب عمارة وازدهار رغم أنهم كانوا محاربين أشدّاء، ذلك أن حروبهم كانت صراعاً من أجل البقاء والحفاظ على =

على مرحلة وأريحا عن البلقاء في جهة الغرب وبحيرة زغر جنوبي أريحا على بُعد شوط فرس وتُعرف هذه البحيرة بالبحيرة المنتنة وليس فيها حيوان ولا سمك ولا غيره وهي تقذف بشيء يسمى الحُمَّر بضم الحاء (المهملة) وفتح الميم المشددة ثم راء مهملة ويلطخ منه أهل تلك البلاد كرومهم وأشجار تينهم ويزعمون أنه للشجر كالتلقيح للنخل.

وعلى القرب من البحيرة المنتنة ديار قوم لوط وهي ديار تسمى الأرض المقلوبة وليس بها زرع ولا ضرع ولا حشيش وهي بقعة سوداء قد فرش بها حجارة كلها متقاربة في الكبر ويُروى أنها من الحجارة المسوّمة التي رُمي بها قوم لوط. والشراة بفتح الشين المعجمة والراء المهملة ثم ألف وهاء في الآخر. ومن الأماكن المشهورة بالشام جبل عاملة[1] وهو ممتد في شرقي الساحل وجنوبيه حتى يقرب من صور وعليه الشقيف الذي استرجعه الملك الظاهر بيبرس من أيدي الإفرنج وكانت رعاياه في حكم الفرنج.

= تراب الأردن من اعتداء الغرباء، ومن تجاوزات بعضهم على بعض. أما الآن فإن الأجيال الرديئة باعت الأراضي مقابل الفلس الأحمر، تلك الأراضي التي حماها آباؤنا الأردنيون بالدماء والسيف الأحمر.

ويقول الأحوص بن محمد (شاعر قديم) عن الموقر:

الا لا تـلُمْهُ اليـوم أن يتبـلّدا ... فقـد غُـلِبَ المحـزونُ أن يَتجـلّدا

نظـرتُ رجـاءً بالموقّـر أن ارى ... أكـاريس يَحْتَـلُّونَ خاخاً فَمُنْشِدا

(1) نحن نرى، والله أعلم، أن جبل عاملة سُمّي كذلك نسبةً إلى القبيلة الأردنية بني عاملة التي كانت في جنوب ووسط الأردن، ويبدو أنها تحركت إلى جزء آخر من الأردن، ذلك أن جبل عاملة جزء من الأردن التاريخي وسُمّي الجبل باسمهم «بني عاملة» وهم بذلك تحركوا في حينه من موقع إلى آخر داخل الأردن. ثم عاد قسم منهم إلى السلط المحروسة واسمهم الآن العواملة، وهم في رأينا امتداد وأحفاد لبني عاملة القبيلة الأردنية المعروفة.

وفي شرقيه وجوبيه جبل عوف وكان أهله عصاة فبنى عليهم أسامة حصن عجلون حتى دخلوا في الطاعة وهو معقل حصين مشرف على الغور وفي البلدة أشجار وأنهار وخصب كثير وفي شرقيه وجنوبيه جبل الصلت كان أهله عصاة فبنى عليهم الملك المعظم حصن الصلت حتى دخلوا في الطاعة وبينه وبين عجلون مرحلتان وكذلك بينه وبين الكرك.

وجبل الشراة في جنوبي البلقاء وخلفه البرية ويسكنه الآن فلاحون وفي جهة جبل الشراة الحُمَيْمَة التي خرج منها بنو العباس إلى الخلافة بالعراق بضم الحاء ثم ميمين مفتوحتين بينهما ياء آخر الحروف وفي آخرها هاء وهي قرية على مرحلة من الشوبك، ومن الأماكن المشهورة بتلك الناحية مُعَان قال في كتاب الأطوال أن موضعها حيث الطول نول والعرض لـ 8 وهي بضم الميم وبالعين المهملة ثم ألف ونون قال ابن حوقل ومُعَان مدينة صغيرة سكّانها بنو أمية ومواليهم وهو حصن من الشراة أقول وهو الآن خراب ليس به أحد وهو على مرحلة من الشوبك » (ابو الفداء ت 732هـ: ص 225-229) [1].

---

(1) هناك نقاط هامة في هذا النص وذلك على النحو التالي:

(1) أن جبل الشراة يقع في جنوب البلقاء التي كانت عاصمتها عمان تارةً، وحسبان تارةً أخرى كما رأينا. وذلك برهان جديد أن الشراة جزء من الأردن وهي تمتد كما قلنا إلى جنوب العقبة بمحاذاة تبوك على ساحل البحر الأحمر، وتشمل العقبة والجبال التي تنتهي شرقاً بالبرية، وغرباً بوادي عربة.

(2) إن الحميمة في جبال الشراة، وهي في البلقاء أيضاً، وأن سكان الشراة زمن أبي الفداء كانوا من الفلاحين وهذه دلالة وبرهان على توفر المياه والزراعة والرعاية والإنتاج والاستقرار والتآلف بين الناس، وانعدام أو قلّة الغزو والنهب في ذلك الوقت مما يتيح الفرصة للفلاحين أن يسكنوها بسلام ووئام.

(3) أن هناك عشيرتان أردنيتان كانتا عاصيتين على الدولة وهما: بني عوف في جبل عجلون حيث جمعهم أسامة بن المنقذ وقبض عليهم عند دعوته لهم للوليمة، وبني الحصن (قلعة =

-21-

الأردن

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لأبي عبيد البكري (ج 2 ص 137-138)

بضم أوّله، وبالدال المهملة المضمومة والنون المشددة: نهرٌ بأعلى الشام. قال يعقوب: وأصل هذه التسمية في اللسان النُّعَاس؛ وأنشد:

وقَـــدْ عَلَـــتْني نَعْسَـــةٌ أُرْدُنُّ

وقال الراجز:

حَـــنَّتْ قَلُوصِـــي أَمْـــسِ بـــالأُرْدُنِّ
حِـــنِّي فمـــا ظُـــلِمْتِ أنْ تَحِـــنِّي
مُـــــلاَوَةً مُلِّيـــــتُها كـــــأنّي

= عجلون/ الربض)، وصادر أرضهم منهم، ومنعهم من الاعتراض أو الاعتداء. أما العشيرة الثانية فهم بنو رحمن، وهم عشيرة الرحامنة من عباد وهم الآن سكان يرقا، وقد قام الملك المعظم عيسى بالهجوم عليهم وكسر شوكتهم وفرّقهم بالبلاد، وبنى حصن السلط كي لا يعودوا للتعرض للقوافل. وقد عاد منهم من ذهب إلى سوريا وغيرها، والتحق ثانيةً بعشيرته (انظر كتابنا العشائر الأردنية).

(4) أن مَعَان كانت تُلفظ بضم الميم «مُعَان» أما الآن فإن الأردنيين يلفظونها بفتح الميم «مَعَان».

(5) أن بقايا بني أمية كانوا لا زالوا فيها في القرن الثامن الهجري أي بعد حوالي ستة قرون من اندثار دولتهم (عام 132هـ). وذلك يبيِّن مدى بُعد المنطقة عن متناول سطوة الدولة، ذلك أنها كما قلنا في موقع آخر من هذا الكتاب يتخذون معان ملاذاً آمناً، فإن جاء الخطر من الجبال لجأوا إلى الصحراء شرقاً، وإن جاء من الصحراء لجأوا إلى الجبال الوعرة غرباً. ولا تزال عشيرة من بقايا بني أمية موجودة في الشوبك تسمى: الجعدنّة. «الجعديون» نسبة إلى مروان بن الحكم الجعدي. وليس شرطاً أن يكونوا من أحفاده، وإنما لأنه كان آخر خلفاء بني أمية فذهبت نسبة من بقي من بني أمية إليه، وسمُّوا (بضم السين وتشديد وضم الميم) بالجعديين، والله أعلم.

ضارِبٌ صَنْجَيْ نَشْوَةٍ مُغَنٍّ
بين خَوَابي قَرْقَفٍ ودَنٍّ

ومن حديث محول: « أن جزيرة العرب لما افتُتحت، قال رجل عند ذلك: أبْهُو الخَيْلَ والسلاح، فقد وضعت الحرب أوزراها. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فرَدّ قوله عليه وقال: لا تزالون تقاتلون الكفار حتى يقاتل بقاياكم الدّجّال ببطن الأردن، أنتم من غربيّه، والدجال من شرقيّه ». قال الراوي: ما كنتُ أدري أين الأردن حتى سمعته من رسول الله ﷺ.

-22-

أَرْقَبَان

بفتح أوّله وإسكان ثانيه، بعده قاف وباء معجمة بواحدة، على وزن أفْعَلان: موضع، قال الشاعر:

أزبُّ الحاجبين بعَوف سَوءٍ مِن النَّفَر الذين بأَرْقُبَان

(للأخطل، جمهرة ابن دريد)

قال أبو بكر: ويقال إنه أراد بأرْقُبَاذ، فلم يَستَقِم له الشعر. ذكر ذلك في حرف بَزَز.

أَرْيَح

قرية بالشام، وهي أريحَاء، سُمّيت باريحاء بن الملك بن أرْفَخْشَدَ بن سام بن نوح، قال صخر الغيّ، وذكر سَيْفاً:

فَلَيْتُ عنه سُيُوفَ أَرْيَحَ حَتَّى بَا بكفّي ولم أكَدْ أجِدُ

أراد: باء، فقصر للضرورة. وروى السُّكَّرِيّ: « إذا بَا بكفّي ». وربما قالوا: أريحاء، فإذا نسبوا قالوا: أرِيحِيٌّ لا غير، وانظره في رسم حاء[1].

-23-

افيــح

بفتح أوّله، وكسر ثانيه، وبالحاء المهملة، على وزن فعيل. وشكّ فيه الأصمعي، في رواية أبي حاتم عنه، فقال: لا أدري أهو أفيح بالحاء، أم بالخاء المعجمة. ورواه أبو نصر عن الأصمعي أفيح، بالحاء المهملة، غيرَ شاكٍّ. وهو موضع بالغور، وقيل: هو موضع بين ديار بني القَيْن، وديار بني عَبْس، قال ابن مُقْبل:

يَسْلُكْنَ ركن أفيح عن شمائِلِهَا ... بانَتْ شَمائلنَا عنه ولم يَبِنِ

وقال عروة بن الورد:

أقُولُ لهم يا مالُ أمُّكَ هابلٌ ... مَتَى حُبِسَتْ على أفيحٍ تُعَقَّلُ

أفْيَح على مثل حروف الأوّل، إلا أنه ساكِنُ الفاء مفتوح الياء؛ وهو عَلَم في ديار بن عُقيل.

-24-

افيــق

بفتح أوله وكسر ثانيه، بعده ياء وقاء: قرية باليمن، في بلاد عَنْس من مَذحِج. قال الهمداني: وأفيق أيضاً على مثل لفظه: قرية بالشام، مشرفة على

(1) أما رَقْبان فهي منطقة في الزاوية الشمالية الشرقية من الأردن في البادية الأردنية وقد زرتها (أنا المؤلف) عام 1974، وهي مناطق بادية شبه قاحلة، لكنها على بحر من الماء الجوفي. وفي سنوات الخصب والمطر تتحول إلى مركز جذب لصحاب الأنعام من البدو الأردنيين، ومن سوريا والعراق وجزيرة العرب.

الأردن، وعلى موضع يقال له الأقحوانة، وهي من دمشق على يومين ونصف.
ويفيق بالياء: موضع آخر بذي رُعَيْن[1].

-25-

الأقْحُوَانة

بضم أوله: على لفظ الواحدة من الزهر، الذي يسمى الأُقْحُوَان. قال الزبير: الأقْحُوَانة بمكة: ما بين بئر مَيْمون إلى بئر ابن هشام؛ قال الحارث بن خالد المخزوميّ:

مَنْ كان يَسْأل عَنَّا أين منزلُنا ... فالأُقْحُوانة مِنَّا منزلٌ قَمَنٌ
إذ نَلْبَس العَيْشَ غَضّاً لا يُكَدِّره ... قَرْفُ الوُشاة ولا ينبو بنا الزَّمَنُ

وقال بعض اللغويين: الأقحوانة: موضع بالبادية، وهو غلط، إلا أن يكون موضعاً آخر. والأقحوانة أيضاً: بالشام، على يومين ونصف من دمشق.

-26-

الأيْكَة[2]

المذكورة في كتاب الله تعالى، التي كانت منازل قوم شعيب: رُوي عن ابن عباس فيها روايتان: إحداهما أن الأيكة من مدْيَن إلى شَغْب وبدا؛ والثانية أنها

(1) وقد وردت عقبة أفيق في كتب الرحّالة والجغرافيين المسلمين، أتينا عليه في مواقع سابقة، وهي جبال وعرة في منطقة هضبة الجولان أو حولها، حسبما هو الوصف الوارد في هذه المصادر. وتذكر أفيق أو عقبة أفيق. وكلاهما واحد لا فرق بينهما.

(2) الأيكة هي وادي شعيب الذي يبدأ من السلط وينتهي في الغور عند الشونة الجنوبية، وهي التي وردت في القرآن الكريم، وهي المكان الثاني الذي رحل إليه النبي شعيب ﷺ، بعد أن أهلك الله أهل مدين في جنوب الأردن قرب الكرك. والأيكة هي الشجر الملتف اليانع الأخضر وذلك لكثرة المياه وخصوبة التربة. وقد استبدل الناس هذه التسمية التي اقترنت بالكفر والعذاب بتسمية أخرى وهي: وادي شعيب حيث يرقد فيه ﷺ.

من ساحل البحر إلى مدين. قال: وكان شجرهم المُقْل؛ والأيكة عند أهل اللغة: الشجر الملتفّ، وكانوا أصحاب شجر ملتفّ. وقال قوم: الأيكة: الغيضة، ولَيْكَة: اسم البلد حولها، كما قيل في مكة وبَكّة. قال أبو جعفر ابن النّحاس: لا ويُعْلم « لَيْكَةُ » اسمَ بلد.

-27-

أيّـــل

بفتح أوله، وتشديد ثانيه: موضع قِبَلَ أريك، من ديار غنيّ؛ وقد تقدم ذكر أريك؛ قال الشماخ:

تَـربَّعَ أكـنافَ القَـنَانِ فصَـارَةً ... فَـأَيَّلَ فالمـاوانَ فهـو زَهُـومُ

وقال أرطاة بن سُهَيّة:

فهيهـاتَ وصـلٌ مـن أُمَيمـةَ دونه ... اريـكٌ فجَنْـبَا أَيّـلٍ فـالفَوارعُ

وقد رأيته في كتاب موثوق به: « فجَنْبَا آيل » بمدّ الهمزة، على بناء فاعل، ولعلهما لغتان. ووقع في كتاب الأيام لأبي عبيدة، في مقتل عمير بن الحُباب بالثرثار: « فأدركوا بن تغْلِب براس الإيَّل » بكسر الهمزة، وفتح الياء، هكذا ضبط عن أبي عليّ، وانظره في رسم الثرثار[1].

---

(1) لا ادري لعلّ أيل موقع في جنوب الأردن، وذلك ما نرى من تكرار هذه الأسماء والمترافدات مثل أيلة/ ويلة (وهي العقبة وإيلات/عصبون جابر)، وايضاً: أيِلُ الزيت أو ابِل الزيت أو آبل وهي عابل التي تقع إلى الجنوب من مدينة الطفيلة على الطريق إلى بصيرا والشوبك ويبدو أن هذه الكلمات أدومية قديمة، تعني: المدينة أو الثغور، أو القرى، أو الحاضرة، وما إلى ذلك. وأنه لا يمكن أن يكون تقارب هذه الأسماء جاء من فراغ أبداً.

-28-

ايْلَـة

بفتح أوله، على وزن فعله: مدينة على شاطئ البحر، في منتصف ما بين مِصْر ومكة المكرمة. هذا قول أبي عبيدة، وقد أنشد قول حسان:

مَـلَكَا مـن جَـبَل الثـلْج إلى جانِـبَيْ أيْـلَة مـن عـبدٍ وحُـر[1]

قال: وجبل الثلج بدمشق. يعني عمرو بن هند، وحُجْرَ بن الحارث الكِندي. وقال محمد بن حبيب وقد أنشد قول كُثَيِّر:

رأيـتُ وأصـحابي بأيْـلَة مَوْهِـناً وقـد غـارَ نجـمُ الفَـرْقَدِ المتصوّبُ

ايْلَـة

شُعبة من رَضْوَى، وهو جبل ينبع. ويُقوِّي هذا القول ما ذكرته في رسم ضاس، فانظره هناك. والذي ذكره أبو عبيدة صحيح لاشك فيه؛ ولكن لا أعلم أيهما عنى حسان. وبتبوك ورد صاحب أيلة على رسول الله ﷺ ، واسمه يُحَنَّا، وأعطاه الجزية. قال الأحْوَل: سميت أَيْلَة ببنت مدين بن إبراهيم عليه السلام . وقد رُوِي أن أيلة هي القرية التي كانت حاضرة البحر.

(1) في هذا البيت الجاهلي نجد أن الأرض الممتدة ما بين جبل الشيخ (جبل الثلج) وبحر القلزم حيث أيلة، كانت أرضاً واحدة، وضمن إمارة الغساسنة، وأن جانبي أيلة الشرقية، حتى الخط الذي يلتقي بالبحر قادماً من تبوك (شرقاً) وحتى بلاد التيه غرباً من أيلة، كانت ضمن أراضي الأردن، وضمن إمارة لغساسنة التي كانت الكيان السياسي الردني قبيل الفتوحات الإسلامية، ونجد حسان يمتدح آل جفنة (الغساسنة) أنهم ملكوا بلاد الأردن وملكوا الشعب من عبد وحرّ، ولم تقتصر سيادتهم على أي منها بل على كليهما: الأرض والإنسان.

إيلياء

مدينة بيت المقدس، فيها ثلاث لغات: مدّ آخره وقصره: إيلياء وإيليا؛ وقصر أولها: إلْياءُ، وقال محمد بن سهل الكاتب: معنى إيلياء: بيت الله. وقال الفرزدق في مدّها:

لَوَى ابنُ أبي الرُّقراق عَيْنَيْه بَعدما ... دَنَا مِن أعالي إيلياءَ وغَوَّرَا
بكى أنْ تغنَّتْ فوق ساقٍ حمامةٌ ... شآميةٌ هاجتْ له فتَذكَّرَا

وانظر إيلياء في رسم صِهْيون.

-29-

بُحَيْرَةُ طَبَرِيَّة

معروفة والبحر مذكر بلا خلاف، وتصغيره « بُحَيْر » بلا هاء، إلا أن هذا الاسم لزمتْهُ الهاء. وطول هذه البحيرة عشرة أميال، وعرضها ستة أميال، ويُبْسُها علامةٌ لخروج الدّجّال، تُيْبَسُ حتى لا يبقى فيها قطرة.

-30-

اماكن في الشمال

بُصْرَى[1]

بضم أوله، وإسكان ثانيه، وفتح الراء المهملة: مدينة حوْران؛ قال المُتَلَمِّس:

(1) بصرى كانت ضمن مملكة باشان الأمورية العربية الأردنية، وكانت من مدن بادية تلك المملكة التي قاومت اليهود قبل حوالي خمسة وثلاثين قرناً من الآن. ولا أدري لماذا سميت بُصْرى، إلا أنها تقع ضمن البصر لمن يراها من بعيد كعلامة فارقة في أرجاء تلك البيداء، ولا أقول الصحراء. ولست أدري إن كان هناك ارتباط ما بين بصرى الأردنية في حوران وهي هذه التي أصبحت الآن سورية، وبين بصيرا عاصمة الأدوميين في الفترة نفسها التي كانت مملكة باشان في أوجها؟! وربما يكون تشابه عفوي، والله أعلم.

لم تُدْرِ بُصْرَى بما آلَيتُ من قَسَمٍ ولا دِمِشْقُ إذا دِيسَ الكداديس

أراد: إذا دِيسَ زرعُ الكداديس: جمع كُدّاس.

بَيْتُ رَاس[1]

وهو حصن بالأردن، سمي بذلك لأنه في رأس جبل، قال حسان:

كأنّ سَبيئةً من بَيْتِ راسٍ يكون مِزَاجَهَا عَسَلٌ وماءُ

وقال أيضاً:

شَجٌ بصَهْباءَ لا سَوْرَةٌ من بَيْتِ راس عَتُقَتْ في الخِتَامِ

وقال النابغة الذبياني:

كأن مُشَعْشَعاً من خَمْرِ بُصْرَى نَمَتْه البُخْتُ مشدودَ الخِتَامِ
حَمَلْنَ قلالَهُ من بيت راسٍ إلى لُقْمَان في سُوقٍ مُقَامِ

قال أبو عمرو وابن الكلبي: لقمان: مكان. وقال الأصمعي: لقمان: اسم خمّار. قال ابن الكلبي: لو كان لقمان رجلاً لعرفناه. وقيل: بيتُ راس: كبيرٌ من أكابر العجم.

---

(1) الأردنيون يلفظون بيت راس كما يلي: بيت راس Bayt Ras وأيضاً: بيت أراس Bayt Aras، وكلاهما لمعنى واحد وقرية واحدة وهي تقع إلى الشمال من إربد، واتصلت بها بالتنظيم والشوارع والبناء، وأصبح من الصعب التفريق بينهما، وكأنها حيٌّ من أحياء إربد الحديثة. وكانت مشهورة بكروم العنب التي لم تعد موجودة الآن. حيث كانت تلك الكروم مصدر ومادة صناعة الخمر التي اشتُهرت (بضم الألف) بها بيت راس.

بَيْسَـان

بفتح أوله، وبالسين المهملة: موضعان؛ أحدهما بالشام، تُنسب إليه الخَمْرُ الطيبة، قال الأخطل:

وجـاءُوا بِبَيْسَـانِيَّةٍ هـي بَعْدَمـا يَعُـلُّ بهـا السَّـاقِي أَلَـذُّ وأَسْـهَلُ

والثاني بالحجاز، قال أبو داود:

نَخَلاَت من نَخْل بَيْسَان أيْنَعْنَ جميعاً ونَبْتُهُنَّ تُؤَامُ

وقال نُصَيْب:

سَـقَى أهلَ مَثْوَانا بِبَيْسان وابلُ الرَّبيع وصَوْبُ الديمة المتهلّلُ

رُوي عن رجاء بن حَيْوَة، أنه قال لعروة بن رُدَيم: اذكر لي رجلين من صالحي أهل بَيْسان، فبلغني أن الله اختصهم برجلين من الأبدال، لا ينقص منهم رجل إلا أبدل الله مكانه رجلاً. لا تذكره لي متماوِتاً ولا طَعّاناً على الأئمة، فإنه لا يكون منهم الأبدال.

وذكر الزبير أن رسول الله ﷺ مرّ بماءٍ يقال له بيسان، في غزوة ذي قَرَد، فسأل عنه، فقيل: اسمه يا رسول الله بيسان، وهو ملح. فقال: بل هو نعمان، وهو طيّب. فغيّر رسول الله ﷺ اسمه، وغيّر الله الماء. فاشتراه طلحة بن عُبيد الله، ثم تصدّق به، فأُخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: ما أنت يا طلحة إلا فَيّاض فسُمّيَ بذلك الفَيّاض.

خَبْرَاءُ البَيْسُوعَة

بفتح أوّله، وبالسين المهملة، والعين المهملة، وهي مذكورة في رسم الرَّقْمَتَيْن، مع خَبْراءِ مَاوِيّة.

وإبراهيم بن محمد بن عرفة يقول: اليَنْسُوعة، بالياء والنون، ويُنشد بيت الجعدي:

وَهُـوَ الذي رَدَّ القبائِلَ باليَنْسُوعَتَيْن بكَوْكب ضَخْم

الكَوْكَب: معظم الكتيبة.

-31-

تبــوك

بفتح التاء، وهي أقصى أثر رسول الله ﷺ ، وهي من أدنى أرض الشام. وذكر القُتَبِيّ من رواية موسى بن شيبة، عن محمد بن كُلَيْب: أن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وهم يبوكون حِسْيَها بقِدْح، فقال: ما زلتم تبوكونها بعد؟ فسُمّيت تبوك.

ومعنى تبوكون: تُدْخِلون فيه السهم وتحركونه، ليخرج ماؤه.

وقال بحير بن بَجْرَة الطائي:

تَبارك سـائِقُ الـبَقَرات إنّـي رأيـتُ الله يَهْـدي كـلَّ هَـادِ
فمـن يَـكُ حـائِداً عـن ذي تَـبُوكٍ فإنّـا قـد أُمِـرْنا بالجِهَـادِ

ومعنى قوله تبارك سائقُ البقرات: أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد من تبوك إلى أُكَيْدِرِ دومة، رجل من كندة نصرانيّ كان عليها، وقال رسول الله ﷺ لخالد: إنك ستجده يصيد البقر. فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر، في ليلة مُقْمرة، وهو على سطح له، فباتت بقر الوحش تحكّ قرونها بباب القصر، فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله، فنزل، فأمر بفرسه، فأُسرجَ له، فركب، وركب معه نفرٌ من أهل بيته، فيهم أخٌ له يقال له حسا، وخرجوا معهم.

-32-

أذرُح[1]

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لأبي عبيد البكري (ت487هـ) (ج2 ص130-132)

أذرح بحاء مهملة على وزن أذرع: مدينة تلقاء الشراة من أداني الشام. قال ابن وضّاح: أذرُح بفلسطين. وبأذرح بايع الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان، وأعطاه معاوية مئة ألف دينار. قال كُثيِّر:

قَعَـدْتُ لـه ذاتَ العِشـاءِ أشِيمُه ... بِمَـرٍّ وأصْـحابي بجَـنَّةِ أذرُحِ

وقال جميل:

ولمّـا نَزَلْـنا بالجِـبال عشـيَّةً ... وقـد حُبِسَتْ فيهـا الشُّراةُ وأذرُحُ

ولما انتقل عليّ بن عبدالله بن عباس إلى الشام، اعتزل مدينة أذرح ونزلا الحُمَيْمة، وبنى بها قصراً. وذلك أن أذرح افتُتحت صلحاً على عهد رسول الله ﷺ ، وهي من بلاد الصلح التي كانت تؤدى إليه الجزية، وكذلك دومة الجندل والبَحْران وهَجَر. وروى البخاري ومسلم جميعاً، بأسانيد من طريق عبيد الله بن عمر، عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « إن أمامكم حَوْضي كما بين جَرْباءَ وأذرُح » . زاد مسلم قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا محمد بن بشر، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، فذكر مثله. قال عبيد الله: فسألت ابن عمر، فقال: هما قريتان بالشام، بينهما مسيرة ثلاثة أيام.

---

(1) أذرح قرية أردنية في الجنوب، إلى الشمال من مدينة معان، فيها آثار مدينة قديمة، لا زالت كثير من جدرانها قائمة، وقد أنشئت فيها قرية حديثة مزوّدة بالبنية التحتيّة من الخدمات اللازمة. كما أن في محيطها مزارع التفاح بسبب ارتفاعها وصقيعها في الشتاء وبرودتها في الصيف. ولكن هذه المزارع تعود إلى غير أهالي المنطقة، وتعتبر اذرح من قرى الحويطات، وهي بالقرب من الجرباء، وليس بينهما مسافة بعيدة.

-33-

أَذْرُعُ[1]

بفتح أوّله، وسكون ثانيه، وبالراء المهملة المضمومة، والعين المهملة، على وزن جمع ذراع، وتضاف فيقال أذرع أكْباد، وهي ضِلَع سوداء من جبل يقال له أكباد. كذلك فسّرت أم شريك بيت أبيها تميم بن أُبيّ بن مقبل:

أمْسَتْ بأذرُعِ أكبادٍ فحُم لها ... رَكْبٌ بلِيَّةَ أو ركْبٌ بسَاوِينا

وقال غيرها: أذرُعُ أكباد: أُقَيْرِن صِغار، تسمى الأذرع؛ والأقيْرن تصغير أقْرُن من الجبال، وأكْباد: جبل متصل بلِيَّة، وبين لِيَّةَ وقَرْن ليلة.

وقال ابن مقبل أيضاً: فأفْرَدَ أذرُعاً ولم يُضفْها:

وأوْقَدْنَ ناراً للرِّعاءِ بأذرُعٍ ... سَيالاً وشِيحاً غير ذات دُخانِ

وأضْرُع، بالضاد أخت الصاد: موضع آخر، سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

أذرعات[2] معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لأبي عبيد البكري (ج 2 ص 131-132)

أرض بالشام. قال الخليل: هي منسوبة إلى أذرع، مكان أيضاً. قال: ومن كسر الألف من أذرعات لم يصرفها، ومن فتح الألف صرفها.

---

(1) لا أدري أين تقع أذرع، ولكن يبدو أنها في مناطق البادية، ويستدل على ذلك مما ورد في بيت الشعر الأخير، أنه تم إيقاد نار للرّعاء بأذرُع، وهذا لا يكون إلا في الخلاء والبيداء، وقت القر، ليتمكن الرعاة من الحصول على الدفء المطلوب. أما نوع المادة هنا فهي: الشيح والسيّال، وهي نباتان صحراويان يكثران في البادية الأردنية، كما أن اسم أذرع يقترب باللفظ والاشتقاق من أذرعات أو درعا. وأعتقد أن أذرُع في البادية الأردنية الشمالية، والله أعلم.

(2) في كتب الرحالة الغربيين الذين زاروا درعا (أدرعي/ أذرعات) في القرن التاسع عشر تحدثوا عن مدينة محفورة بالصخر تحت الأرض، واسعة الأرجاء ذات فناءات وغرف وأسواق وشوارع وممرات، ومداخل ومخارج، وفتحات للتهوية من السقف وأن هذه المدينة تقع على عمق عشرات الأمتار تحت الأرض وقد ذكرها ورسمها وتحدث عنها أكثر من رحالة منهم الرحالة المهندس الألماني عام 1884م في كتابه Across the Jordan عبر نهر الأردن الذي ترجمته (أنا) إلى العربية.

ولما قدِمَ عمر ﷺ الشام تلقّاه أبو عبيدة، فبينما عمر يسير لَقِيَهُ الْمُقَلّسون من أهل أذرعات بالسيوف والرّيحان، فقال عمر: مَهْ، رُدُّوهم. فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، هذه سُنّة للعجم، وإنك إن منعتهم منها يروْا أن في نفسك نقضاً لعهودهم. فقال عمر: دعوهم، عمر وآل عمر في طاعة أبي عبيدة. وقال امرؤ القيس:

تَـنَوَّرْتُها مِـنْ أذرِعَـاتَ وأهْـلُها   بيَـثْرِبَ أدنـى دارِهـا نظـرٌ عـالي

وتُنسب إليها الخمرُ الجيدة، قال أبو ذؤيب:

فمـا إن رَحيـقٌ سَـبَتْها الـتُّجا   رُ مِـن أذرِعـاتٍ فـوادي جَـدَرْ

جَدَر: وادٍ هناك.

قال أبو الفتح: أذرعات تصرف ولا تصرف، والصرف أمثل، والتاء في الحالين مكسورة، وأما فتحها فمحظورٌ عندنا، لأنها إذا فُتحت زالت دلالتها على الجمع، وقد رواها الكوفيّون في بعض الأحوال مفتوحة، وكل ذلك متأوَّل عندنا إن صحّت روايته، ووجب قبوله.

-34-

في شمال الأردن

تحفة الأدباء وسلوة الغرباء لإبراهيم الخياري (ج2 ص 162-167)

فوصلنا إلى المنزل المقصود المسمى بـ: القنيطرة فوصلناه بعد وجوب فرض الظهر بنحو ساعة فإذا منزل متسع الجهات مخضر العرصات، به مسجد عامر، وخان قائم البناء، ظاهر السناء ولكنّا لم ننزله كالذين قبله لنزولنا بالخيام، وأقمنا به والنفوس منشرحة بفسيح رحابه وأمراع جنابه والأعين لاحظه ذلك المرأى الحسن، مستعذبة نسيمه العليل الداعي للوسن إلى أن طلع الفجر فأدّينا فريضته.

ثم استمررنا إلى أن بدا حاجب الشمس، ثم سرنا غير بعيد فإذا جبل عالٍ وفي أعلاه قبة مرتفعة على يمين المار، يقال أنها قبر رجل من أهل البيت يقال له أبو الندى يتبرك بزيارته، ويقال إنه عليّ ﷺ وأنه أضفي بتكنيته بذلك.

ثم سرنا في طريق سهل ساعة أو ساعتين، ثم عاد لنا طريق صعب أنسانا ما قاسيناه أمس من المشقة فإن ذو منعطفات مرضوم بالحجارة الكبار، المؤذنة بالوقوع والعثار، ولا يستطيع المشي فيها إلا كل قوي من الرجال والجمال، طريق ما أصعبه من طريق وَمُشْقٍ يفارق فيه شقيقه الشقيق، به رسوم من الخراب، ونوء نعب بها للبيت غراب، يقال إنها منازل بني إسرائيل غادرها الدهر أثراً بعد عين ولم نزل إلى أن وجب فرض الظهر وإذا عقبة مفروشة بالحجر المنحوت يزيد طولها على المعتاد من العقبات.

ويقال إن الذي فرش ذلك الحجر بها هو رضوان بيك أمير الحاج المصري سابقاً فلم نزل ننحط من أعاليها في هبوط إلى أن وافينا أسفلها فإذا نهر جارٍ عليه كبير مستطيل بعض الطول يقال له على ألستهم نهر يعقوب هذا هو والد سيدنا يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ويقال إن هذا النهر ينصب في بحيرة طبرية وبالقرب منه (نهر الأردن) الجبّ اليوسفي الذي ألقي فيه سيدنا يوسف وعند هذا الجسر ينزل المسافرون وبه نزلنا وأقمنا إلى أن بقى نحو ثلث الليل.

ثم سرنا أرضاً صعبة المسلك قريبة المهلك، أحجار كبار، وزلق من آثار أمطار، والسماء تجود بوبلها، ثم تعقبه بطلها، ثم بعقبات تشبه عقبات الطريق الرومية حتى لاحَ لنا الخان القائم البناء، (...)، وإذا عند بابه على يمين داخله الجبّ اليوسفي مبني بالحجارة المنحوتة « خال سفله مقام على قعود » وفي أعلاه قبة مرتفعة ذات أركان أربعة وأبواب كذلك والقبّة فوق الجب تمنع سقوط المطر ونحوه بها، وقد ملئ لنا من مائة بدلو هناك فشربنا منه ماءً عذاباً حلواً بارداً.

وبجانب البئر مسجد لطيف والخان الملاصق لذلك فيه أماكن خراب وبالقرب من ذلك محل يقال أنه قبر الذي أخرج سيدنا يوسف من الجبّ والبلاد جميعها بلاد كنعان وبعد مجاوزة الجبّ مررنا بأماكن صعبة وبها عقبة كؤود جاوزناها سائرين وانتهينا بعدها إلى المنزل المقصود المسمى بـ:

المِنْيَةُ[1]: فإذا هو منزل مخضر الجهات والأنحاء، يعذب فيه المقام ويطيب الهواء، وهو بشاطئ بحيرة طبرية بحرة كبيرة متسعة الجهات لا يحيط البصر بأطرافها، ينصب فيها على ما بلغني أنهار كثيرة لا تظهر فيها بسبب ذلك زيادة ولا بانقطاعها نقص، ويبرز منها نهر يمرّ على الخان الأحمر الذي يمرّ عليه من يتوجه للحج من نابلس إلى المزيريب، ويمر على الغور وينصب ماؤه ببحيرة لوط في مقابل المزيريب، ومن وقف على جبل موسى رأى تلك البحرة، وبينه وبينها نحو اليوم.

هكذا أخبرني بعض من يعرف ذلك ممن هو في ركْبنا، وبالمنزل وقبله كثير من أشجار السدر وبعض النخل وكان وصولنا لها بين العصرين، وأقمنا بها إلى أن تناصف الليل ثم سرنا فمرّ على شاطئها تارةً بمرتفع وتارةً بمنخفض ونخوض بعض أطرافها في بعض المرات وتارةً نعلو فنراها في وهاد من الأرض.

ثم سرنا بعد ذلك شيئاً يسيراً فإذا عقبة مرتفعة غاية الارتفاع هي من تلول التراب قد أصابها الندى والمطر صارت شديدة الزلق لا تثبت فيها الأقدام ولا الخفاف والحوافر فشق المرور منها، فكم جمل وقع حمله، وإلى جانبها مهواة سقط

---

(1) المِنْيَةُ: وهي من الأمنية والتمنّي، وليس من المنيّة. وهي من مناطق الغور الأردني، قرب البحر الميت، وبذلك وقع الكاتب في خطأ عندما يقول أنها قريبة من المزيريب، ذلك أن المزيريب جنوب دمشق وعلى طريق الحج، وبعيدة عن الغور والبحر الميت مسيرة ثلاثة أيام تقريباً، ولو أن الكاتب اقتصر بالقول أنها على طريق الحاج ما بين دمشق ونابلس لكان ذلك متفق مع الصواب.

فيها بعض المال وسلم من سلّمه الله تعالى من ذلك الحال، ثم سرنا بعدها في منسبط من الأرض بين أحجار كبار إلى أن لاح لنا المنزل المقصود نزوله المسمى بـ:

عيون التجار: فإذا منزل متسع الأكناف مخضرها به قلعة عامرة على تلّ مرتفع مقابلها صورة سور محيط، مشتمل على جامع حسن بمنارة مرتفعة وبعض بويتات وماء عذب يستقي النازلون به منه، وعلى كلٍّ فهو عذب الهواء لطيفة، أقمنا به يومنا يوم الخميس إلى أن أظلتنا ليلة الجمعة فبتنا به عازمين على السير صباحاً فإذا مطر شديد يمنع السير.

فأقمنا به وصلّينا الجمعة بالجامع الكائن وسط الخان مع خطيبه فإذا هو يؤدي خطبة غريبة الأوضاع غير مُراعٍ فيها النغمة كالعادة الرومية بل يؤديها على الوضع العربي من حيث انتهالها على كثير من المواعظ العربية والأحاديث إلا أنه ما سلم من اللحن والتحريف فأذهب بذلك رونقها ولم يؤدّها حقّها مع أنها في ذاتها من أحسن الخطب، واستمرت السماء تجود علينا بوبلها وطلّها وتجعلنا كرهاً في هذه البلدة من أهلها، فأقمنا بها أيضاً السبت والأحد وعيون السماء لا تكفكف دموعها بل تجود على أراضيهم بممنوعها، وقد علم أن سفر بنقطة سفر. فكيف إذا زادت عن العد وخرجت عن الحد، ولقد قلت غلط من سمّى المنزل وحرّف بعيون التجار وإنما هو عيون البحار.

ويوم الأحد إنجلت بعض الأنجلاء، وتركت كل قلب خشية أن تعود وجلا، فبتنا بها ليلة الاثنين عازمين على السفر صبيحتها بعد أن تحوّلنا من الخيام للخان بعد الإقامة بها أربعة أيام وثلاث ليال، لا يكف فيها دموع السماء على خدود الرياض، فلما أن وصلنا بها الصبح مسفرين وتجلّى لنا ابن ذكا خرجنا منها سائرين، والأرض ذات زلق تزلّ فيها الأقدام، وتذهل الأحلام فلم نظل سائرين هنيّة فإذا عقبة صعبة بعض الصعوبة، لا تستطيع سلوكها المركوبة، فقطعناها.

ثم دخلنا في بغاز ضيق مشتمل على أشجار على اليمين واليسار تارةً وتنكشف عنا أخرى ويسمى هذا المضيق عندهم نقب دبُوريا، رأينا بعض المشقة في سلوكه، ثم بعد مجاوزته سلكنا أرضاً يضلّ فيها الخرّيت الماهر لولا ما بها من الجواد والمآثر، ويسمى هذا المحل:

مرج دابق: بالقاف أو دابغ بالغين آخره، وقد سمعتهم ينطقون به بالوجهين، وكان أهل الركب الذين معنا – ولهم ترداد عليه – حاسبين حسابه، خائفين عقابه وعذابه وشدة ما به من الوحل، الذي ربما عمّ فوصل الرحل، فأدركنا فيه لطف الله الذي لم يزل يشملنا، وفضله الذي يحقق لنا مدلول « لا تحزن إنّ الله معنا » فلم نرَ الوحل به إلا في مواطن يسيرة سهّل الله سلوكها ولم نزل كذلك إلى أن قارب دخول وقت العصر، وثبت لنا عن السير وبه الجمع والقصر، فإذا أعلام المنزل المقصود المسمى بـ:

اللجون: فإذا المنزل كالمرج المذكور قبله مخضر الرياض، سائل الأنهار، ولا أقول الحياض، بها المياه العذبة والنباتات المستحسنة الرطبة، وهو مشتمل على خان على بابه منارة مرتفعة بعض الارتفاع، وأخبرني بعض من لقيت أنه يحيط بأطراف المرج المذكور ضيعات بالغ عددها مبلغ الكثرة، ولا بدع، وأقمنا بقية يومنا وبتنا به إلى أن بقي ثلث الليل الأخير، ثم حملنا الأحمال وسرنا وإذا مضيق مشتمل على حجارة وصعود وهبوط مقدار نحو الساعة، ثم بعده بيسير مررنا بسبيل ماء على قارعة الطريق وعلى يمين مارّها من ذلك، فقلت ليست هذه سوءً والتي ولّت، ثم سرنا بعد ذلك وقد صارت القطارات أربعاً، والطريق إذ يحسن لسلامته من الزحام مرتعاً، فلم نزل بعده نسير والسويس وبحره الملح عن يميننا، والمراكب فيه تظهر على بُعد شراعاتها بحيث عَلِمَ عدّها من كان معنا قوي النظر حديد البصر، ولم نزل كذلك حتى قارب المغرب فإذا علم بجانب الطريق

على يمين الذاهب للحجاز فسألت عنه فأخبرت بأنها أعلام متعددة هذا أوّلها، وإنها تبلغ تسعة وثلاثين علماً، وإنها تسمّى النواطير وإن هذا المحل كان مغواة يضل به الخرّيت، وتغرق فيها العفاريت، وإنها من عمل المرحوم رضوان بيك أمير الحاج المصري سابقاً فلم نزل كذلك وكل قليل يبدو لنا عَلَم له شبه بالأول وهو بناء مستدير أو مربع نحو الخمسة الأذرع أو الستة ويقال إنه كان يوضع بها قناديل في مثل هذه الليلة تكون أدعى للهداية ولكنني لم أرَ بها شيئاً.

-35-

العقبة والمدورة

تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، إبراهيم بن عبدالرحمن الخياري المدني (ت1083هـ) (ج3 ص180-191)

فسرنا كذلك إلى أن المغرب فنزلنا لأدائه وتعاطي بعض ما يقوم بالأود من الزاد المعدّ للمسافر في وعائه، ثم سرنا بعد جمع الفرضين فإذا أرض ذات رمال، تغوص بها أقدم الرجال والجمال، فلم نزل بها سائرين نعاني هاتيك المشقة وما انضاف إليها من الهواء البارد، المتعدى الزائد إلى أن لاحت الإشارات، واتضحت الدلالات، فوصلنا الدار التي انتهى بنا إليها المسير وهي المسماة بالنواطير وكأنه لانتهائها إليها سميت بذلك، فإذا مَنْزِلٌ متّسع أيضاً تمتد به الألحاظ، ويعذب للنائمين والإيقاظ إلا أن سلطان الهوى كان مستوياً فيه على العرش فملأ العيون والآذان فما ظل بالفرش، ولكنني حمّدته لما أشرقت فيه الشمس وانشرحت به النفس وقلت ذاكراً ما مضى لنا بأمسه، وما كدّر صافي عيشنا بحلول بعض من معنا في رَمْسه.

إنا لما فارقنا مصر كان بها الوباء المسمى بالطاعون، زائد الحركة، متعاظم الهلكة ولما فارقناها قاصدين الدّيار، ولم نقصد منه الفرار، خرجنا من حرج النّهي عن الخروج من بلد يكون بها فإنه شهادة لمن تعلّق بسببها، ولكن عَلِقَ من

أثره مع الركب بعض الآثار، فرمت بسهامها بعض من يحويه الرَّكْب من الكبار والصغار، وممن أصيب به غلام يافع، كان معنا لبعض أصحابنا المدنيين، وأمر الله إذا وقع ليس له من دافع، ولله درّ القائل:

وما المال والأهلون إلى وديعة ولابُدَّ يَوْماً أن تُردَّ الودائع

وقد أنشدت مسلياً لنفسي ومتفائلاً بما يقتضيه الحال مخاطباً أبناء جنسي قولي:

لما تركنا بعجرود الجفا ومضى يومٌ به النَّفس لم تأنس بتبشير
ولاح لي من نواطير ألْهَنا علم يهدي الجميع إلى عزّ وتيسير
أيقنت أنَّ مغاني القرب قد قربت وقلت للنفس قولي للنوى طيري

ثم أقمنا به إلى أن بقي للظهر ساعتان، فسرنا فإذا مضيق بين تلال من الرمل الكبار حتى يتخيلها الرائي جبالاً وقد غصّت الطريق بالقطارات الأربع، فلم يكن بها لما زاد متّسع وعلمت إذ ذاك حكمة الاقتصار في التقطير على أربعة قطر، ولم نزل كذلك ولهوات الطريق بالمارين غاصة، وأقدام المشاة وحوافز الخيل بتلك الرمال غائصة، حتى كاد أن يرق ثوب الأصيل، فإذا عقبة صغرى تكون مقدمة للعقبة الكبرى، وذكرى، يصعدها الناس صعوداً تدريجياً، والجمال تجود بالسير لا تذكر مطلاً ولا لِيّاً، وبعدها في مسطحها دونها وهلّم جرّا.

إلى أن انتهينا إلى وادٍ أفيح مخضر الجهات والأنحاء، عذب الهواء بارده، فلذلك يستعذبه وارده، واشتمل على أحجار كبار وصغار تؤلم أقدام المارّين، وتمنع الإسراع في سير المسافرين، لم نزل نعالجها وتعالجنا، والوجد المشوق يحركنا ويخالجنا، والزحام يشتد، والأمد يمتد، والمحاف تتصاكك، والنفوس تتهالك، إلى أن لاحت أعلام المنزل المقصود بعد المرور بأماكن ربما نزلت في الصدور دون الورود وهو المسمى عندهم وادي التّيه وهو منزل متسع غني عن الوصف.

وقد قدّمنا في ذكر الطريق الشامية أن بها منزلاً يسمى هذا الاسم أيضاً وقدّمنا كثيراً من شأنه وخبره بما فيه غنية عن إعادته هنا والله أعلم بالحقيقة في تعيين المحل الواقع به التّيه، وأقمنا به إلى أن كاد أن يجب فرض الظهر، ثم شدّت الأجمال، وعكمت الأحمال، وأقمنا ننتظر سير الدليل لنأخذ في المشي الذميل، فوقفنا لانتظاره نحو الساعة، ثم سرنا وقد صلّى الظهر إذ ذاك بعض من كان معنا ونوينا نحن الجمع تأخيراً.

فسرنا في بسيط من الأرض هو باقي التّيه، التي تقول نفس رائيه لمن سمعت بوصفه: لو رأيته إلى أن وجب العصر فأديناه جامعين، ثم سرنا إلى أن وجب المغرب فأدّيناه مع العشاء جمعاً ثم سرنا ليلتنا أجمع، لا نسكن ولا نهجع، والطريق تارةً تكون ذات أحجار وآونةً تكون رملة جرعاء ذات حصباء كبار إلى أن لاحت أباريق الفجر فانتشرت أباريق الطّهر، وصلّى الصبح بعض الناس ممن رغب في المبادرة بالإغلاس.

ولم نزل كذلك دائبين في السير والسّرى، نجاذب الرواحل وتجاذبنا البرى، حتى لاحت الشمس ولحظتها الباصرة إحدى الحواس الخمس، فإذا المنزل المقصود نزوله والمأموم وصوله وحلوله، بدت به قلعة مبيضة الأنحاء والجهات حسنة الأوضاع والسّمات، جاوزناها سائرين، وقطعناها مارّين، إلى أن وصلنا المحط، والمناخ المختط فإذا وادٍ فسيح، يحسن به المساء والتصبيح، وذلك المحلّ هو المسمى بـ:

نخِل: ويحيط بأطراف المنزل تلال مبيضة كأنها الجص المعروف فتقول جبال، فأقمنا به مستعذبين لهواه، شاكرين إحسان الله ومزيد نعماه، يومنا يوم السبت، بتنا به ليلة الأحد مبيتاً أشرق به أول الشهر الهلال، وأرجف الناس بالتحذير فأخذ الحجاج حذرهم، وأبان ذلك في عدم النوم عذرهم، ولزم إحياء

تلك الليلة فمنهم من أحياها باذكر، ومنهم من أحياها بالمسامرة مع أحبابه، والكثير من الجند يضربون البندق طلباً لتحذير السرّاق من الإقدام على من بالخيام، ثم أقمنا به إلى ظهر يوم الأحد فأدّينا به الظهرين، ثم سرنا بعدهما أعذب مسير لا تعب ولا أين في أرض رملة ليّنة الموطأ.

ثم سرنا بها باقي يومنا وليلتنا إلى أن أسفر النّهار فوصلنا المنزل المقصود المسمى بـ: العلايا، ويقال: آبار العلايا، لوجود آبار هناك كان بها ماء مورود وقلعة قبيل المحط. أخبرني بعض من له بالطريق خبرة أن أعراباً تعدّوا على من كان بالقلعة من العسكر ففتكوا بهم وأتلفوا ماء الآبار بالبارود والمنزل المذكور متّسع المناخ، يحسن فيه الجدّ في السير والتراخ، أقمنا به يومنا يوم الاثنين إلى ان تعالى النهار ولم يجب فرض الظهر.

ثم سرنا نطوى أنجاداً من الأرض ذات سعة ومهاداً، ما حلّها حال يطلب وسع فضائها إلا وسعه حتى وجب فرض العصر فبدا لنا الطريق صعب سلوكه، يشتمل على عِقاب صغار، وأحجار كبار، يزدحم به الحجاج وتتراكم من بحر المحامل الأمواج، يسمّونه عراقيب البغلة، ثم فارقناه سائرين نطوي نجداً تارةً، وغوراً أخرى، ونسلك ما هو الأليق بالمسافر والأحرى، والطريق تطول، والقلب من التعب ملول، وقد شاع وذاع خبر العقبة، وما أدراك ما العقبة فلم نزل نتلفت لمرآها وإن كانت من الصعاب، واستحلاء وصفها قبل رؤياها وإن كان من العِقاب، حتى لاح الفجر فضاءت الأنحاء واجهات، وظهرت للسبل علامات بمحل يسمونه سطح العقبة وذلك لانبساطه انبساطاً زائداً، ولم نرَ في الوصول إليه لكونه تدريجياً ارتفاعاً.

ثم بعد استقرارنا بسطح العقبة ريثما يعقد شسع أو يستشفع بحيث لم يسعنا طبخ القهوة، أخذنا في المسير فجعل بعض حكام الحاج الأربعة قطر قطارين

بأمر الأمير، فأخذنا في النزول فإذا نهج مكدر المسالك مفضٍ للمهالك، ينزل فيه الركبان ما بين صغير وكبير وغني وفقير، ومخدورة وعذراء، ذات جمال ترسل على محاسنها خِدراً، فيركبون ما يجدون من الخيل والبغال والحمير، ثم ينساقون نازلين، وهما قطاران يتزاحمان لضيق الطريق.

والعقبة اسمها مغنٍ عن وصفها، وقد أصلحها السلاطين والأمراء، وكل أبقي له ذكراً بها وأثراً، وآخر من باشر ذلك الأمير رضوان بك أمير الحاج الشريف، وعلى كل محل حجر مكتوب عليه اسم من أصلحه، وقد زادت هذه العقبة على جميع ما شاهدناه من العقبات في الطريق الشامية والطريق الرومية، بل والقدسية في الطول ولا أقول في مشقّة السير.

فربما كان كثيراً مما قطعناه في الطريق الرومية أضعافها من المشقة والشدة، ولكن الفرق أن الروميات تقطعها الخيل والبغال وهما أقدر على صعودها وعلو نجودها، وهذه تقطعها الجمال وعليها الأحمال، فكانت صعوبتها بهذا الاعتبار، وقد شرعنا في سلوكها بعد الأسفار وانتهينا إلى أسفلها الخيّالة والمشاة في أواخر الساعة الثالثة.

وأما الجمال والأحمال فبعد الرابعة، وبعد النزول لأسفلها تعدل الأحمال، ويسير الرجال والجمال في منحدر سهل الموطأ، بعيد المدى يزيد طوله على ما يعتاد، لكنه لكونه تدرجياً لا تملّه النفس، وذلك بين جبلين ليسا بمرتفعين، ثم بعد انتهائهما نمر بين تلال كذلك، ثم يظهر طرف البحر الملح، فيكون على يمين الذاهب للمحط، والمناخ المختط، مع ظهوره والوصول إليه ليس مرسى للمراكب لمنع بعض الجبال من دخولها بذلك المحل، وإنما تظهر منه إذا مرّت عليه على بعد.

فنسير أيضاً لحو الساعتين فإذا المنزل المذكور محل به قلعة عامرة مسكونة، ويجلب إليها كثيراً مما يباع مجلوباً من غزّة من اللوز والزبيب وما شاكلهما وبه نخل كثير، ويبدو بالمنزل البحر والناس في خيامهم له شبه بالقرطلى أول منزل رومي بعد اسكدار، وهذا المنزل يسمّونه: قلعة العقبة، وقد أقمنا به بقية يومنا الذي كان وصولنا إليه فيه بعد العصرين ليلة الأربعاء ويومه ويوم الخميس، وفيه كانت المصيبة التي نرجو بالصبر عليها كمال المثوبة التي يحقّ لنا أن تتلو عند حلولها: « أينما تكونوا يدرككم الموت » وقوله: « قل إن الموت الذي تفرّون منه فإنه ملاقيكم » ، وإن كان لا فرار وإنما هو مصادفة أقدار.

ولم تنفع التمائم إذا نشبت الأظفار، وذلك أن انتقل بالوفاة إلى رحمة الله تعالى وحلّ في جوار الرحمن، فلم تزل الرحمات عليه تتوالى الميت مطعوناً غريباً مبطوناً، فثبتت له بأسبابها الشهادة، ونالَ إن شاء الله مراتب الحسنى وزيادة، الخدن القديم، والصاحب بل الأخ الكريم، الخطيب والإمام بمحراب النبي ﷺ ، سلالة الخيرة الأنصار، المحمودة لهم في نصرة النبي ﷺ ، وإيوائه حميدات الآثار، الواردة في فضلهم صحيحات الأخبار، المطرّزة بها بطون الطروس وحواشي الأجزاء الكبار، ويكفيك منها قوله ﷺ : « الناس دثار والأنصار شعار » وقوله: « الأنصار كرشي وعيبتي » وقوله: « اللهم اغفر للأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » ، وقوله: « علامة الإيمان حبّ الأنصار، يكثر الناس ويقل الأنصار وقد أدّوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فمن ولي من أمر هذه الأمة أمراً يضرّ فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم » إلى غير ذلك من شهير الأحاديث.

ألا وإنه أخي وصاحبي حضراً وسفراً، ورفيقي صغراً وكبراً، من المكتب وهلمّ جرّاً المرحوم المبرور الخطيب محمد مكي ابن المرحوم الشيخ عبدالكريم الأنصاري

المدني وكان ينتسب إلى سيدنا (أبي) أيوب الأنصاري الشهير المدفون تحت سور القسطنطينية، الذي تقدم الكلام على كثير من أخباره عند ذكر اسطنبول.

وصاحبنا المشار إليه، بيتهم أشهر بيت بالمدينة المشرفة بهذه النسبة المنيفة، ينقله خلف أهل المدينة عن سلفهم، لا مطعن من أحد في ذلك، ولا إنكار لما هنالك، وقد ادّعى النسبة المذكورة بالمدينة طوائف كانت نسبتهم خافية، ودعواهم واهية، حتى تعيّن لطائفة الأنصار شيء من جانب السلطنة فأظهروا أنسابهم، ونشروا أحسابهم، ولله درّ القائل: وقد يتسمّى بالهوى غير أهله.

« ولكن الناس مؤتمنون على أنسابهم » ، وكانت وفاة المذكور بالمنزل المشار إليه يوم الخميس قبيل فجره بعد مرضه آياماً بالطاعون الذي ظهر أثره في جنبه الأيسر عائداً من مصر بعد زيارة بيت المقدس وسيدنا الخليل والشام الشريف والديار الرومية وهو رفيقي بها منزلاً منزلاً حتى حوَته العقبة، وأذاقته من كأس المنون الغلبة، فانتقل إلى جوار ربّه، وفاز بالحلول بقربه، فتذكرت عند ذلك قول الأوّل:

وكــــل أخ يفارقـــــه أخـــــوه   لعمــر أبيــك حــتى الفــرقدان

بعد أن تلوت عند المصيبة ما يتلوه المصاب لئلا يُحرم الأجر والثواب، وهو قوله سبحانه في كتابه المكنون: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: 156] ، وقوله مسلياً مَنْ يُسقى بذلك الكاس: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: 30] ، ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: 34] .

ثم أدينا ما يجب من الفروض، وقضينا من ذلك الأمر المندوب والمفروض، ودفنّاه بمقبرة على تلٍّ مرتفع قريب من القلعة المبنية هناك على يسار الداخل من

بابها قريباً من سوقها القائم إذا حلّ الحاج برحابها، وقرأنا بسببه القرآن العظيم، وختمناه صبيحة يوم الجمعة، وأهدينا له ثوابه، ضاعف الله له الثواب، وشمله من الرحمة بسابغ الأثواب، وألهمنا ومن خلفه من أولاده وإخوانه صبراً، وأعظم لنا ولهم أجراً.

هذا ثم يكون في ليلة سفره وكانت ليلة الجمعة للحاج عند مخيم أميره ليلة رحيله ومسيره من هذه المنزلة بعد التطريق بها الأيام المذكورة، التي لم أرَ إطراقاً أطول منه في سفري هذا وقدةً عظيمة، وإطلاق لمدافع كثيرة، قد أشرق القمر، وطاب لمن لم يشمله مثلنا الحزن السمر، وقد كان بهذا المنزل موت لكثير من الناس، وشرب لكأس الموت وياله من كأس، وأقمنا به إلى أن وجب فرض الظهر يوم الجمعة.

ثم سرنا والبحر على يميننا ندور حوله يعبره دَوْراً، ونلحظه تارةً ويغيب عنا أخرى، والجبل عن يسارنا فربما غصّت بالقطارات الطريق، ولم يُسغ أن يسيغها بل يثبت لها التعويق، ومررنا بمحل مبني على يسار المار على جبل يقال له قصر البدوية، ثم لم نزل كذلك سائرين، حتى مضى من الليل ساعات، وترجّينا من الله إعانات فمررنا بطريق رمل، اشتمل على ضيق وانعطاف فصارت القطارات الأربع فيه اثنين ويسمّونه بلغتهم دَوُر حقن فجاوزنا بمشقة لا بُعد شقة، وسرنا بعده لمحو الساعة فلاحت نخلات.

ثم عقبة ضيقة بين قطعتي جبل ولا أقول جبلين محدودبة أشد احديداب، مشتملة على أحجار تؤذي المشاة والركاب، يسمونها ظهر الحمار وقد أنصفوها في تلك التسمية فإنها ضيقة نكدة، ولكنها دون شدة عراقيب البغلة التي قدّمنا الكلام عليها.

وبعد مجاوزتها بقليل لاحت الإشارات، وبدت العلامات، فوصلنا المنزل وهو المسمى بذلك الاسم أيضاً للجوار بظهر الحمار، فإذا هو منزل رمل مخضر به جبال في أحد جانبيه والجانب الآخر، البحر، صفا فيه الخاطر بعض الصفاء، وأنى ذلك، وقد فارقت أمس أحد أخدان الوفاء، ولكن لا مفر من قدر فأقمنا به يومننا يوم السبت إلى أن كاد يجب فرض الظهر بحصول الزّوال، فأعملنا الجمال وعليها الأحمال وسرنا في منخفض تارةً ومرتفع أخرى، ثم دخلنا بين تلّين من التراب يسميان بالجَرْفَين لوقوع سيل بمر إذا سالَ ذلك الوادي.

ولم نزل كذلك إلى أن دخلنا بين جبلين ويسمّيان عشّ الغراب، وسرنا كذلك إلى أن كاد يلوح الفجر فوصلنا لمحل في ارتفاع بين جبال مخضرّ الأنحاء والجهات من الشيح والقيصوم رياض ويسمى المنزل المذكور الشرفا، وأقمنا إلى أن وجب فرض الظهر، ثم سرنا عن محل مفقود به الماء، قليل الحياء، نطوي به وهاداً ونجاداً، نمرّ بين جبلين مرتفعين بقية يومنا وليلتنا حتى لاحَ الفجر فوصلنا المنزل المقصود المسمى:

مغاير شعيب: فإذا هو منزل متّسع الجهات والأنحاء عذب الهواء، رمل الأرض تحفر فيه حفائر نحو الذراع أو الذارعين، فيظهر الماء العذب الحالي، فشرب الناس وملأوا قربهم وسقوا دوابهم أعذب ماء ذقناه بعد ماء النيل وأحلاه بالجملةَ والتفصيل، وأرضه بها شجر الدّوم المشبه للنخل، وينبت بها البعيثران البري المسمى بالشيح طاب ريحه وعذب غبوقه وصبوحه، وأقمنا به إلى أن أدّينا به الظهرين جمع تقديم.

ثم سرنا في أمان الله وحفظه مشمولين بلحظه، في أرض ذات أحجار كبر، ومرة ذات أرمال صغار، نطوي مضيقاً تارةً سيما قرب مفارقة المنزل، ومتسعاً أخرى، والأرض على ذلك النحو حتى لاحَ الفجر فبدت الإشارات، وانتشرت

للمنزل المقصود علامات، فحللنا به وهو المسمى: عيون القصب: فإذا هو منزل في وهاد من الأرض زاد طوله على العرض، متسعة جهاته، مشمولة بالنبت وهاده وربواته، على شاطئ البحر الملح سرّحنا في روضه النواظر وصقلناه بمرآه الخواطر، وأقمنا به على قلّة مائه الهمج بعد نزولنا إلى أن وجب الظهر فأدّينا به العصرين.

ثم سرنا نطوي فسيحاً من الأرض ليّن الموطأ والبحر عن يميننا سائراً معنا إلى أن أصبحنا قبيل الفجر فلاحت لنا أعلام المنزل المقصود وظهرت الإشارات للمنهل المورود، المسمى بـ: المويلح: فوصلنا إليه يوم الأربعاء قبيل الفجر، فإذا منزل متسع به نخل وآبار يرتوي منها الواردون، وقلعة قائمة البناء ظاهرة الرفع وذلك من علامة الاعتناء، مربعة الوضع، غير متناهية الرفع، بها مسجد عامر بالصلوات وإقامة الجمعة والجماعات، ومنارة قرب بابها يؤذن عليها في أوقات الصلوات، وبها عسكر مقيمون وعليهم آغا مُعيَّن، والقلعة مسكونة، بها بيوت كثيرة ومدافع عاملة يضربونها إذا قدم الحاج.

العقبة والمدوّرة والطريق إلى المفرق

تحفة الأدباء وسلوة الغرباء / لإبراهيم بن عبدالرحمن الخياري (ت 1083هـ) (ج 1، ص 78-91)

ولم نرحل حتى وجب فرض لعصر وسرنا مسير البدر في المنازل نطوي هاتيك المجاهل إلى أن أصبحنا بوادٍ ذي حجارة دقاق لا يسع السائرين فيه مزيد انطلاق يسمى: جُغَيْمان فإذا هو خال من الماء غير بارد الهواء.

أقمنا به إلى أن أدّينا الفرضين فقرت بأداء الدين العين. ثم سرنا منه نُزجّي الحمولات وننشر أردية الأذكار والدعوات، طاوين هاتيك الفلوات، مستغرقين في الحال لا نلتفت لما فات ولا نرتقب ما هو آت، حتى وجبت الشمس واطمأنت برؤيا البدر النّفس فبدا متحجباً بسربال الغمام ولم يلُح لمرتقبيه سافراً للثام حتى وجب فرض العشاء فأسفر عن محياه وأزال ذلك الغشاء.

فسرنا في سمره مستأنسين بضوئه وموشى حبره حتى تناصف الليل، وضعفت القوة والحيل، وكادت بناسير الفجر تقلص أذيال الدجى وامتدت من المشاة والركبان حبال الرجا فإذا نحن في صعود لعقبة كؤود صعب مرتقاها، عسر منتقاها، شامخة الأنحاء كأنما اتصلت أسبابها بالسماء، خالية منها عن الحاجر جهة اليمين فمن وقع منها هوى لأسفل سافلين.

ازدحم في سلوكها المشاة والركبان وكاد الساقط أن يدخل في خبر كان، فكم جمل محمل على ما بلغني في هوته هوى، وكم جمّال بموت جماله غصن آماله ذوى، وكم بعير كان جيد السير فوقف يرتجف فصار من ارتفاعه ونحوله معرضاً للسقوط كطير على غصن وهمز على ألف، ينزل عند صعودها غالب بل سائر الناس خشية السقوط والميل، ويركب من وجد مركباً من الحمير والبغال والخيل وينتصب في أعاليها سوق تباع فيه الحلوى وما يناسبها وأظنهم لأكلها أو بيعها بها يسمونه عقبة الحلوى، وما أنصف ناسبها.

ثم سرنا بعدها غير بعيد في بغاز على لغتهم غير ضيق وغير مديد وانتهينا عند طلوع الفجر مع أوائل الرُّكب وإلا فالكثير والأمير إنما وصلا حالة الأسفار أو بعدها إلى منزل يسمونه: ظهر العقبة أو سطح العقبة، رمل الأرض متسع الأنحاء، عذب الهواء، مفقود الماء لقلة الحياء فإنه إنما يوجد به الماء إن جاده غيث السماء.

فأقمنا مغتبطِين ببرد هواه لقول الشاميين أنه هواء دمشق الحائزة على غيرها من البلدان قصب السبق إلى أن صلّينا به الظهر ورحلنا في أمان الله وحفظه نطوي النجد والوهاد في صعود وانخفاض، نقص في العلو وازدياد، ونحن تتشنف أسماعنا من الحجاج بوصف المنزل المستقبلين النزول به المسمى: مَعان وكل يترجّى لطف الله.

مُعان ندلج السير إلى السحر، ونشاهد السّمر الذي هو ضوء القمر حتى أسفر الفجر فأدّينا فرضه وطوينا من طويل السفر عرضه.

ثم سرنا نحث اليعملات، ونراقب بدر المنهزل من هالات المحارات حتى انتشر ضوء ابن ذكا، وضعف العاجز عن السير وشكا، فلما ارتفع أتمّ ارتفاع النهار وانتشرت الشمس على الآكام والوهاد أي انتشار لاحت بعد صعود تلال مرتفعة، وانخفاض وهاد متفرقة ليست بمجتمعة أعلام معان وآثار ذلك للمعان، فإذا قرية مشتملة على بويتات وبسيتنات وقلعة قائمة البناء يسكنها جماعة من أهل البلاد لا طائفة من العسكر كغيرها من القلاع لعدم الاعتناء.

وإذا بها سوق قائمة وخيرات عامة أكثر ما فيه يباع الشعير والمعبوك والتين وما يناسب الجمال والتباع. وبها الغنم السمان من المعز والضأن والبيض الكثير واللبان، وبها بعض الفاكهة كالعنب والكمثرى والتوت وغيرها لم يدرك زمن ينوعها ولم تبح لنا حالي ممنوعها فجيء لنا بالكمثرى صغاراً لم تنضج وبالكرم حصرماً لم يتعنب، فمن باب أولى يتزبب. وهو وادٍ عذب الهواء، حلو الماء، ماؤه يوجد نبعاً واستنباطاً من الوهاد بحيث إذا حفر نحو الذراع أو أكثر قليلاً ظهر الماء ونبع، ووجد منه ماء لمريده فيه مزيد متسع.

أقمنا بها يوم الاثنين وهو السادس عشرمن صفر عازمين على بيت ليلة الثلاثاء والرحيل منه صبح غد. وقد وصل إليه جماعة كثيرون من الخليل ينقلون الميرة إليه ومن جملة ما نقلوا المثرى الصغار وبالجملة فهو أعمر البنادر للبيع والشراء.

وقد تخوّف به الحجاج من طائفة من العرب أهل خيل ورماح وهما طائفتان أبناء عم إحداهما مطيعة تأخذ صرتها ومعينها من جهة السلطنة والأخرى ممنعة من ذلك فأرادت الممنوعة الفتك بالحاج وأخذه فمنعتها الأخرى بخيل ورجال ملبسة دروعاً على ما بلغني ولم أرهم.

وهؤلاء العرب يسمونهم المفارجة[1] وقد وقع منهم في سنة غير هذه أنهم أجلبوا على الحاج. وانتشر ضوء الشمس كمال الانتشار فوصلنا مهاداً ووهاداً، وسلكنا أغواراً وأنجاداً، حتى أشرفنا على المنزل المقصود وهو المسمى بـ: الحسا: فإذا هو في وهدة مخضر الأكناف والرّبى، به نبت يصلح مرعى للحيوانات رطباً وآبا، وبه زهر أحمر يشبه لون الورد حسن المنظر جداً أخبرني بعض من يعرفه أن أكله مضرّ للدواب فإذا أكلت منه خيفَ عليها الهلاك، فتركناه بعد أن رغبنا في لونه وجاوزنا موضعه.

ونزلنا بتلال مرتفعة يحيط بها بعض الجبال، وبه عين ماء عذب يردها الحجاج وأعراب ينقلون الميرة من الدقيق والشعير المعبوك وهو دقيق يُخلط بشيء آخر يشبه العدس تعلف به الجمال، وبها الزبيب والتين وتباع هذه الأشياء رخيصة بحيث بالغ لي بعض من معنا من الشاميين أنه يباع بها المدّ المدني بمصرية واحدة، وهذا إلى منزلنا، هذا ما حضرنا بيعه برخص هذا الثمن، فلله الحمد والمنّة[2].

ثم سرنا منه العصرين فعند الخروج منه مررنا بتلال هي أشبه بالجبال ارتفاعاً، ووهاد تحكي الخنادق انخفاضاً وفيها التواء وانعطاف بحيث يصير المستقبل للطريق بعد قصده منحرفاً يمنةً تارةً ويسرةً أخرى، وهذا الانقلاب يسميها حجاج الشاميين القلابات وهي نحو السبع.

---

(1) المفارجة هم فرقة الفرارجة من الحويطات، وزعامتهم في بيت: أبو تايه. وقد سبق وتحدثنا عن قصّتهم مع أمير الحاج الذي لم يدفع الصرّة لفرقة المطالقة وزعامتهم في بيت الجازي، ولم يدفع لفرقة الفرارجة. وكان ما كان ما شرحناه في الجزء الأول.

(2) نجده يصف السوق في الحسا قبل ثلاثة قرون 1083هـ بعكس ما يمكن أن يتصوّره من لا يقرأ التاريخ.

كان مبدأ سلوكها بين العصرين وانتهاؤها بعد العصر بنحو ساعة بحيث وسعنا حال المرور منها أن نتلو من القرآن العظيم من أول سورة الأنبياء إلى آخر سورة فاطر غيباً بين الحدر والترتيل أقرأ أنا شيئاً ويقرأ مثلي العديل.

ثم بعد أن انتهى بنا السير عنها برّك الحاج الجمال وعليها الأحمال، وشربوا القهوة كما تقدم ثم وجب المغرب فأدّيناه مع العشاء جمع تقديم، وجمع معنا من الأصحاب من سلم من التعصب، وقابل ذلك بالتسليم.

وبلغني ممن تقدم من الأصحاب أنه لاحَ لهم قطيع من بقر الوحش أو وأنه[1] أوجف عليه خيل من جماعة موسى باشا المقام على التجريدة وأنهم نفّروهم وما وصلوا إليهم، ثم سرنا ليلتنا وهي ليلة الخميس التاسع عشر من شهر صفر، إلى أن أصبحنا بأثناء الطريق فصلّينا به الصبح مغلسين، ثم سرنا حتى ارتفع النهار ودخل في الساعة الثالثة وصلنا للمنزل المبارك المسمى بـ: القطراني: فإذا هو وادٍ فسيح، به عذوبة هواء ونسيم رطب ولا أقول ريح، فيه قلعة عظيمة البناء لائحة الإشراق والسناء، وجدناها مغلقة الباب ولم ندخلها ولا أحد من الأصحاب. بها جماعة من أهلها مقيمون بها يبيعون منها التبن وما يناسبه بالتدلي من أعلاه. وإلى جانبها بركة عظيمة الوضع، كثيرة النفع.

أخبرني بعض من ذرع هاتها الأربع أنه تسعون ذراعاً بذراع العمل وأن عمقها سبعة أذرع ينقص ماؤها الآن ذراعاً واحداً وستة أذرع مغمورة بالماء، وأن ماءها هكذا يجتمع من السيل لا من بئر ولا نهر ولا عين، وأن لها مدخلين متّسعين، وإلى جانبها بركة صغيرة تكون لتصفية الماء.

(1) كانت البادية الأردنية مرتعاً خصباً لقطعان البقر الوحشي، وقد سبق وشرحنا ذلك.

وأخبرني بعض أصحابنا عن بعض الحجاج أنهم لما وردوها حال الذهاب كانت ملأى تتدفق ماء وأن نقصها لشربهم وغيرهم من الواردين هذا الذراع فقط، وهي مربعة الوضع فهي من أعظم البرك التي رأيناها.

وبهذا المنزل يباع كثيراً ما يتعلق بالدواب من الشعير والمعبوك وبغيرهم كالدجاج واللبن. وأقمنا بها بعد الوصول إلى أن صلّينا بها الظهرين جمعاً وبرزنا منها بعد أن وجب فرض العصر أو كاد بحيث صلاّه بها من رفقتنا بعض من لم يكن جمع معنا والبعض آخر أثناء الطريق.

فسرنا منها في مسيل لين الموطأ عذب الهواء، مخضر الجهات والأنحاء ما أشبهه بمزرعة من مزارع الشعير والحنطة وهذا هو مسيل الماء الذي يصل منه للبركة المتقدمة ولا يستغرب كبرها المذكور بعد أن يكون هذا سيلها ولا بدع إن كان ذلك الكيل كيلها، فإنه على قدر الإدخال يكون الإخراج.

وانتشر الحاج فيعرض هذا الوادي انشاراً حسناً فسالت بأعناق المطايا أباطحه، وانتشرت به هاتيك المحامل، فحبذا سانحه وبارحه، وزاد عدد القطارات على المائة فيما يغلب على الظن بل أكثر بكثير حتى تخيل للرائي أن عرض ذلك الوادي زاد على طوله وأن الحج ملأ انحاءه فما أحسنه من حامل وما أعجبه من محموله، والجمال كأنها طلائح تخب من الأرض على بساط أبهر من أخضر السندس، وكأن ترابها الزعفران، وغريد أطيارها وصادح حمامها يطرب ما لا تطرب العيدان حتى أني لتسلية نفسي ومثلي من أبناء جنسي تخيلت إنه العقيق المستسقي له الشاعر المفلق الفتح الحلبي في قصيدته الحائية التي امتدح بها سيد ذلك النادي والفريق بقوله:

سقى العقيق من الساري الملث بما ... شاء العقيق وشاءَتْهُ صحاصِحُهُ
حتى تخب بأبناء الرجاء به ... في سندس لا ترى أينا طلائحه

فسرنا به إلى أن أصبحنا فصلّينا الصبح وهو يوم الجمعة العشرين من صفر دون المنزل بقليل، ثم ركبنا آخذين بالمشي الذميل حتى ارتفعت الشمس قيد رمحين فانتشر ضوءها للعين فنزلنا منزلاً متسعاً، سائغاً عذباً هواؤه لم يكن ممتنعاً وهو المسمى بـ: البلقاء: ليس به أنيس ولا صاحب جليس، إلا من ورد معنا ممن حلاله الإدلاج والتعريس ليس بالمحل المذكور شيء من الماء، بل قابلنا وجهه بنبات أسود لما به قلة الحيا (العُشْب)، وبه على بُعد من المحط خان قديم يضاف للمحل فيقال خان البلقاء وهو قديم البناء خالي الأرجاء.

وأرض هذا المنزل مشهورة بالجودة حتى قيل إنها تنبت الزعفران ولكنها إذا أصابها المطر صارت خوارة ولا يستطيع المشي عليها الجمال الرجال فربما غاصت بها الأقدام بل انتهى ذلك حتى عمّم الرؤوس ونزل الجمل بحمله فتركه صاحبه كرها ولم يفده أن كان ذا ناموس، وإذا وضع رجليه الجمل عليها تزحلقتا يميناً وشمالاً فربما انقسم نصفين والحمل عليه.

ولهم مبالغات يحكونها عن هذا المحل ولين طينه حتى أخبرنا بعض من له عليه ترداد من الثقات أنه في بعض الأعوام تلف فيه غالب الحاج أو الكثير منه بحيث غاصت الأحمال، وهبت الأموال، ونجا بعض الرجال على الخيل والبغال، وأخبرني أيضاً أن بعض التجار كان معه من المحزوم ثمانون حملاً فلم يخلص له إلا ستة عشر وعلى هذا القياس، وترك كثير من التختروانات فلم يقدر على حملها ونقلها.

وقد سلمنا ولله الحمد في هذا العام وسلم من معنا من الحجاج والله المحمود على ذلك إكراماً بجيرانه ﷺ ، وهذه منهم كلمة اجتماع فالله تعالى يحقق ذلك الظن ويوصلنا ومن معنا في صحبتنا بالصحة والسلامة إلى الوطن.

هذا وقد أقمنا بالمحل المذكور إلى أن صلّينا به الظهرين، وترحلنا منه بين الوقتين، نسير الهوينا، ونطوي للمشقة بينا، في رياض جف نباتها لبُعدها من المطر، وفاح ريح شيحها فعبق من خطر ولم نزل نطوي المهامة والوهاد ونفري الأغوار والأنجاد، حتى تناصف الليل أو كاد فانتهينا في السير إلى جبال وللين حجرها يحق أن تسمى بالتل، صعب مرتقاها، شيد على النفوس لقاها، ومن ذا من النفوس يستطيب العقاب، أو يستلذ الثنايا فإنها عذاب ما لم تكن من العذاب فنزل غالب الركاب لتلك الصعوبة، ولم يغادر أحد على ظهر الركوبة.

إلا من خيف عليه للضعف كالنساء والأطفال والكبراء وزمناء الرجال، أو العظيم منصبه، أو الكريم نسبه، ومن نزل وتهيأ له مركوب من الخيل والبغال والحمير فذاك رئيس لم يدر صعوبة المسير، ومن ذرع بخطاه بسيط هاتيك التلال قاسى شدة وأدركه الملال.

وهذه العقبات يسميها الشاميون على قاعدتهم السابقة بالقلابات بالفتح والتشديد وهي أصعب من الأولى ولكنها على نمطها وشكلها. وجملتها كما أخبرني بذلك بعض الثقات أربع عشرة قلابة ابتدأنا سلوكها سيراً وسطاً من أول النصف الأخير او ثلثه أو ربعه إلى أن أسفر النهار فصليناه بأعاليها، وقد وصلت نفوس المشاة إلى تراقيها.

ثم سرنا غير بعيد قيد ميل أو ينقص أو يزيد فإذا الأعلام الخضر لاحت بالزرقاء وإذا العيون السود تلمح قصرها الأبيض حقاً، وهو قصر عالٍ مرتفع مبيض الظاهر عظيم الوضع، يقال له قصر شبيب ويقال أنه شيخ من مشايخ العرب أقام بهذا المنزل فابتنى هذا القصر ولم نزل ندنو والخيام تقرب وأنا أقول مسلياً للنفس أي ذات أرادت الوصول إلى العلم بعظيم القدرة فلتغترب.

فبعد أن وصلناها وحططنا الرحال وانتظم الشأن والحال سرنا للتنزه في جهاتها والإحاطة ببعض صفاتها، فإذا سوق قائمة، وخيرات متراكمة وعوالم متزاحمة، واردة من دمشق الشام ومما حولها من البلدان والقرى، فمن الشام كل فاكهة به موجودة فمن المنقول التفاح بأنواعه وكذلك الكمثرى والعنب والحبحب والخوخ ومنه الخراساني وهو غريب الهيئة أشبه شيء بالمفاخر الكبير من الرطب الجبلي المعروف بالمدينة هيئة ولوناً، والخيار والقثاء بكثرة، ومن غير الفاكهة البيض بالسلات بحيث تحتوي كل سلة على نحو الخمسمائة بيضة وأبيع مسلوقاً مصبوغاً بألوان من الصبغ، كل عشرة بمحلق ديواني ويسمونه مصرية.

والخبز الخمير المخبوز مدهوناً بسمن أو زيت ويباع رخياً جداً فاشترينا منه مخبوزاً أبيض كل خمسة عشر رغيفاً بديواني واحد، وهو كثير ليس عليه من يسومه مع كثرة الدجاج وبعدهم عن الخمير، والعناب نصف المد المدني بأربعة مصارية، والكباش الضأن والغنم المعز أمر كثير لا يسأل عنه[1].

وخيل جياد تعرض لتباع حسنة الأوصاف والابداع، وأما الشعير والتبن وما يشبههما فالأمر العجيب كثرةً ورخصاً فالمد المدني من الشعير المغربل بنصفين فضة ديواني، والدجاج نياً ومطبوخاً فالمطبوخ الواحدة بثلاث مصريات والنيء كل اثنين بخمسة.

وأما ماؤها وما أدراك ما ماؤها فهو أعذب ماء وأحلاه وأرقّه وأصفاه، في ناحية منها على يسار داخلها وصلت إلى مورده المورود وشربت منه فقلت لا

---

(1) نجد هنا وصفاً مفصّلاً عن الخيرات في الزرقاء في القرن الحادي عشر الهجري. أما الخبز الخمير المخبوز مدهوناً بسمن أو زيت فيسمى عند الأردنيين: اللزّاقي، لأنه يتم خبزه بوضع قطعة العجين على الصاج ثم يتم توسيعها باليد وهي على الصاج الحامي، لذلك سميت اللزّاقي، ويسمونها الفطيرة، إذا كان اللزّاقي مدهوناً بالزيت أو السمن أو الزبدة الحيوانية. ويتم تقديم هذه الوجبة في الأفراح وأعياد الفطر والأضحى. ويوضع عليها السكر.

عيب فيه يقال إلا أنه حلو وبارد يشبه الماء النجل، لم أرَ له جرياً ولا زيادة ويقال أنه ينبع من محل فيسيل فلا يعلم إلى أين يذهب، وعلى حافتيه أشجار أشبه شيء بأشجار الورد العظام هيئةً ولوناً وزهراً.

فلقد رأيتها مكللة بالورد الجوري والنصيبي تكليلاً يعجب الرائين ويذهب بحزن الحزين، وينعكس على الماء لون ذلك الورد فتخاله مغروساً مثمراً بباطنه. جلسنا على خد ذلك النهر يظلنا عذاره الريحاني المكلل بالورد فتخيلته عذاراً جديداً غشي ورد خد، وأقمنا به نتنقل بالفاكهة الشامية والمفاكهة المدنية، وهذا المنقول من غير دمشق من بلاد يقال لها عجلون قريبة من هذا المنزل تنقل خيراته إليه إذا نزله الحاج وهي قرى متقاربة كما أخبرني بذلك بعضهم. وسلوكهم للقلابات المتقدم ذكرها آخر الليل أمر واقع لهم على خلاف عادته المقرة إكراماً بجيرانه ﷺ .

وأما عادتهم المقررة فإنهم يبركون الجمال دونها ويقيمون بذلك المحل إلى أن تطلع الشمس ثم يسيرون فيصلون المنزل ضحوة النهار في حرّ الشمس وفي هذا العام وصلوها عند الطلوع وكثير وصلها قبله فوقاهم الله تعالى حرّها. وأقمنا به يومنا كله وبتنا به ليلتنا وهي ليلة الأحد إلى أن لاحَ سنا الفجر ووجب لمطوي برد السفر النشر.

فسرنا مبادرين بغلس وقد أخذت العجلة من الحجاج بالنفس علونا أول المسير تلالاً مرتفعة وهبطنا وهاداً تكاد أن تكون ممتنعة حتى وجب فرض العصر واقتضى الكلال من المسير الجمع والقصر، فنزلنا منزلاً بين وهاد وربى مخضر العذبات يميلها الهواء طرباً قد اشتد به سطان الهوى فلم يبقَ عمود فسطاط قائماً إلا حرّكه يكاد يهوي أو هوى.

وهذا المنزل يسمونه: المفرق: وسبب تسميته بذلك أن أهل القرى كطرابلس ونابلس ومن وصل مع الحاج من أهل البلقاء والزرقاء يتفرقون منه إلى أوطانهم فلذلك يسمونه المفرق، وقد أقمنا به إلى أن صلّينا به العشائين وذهب ألم التعب والأين، واستمرينا به نستعذب السمر ونستقرب طلوع القمر فإنه نادى الأمير أن لا رحيل ولا مسير حتى يسطع نوره وتنكشف ستوره فاستمرينا نتلو القرآن ونتدارس التبيان نحيي به الليل، ونقوي ما ضعف من الحيل إلى أن لاحَ لنا القمر وقد ملّ السامرون السمر، فسرنا في دعة الله، وأمانه راجين عميم إحسانه، نطوي بساط الأرض رمقاً وخفضاً، ونقطع بُردها أرضاً فأرضاً، ننزل وهاداً ونعلو تلالاً فنظنها أطواداً، إلى أن مرّينا على يسار الطريق بضيعة عامرة يقال لها رمتة، بها بيوت منقورة في الأرض نقرها جاهلي قديم، يسكنها الإسلاميون وإلى جانبها مسجد وبه قبة عالية منيفة، ويبرز أهلها للقاء الحجاج والبيع عليهم بالدجاج والبيض المطبوخين والعيش الأبيض النقي، ويباع ذلك رخيصاً.

وبعدها بقليل ضيعة أخرى كالأولى وصفاً وما يباع، ويقال لها ألطمة. وسرنا بعدهما بقليل وقد اشتدت الشمس وامتدت الأعناق إلى رؤيا المنزل المقصود واشتاقت النفس ونحن نسير في رياض فيح مخضرة الوهاد والرّبى تعذب للغادي والمريح، ليس بها شيء من الجبال والتلال، ولا ما يواري الشخص من شجر ولا مدر تكون له ظلال يكثر فيها نزول الندى والمطر فلذلك ترابها لا يزال ندياً، ويزرع بها ما يحتاج إليه من الذرة وما شاكلها فلم يبرح وجهها بعذار النبات حالياً. نطوي بها طياً، وننشق منها رياً، حتى لاحت أعلام.

-36-

الغـــور

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع لأبي عبيد البكري (ج 3 ص 1008)

غَوْرُ تِهامة: معروف، قد تقدم ذكره وتحديده.

والغور مثله: موضع بالشام. والسُّرَيَّة: قرية بالغور الشامي، قال أرطاة ابن سُهَيَّة:

دَعَانا شَبيبٌ بالسُّرَيَّةِ دَعْوَةً فقامَ لَهُ بالحَرَّتَيْنِ مُجيبُ

وهذا الغور الشامي هو الذي أراد أبو الطيب بقوله:

لَوْلاكَ لم أتْرُكِ البُحَيْرَةَ والغَوْ رُ دَفِئٌ وماؤُها شَبِمُ

-37-

الشّراة

(معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع لأبي عبيد البكري الأندلسي ج 3 ص 389)

بزيادة هاء التأنيث: أرض من ناحية الشام، قد تقدّم ذكرها في رسم زُغَر. وقال حاتم:

إنّما بَيْنَنا وبَيْنَك فاعْلَمْ سَيْرُ تِسْعٍ للرّاكِبِ المُنْتابِ

وثَلاثٌ مِن الشَّراةِ إلى الحِلَّةِ للخَيْلِ جاهِداً والرِّكَابِ

يخاطب بهذا الحارث بن أبي شَمِر؛ فذكر أن بين جَبَلَي طَيّءٍ والشَّراة تسعاً، وأن من الشراة إلى الحِلّة بأرض الشام ثلاثاً.

سَرْغ (معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع لأبي عبيد البكري ج 3 ص 735)

بفتح أوّله، وإسكان ثانية، بعده غين معجمة: مدينة بالشام، افتتحها أبو عبيدة بن الجراح، هي واليرموك والجابية والرّمادة متصلة.

وروى مالك من طريق عبدالله بن عبدالله بن الحارث، عن ابن عباس، أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسَرْغ، لقيه أبو عبيدة وأصحابه،

فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فقال: ادعوا (لِي) المهاجرين الأوّلين. وذكر الحديث بطوله.

-38-

اليرمــوك

(معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لأب عبيد البكري الأندلسي ج 4، ص 1363)

بفتح أوله، وإسكان ثانيه: موضع مذكور في رسم خَمَّان. وباليرموك التقى جمع الروم الأعظم والمسلمون، وأميرهم أبو عبيدة ومعه خالد بن الوليد، فبرز منهم رجل عظيم الشأن، فقال أبو عبيدة: من يبرز إليه؟ فبرز إليه قيس بن هُبَيْرَة ابن المكْشوح، فطعنه فأذراه عن فرسه، فنادى أبو عبيدة في الناس: والله ما بعدها إلا النصر، فاحملوا. فحمل المسلمون، وكانت الدَّبْرة على الروم، فقُتل منهم سبعون ألفاً. وذلك أنهم كانوا تقيّدوا للثبوت، فلم ينج منهم إلا أقل من الثلث، فلم يُقتل في وقعت من أول الدهر إلى وقتنا هذا، أكثر من قتل اليرموك. وقال قيس [بن هُبَيْرة] بن المكشوح:

جَلَبْنَا الخَيْـلَ مـن صَـنْعاءَ تُـرْدِي ... بكـلِّ مُدَجَّـجٍ كالـلَّيْثِ حَـامِ
إلى وادي القــرى فديــار كـلـبٍ ... إلى اليرمــوك بالبــلد الشــآمِ
وأهــلُ صِــرْوَاحَ وضَــهْرَ وهَكِـرْ ... بَدَّدَهـم رَيْـبُ الـزمان عـن قَـدَرْ

-39-

مــؤتــة

(معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لأبي عبيد البكري الأندلسي ت 487 هـ ج 4 ص 1172-1173)

بضم أوله، وإسكان ثانيه، بعده تاء معجمة باثنتين من فوقها: موضع من أرض الشام، من عمل البلقاء؛ وهو الذي بعث إليه رسول الله ﷺ الجيش سنة

ثمان (للهجرة)، واستعمل عليهم زيد بن حارثة مولاه، وقال: إن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن أُصيب جعفر فعبدالله بن رواحة، فأُصيبوا متتابعين على ما قاله. وخرج إلى الظُّهْر من ذلك اليوم تُعرف الكآبة في وجهه، فخطب الناس بما كان من أمرهم، وقال: ثم أخذ اللواء سيف من سيوف الله: خالد بن الوليد، فقاتل حتى فتح الله عليه. فيومئذ سُمّي خالد سيف الله. وكان لقاؤهم الروم في قرية يقال لها مشارف، من تُخوم البلقاء. ثم انحاز المسلمون إلى مؤتة. قال ابن عمر: كنت فيهم تلك الغزوة، فالتمسنا جعفراً، فوجدناه في القتلى، ووجدنا في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمْية. ذكره عند البخاري.

قال ابن إسحاق: لما نزل المسلمون مُعان، وهي بين الحجاز والشام، حصن كبير على خمسة أيام من دمشق بطريق مكة، بلغهم أن هرقل قد نزل مآبَ من أرض البلقاء، في مئة ألف، فأقام الناس بمُعان ليلتين، ثم إن عبدالله بن رواحة شجّعهم، فاستمرّوا لوجْهتهم، وقال ابن رواحة:

جَلَبْنا الخَيْلَ من أجَإٍ وفُرْحٍ ... تُغَرُّ من الحشيش لها عُكُومُ
أقامَتْ لَيْلَتَيْن على مَعَانٍ ... وأعْقَبَ بعد فَتْرَتها جُمُومُ
فرُحْنا والجيادُ مُسَوَّماتٌ ... تَنَفَّسُ في مَناخِرِها السُّمُومُ
فلا وأبي مَآبَ لتأتِيَنْها ... وإنْ كانت بها عَرَبٌ ورُومُ

ورواية أبي جعفر الطّبري:

جَلَبْنا الخَيْلَ من آجامِ قُرْحٍ

وقال حسان بن ثابت يرثي أهل مؤتة:

فلا يُبْعِدَنَّ اللهُ قَتْلَى تَتَابَعُوا ... بمُؤْتَةَ منهم ذو الجَناحَيْن جَعْفَرُ
وما زال في الإسلام من آل هاشم ... دَعَائمُ عِزٌّ لا يُرَامُ ومَفْخَرُ
بَهَاليلُ منهم جَعْفَرٌ وابنُ أُمِّهِ ... عَليٌّ ومنهم أحمد المُتَخَيَّرُ

-40-

مُعَـــان

(معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، لأبي عبيد البكري، ج 4 ص 1242)

مُعَان بضم أوله: جبل قد تقدم ذكره في رسم أبلى ومُعان أيضاً لفظة: حصن كبير على خمسة أيام من دمشق، في طريق مكة، وقد تقدم ذكره وتحديده في رسم مؤتة، وسيأتي في رسم سَرْغ، قال هُدْبَةُ بن خَشْرَم في مُعان الحجازية:

أنـا ابنُ الذي استَأْدَاكُمُ قد علمتُمُ ... بِـبَطْنِ مُعَـانٍ وَالقِيَـادَ الُمجَنَّـبَا

وقالَ جميل:

ويـومَ مُعَـان قـال لـي فعَصَـيْتُهُ ... أفِقْ عـن بُـثَيْنَ الكاشِـحُ المتنصّحُ

وكان فروة بن عمرو الجذامي عاملاً للروم على مُعان، الحصن المذكور وما يليه من أرض الشام، فأسلم وأهدى لرسول الله ﷺ بغلةً بيضاء، فلما بلغ الروم ذلك طلبوه حتى ظفروا به، فحبسوه، ثم قتلوه وصلبوه. قال ابن إسحاق: فزعم الزُّهْريّ أنه لما قُدِّمَ لتُضرب عنقه قال:

بَـلِّغْ سَـرَاةَ المسـلمين بـأنّني ... سَـلْمٌ لـرَبّي أعظُمـى ومُقـامِي

-41-

مَـدْيَـن

(معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع لأبي عبيد البكري، ت 487هـ ج4 ص 1201)

بلد بالشام معلوم تلقاء غَزّة، هو المذكور في كتاب الله تعالى. وبعث رسول الله ﷺ سريّة إلى مدين، أميرهم زيد بن حارثة، فأصاب سبْياً من أهل ميناء[1]،

(1) هذه إشارة واضحة لميناء على البحر الأحمر بمحاذاة تبوك، وأنه في أرض مدين، كدليل على أنها (اي مدين) كانت تشمل الأرض حتى هذا الخط، وعلى ساحل البحر الأحمر، فضلاً عن خليج =

قال ابن إسحاق: وميناء هي السواحل، فبيعوا، وفُرِّقَ بين الأمهات وأولادهن، فخرج رسول الله ﷺ وهم يبكون، فقال: ما لهم؟ فأخبر خبرهم، فقال: لا تبيعوهم إلا جميعاً.

ومَدْين: منازل جُذام. والصحيح في نَسَبه أنه جذام بن عديّ بن الحارث ابن مُرَّة بن أُدَد بن زيد بن عمرو بن عَريب بن زيد بن كَهْلان. وشعيب النبي عليه السلام المبعوث إلى أهل مدين أحد بني وائل من جُذام. وقال النبي ﷺ لوفد جُذام: مرحباً بقوم شعيب، وأصهار موسى، ولا تقوم الساعة حتى يتزوج فيكم المسيح، ويولَدَ له.

قال محمد بن سَهْلٍ الأحْوَل: ومدين من أعراض المدينة أيضاً، مثل فَدَكَ والفُرْعِ ورُهَاط.

-42-

جنوب الأردن

(درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة لعبدالقادر الجزيري ت 977 هـ ج 2 ص 97-119)

وأما الدرك الكليّ المشهور فهو على أمير عربان العائد بالشرقية، وعلى جماعته، وابتداؤه من أول صحراء القاهرة وخان داود باشا، إلى الحمام، وهو بجانب البحر الملح، محل زينة أمير الحاج بعد نزوله من عقبة أيلة، وإلى هنا ينتهي حدّ درك الأول.

= العقبة بجنبيه الشرقي والغربي، وأن بلاد مدين كانت واضحة في أذهان غرب الحجاز، وأنها المملكة التي تحاذي حدود جزيرة العرب، وأن هذه الأرض سُمّيت (بضم السين) باسم عشيرة مدين الجذامية وهم قوم شعيب عليه السلام .

ثم لما استولت بنو عطية على الدرك، وغلبوا عليه، وكثر فسادهم واشتهر عنادهم، بعد أن كانوا عربان حَمْلٍ إمْرة الحاج من القاهرة إلى عقبة أيْلة، ولم يقدر أمير العائد على دفعهم، وكفّهم عن الركب، وتوالت مفاسدهم بالسرقة والتخطُّف في هذا الربع الأول، وأعظم محل فيه، وأخبث محل في الدرب المصري نَقْبُ العقبة، لضيقه، واختلاف طرقه، وتمكن العربان من الفساد فيه بالأذى والنهب، فقرر معهم أمير العائد جباية في كل سنة، يدفعها لهم في نظير خفارتهم للنقب خاصة، وحدّ ذلك من السطح إلى الحمام، فوافقوه على ذلك، وتسلّموا منه المبلغ المذكور، والتزموا بخفارة النقب لصعوبته وعسر سلوكه.

وتمكن المجرمون منهم فيه بالأذى للوفد ما لا يمكنهم في غيره إلا بعسر وتيقّظ، فلما وقع الاتفاق على ذلك برهة طمع العائد في أكثر من الحدّ المتفق عيه، وادّعوا أنهم إنما دفعوا المبلغ على خفارة الركب من نخل إلى الحمام، وتنازعوا فيما بينهم، واختلفوا، فبنو عطية ينكرون دعوى العائد، ويعترفون بأن أول حدّهم السطح، والعائد يقولون: من نخْل.

وتلاشى بهذا المقتضى أمر الصائع بين نخل والسطح، فإن أمير الحاج من نخل يُلبس أمير العائد تشريفاً ويعود بجماعته وخيله منها إلى القاهرة، ويصير ما بين نخل إلى السطح بغير خفير ولا صاحب درك – وسيأتي ذكر ذلك أيضاً في محله – فلنرجع إلى مدة الإقامة بالبركة والرحيل منها فنقول: إن العادة المستمرة أن يقيم الركب ببركة الحاج خمسة أيام – كما قدمنا ذكره – إلا أن يطرأ أمر ضروري معوق لزيادة يوم في بعض السنين، لأجل الضرورة، فيتأخر الركب ذلك اليوم ولا يعتمد على مثل ذلك.

وقدّمنا أن أمير الحاج لابد وأن يراعي أحوال الجَمّالَة، ويسأل عن أحوالهم واعتدالها، وكفايتهم من العليق والجِمال، فإن في ذلك الراحة لأمير الحاج

وللجمال وللرعية، فإذا توجه يوم الثامن عشر من القاهرة يكون العادة في رحيله من البركة أذان الفجر من صبيحة اليوم الثالث والعشرين، هذا هو المعهود المتعارف في صدر من الدولة الجركسية وإلى زمننا هذا.

وينبغي لأمير الحاج أن لا يرحل من البركة ليلاً، ففي ذلك من الفساد والمضار ما لا يخفى، فإنه قد يتسحّب من الجِمالة والغلمان ممن لا يكون على اعتدال للسفر، فيكون الليل ساتراً ومعيناً لهم على ذلك، فقد وقع من ذلك أن تسحب الجمال بجماله ليلاً ولم يشعر به الركاب وأصبحوا بأحمالهم بلا جِمال، فعادوا إلى القاهرة، وقد يُخشى على المودعين أيضاً من التعرض لهم، إذا رحل الركب ليلاً وتركهم، فإن ذلك الموضع في أوان الحاج مقصود من أهل الأذى والفساد، وبالجملة فالرحيل من البركة ليلاً غير المعتاد، والتأخير بها إلى أن تشرق الشمس غير المعتاد أيضاً، لئلا تصير جميع الرحلات المستقبلية مسبوقة إلى مناخ عقبة أيلة خصوصاً ما ذكرنا من سِمَن الجمال، وثقل الحمل ففيه ما لا يخفى من المشقة، وأحسن ما يفعله أمير الحاج أن يعلن بالرحيل أذان الفجر.

ويستمر هو بالبركة إلى طلوع الشمس، ليتناهى توجّه الركب ورحيله على عتدال، فإن قصر أحد من الجمالة عن جمله أو حصل لأحد من وفده ضرورة ساعدهم على إزالتها، ورحل هو حينئذ.

وبركة الحاج محل وداع الأحباب، ومفارقة الأتراب، وأخذ الدموع في الانسكاب، والقلوب في الاضطراب، وتأكيد الوصية من المحب بالتعريف عن أخبار أحبابه ضمن الكتاب، وما ألطف قول البدر بن يوسف الذهبي:

وبِمُهْجَتِي الْمُتَحَمِّلُونَ عَشِيَّةً وَالرَّكْبُ بَيْنَ تَلازم وَعِنَاق
وَحُدَاتهُمْ غَنَّتْ حِجَازاً بَعْدَ مَا غَنَّتْ وَرَاءَ الرَّكْب في عُشَّاق

وللشهاب أحمد بن أبي حَجَلة:

وَلَمَّـا اعْتَنَقْـنَا لِـلْوَدَاعِ عَشِـيَّةً عَلَى بِرْكَةِ الْحُجَّاجِ وَالدَّمْعُ يُسْكَبُ
فَرُحْـنَا وَقَـدْ جُـزْنَا الْـبُوَيْبَ لأَنَّـهُ إلى وَصْـلِ مَـنْ نَهْـوَاهُ بَابٌ مُجَرَّبُ

زين الدين عمر بن الحسام:

وَلَمَّـا اعْتَنَقْـنَا لِـلْوَدَاعِ عَشِـيَّةً وفي الْقَـلْبِ نِيـرَانٌ لِفَـرْطِ غَلِيْـلِهِ
بَكَيْـت وَهَلْ يُغْنِي الْبُكَا عند هَائِمٍ وَقَـدْ غَـابَ عَنْ عَيْنَيْهِ وَجْهُ خَلِيْلِهِ

ولبعضهم:

وَدَّعْـتكمْ فَـرَجَعْت بَعْـدَ وَدَاعِكُمْ نَدِمـاً أَعَـضُ مِـنَ الْفِـرَاقِ أنَامِـلِي
أَمَّــا التَّصَــبُّرُ بَعْدَكُــمْ فَعَدِمْــتهُ ومِـنَ التَّشَـوُّق والْغَـرام أنَامِـلي

غيره:

لَـوْ كُـنْتَ سَـاعَةَ بَيْنِـنَا مَـا بيْنَـنَا وَرَأَيْــتَ كَيْــف نكَــرِّرُ الــتُّوْدِيعَا
لَعَـلِمْتَ أنَّ مِـنَ الدُّمُـوعِ مُحَدِّثـاً وَعَـلِمْتَ أنَّ مِـنَ الْحَدِيْثِ دُمُوعا

غيره:

وَلَمَّــا اعْتَنَقْــنَا لِــلْوَدَاعِ وَدَمْعُهَــا عَلَى خَدِّها يُفْشِي الصَّبَابَةَ وَالْوَجْدَا
بَكَتْ لؤْلؤاً رَطْباً فَفَاضَتْ مَدَامِعِي عَقِيْقـاً فَصَـارَ الْكلُّ في نَحرِهَا عِقْدا

غيره:

لاَ تَحْسَـبُوا أنِّـي بَخِـلْت بِمَدْمَـعٍ يَجْـرِي دَمـاً يَـوْمَ الْفِـرَاقِ حَقِيْقـا
أنَـا مَـا بَخِـلْت وكَـانَ دُرّاً قَبْلَ ذا أَيَجُـوز بُخْـلِي حِيْـنَ صَـارَ عَقِيْقا

غيره:

وَلَمَّا بَدا التَّوْدِيعُ مِمَّن أُحِبُّهُ   وَلَمْ يَبْقَ إلاَّ أنْ تُزَمَّ الرَّوَاحِلُ
بَكَيْتُ وَأَبْكَيْتُ الْعَوَاذِلَ رَحْمَةً   وَحَسْبُكَ مَنْ تُبْكِي عَلَيْهِ الْعَوَاذِلُ

وللصلاح الصفدي:

لَمَّا اعْتَنَقْنَا لِوَدَاعِ النَّضَوَى   وَكِدْتُ مِنْ حَرِّ النَّوَى أُحَرَّقُهْ
رَأَيْتُ قَلْبِي سَارَ قُدَّامَهُ   وأَدْمُعِي تَجْرِي وَلاَ تَلْحَقُهْ

وله أيضاً:

وَلَمْ أنْسَ إذ وَدَّعُونِي ضُحَى   وقد مطر غُيُوثُ الْبُكَا
وبِتُّ بِحَالٍ يَسُرُّ الْعِدَا   أمَامِي وفَائِي، وَعَيْنِي وَرَا

ومن هذا الحد أيضاً يرجع أمير العائد بخيله إلى القاهرة، زاعماً أن هذا آخر دركه، وبنو عطيّة لا يقرونه على هذا القول، وله قفطان مذهّب عند رجوعه من هذا المحل إذا كان الحج سليماً من الضوائع، وله في نظير اخفارة أقطاع سلطانية يستغلها كالدُّللاء.

وبالقرب من نخل تقدير بريد حفائر تسمى عند العرب الرُّواد – بتشديد الراء وضمّها مع فتح الواو وتخفيفها – وبالقرب منها أيضاً، تزويدة صَدَر، وهي مشهورة، ومنها لنخل يميل مياؤه إلى العذوبة، إلا أنه ثقيل في البطن، وربما أورث الاستكثار منه أمراضاً باطنة كالاستسقاء، وفي نخل – في الغالب – ينتظم حال الركب ويعتدل القطار ويستقيم أمر ذلك؛ وللصلاح الصفدي في مليحة في محارة:

رَأَيْتُ فِي الرَّكْبِ وَجْهَ خَوْدٍ   جَوْهَرُهُ رايقُ النَّضَارَهْ
مِنْ أجْلِ ذا مِحْمَلُ الْمَطَايَا   يَعْرِفُهُ النَّاسُ بالْمَحَارَهْ

وله في مليح على كُوْر:

بِنَفْسِي مضلِيْحاً حُسْنُهُ رَاحَ حُجَّةً ... وَقَدْ حَجَّ فِي رَكْبٍ كراكب ديجور
كَبَاقَة رَيْحَانٍ عَلَى ظَهْرِ نَاقَةٍ ... وَإلاَّ كَبَدْرٍ فِي هِلالٍ مِنَ الْكُوْرِ

زين الدين أبو بكر بن العجمي:

قُمْتُ لَهُ لَمَّا امْتَطَى نَاقَةً ... وقسته لِلْبَدْرِ وَالْغُصْنِ حَازْ
يَا قَاصِداً بِالْحَجِّ غَنِّي النَّوَا ... عَرِّجْ عَلَى الْعُشَّاق قَبْلَ الْحِجَازْ

وكانت الإقامة بها في سنة خمس وخمسين وتسع مئة إلى قبل الظهر بخمس درج ستين درجة، وسار إلى وادي الفَيْحَاء، فكان مسيره إلى قبل المغرب بعشر درج لدخول (الصندق) سبعين درجة.

وبالقرب منه وادي القريص أيضاً أرض متسعة وحصا كثير، وقبله حدرة، وقال أبو العباس السروجي: إن وادي القريص هو بعد الفيحاء بالقرب من أبيار العلائي.

وكانت الإقامة بالدار إلى بعد العشاء بأربعين درجة، وسار إلى أن غدًى حدرة وادي القريص، بالقرب من أبيار العلائي، فكان مسيره لبُعد الشمس بخمس أو عشر تقريباً مئة وخمسين درجة، وهو محل أفيح، قبله حدرة كبيرة، وبئران أحدهما لبيدرة والثانية للعلائي، وفسقية وحوش وقبتان، وفي بعض الأحيان يوجد بالفسقية ماء متغير من بقايا الأمطار، ولطول مكثه لا يُنتفع به، وكانت إقامته بدار المغداة خمساً وعشرين درجة إلى أن أناخ الركب بالقرب من عراقيب البغلة، بمحل يقال له المُنَيْدَرَة – بضم الميم وفتح النون بعدها ياء تحتية ساكنة ودال وراء مفتوحتان – وكان مدة سيره خمساً وتسعين درجة، والعراقيب جمع عرقوب، والعراقيب عصب غليظ فوق عقب الإنسان، ومن الدابة في رجلها بمنزلة الركبة في يدها. قال في «الصحاح» : العرقوب من الوادي موضع

فيه انحناء كبير، وقال الفرّاء: ما أكثر عراقيب هذا الجبل وهي الطرق الضيقة في مَتْنه، وتعرّقَبْتُ إذا أخذت في تلك الطرق، وقال في « القاموس » : العرقوب ما انحنى من الوادي، وطريق في الجبل. والعراقيب خياشيم الجبال أو الطريق الضيقة في متونها، وتعرقب مسلكها.

وأقام بدار المعشاة ثمانين درجة، فإن العادة أن يبيتوا بها إلى الفجر، وسار من المنيدرة فقطع العراقيب، وهي عقبة صغيرة ومحجر، وصعود، وهبوط، ما أصلح ذلك وسهلت طرقه بأمر السلطان قانصوه الغوري، على يد الأمير خاير بك المعمار أحد المقدمين - أثابه الله تعالى - واستمر في مسيره حتى مرّ على أرض البيضاء والجفارات، وكان وصول (الصنجق) إلى السطح قبل العصر بخمس درج، ومدة سيره شيلةً واحدة عنها رحلتنا، مئة وثمانون درجة، والعادة أنه يرحل من أبيار العلائي إلى العراقيب، فيبيت بها إلى قبل الفجر بأربعين درجة، ويسير إلى الجفارات يُغدّي بها بعد الشروق بثلاثين درجة، ومدة سيره تسعون درجة، ويقيم بها عشرين درجة ويرحل إلى السطح، ومدة سيره تسعون درجة أيضاً، هذا هو السير المعتاد وهو أرفق بالوفد والجِمال.

وبالقرب من عراقيب البغلة مقدار نصف بريد بئر تسمى ثمد الحصى.

وبالقرب من سطح العقبة مقدار ثلث بريد مورد ماء يسمى القطار - بالقاف المثناة، والطاء المشددة المفتوحة بعدها ألف وراء مهملة - والجفارات اسم لحفائر وجور بالطريق كجفارات الحاكة.

-43-

سطح العقبة

قاع أفْيَح، ويوجد بأرضه ماء المطر في أوقات، ينزل الركب بآخره بالقرب من رأس النقب، ويستعد للنزول منه.

والعادة أن أمير الركب يبادر إلى دخول السطح في وقت يسع تجهيز جمال الشعارة والربائع ومن معهم قبل الركب، ومعهم فرقة من العسكر مستعدة بالسلاح، وفرقة من الرماة ليخف على بقية الركب كثرة الازدحام، ويكون بصحبتهم من يثق به أمير الحاج من مشايخ الدرك إن كانوا على الطاعة، ويبيت غالب الركب وأمير الحاج بالسطح إلى طلوع الفجر.

وفي سنة خمس وخمسين أقام إلى قبل الفجر بثمان درج، وسار بعد أن فرق المشاة من العسكر الرماة على رؤوس الجبال والمخارس يميناً وشمالاً، ونزل الركب وأمير الحاج و(دواداره) يسهلون طرق العقوب في المضايق مع حفظ الساقة بالعسكر والقوّاسة، فكان غالب الركن بمناخ العقبة أذان الظهر، تكامل بقية ذلك بعده.

وذكر ابن العطار في مؤلفه أن مقدار النّزول من النقب إلى المناخ سبع ساعات وكان هذا النقب على الغاية من الضّيق والوعر، والصعود المشتق السلوك إليه فأصلحه الملوك السالفة أولاً منهم الملك الناصر محمد بن قلاوون فإنه أصلحه مرتين، والسلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري، على يد الأمير خاير بك المعمار حتى سهل أمره يسيراً.

فلما كانت ولاية المرحوم داود باشا في نيّف وأربعين وتسع مئة جهّز المرحوم محمد جلبي ناظر الأموال إلى عقبة أيلة، وكشف عما يحتاج إليه ذلك النقب من الإصلاح الكلّي، وصحب معه أكابر المعمارية وصوّر صورة تلك الأرض ومسالكها في أوراق عُرضت على داود باشا ثم جهزت إلى حضرة مولانا السلطان سليمان، وعرض عليه أمر العمارة، وتقدير الاحتياج لكمال الإصلاح فبرز الأمر الشريف السلطاني بعمل ذلك، وعيّن أمين من الأروام، صحبة القاضي أبي المنصور أحد أعيان الكتبة، وهذا المهم كان سبباً لكتابته بالديوان السلطاني في الغلال.

واستمر على ذلك إلى أن توفي قتيلاً على يد فتاه، وجُهِّزت المعمارية والآلات وما يُحتاج إليه، بحيث أنهم قاموا بالنقب لإتقان هذه العمارة وقطع الجبال بالمعاول لتوسعة الطرق بهمّة ملوكية، وعزيمة خاقانية، إلى أن تكامل ذلك في مدة تزيد عن السنة فصار مسلكاً حسناً، ومرتقاً هيناً، وطريقاً ليّناً، بعد أن كان ذلك النقب من أشق المسالك وأعظم المهالك.

وذكر العلاّمة المقريزي في كتابه « المواعظ والاعتبار » فقال: وادي أَيْلة – على وزن فَعْلة – مدينة على شاطئ البحر فيما بين مصر ومكة، سميت بأيْلة بنت مدين بن إبراهيم عليه السلام . وأيْلة أوّل حدّ الحجاز، وقد كانت مدينة جليلة القدر على ساحل البحر الملح، بها التجار الكثيرة، وأهلها أخلاط من الناس، وكانت حدّ مملكة الروم في الزمن القديم، وعلى ميل منها باب معقود لقيصر يأخذون هناك المكس، وبين أيْلة وبين القدس ست مراحل، والطور الذي كلّم الله عليه موسى على يوم وليلة من أيْلة، وكانت في الإسلام منزلة لبني أمية، وأكثرهم موالي عثمان بن عفان، وكانوا سقاة الحاج وكان بها متاجر وأسواق عامرة وكانت كثيرة النخل والزرع.

وعقبة أيْلة لا يصعد إليها من هو راكب، وأصلحها فاتن مولى خُمارويه بن احمد بن طولون، وسوّى طريقها، ورمّ ما استهدم منها، وكان بأيْلة مساجد عديدة وبها كثير من اليهود يزعمون أن عندهم بُرْدُ النبي ﷺ وأنه بعثه إليهم أماناً وكانوا يخرجون برداً عَدَنِيّاً ملفوفاً في الثياب، قد أُبرز منه قدر شبر فقط.

ويقال: إن أيْلة هي القرية التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في الكتاب العزيز، حيث قال: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ [الأعراف: 163] إلى آخر الآية، وقد اختُلف في تعيين هذه القرية فقال

ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة والسُّديّ هي أيْلة، وعن ابن عباس أيضاً أنها مدائن بين أيْلة والطور.

وقال قتادة وزيد بن أسلم: هي ساحل من سواحل الشام بين مدين وعيْنونة، وقيل: إن أيْلة أصلها (إيليايلة) وقد وقع ذكرها في التوراة كذلك. وذكر المسعودي أن يوشع بن نون عليه السلام حارب السَّمَيْدعَ بن هرمز بن مالك ملك الشام ببلاد أيْلة نحو مَدْين وقتله، واحتوى على ملكه وفي ذلك يقول عوف بن سعيد الجرهمي:

أَلَـمْ تَـرَ أنَّ الْعَـلْقَمِيَّ بْـنَ هُرْمُـزٍ ... بأَيْـلَةَ أمْسَـى لَحْمُـهُ قـد تَمَـزَّعَا
تَدَاعَـتْ عـليه مِـنْ يَهُـوْدَ جَحَافِلٌ ... ثمَـانِيْنَ أَلْفـاً حَاسِـرِيْنَ وَدُرَّعَـا

وهي أبيات كثيرة.

وقال ابن إسحاق: فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه يحنة بن روبة صاحب أيلة، فصالحه وأعطاه الجزية، وكتب له كتاباً، وكان ذلك في سنة تسع من الهجرة، ولم تزل مدينة أيلة عامرة آهلة، وفي سنة خمسة عشر وأربع مئة طرق عبدالله بن إدريس الجفري أيلة ومعه بعض بني الجرّاح ونهبها، وأخذ منها ثلاثة آلاف دينار وعدة غلال، وسبى النساء والأطفال، وفي سنة ست وستين (وخمس مئة) أنشأ الملك الناصر صلاح الدين يوسف مراكب مفصلة، وحملها على الجمال، وسار بها من القاهرة في عسكر كبير، لمحاربة قلعة أيلة، وكان ملكها الفرنج، وامتنعوا بها، فنازلها في ربيع الأول، وأقام المراكب وأصلحها، وطرحها في البحر، وشحنها بالمقاتلة والأسلحة، وقاتل أهل قلعة أيلة في البر والبحر، حتى فتحها في العشرين من ربيع الآخر، وقتل من بها من الفرنج وأسرهم وأسكن بها جماعة من ثقاته، وأقواهم بما يحتاجون إليه من سلاح وغيره، وعاد إلى القاهرة في آخر جمادى الأولى.

وفي سبع وسبعين وصل كتاب النائب بقلعة أيلة أن الراكب على تحفّظ وخوف شديد من الفرنج، ثم وصل الأبرلس لعنه الله إلى أيلة وربط العقبة وسيّر عسكراً إلى ناحية تبوك، وربط جانب الشام لخوف من عسكر يطلبه من الشام أو مصر، فلما كان في شعبان من السنة المذكورة كثر المطر بالقلعة بأيلة حتى صارت بها مياه استغنى بها أهل القلعة عن ورود العين مدة شهرين، وتأثرت بيوت القلعة لتتابع المطر، ووهنت لضعف أساسها، فتداركها أصحابها وأصلحوها، وكان إلى جانب أيلة مدينة عظيمة جليلة يقال لها عيصون (عصيون جابر). انتهى ما قاله المقريزي.

وقال أبو عبيد البكري في كتابه « المسالك والممالك » : إن أيلة قرية كبيرة فيها أسواق ومساجد وفيها كير من يهود ويزعمون أن عندهم بُرْد النبي ﷺ وأنه وجّه به إليهم أماناً لهم، وهم يظهرونه بُرْداً ملفوفاً في الثياب، قد أبرز منه مقدار شبر لئلا تدنّسه الأيدي، وروى أبو حميد الساعدي في خبر غزوة تبوك أن صاحب أيلة أهدى النبي ﷺ بغلة بيضاء وكساه بُرْداً ومن أيلة تسير إلى العقبة التي لا يصعدها راكب لصعوبتها، ولا تقطع إلا في طول اليوم لطولها. وقال صاحب « تقويم البلدان » :

وأيلة كانت مدينة صغيرة وكان بها زرع يسير، وهي مدينة اليهود الذين جُعل منهم القردة والخنازير، وهي على ساحل بحر القلزم، وعليها طريق حاج مصر، ولي بها زرع، وكان بها قلعة في البحر فأبطلت، ونقل الوالي إلى البرج في الساحل. انتهى كلامه.

قلت: وقد استجدّ بها النخل الذي على ساحل البحر وبعض حدائق بالوادي والسحل، وجميع ذلك لبني عطيّة الحويطات، وإنما لقبوا بذلك لما بنوه من بعض الحيطان على النخل، ولغيرهم منه جانب يسير استجده بعدهم، والجميع من بني عطية.

وفي كتاب « عجائب البلدان » المسمى « الخريدة » : عقبة أيلة قرية صغيرة على جبل عالٍ، صعب المرتقى يكون ارتفاعه والانحدار منه يوماً كاملاً، وهي طرق لا يمكن أن يجوز فيها إلا رجل واحد، وعلى جانبها أودية بعيدة المهوى. انتهى.

أقول: وصفتها أن الركب يبتدئ بالنزول في أوعار وصعود وهبوط، إلى أن ينزل إلى الدار الحمراء، المسماة بلون تربتها، ثم يصعد منها إلى حدرة طويلة وعرة، وفيحاء حمراء ثم فيحاء بيضاء. وشقيف جبل، يساراً، وتحته واد عميق ومضيق، ثم صعود وحدرة تسمى الحلزون، إلى أن ينزل بآخرها إلى فيحاء حمراء متسعة يستريح الركب بها يسيراً، ثم عقبة وحدرة وأودية كبار ويُرى البحر، ثم يصعدون بين جبال سود، ثم يهبطون إلى الفضاء والبحر، وتسمى هذه العقبة قنطرة البحر الملح، إلى أن يحطّ الركب في الطلعة بين ساحل البحر والجبل من أيلة في اليوم التاسع من يوم الرحيل من البركة، وفي مستهل القعدة غالباً، وفي الرجعة يحطّ بساحل البحر بعد أن يمر على جميع النخل ويجعله وراءه.

وللشهاب ابن أبي حجلة:

حَبَالِصَـــةُ الْحُجَّـاجِ زَادُوا بِأَيْـلَةٍ ... فَكَـمْ ضَيَّقُوا صَدْراً بهَا في الْمَضَايِقِ
وَكَـمْ حَـلَقُوا فِيْهَـا الذُّقُـوْنَ لأَنَّهُمْ ... يَجِيـئُوْنَ فيها الناسَ مِنْ كُلِّ حَالِقِ

وله أيضاً:

إذا لاَحَ لِـي مِـن سَفْحِ أَيْلَةَ بَحْرُهَا ... غَـدَوْتُ وَلِـي مِنْ دَمْعِ عَيْنَيَّ أَبْحُرُ
وَكَـمْ سَـائِرٌ مِـثْلي يَهِيـمُ صَـبَابَة ... يَقُـوْدُ بهَـا الْجَمَّـال وَالدَّمْـعُ يَقْطُرُ

ولأبي عبدالله الفيوميّ:

يُقَاسِــــي رَكْبُــــنا نصَــــبَه ... وَنَــــالَ الْقَــلْبُ مَــــا طَلَــــبَهْ
وَأَطْلِقْــــنَا مِــــنَ الْعَقَــــبَهْ ... وَمَــــا أَدْرَاكَ مَــــا الْعَقَــــبَهْ

ولنذكر أمر الدَّرَكِ وتقسيمه بالنقب والمناخ فنقول:

وأمّا أمر الدَرَك وتقسيمه فاعلم – وفّقك الله لطاعته – أنّ درك النقب من السطح إلى جانب البحر الملح حيث المحل الذي يزين به أمير الحاج (وطاقمه) عند دخوله ومحطته بالمناخ، ويعرف قديماً بالحمام، إما لكون أن هذا المحل كان به حمام قديم، أو لأجل أن بعض الحجاج عند نزوله من النقب يغتسل هنا من أوساخه، والأول أقرب، فإني رأيت في يد الشيخ شاهين بن حسين بن لجيعة بن هرماس ابن مسعود شيخ بن عطية الوُحَيْدات، مربعة قديمة من الملوك السالفة، يذكرون حدّ الدرك كما ذكرته، وغايته إلى الحمام.

ينقسم درك النقب المذكور على أربعة أقسام لأربع بَدَنات من بني عطية فيكون أربعاً:

الربع الأول: لمشايخ الوحيدات (بني عطية)[1]، يقبض ذلك الشيخ عمر ابن شاهين بن حسين وعبدالله أخوه ومن تبعه، وعمر المذكور في زمننا عين هذه الطائفة، وهو الذي يقبض جميع المبلغ من العائد بيده، ويفرقه لأربابه، تارةً لا يرضى بقية الشركاء بقسمته من يده، لأنه يتنفّل عليهم بقسم خامس له من المئتي دينار، فيكون له خمسان وللباقين ثلاثة أخماس، وحضرتُهُ في عام من الأعوام قسمها على هذا الشرح، فلم يعجب بقية أهل الدرك ذلك، ولم يُذعنوا له فيها.

ومن الوحيدات حسن بن ندال وأولاده، وأولاد الفقير عيد وعميرة ومن معهم، وجماعات كثيرة، وحصة هذه الطائفة على طريق الاعتدال الربع، فيكون خمسين ديناراً، وعلى ما ادّعاه عمر بن شاهين خمسان من المئتي دينار، وقد قدمنا ذكر ذلك قريباً.

---

(1) الوحيدات من عشائر بئر السبع/ فلسطين، وهم ليسوا من بني عطية ولا من عشائر جنوب الأردن.

والقسم الثاني: لطائفة المساعيد من بني عطية، ومن أكابرهم عتيق بن مسعود بن دغيم، وعليان بن مشور، وعمران بن حويران (من الحوارنة).

والقسم الثالث: لطائفة الرُّتَيْمات من بني عطية، منهم محمود بن رافع وغنما ورفقتهم.

والقسم الرابع: لطائفة الترابين من بني عطية أيضاً، منهم سلمان العديسي، ومحمد بن عجرمة (الأسود) وأولاده، وونيس ورفقهم، لا يتميز قسم عن قسم في المبلغ إلا ما ادّعاه عمر بن شاهين استطالة عليهم. وأما المناخ وحدّه من جانب البحر محل زينة أمير الحاج إلى بُوَيْب العقبة وهو البناء الذي على قُنّة الجبل، وكان المبشرون يصعدون إليه في مرورهم بأعلامهم، ويذكرون في الذهاب ما معنا أن الحاج قد دخل المفازة من بابها وأغلق ما وراءه فلا يفتح إلا إذا عاد، وكان الشيخ محمد عُرف بأبي جريدة المبشر يواظب على ذلك، ويعده كالرتبة له، وكان دركه لطائفة بني شاكر الحجر، يُدْعون بأولاد راشد، ويقال لهم المراشدة، ويشاركهم في ذلك طائفة من بني عطية الكرك، تسمى بالكعابنة[1].

واستمروا على ذلك إلى نيّف وأربعين وتسع مئة في ولاية المرحوم جانم من قصروه لإمرة الحاج، فلما استولى جماعة الحويطات على المناخ وكثر عددهم ونما نخلهم واشتهروا بالفساد، ولم يرتدعوا بقتل بعضهم، وشاركهم في ذلك المفسدون، المتوسمون لملاقاة الركب في كل سنة، لأن الحاج يقيم بهذا المناخ ذهاباً وإياباً؟ ستة

(1) هذه أسماء لثلاث عشائر أردنية هي: الراشدة، وهم من بدو جنوب الأردن؛ وبني عطية، وقد تحرك أكثرهم إلى تبوك وأصبحوا يحملون التبعية السعودية؛ والكعابنة. ولابد من الإشارة والتوضيح هنا، إلى أن الكعابنة ليسوا من بني عطيّة، وإنا يبدو أن بني عطيّة كانت القبيلة المعروفة آنذاك، فاعتبر الرحالة ومواكب الحج أن بقية العشائر كالحويطات والعمران والعلاوين والكعابنة جزءاً من بني عطية، وهم ليسوا كذلك، لذا اقتضى التنويه.

أيام، ويرد عليه طوائف العربان من غزّة والشوبك وحِسْما، وغير ذلك من البلاد مع قلة عدد بني شاكر وانقطاع طائفة الكعابنة عنهم، وقلة المعلوم في نظير خفارة هذا المحل الكثير الضوائع، فعجزوا عن القيام بحفظ الدرك.

واستولت الحويطات على المناخ، ولم يقدروا على دفعهم، وكثر ضررهم بالنخل، ومن جوانب الركب وصارت تلك البقعة وطناً للحويطات، الجيل الذي قد جُبلوا على الفساد وأذى العباد، واتفق أنه لما ولي الأمير جانم بن قصروه لإمرة الحاج في سنة ست وأربعين (وتسع مئة) وكان ذلك قبل الشروع في عمارة النقب، وتسهيل طرقه، فتأخر نزول الركب خصوصاً أن أمير الحاج سبق نزول الحاج إلى المناخ، واعتمد على بعض جماعته مع الركب به فلم يجد الركب من يُسهّل طرقهم، فاستمر بهذه الواسطة ينزلون من النقب شيئاً بعد شيء إلى الليل.

ففزعت بنو عطية بالنخل، وجوانب الركب، وبالطرقات تنهب وتُعَرّي، والصياح متزايد من كل جهة من الحجاج، وكثرت الغوغاء على أمير الحاج بسبب إهماله لمثل ذلك، فلما أصبح طلب مشايخ الحويطات بالأمان، فلما حضروا إلى عنده طيَّبَ خواطرهم وأوعدهم بكل جميل، وحضر مؤلف هذا الكتاب وقاضي المحمل إلى مخيمه، وأشهد عليهم بالقيام بالدرك، ورتّب لهم من[1]

(1) من هذا النص الذي أورده عبدالقادر الجزيري المتوفى في عام 977هـ في كتابه: درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة: نجد أن العشيرتين المسيطرتين على جنوب الأردن هما: الحويطات وبني عطية، وأنهما كانا يهاجمان مراكب الحجاج عندما لا يُعطَوْن (بضم الياء وسكون العين والواو، وفتح الطاء) صَرّهم (أي النقود السنوية التي تُدفع لهم) مقابل حماية محامل الحجاج، أو عدم الهجوم عليهم، ومن خلال هذا النص نجد أن الحويطات تصرفت على النحو التالي، كرد فعل لعدم وصول المبالغ اللازمة إليهم: =

ماله من الفضة ألفي نصف، وقرر لهم أيضاً ما كان لبني شاكر من ديوان السلطنة وهو من الفضة ثمان مئة وخمسة عشر نصفاً.

وجعل لهم ما كان لبني شاكر من الجوخ المخيوط والشاشات والملاليط، وزادهم عليه من ديوانه وأشهد على نفسه بدفع هذا القدر في كل سنة، ودفع

= 1- قامت جماعة «طليعة» من الحويطات بالاستيلاء على مَنَاخ موكب الحجاج، لأن الناس آنئذٍ يكونوا قد حطّوا حمولة جمالهم على الأرض، ويكونوا في منتهى الإرهاق، وكلٌ منشغل في تأمين منامه وطعامه.

2- تتابع وصول الحويطات إلى الموقع بعد استيلاء الطليعة عليه.

3- أنه جرى قتل بعض الحويطات، ومع هذا لم يفرّوا، بل واصلوا هجومهم ونهبهم، ولم يرتدعوا بما وقع من قتل على بعضهم.

4- شارك الحويطات مجموعات أخرى أسماهم المؤلف المفسدين والمتربصين الذين اعتادوا نهب الحجاج في كل عام.

5- لم يقدر الحجاج على التغلب على الحويطات، ولم يتمكنوا من هزيمتهم «ولم يقدروا (أي: الحجاج) على دفعهم».

6- أدى هجوم الحويطات إلى ضرر كبير جداً، وأن هذا المناخ صار من أرض الحويطات وضمن ملكيّتهم.

7- أن بني عطية آزروا الحويطات وواصلوا النهب أيضاً «ففزعت بنو عطية بالنخل، وجوانب الركب، وبالطرقات تنهب وتُعَرِّي».

8- كان ردّ الفعل من الحجاج هو الصياح، والبكاء، والولولة لهذه البلوى التي أصابتهم، حيث لا طاقة لهم بالبدوان الحويطات وبني عطية الذين تغلّبوا على ركب الحجيج، «والصياح متزايد من كل جهة من الحجاج».

9- احتجاج الحجاج على أمير الحج أنه لم يحسن قيادة الركب ولا محاربة العربان، ولا التعامل معهم، ولإهماله في أداء الواجب: «وكثرت الغوغاء على أمير الحاج بسبب إهماله لمثل ذلك».

10- حاول أمير الحاج أن يعالج الخطأ، رغم ما تم من قتل أفراد من الحويطات بمزيد من الإحسان «فلما أصبح طلب مشايخ الحويطات بالأمان، فلما حضروا إلى عنده طيَّبَ خواطرهم وأوعدهم بكل جميل» وأعطاهم من المال وطلب إليهم ترتيب قوة مسلحة لمرافقة الحجاج وحماية الركب.

لهم ذلك فداهنوه إلى أن عُزل بعد تنظيف النقب، في سنة اثنين وخمسين وبولاية الأمير أيدين الرومي للإمرة في تلك السنة، فدفع لهم نصف القدر في الطلعة، وذكر أنه يعطي باقيه في حالة الإياب بعد الصعود إلى السطح، ولم يفعل ذلك عند عوده، ثم ولي بعده الأمير حسين كاشف الفيوم والبهنساوية، وكان من الفروسية بمكان، فاتفق أنهم تعرّضوا لبعض الحجاج بالنقب وسلبوه، فلما نزل أمير الحاج إلى المناخ وقت المغرب لبس لامة حَرْبه وخرج ومعه المشاعل والطوف من (الوطاق)، كأنه يريد حراسة الركب ليلاً، فلم يشعر عربان الحويطات إلا وقد فاجأهم في بيوتهم كَبْساً، وأطلق فيها النار ليحرقها فهربت الرجال، فأدرك منهم ثلاثة من أعيانهم فقطع رؤوسهم، واحترق بعض الأطفال في المهد، وأحاط على نيّف وسبعين امرأة منهم غير الأولاد، وأتى بهم صحبة الترك إلى خان عقبة أيلة، فحبسهم بها، فكفّوا وعفّوا مدة إقامته بالمناخ.

ولم يسمع بسارق ولا صارخ مطلقاً، ولم يعطهم في تلك السنة الدرهم الواحد، ورحل ولم يُعطهم شيئاً، وترك نساءهم وأولادهم بالخان، إلى أن تكلم معه بعض أصحابه في الإفراج عنهم لكونهم نساءً وصبيان، فجهز رسولاً من عنده بمكاتبة إلى (باش الخان) يأمره بإطلاقهم، فأطلقوا ولم يضع لأحد في ولايته بهذا الدرك ولا غيره عقال بعير.

ثم ولي إمرة الحاج بعده مصطفى باشا فلم يعطهم من ذلك شيئاً. واستمر الأمر على ذلك وشرّهم وفسادهم لا ينقطع ولا يمتنع[1].

---

(1) 1- إن ما حوته هذه الصفحة، شيء يندى له الجبين مما قامت به الدولة ضد الأردنيين، ومحزن جداً لما حدث للحويطات الأردنيين. ففي الوقت الذي قام به أمير الحج في السنة التي تغلب فيها الحويطات على دفع إليهم ما يستحقونه أو ما طلبوه (!؟؟)، ووعده لهم أن يُدفع لهم ذلك في كل عام، نجد الدولة تنكث بعهدها ووعدها مع هؤلاء الأردنيين كما هي عادة الإدارات بالأردن منذ ذلك الحين وقبله إلى الآن. =

= 2- دفع إليهم أيضاً ملابس الجوخ الجاهزة والملابس النسائية «من الجوخ المخيوط والشاشات (وهي لباس النساء ولباس رأس الرجال) والملاليط (وهي المعاطف) ».

3- أثناء وجود هذا الوالي بقيت الأمور تسير سيراً حسناً، دونما مشاكل أو قتل أو نهب، «فداهنوه إلى أن عُزل بعد تنظيف النقب» .

4- حلّ محلّ الوالي الأول والٍ جديد هو: الأمير أيدين الرومي الذي كان أمير الحج عام 952هـ، ولكنه خدعهم وغرّر بهم، ودفع لهم نصف جُعْلِهم وهو ذاهب لأداء فريضة الحج، واعداً إياهم دفع النصف الثاني عند العودة. ولكنه نكث بوعده، كما هي عادة الغرباء والمرتزقة والمقاطيع.

5- بعده ولي الأمر: الأمير حسن كاشف الفيوم والبهنساوية، ولم يدفع شيئاً، مما اضطر الحويطات لنهب مجموعة من الحجاج في منطقة النقب: «فاتفق أنهم تعرّضوا لبعض الحجاج بالنقب وسلبوه (ويقصد وسلبوهم أي سلبوا عدداً من الحجاج) » .

6- عند نزول أمير الحاج وهو حسن كاشف، وعرف بالأمر لبس لباس (لامّة) الحرب، وحمل المشاعل يرافقه فرسانه، متظاهراً وخادعاً للحويطات أنه يريد حراسة مَنَاخ الحجاج، مما جعل الحويطات لا يتأهبون لقتاله أو الهجوم عليه ومباغتته.

7- توجه كَبْساً وفجأةً إلى بيوت الحويطات الأردنيين وأغار عليهم وهم غافلون، وأشعل النار في بيوتهم مما أدى إلى حرقها واستشهاد عدد من الأطفال الرّضّع حرقاً في المهد. وألقى القبض على ثلاثة من شيوخهم وقطع رؤوسهم بالحال وأسر أكثر من سبعين امرأة مع أطفالهن فضلاً عن عدد آخر من الأولاد. وساقهم بجنود من الترك الأعاجم إلى سجن العقبة «خان العقبة» وأبقى النساء والأطفال والأولاد في السجن طيلة بقاء ركب الحجيج في المناخ بالنقب. «فلم يشعر عربان الحويطات إلا وقد فاجأهم في بيوتهم كَبْساً، وأطلق فيها النار ليحرقها (أي البيوت) فهربت الرجال، فأدرك منهم ثلاثة من أعيانهم فقطع رؤوسهم، واحترق بعض الأطفال في المهد، وأحاط (أي سيطر وأسر) على نيف وسبعين امرأة منهم غير الأولاد، وأتى بهم بصحبة الترك إلى خان عقبة إيلة فحبسهم بها، فكفّوا وعفّوا مدة بإقامته بالمناخ» .

8- ولنا أن نتخيل جنود الترك الغلاظ الحاقدين على الجنس العربي وهم يركبون الخيل والبغال، ويسوقون النساء والأطفال، ويضربوهن والأطفال بسياط الجلد، ولم يتركوا كلمة بذيئة ضد أعراضنا إلا وتلفّظوها. وبعدها يقال أن هؤلاء حجاج أو أدّوا فريضة الحج؟ يا إلهي، دع التاريخ يحكم على تصرف كتبه رحّالة كان شاهد عيان لكل ما حدث.

9- أبقى النساء والأطفال بالحبس حتى دخل في بلاد التيه وبعد رجاء وتوسل إليه أرسل إلى مدير السجن بإطلاق سراح عامة النساء، وهذا شاهد تاريخي على ما تعرض له الأردنيون زمن المسلمين الأعاجم بما يأتي بالدرجة الثانية بعدما تعرضوا له على أيدي اليهود عندما دخلوا الأردن قبل ثلاثة عشر قرناً من الإسلام.

والحويطات أصحاب درك المبشر المتوجه بالمكاتبات إلى القاهرة، وسأل ندى بن بسام شيخ أولاد عمران من الحويطات الأمير يوسف الحمزاوي أن يكتب له مرسوماً بتقرير عادة على كل مبشر، فبرز أمره بذلك في سنة إحدى وأربعين، وقرر على من يتوجه من طريق الشام بالكتب مئتي نصف من الفضة، وبلا كتب: مئة وهم قسمان:

القسم الأول: آل عمران ويسمون أولاد عمران، شيخهم ندي بن بسام، وعتيق بن سباح، ومنهم أولاد مدلج، وأولاد حميد.

والقسم الثاني: العلاوين: شيخهم عويضة، ومنهم أولاد عوض، وأولاد سالم، وأولاد التمار، وأولاد سليمان، وأولاد غافل، وأولاد فراج، وأولاد رافع، وأولاد أحمد، وأولاد عيد.

والبدول: منهم أولاد عاصي، وأولاد جبر، وأولاد حسين، وأولاد معروف.

السويعديون (ربما يقصد السعيديّين): منهم سريع بن عيسى وأعدادهم متوافرة وشرورهم متظاهرة.

وأما بنو عطية فهم طوائف كثيرة، ونذكر ما تيسّر منهم.

فمنهم العَمَارِيْن – بعين مهملة مفتوحة، وميم مفتوحة وراء مهملة مكسورة، بعدها ياء مثناة تحتية ساكنة ونون آخر الحروف – منهم أحمد بن هضيبة، ومحمود بن هلال، وغريب، ودَرَّاج بن حجاج، ومحمد بن بدين، المقتول على يد قيت الداوودي (دوادار) أمير الحاج في سنة ست وخمسين وتسع مئة، وهم خفراء نخل، ويلوذون بالخولي زين الدين من جهة خان نخل وملْء الفساقين والقيام معه في ذلك.

ومنهم الترابين[1] – بألف ولام للتعريف وتاء مفتوحة مثناة وراء مهملة كذلك بعدها باء موحدة مكسورة وياء تحتية ساكنة ونون آخر الحروف – يختصون بثمد الحصى، والفيحا، ووادي العراقيب، وآبار العلائي نزولاً وطرقاً، وليس لهم مقرر أصالة، إلا الربع من خفارة عقبة أيلة كما قدّمنا ذكره.

وقد ذكرنا بقية عربان درك النقب ونعيدهم هنا لفائدة، وهو أن عربان الوُحَيْدات – بواو مضمومة وحاء مهملة مفتوحة بعدها ياء ساكنة ودال مفتوحة وتاء مثناة آخر الحروف – وشيخهم الآن عمر بن شاهين بن حسين، والمقرر لهم قديماً على درك الخان القديم الذي كان بناه الظاهر بيبرس وهُدم في الأيام الغورية، وأعيد بناؤه جديداً على يد الأمير خاير بك المعمار في سنة خمس عشرة وتسع مئة وقدرها اثنان وأربعون ديناراً ونصف دينار، وتسمى في عرفهم النجيعية، لأنها قررت في زمن جده نُجيعة بن هرماس بن مسعود، وفي نسبته إلى هذه الجدود خلاف بين أهل السّنة من عربان بن عطية، ويسمى الدرك عن هذه أيضاً بدرك الباب.

-44-

الضُّبـة

والضُّبة: أي باب الخان – وهي مستمرة المصرف إلى تاريخه – ولم يكن لهذه الطائفة قديماً غير هذه الصرة، ثم قُرِّرَ والده شاهين بن حسين بن نجيعة في

(1) الترابين ليسوا من الحويطات ولا من بني عطية، ولا من عشائر الأردن، فهم من عشائر بئر السبع، وكما قلنا، فإن الرحالة كانوا يعتبرون أية عشائر هنا إنما تنضوي ضمن عشائر الحويطات أو بني عطية، لأنهما كانا الأقوى في حينه. وربما يكون أحد الأسباب أن شيوخ الحويطات وبني عطية يدّعون العشائر الأخرى أنها من عشائرهم ليأخذوا مزيداً من المال لقاء ذلك، وربما يقبل من ليس منهم بهذا الأمر لقاء ما يكون له من المال، والله أعلم.

الدولة المظفرية على يد الأمير المرحوم خاير بك ملك الأمراء، المكنّى به عن نيابة الديار المصرية في مرتب بطريق الإنعام، لا على درك، وقدره مئتان وخمسون ديناراً، واستمر مدة، ثم من بعده لأولاده إلى تاريخه.

ثم لما ولي الأمير المعظم محمد جلبي ناظر أموال الديار المصرية، وتوجد للكشف على عمارة النقب - كما قدمنا ذكره - كان عمر بن شاهين من المخصوصين بالتردد إلى بابه بالقاهرة، فاعتنى به وقرر له من الخزائن السلطانية لنفسه وأولاده خمس مئة دينار إنعاماً أيضاً، لا على درك، فبسبب انفراده في هذا التقرير تشوشت خواطر بقية أصحاب درك النقب، لكون أنهم ليس لهم إلا ما ذكرنا من المقرر على العائد، وأما من ديوان السلطنة فليس لهم درهم واحد، وكثر حسدهم ظاهراً وباطناً، وهم على ذلك إلى تاريخه، فصار مقبوض الشيخ عمر بن شاهين بن حسين بن لجيعة بن هرماس بن مسعود في كل سنة، أشرفية صغيرة تسع مئة واثنين وتسعين ديناراً ونصف دينار، منها ما يخص رفاقه عن ثلاثة أرباع درك نقب أيلة من مقرر العائد وباقي ذلك له ولأخيه عبدالدايم، ولبقية إخوته وذويه.

وأما عربان المساعيد: فهم أصحاب درك مبشّر الحاج في العود (أي عند العودة من أداء مناسك الحج والعمرة)، منهم عتيق ابن مسعود بن دغيم، وعيسى قريبه، وعليان بن مشور بن دُغيم ولهم عن درك الباب.

والضّبة بخان عقبة أيْلة قديماً سبعة وأربعون ديناراً ونصف دينار، وهي مستمرة الصرف إلى تاريخه، ثم قرر لمسعود بن دغيم في الأيام المظفرية إنعاماً عليه من غير دَرَك، خمسون ديناراً، واستمرت بيد ولده من بعده.

واعلم أن درك مُبشّر الحاج لهذه الطائفة، فمتى جهّز أمير الركب مُبشّرَه إلى القاهرة بالعود ولم يدفع لهم عادتهم ويرضي خاطرهم على ذلك كان توجهه

على خطر كبير – كما اتفق مثل ذلك مراراً عديدة – وعاد (الجاويش) وهو مسلوب ومجروح، ولم يقدر على التوجه منهم.

وأمان عربان الرتيمات فليس لهم مقرر أصالةً، وإنما لهم ربع الدرك في النقب لا غيره، وهم رابع الأقسام في درك النقب.

ومن أعيان بني عطية طائفة الرُشَيْدات، وأدركت منهم أعياناً من أهل القوة والفروسية وعدة الخيول والعدد الوافر، منه نعيم بن رمان وكان متعيناً منهم وصالح بن مدلج وأولاد فريح، فأفناهم الموت والقتل في الوقائع والحروب لشراسة أخلاقهم، وبقيت منهم بقية ليست كالأولين، منهم عيسى بن نعيم بن هاني، وعمه محمد بن هاني ولد الجارية، وهارون بن فريح، وهم أوسع دركاً من غيرهم من بني عطية، ولهم المقرر أصالةً من بُوَيْب مناخ عقبة أيلة إلى مغارة شعيب، إلى المحل المعروف بكُبَيْدَة بعدها، وهو آخر حدّ بني عطية، ومنه أول حد بني عَقَبَةْ وسيأتي ذلك في بابه.

ومنهم طائفة الحوارين وأصلهم حضري: منهم عمران بن حويران وهو شريك لعتيق بن مسعود في درك الباب والضبة بخان عقبة أيلة[1].

ومنهم الأَحَيْوَات، منهم أولاد أبي سنينة، أصحاب درك الدّلالة على المياه والأحطاب، من عقبة أيلة إلى شَرَفة بني عطية، ولهم مقرر قديم من الخزائن السلطانية عشرة دنانير.

(1) هذه ملحوظة مهمة أن هذه الطائفة من بدو جنوب الأردن كانت من أصل حضري، لكنها تحولت إلى البادية، ولكن الكاتب نسي أن أصله قبل استقرار كانوا بدواً، وعندما أتيحت لهم فرص الاستقرار والتحضر، صاروا كذلك، حتى إذا ما زالت الأسباب، وهيمنت ظروف البداوة عادة إلى باديتهم ونمط حياتهم، ثم إذا ما تهيات ظروف الحضارة ثانيةً استقروا، وهو ما عليه حال بدو الأردن الآن. وإذا عرفنا أن الحيوطات وبني عطية أنباط تخيّلنا كيف تحوّل أبناء هذه الحضارة إلى بدو متنقلين.

ومن بني عطية طائفة السوارِكة، وهم أهل عزم واختلاس من الركب، ولهم بعض الخيول الأصايل، ولتوارد فسادهم بالركب لا يُقابلون أمراء الحاج، فإنهم كانوا أصحاب سواقة مغارة شعيب، لسقاية الحاج، ولهم مرتب إلى الآن، يقبضه لهم عيسى بن نعيم وقدره عشرون ديناراً مستمرة الصرف على يد الرشيدات. وكان منهم جساس بن سليم السواركي.

الجبارات – بجيم معجمة مضمومة وباء موحدة مفتوحة بعد راء وتاء مثناة آخرا لحروف: ليس لهم درك ولا مقرر.

والعميرات من أولاد عياد.

والقديريات من جماعة نعيم بن رمان بن هاني.

والرزيقات والحديرات والسماسمة من أولاد سعيد.

والمناضير – بضاد معجمة مكسورة.

والترومة (؟) والمعازي النازلون بحسما.

والكعابنة بنو عطية الكرك، أصحاب درك المناخ، منهم سلاك بن بيض وإخوته سليم، وسلامة ورفقهم.

والسلالمة من أولاد معروف، أهل فساد في الشهرة، يتبعون الركب للاختلاس والأذى، من مغارة شعيب، وبعدها في الغالب.

والمعاريف من لفيف بني عطية.

والخرص – كالسعادنة وأولاد عياد – وقد عرفت أهل الدرك منهم.

والسّواقة والدلالة وما عدا ذلك منهم أعداد، وعداد، وشرور وفساد.

وبعقبة أيلة آبار منها في داخل الخان واحدة، وماؤها عذب سايغ من بناء السلطان الغوري مع الخان، وفي الخارج بئران، داخل النخل، وماؤهما عذب

وهما منهل الحاج، وبئران خارج النخل حيث الفضاء، وماؤها دون ذلك، يسمونها آبار العرب، وكل من أراد الماء بقُرْبه هناك فليحفر من الأرض مقداراً قريباً، يرى ماءً عذباً أحسن من ماء الآبار، وتختلف الحفائر في العذوبة فبعضها أحلى من بعض وأعذب والله أعلم.

ومدة الإقامة بالمناخ ثلاثة أيام بيوم الدخول إليه في الذهاب، ومثلها في الإياب.

-45-

أقاليم جند الأردن

تقويم البلدان / أبي الفداء – إسماعيل بن محمد (ت 732هـ)

يقول أبو الفداء في القرن الثامن الهجري في كتابه المذكور:

1- بيت المقدس:

الإقليم الحقيقي: من الثالث.

الإقليم العرفي: من فلسطين أو الأردن.

ضبط الاسم: بفتح الميم وسكون القاف وكسر الدال المهملة وفي الآخر سين مهملة.

الأوصاف العامة: وبيت المقدس بناه سليمان بن داود وبقي حتى خربه بخت نصرّ ثم بناه بعض ملوك الفرس وبقي حتى خربه طيطوس ملك الروم ثم بنى ورمّم مع الطول وبقي حتى تنصّر قسطنطين وأمه هلانة وبنت قبة على القبر الذي تزعم النصارى أن عيسى دُفن فيه وخربت البناء الذي كان على الصخرة وألقت على الصخرة زبالة البلد عناداً لليهود وبقي كذلك حتى فتح عمر ﷺ القدس فدلّه على موضع الصخرة بعضهم فنظفه وبنى على الصخرة

مسجداً وبقي حتى تولى الوليد بن عبدالملك فبُني فيه قبّة الصخرة على ما هي عليه اليوم (ابو الفداء: ص 241).

2- نابلس:

الإقليم الحقيقي: من الثالث.

الإقليم العرفي: من الأردن.

ضبط الاسم: نابُلُس[1] بفتح النون وألف وضم الباء الموحدة واللام وسين مهملة في الآخر كذا نقلتها من الأنساب للسمعاني.

الأوصاف العامة: قال في العزيزي أن يربعم لما صار معه عشرة أسباط وخرج على بني سليمان بن داود سكن نابلس وبنى على جبل بنابلس هيكلاً عظيماً وكفّر داود وسليمان وغيرهما من أنبياء بني إسرائيل وقال بنبوة موسى وهارون ويوشع وشرع للسمرة دينهم وصدّهم عن الحج إلى البيت المقدس لئلا يطلعون على فضل بني سليمان فيتغيّرون على يربعم ومن حينئذ ابتدى دين السمرة بعد أن لم يكن وصار حَجُّهُمْ إلى جبيل بظاهر نابلس (ابو الفداء: ص 241).

3- عكا

الإقليم الحقيقي: من الثالث عكا[2].

(1) نجد أبا الفداء (ق 8 هـ) في كتابه تقويم البلدان يضع نابلس كجزء من الأردن وهذا شيء مغاير للجغرافيا والتاريخ، لأن نابلس جزء من فلسطين، لكنه ليس الوحيد الذي يجعلها ضمن جند الأردن، سواء أكان ذلك خطئاً أو ضماً إدارياً في حينه، كما حصل لعمان عندما ضُمّت (بضم الضاد) إلى فلسطين في الإدارة لوقت محدود أو ذكرها أحد الرحالة (المقدسي) خطئاً لما وصله من رواية عابرة أو لحقيقة، لم تذكرها كتب التاريخ الأخرى.

(2) سبق وقلنا أن عكا وردت في كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين بالألف الممدودة (عكا) تارةً، والتاء المربوطة (عكة) تارةً أخرى. اما الآن فإنها تُلفظ عكا بالألف الممدودة فقط. وكانت من =

الإقليم العرفي: من سواحل الشام.

ضبط الاسم: بفتح العين المهملة وتشديد الكاف وفتحها ثم ألف كذا ضبطها في اللباب.

الأوصاف العامة: قال في اللباب ومدينة عكا مدينة كبيرة من سواحل الشام وداخلها عين تُعرف بعين البقر وبها مسجد يُنسب إلى صالح ﷺ ومن كتب المسالك بين عكا وبين طبرية أربعة وعشرون ميلاً ومنها إلى مدينة صور اثنا عشر ميلاً وهي الآن خراب بعد ما استرجعها المسلمون من يدي الفرنج في سنة تسعين وستماية (690هـ) وحضرت فتوحها وحصل لي فيه الغزاة (ابو الفداء: ص 242-243).

4- بَيْسان:

الإقليم الحقيقي: من الثالث.

الإقليم العرفي: من الأردن.

ضبط الاسم: بفتح الباء الموحدة وسكون المثناة التحتية وفتح العين المهملة وألف ونون.

الأوصاف العامة: وبيسان[1] مدينة صغيرة بلا سور ذات بساتين وأنهار وأعين وهي على الجانب الغربي من الغور وهي كثيرة الخصب ولها من جملة

= أرض الأردن، وهي أحد ثغوره، ومرافئه. ولكنها الآن جزء من فلسطين وهي محتلة وتعتبرها إسرائيل أنها جزء من دولتها الصهيونية على أرض فلسطين العربية الإسلامية.

(1) بقيت بيسان جزءاً من الأردن، حتى في العُرف القبلي، إذ كانت العشائر الأردنية ترحل إليها طلباً للكلأ والماء والدفء في فصل الشتاء، وتعود في الصيف إلى شرق الأردن، ومن أكثر العشائر الأردنية ريادةً لها: بني صخر، وعباد، إلى درجة أنه كانت قنوات بأسماء العشائر =

أنهرها نهر صغير من عين تشق المدينة وبينها وبين طبرية ثمانية عشر ميلاً وهي في الجنوب عن طبرية (أبو الفداء: ص 242-243).

5- طبرية:

الإقليم الحقيقي: من الثالث.

الإقليم العرفي: قصبة الأردن.

ضبط الاسم: بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة وكسر الراء المهملة ومثناة تحتية مشددة وفي الآخر هاء.

الأوصاف العامة: قال العزيزي وبين طبرية وبين عمان اثنان وسبعون ميلاً وبين طبرية أيضاً وبين جبّ يوسف ستة أميال ومدينة طبرية في الغور على ضفة بحيرة لها طولها اثنا عشر ميلاً وعرضها ستة أميال والجبل من غربي المدينة

= الصغيرة من هذه العشائر. وقد رحلت عشائر عباد إلى بيسان عام 1850 تجنباً لحرب الإبادة والاستنزاف الذي مارسته ضدّها عشائر البلقاء بزعامة العدوان. وبقي العبابيد هناك حتى حوالي عام 1863 عندما ذهب الشيخ كايد الختالين شيخ مشايخ عباد، والشيخ أحمد أبو عرابي الكايد العدوان شيخ العدوان في حينه والشيخ حسين الصبح الفاعوري شيخ السلط في حينه إلى والي الشام، وطلبوا إنشاء إدارة للدولة في السلط وكذلك كان. وقد كوفء هؤلاء الشيوخ بمنحهم أوسمة من السلطان عبدالعزيز، ثم صرفه إليهم في 1/ 11/ 1868م بعد سنة من المراسلات والتوصيات التي بدأت من والي سوريا. وقد نشرت الوثيقة في كتابي: القضاء عند العشائر 2006 بنسختيه الإنجليزية والعربية معاً.

ولبيسان أهمية في ثقافة وتاريخ العبابيد، حيث يقولون: أن العبادي: هو مَنْ شرب من ميّة بيسان، وبالتالي فإنه وأحفاده من بعده عبابيد، ويقولون: اللي ما شرب من ميّة بيسان ما هو عبادي. ذلك أن بعض العشائر من عباد تخلّت عن اللحاق بالعشيرة وبقيت في البلقاء. وقد كان ذلك زمن جيل جدي لأبي (والد والدي) حيث توفي عم والدي هناك أثناء السّيبة (الجلاء في بيسان) واسمه محمد ودُفن في بيسان. وكان جدي لأبي وجدتي لأبي من العبابيد الذين رحلوا إلى هناك ضمن العبابيد وعادوا معهم.

والبحيرة من شرقيها والجبال تدور بها وكانت طبرية قديماً قاعدة الأردن وهي مدينة خراب فتحها صلاح الدين من الفرنج وخَرِبَتْ. وبانيها طبريوس أحد ملوك اليونان البطالسة الأوائل فاشتق اسمها من اسمه وبطبرية عيون ماء في غاية الحرارة وعليها حمام يغتسل الناس فيها (ابو الفداء: ص 242-243).

6- صُفَتْ (صَفَدْ)[1]:

الإقليم الحقيقي: من الثالث.

الإقليم العرفي: من الأردن.

ضبط الاسم: بضم الصاد المهملة وسكون الواو وراء مهملة في الآخر.

الأوصاف العامة: وهي بلدة متوسطة بين الكبر والصغر ولها قلعة ذات بناء جيد متين وهي مشرفة على بحيرة طبرية ولها قناة برسم الشرب تصل إلى باب قلعتها وبساتينها أسفل في الوادي تحتها إلى جهة بحيرة طبرية وربضها ينتشر عمارته على ثلاثة أجبل ولها عُمَرٌ (مناطق عامرة واسعة) متّسع ومن حين استنقذها الملك الظاهر من أيدي الفرنج جعلها مركز الجيش الذي يحفظ البلاد الساحلية التي في جهتها (ابو الفداء: ص 242-243) [2].

7- صور:

الإقليم الحقيقي: من الثالث.

---

(1) هي صَفَدْ وهي الآن من مدن فلسطين، وكانت من الأردن. وتُلفظ الآن صَفَدْ (بفتح الصاد والفاء) والنسبة إليها صَفَدِيٌ، و«الصَفَدي» .

(2) نجد هنا أن الفرنجة تركوا صور وعكا خراباً يباباً، بعد أن طهّر الله البلاد من رجسهم، حيث نهبوا معهم كل شيء، وكان أهلها من العرب المسلمين بين قتيل، وشريد وطريد، لسنوات وحِقَب (مفردها حِقْبَة) طويلة. وهكذا فإن كل محتلّ إذ رحل يترك الأرض من بعده محروقة نهباً وحرقاً وسلباً وقتلاً وانتقاماً، ولكن الأهم: هو بقاء الوطن لأن أهله يعمرونه.

الإقليم العرفي: من سواحل دمشق.

ضبط الاسم: بضم الصاد المهملة وسكون الواو وراء مهملة في الآخر.

الأوصاف العامة: وصور بلد من أحصن الحصون التي على ساحل البحر ويقال أنه أقدم بلد بالساحل وأن عامة حكماء اليونانيين منها قال الشريف الإدريسي أنه كان به مرسى يدخل إليه من تحت القنطرة وعليه سلسلة تمنع المراكب من الدخول قال ابن سعيد صور التي لا يرام بحصار من جهة البر وقد حفر الفرنج حولها حتى أداروا بها البحر قال العزيزي وبين صور وعكا اثنا عشر ميلاً وفتحت في سنة تسعين وستمائة مع عكا وخربت وهي الآن خراب خالية (أبو الفداء: ص 242-243).

8- الصَّلْت[1]:

الإقليم: الحقيقي: من الثالث.

الإقليم العرفي: من الأردن.

---

(1) وهي تُلفظ الآن: السَّلْط. ونجدها زمن أبي الفداء (ق 8 هـ) كانت بلاد عامرة بالسكان. وهذا يدحض آراء المثبورين الذين يدّعون أن السلط كانت خراباً، وأن إعمارها بدأ في منتصف القرن التاسع عشر. ويدّعي بعض الجهلة أن أهل السلط جاءوا إليها قبل حين من الزمن، والسؤال الآن: أين هم أهل السلط الذين تكلم عنهم أبو الفداء قبلخمسة قرون؟. السلط بقيت واستمرّت عامرة على مرّ العصور، وما يقال غير هذا هو هراء ضد الاستراتيجية الوطنية الأردنية.
نعاني في الأردن من سياسة وثقافة البَخْس التي تمارسها مؤسسات الكيان السياسي، ضد الكيان الوطني لتحويل الأردن إلى كيان سياسي فقط، دون أية هوية أو ثقافة أو تاريخ. وهو في الحقيقة وطن موجود عامر بأهله عبر الدهور والعصور تعاقبت عليه كيانات سياسية مختلفة عبر التاريخ خلال آلاف السنين، ولكن كلما حلّ بها فوج من الطيور المهاجرة ادّعوا أنهم وجدوا الأردن فارغاً من الناس وأنه وطن بلا شعب، وكلما قرأت التاريخ وجدت أن هؤلاء كاذبون ومفترون، وأن الأردن بلاد عامرة بأهلها.

ضبط الاسم: بفتح الصاد المهملة وسكون اللازم وفي الآخر مثناة فوقية.

الأوصاف العامة: والصلت بليدة وقلعة من جند الأردن وهي في جبل الغور الشرقي جنوبي عجلون على مرحلة عنها وهي تقابل أريحا مشرفة على الغور وينبع من تحت قلعة الصلت عين كبيرة ويجري ماؤها ويدخل في بلدة الصلت وللصلت بساتين كثيرة وحبّ الرمان المجلوب منها مشهور في البلاد وهي بلد عامر آهل بالناس (ابو الفداء: ص 245).

9- عجلون والباعُوثة:

الإقليم الحقيقي: من الثالث.

الإقليم العرفي: من الأردن.

ضبط الاسم: بفتح العين المهملة وسكون الجيم وضم اللام وواو ونون في الآخر والباعوثة بفتح الباء الموحدة وألف وضم العين المهملة وواو وثاء مثلثة وهاء في الآخر.

الأوصاف العامة: وعجلون حصن وربضة يسمى الباعوثة والحصن عن البلد على شوط فرس وهما في جبل الغور الشرقي قبالة بيسان وحصن عجلون حصن منيع مشهور يظهر من بيسان وله بساتين ومياه جارية وهي شرقي بيسان وهو حصن محدث بناه عز الدين أسامة من أكبر أمراء السلطان صلاح الدين (ابو الفداء: ص 245)[1].

---

(1) لقد جفّت هذه العين التي كانت في القرن الثامن الهجري، حيث حلّ محلّها بئر ارتوازي، بعد أن غارت العين، كما أن جزءاً من البساتين التي كانت أسفل البلدة تحوّلت إلى أبنية ومواقف سيارات، وبقي نبع الوادي موجوداً، وإن كان أقل غزارة مما كان عليه، ويشتهر وادي السلط بالرمان والتوت، ولا يضاهي رمان السلط، إلا رمان عراق الأمير الذي يتفوق أحياناً على =

10- شقيف تِيْرُونْ:

الإقليم الحقيقي: من الثالث.

الإقليم العرفي: من أعمال دمشق.

ضبط الاسم: من المشترك بفتح الشين المعجمة وكسر القاف وسكون المثناة من تحت وفاء وأما تيرون فبكسر المثناة الفوقية وسكون المثناة التحتية وضم الراء المهملة وواو ونون.

الأوصاف العامة: وهي قلعة منيعة ناقلة عن البحر وهي عن صفت (صفد) إلى مسيرة يوم في سمت الشمال والشقيف تيرون وشقيف أرنون[1] بعضه مغارة منحوتة في الصخر وبعضه له سور وهو حصين جداً قال في المشترك

= رمان السلط. وقد تم إنشاء محطة تنقية في وادي السلط مما عمل على تلويث الوادي. ولست أدري لماذا لم يضع المخطِّط (للذي خطَّط) هذه المحطة قرب البحر الميت؟! ونرى هنا أنه يقول أن السلط بلد عامر وآهل بالسكان، وذلك ما يثبت مرة أخرى كذب وزيف أعداء الأردن والطيور المهاجرة التي تدّعي دائماً أن الأردن كان دائماً خالياً من السكان، ولكن هذه المعلومة تبرهن أن هؤلاء المُدّعين كاذبون.

(1) أرنون أصلاً هو اسم وادي الموجب، وهي كلمة أدومية أردنية عربية، وشبيهة بالألفاظ المماثلة للمواقع بلغة أولئك القوم: مثل عبدون، عمون، حشبون، ديبون، سيحون، اللجون. ويبدو من خلال ما أورده أبو الفداء (ق 8 هـ) هنا: أن هناك موقعاً آخر يدعى أرنون في شمال الأردن، أي أنه الآن في شمال فلسطين المحتلة المسماة إسرائيل كما يوجد اللجون في شمال الأردن وجنوبه. وفي اللهجة الأردنية كلمة عرنون الشبيهة باللفظ والمعنى لكلمة أرنون الأدومية القديمة. وأن العين قد تكون لُفِظت (أ) كما هو شأن ذلك في سائر الكلمات: عربي – ارابي؛ عين – أين والعرنون عند الأردنيين هو ما ارتفع من الأرض على من سواه ممن حوله، فيقولون عرنون الجبل إذا كان سلسلة أو ظهراً أو سيفاً جبلياً بارزاً، ويقولون عرنون الوادي إذا كان فجّاً عميقاً سحيقاً، فهي كلمة تطلق على الجبل المرتفع وعلى الوادي المنخفض باعتباره محاط بعرنون جبلي من كل جهة وهذه تنطبق على وادي الموجب وتدل على أن الاسم الأساس عرنون وصار اللفظ أرنون، والله أعلم.

أرنون اسم رجل وهو بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وضم النون وسكون الواو ثم نون في الآخر وهو بين دمشق والساحل بالقرب من بانياس (ابو الفداء: ص 245).

11- عمّان:

الإقليم الحقيقي: من الثالث.

الإقليم العرفي: من البلقاء قال العزيزي وهي البلقاء أي قاعدتها.

ضبط الاسم: بفتح العين والميم المشددة وألف ونون في الآخر.

الأوصاف العامة: وعمان أوّلية خراب من قبل الإسلام ولها ذكر في تواريخ الإسرائيليين وهي رسم كبير ويمر تحتها نهر الزرقاء التي على درب حجاج الشام وهي غربي الزرقاء وشمالي بركة زيزا على نحو مرحلة منها وعمان من البلقاء وبه آثار عظيمة وبها أشجار بُطم وغيرها وقد صار حوالي عمان مزارع وأرضها زكية طيبة ومن كتاب الأطوال والعروض أن لوطاً النبي ﷺ هو الذي تولى عمارة عمان ومن اللباب عمان مدينة البلقاء (ابو الفداء: ص 247) [1].

12- الكرك:

الإقليم الحقيقي: من الثالث.

الإقليم العرفي: من البلقاء ظناً.

---

(1) أود الإشارة هنا إلى وجود البطم الكثير في الأردن، وحول عمان، ولا زال له بقايا في وادي البطم الذي به قصر عمرة في البادية إلى الشرق من عمان. وأشجار البطم عند عين ياجوز وهي في مقبرة الشاعرالأردن التاريخي المعروف: نمر العدوان.

ضبط الاسم: بفتح الكاف والراء المهملة ثم كاف ثانية في الآخر.

الأوصاف العامة: وهو بلد مشهور وله حصن عالي المكان وهو أحد المعاقل بالشام التي لا ترام وعلى بعض مرحلة منه مؤتة وبها قبر جعفر الطيّار وأصحابه رضي الله عنهم وتحت الكرك وادٍ فيه حمام وبساتين كثيرة وفواكهها مفضلة من المشمش والرمان والكمثرى وغير ذلك وهو على أطراف الشام من جهة الحجاز بين الكرك والشوبك نحو ثلث مراحل (ابو الفداء: ص 247).

13- مآب وهي الربّة:

الإقليم الحقيقي: من الثالث.

الإقليم العرفي: من البلقاء العزيزي وهي ومدينة أذرح مدينتا جبل الشراة.

ضبط الاسم: بفتح الميم وألف وباء موحدة في الآخرة والربّة بفتح الراء المهملة وتشديد الباء الموحدة وهاء في الآخر.

الأوصاف العامة: ومآب مدينة قديمة أولية قد بادت وصارت قرية تسمى الربّة وهي من معاملة الكرك وهي عن الكرك على أقل من نصف مرحلة في جهة الشمال فعلى هذا في طولهما وعرضهما المذكورين نظر والأقرب ما أثبتنا من القياس في الجدول وبالقرب من الربّة رابية مرتفعة إلى الغاية تسمى شيحان تظهر من بعد ولمآب ذكر شهير في تواريخ الإسرائيليين قال في العزيزي وبينها وبين عمان على طريق الموجب ثمانية واربعون ميلاً وشَيْحَان بفتح الشين المعجمة وسكون المثناة التحتية وحاء مهملة وألف ونون (ابو الفداء: ص 247)[1].

(1) الربة كانت تسمى ربّة مؤاب، أي عاصمتها وقاعدتها، مثلما كانت عمان تسمّى ربّة عمون على أنها عاصمة مملكة عمون. وقد كان يقال عنها مؤاب المكتوبة هنا وفي كتب الرحالة والجغرافيين مآب، بالمدّ فوق الألف، أما الآن فتكتب مؤاب، بوجود الواو وعليها همزة تتبعها =

14- الشوبك:

الإقليم الحقيقي: من الثالث.

الإقليم العرفي: من الشراة.

ضبط الاسم: بفتح الشين المعجمة وسكون الواو وباء موحدة مفتوحة وكاف في الآخر.

الأوصاف العامة: والشوبك بلد صغير كثير البساتين وغالب ساكنيه النصارى وهو شرقي الغور وهو على طرف الشام من جهة الحجاز وينبع من ذيل قلعتها عينان أحديهما عن يمين القلعة والأخرى عن يسارها كالعينين للوجه وتخترقان بلدتها ومنهما شرب بساتينها وهي في وادٍ من غربي البلد وفواكهها من المشمش وغيره مفضلة وتنقل إلى ديار مصر وقلعتها مبنية بالحجر الأبيض وهي على تلّ مرتفع أبيض مطل على الغور من شرقي (ابو الفداء: ص 247) [1].

= الألف. لذلك عندما يقال مؤاب فالمقصود به بلاد الكرك ووادي الموجب والربّة، وعندما يقال الربّة فإن المقصود هو القرية نفسها التي ذكرناها في مؤاب. أما شيحان فهو جبل أردني شهير، وهو عنوان من عناوين الأردن، ويلفظه الأردنيون الآن شِيْحَانْ (بكسر الشين وسكون الياء وفتح الحاء وسكون النون). ولا يستخدمون اللفظ القديم الذي يبدأ بفتح الشين. ونجد هنا أن الربّة كانت مدينة في غابر العصور، وكانت مركز حضاري ثم تحوّلت إلى خراب واطلال «ومآب مدينة قديمة أولية قد بادت وصارت قرية تسمى الربّة» وقد عادت إليها الحياة في القرن العشرين، وأصبحت بلدة عامرة الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين).

(1) للشوبك قلعة أدومية قديمة، تعاقبت عليها الأمم، حتى جاء الصليبيون وأعادوا بناء القلعة إلى درجة أن بعض المؤرخين يذكر خطئاً أن الذي بناها أساساً هم الصليبيون، وهذا غير صحيح. وأما العيون التي يذكرها أبو الفداء فقد جفّت الآن (نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين) بسبب سحب المياه إلى الطفيلة وقد فصّلنا ذلك في كتابنا: في ربوع الأردن جولات ومشاهدات 1987. والشوبك هي إحدى المواقع التي يُعتقد أن سيدنا أيوب قد عاش أو تجوّل =

-46-

ذكر قدوم عمر إلى الشام بعد الطاعون

(النويري: ج 19، ص 361-363)

« قال: لما هلك الناس بالطاعون، كتب أمراء الأجناد إلى عمر ﷺ بما في أيديهم من المواريث، فجمع الناس واستشارهم وقال لهم: قد بدا لي أن أطوف على المسلمين في بلدانهم لأنظر في آثارهم، فأشيروا عليّ، وكان أراد أن يبدأ بالعراق، فرف كعب الأحبار رأيه عن ذلك، فخرج إلى الشام، واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب، وجعل طريقه على أيْلة، فلما دنا منها ركب بعيره وعلى رحْله فرْوٌ مقلوب، وأعطى غلامه، مركبه (أي جعل غلامه يركب الجمل، وأمير المؤمنين يقوده)، فلما تلقّاه الناس قالوا: أين أمير المؤمنين؟ قال: أماكم – يعني نفسه – فساروا أمامه، وانتهى هو إلى أيْلَة فنزلها.

وقيل للمتلقّين: قد دخل أمير المؤمنين، فرجعوا، وأعطى عمر الأسقف بها قميصه وقد تخرّق ظهْره؛ ليغسله ويرقعه، فعل، وأخذه ولبسه، وخاطَ له الأسقف قميصاً غيره، [فلم يأخذه].

فلما قدِم إلى الشام قسّم فيها الأرزاق، وسمى الشواتي والصّوائف، وسدّ فروج الشام ومسالِحَها، وأخذ يدور بها، واستعمل عبيد الله بن قيس على السواحل من كل كورة، واستعمل معاوية على دمشق وخراجها بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان، وعزل شرحبيل بن حسنة، وقام بعذره في الناس، وقال:

= فيها. والنسبة إليها شوبكي. وأما أبناء الشوبك الذين نزحوا إلى البلقاء، وصاروا جزءاً من عشائر البلقاء، فإن النسبة عندهم: الشوابكة، وليس الشوبكي. ومن هذا النص يظهر لنا كم كان الأردن بلداً عامراً، فالبساتين واستغلال الأرض لا يكون إلا بوجود الناس، ولا تكون البلدة عامرة إلا بأهلها، وهذا ما هو مذكور هنا عند أبي الفداء في القرن 8 هـ.

إني لم أعزله عن سخطة ولكني أريد رجلاً أقوى من رجل، وكان شرحبيل على خيل الأردن، فضم ذلك إلى معاوية

قال: ولما قدم عمر ﷺ تلقاه معاوية في موكب عظيم، فلما رآه عمر قال: هذا كسرى العرب، فلما دنا منه قال: أنت صاحب الموكب العظيم ! قال: نعم، يا أمير المؤمنين، قال: مع ما يبلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك ! قال: مع ما يبلغك من ذلك، قال: ولم تفعل هذا؟ قال: نحن بأرض، جواسيس العدو بها كثيرة، فيجب أن نُظهر من عزّ السلطان ما يُرهبهم، فإن أمرتني فعلت، وإن نهيْتني انتهيت. فقال عمر: يا معاوية، ما أسألك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب الفرس، لئن كان ما قلت حقاً، إنه لرأي لبيب، وإن كان باطلاً إنها لخدعة أريب. قال: فمرْني يا أمير المؤمنين. قال لا آمُرُك ولا أنهاك.

قال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، ما أحسن ما صَدَرَ هذا الفتى عما أوردْته فيه. قال لحُسْنِ مصادره وموارده جشّمنا ما جشّمناه.

وروى أبو عمر بن عبدالبر: أن عمر بن الخطاب رزق معاوية على عمله بالشام عشرة آلاف دينار في كل سنة.

قال المؤرخ: واستعمل عمر ﷺ عمرو بن عنبسة على الأهراء، وقسم مواريث أهل عمواس، فورث بعض الورثة من بعض، وأخرجها إلى الأحياء، من ورثة كل منهم، ورجع عمر إلى المدينة في ذي القعدة من السنة.

قال: ولما كان بالشام وحضرت الصلاة قال له الناس: لو أمرت بلالاً فأذن! فأمره، فأذن، فما بقى أحد ممن أدرك النبي ﷺ وبلال يؤذن إلا بكى حتى بلّ لحيته، وكان عمر أشدهم بكاءً، وبكى من لم يدركه لبُكائهم » (النويري: ج 19، ص 361-363).

-47-

مَيْفَعة

(أم الرصاص شرقي ذيبان)

بفتح أوّله، وبالفاء المفتوحة، بعدها عين مهملة: قرية من أرض البلقاء من الشام. ولما بلغ زيد بن عمرو بن نفيل خبرُ رسول الله ﷺ ، أقبل من الشام بريده، فقتله أهل مَيْفَعَةْ. ومَيْفَعَةْ أيضاً: في ديار همدان باليمن[1].

-48-

الفصل الثاني من المقالة الثانية.

(القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 72)

(في المملكة الشامية، وما يتصل بها: من بلاد الأرمن والروم وبلاد الجزيرة بين الفرات والدجلة مما هو مضاف إلى هذه المملكة؛ وفيه أربع أطراف)

1- الطرف الأول: في فضل الشام وخواصه وعجائبه

أعظم شاهد لذلك ما أخرجه الترمذي من حديث زيد بن ثابت ﷺ أنه قال: « كنا يوماً عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرّقاع. فقال رسول الله ﷺ : طوبى لأهل الشام. فقلت: لم ذاك يا رسول الله؟ قال: لأن الملائكة باسطة

(1) ميفعة هي أم الرصاص في بادية وسط الأردن (البلقاء) من أراضي قبيلة بني صخر الجذامية الأردنية كانت مدينة عامرة مزدهرة، فيها كنائس ذات فسيفساء متطورة جداً. وأن ما قام به أهل ميفعة الذين كانوا نصارى عرب أردنيون من قتل زيد بن عمرو بن نفيل الذي جاء بنوي قتل رسول الله ﷺ ، لدليل على رسوخ المبادئ الأردنية كتراث وثقافة في حماية الضيف، ودليل على الصفاء الروحي، فقتلوا من أراد بضيفهم رسول الله ﷺ شرّاً، ولم يسلموه لزيد بن عمرو والحمد لله رب العالمين إنهم الأردنيون وتراثهم، مهما كانت عقيدتهم يحمون الجار والذمار، حفظ الله الأردن وأهل الأردن.

أجنحتها عليه ». هذا وقد بُعث به الكثير من الأنبياء عليهم السلام، وفيه صرائحهم الشريفة، والمسجد الأقصى الذي هو أحد المساجد الثلاثة التي تُشدّ إليها الرحال، وهو أول القبلتين؛ وبه ينزل المسيح ﷺ بمنارة جامع دمشق؛ وبه يقتل الدّجال بمدينة لُدّ. وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: « إن الله بارك فيما بين العريش إلى الفرات وخصّ فلسطين بالتقديس » (القلقشندي: ج 4، ص 72) [1].

2- الطرف الثاني: في حدوده، وابتداء عمارته، وتسميته شاماً

وفيه مقصدان

المقصد الأول: (في حدوده)

(اعلاه، ص 75)

« وقد اختلف في تحديده (أي إقليم الشام)، فذكر في « التعريف » أن حدّه من القبلة إلى البر المقفر: تيه بني إسرائيل وبرّ الحجاز والسّماوة إلى مرمى الفرات بالعراق. قال: وهذه المحادات كلها من جزيرة العرب. وحدّه من الشرق طرف السّماوة والفرات. وحدّه من الشمال البحر الرومي. وحدّه من الغرب حدّ مصر المتقدم ذكره، وذكر في « تقويم البلدان »: أن حدّه من الجنوب من أول رفح التي في أول الجِفار بين مصر والشام إلى حدود تيه بني إسرائيل إلى ما بين الشوبك وأيلة من البلقاء، وحدّه من الشرق من البلقاء إلى مشاريق صَرْخَدَ، آخذاً على أطراف الغوطة، إلى سَلَمْيَة، إلى مشاريق حلب، إلى بالِس؛ وحدّه من الشمال من بالس مع الفرات إلى قلعة نجم، إلى البيرة، إلى سُمَيْساط إلى حصْن منصور، إلى بَهَسْنى، إلى مرعش، إلى بلاد سيس، إلى طرسوس، إلى بحر الروم؛

---

(1) من خلال هذا الحديث الشريف نجد أن الأردن مشمولة بالتقديس، وذلك أنها تقع ما بين العريش غرباً والفرات شرقاً.

وحدّه من الغروب من طرسوس المذكورة آخذاً على ساحل البحر الرومي إلى رفح المتقدمة الذكر حيث وقع الابتداء.

قلت: والخُلْفُ بينهما في شيئين.

أحدهما: أنه في « التعريف » جعل حدّه الشمالي إلى البحر الرومي، وحدّه الغربي حدّ مصر المتقدم ذكره، وفي « تقويم البلدان » جعل حدّه الشمالي البلاد التي بين الفرات والبحر الرومي، وحدّه الغربي البحر الرومي من طرسوس إلى رفح فيدخل حدّ مصر الذي حدّ به الجانب الغربي في « التعريف » في هذا الحدّ، وكأن الموقع لهما في ذلك أن البحر الرومي عن الشام غرباً بشمال، فجنح كل منهما إلى جهة.

الثاني: أنه في « تقويم البلدان » أدخل الأرمن المتصلة بآخر بلاد حلب من الشمال في حدود الشام، وفي « التعريف » أخرجها وهو التحقيق. وقد صرّح بذلك في « التعريف » فيما بعد فقال بعد أن أفرد الفتوحات الجاهانية التي هي أول بلاد الأرمن من جهة حلب بالذكر وأتيت بها ههنا إذ لم يكن لها تعلّق بمملكة تذكر فيها، وليست من الشامات في شيء وإنما هي من بلاد الأرْمن المسماة قديماً ببلاد العواصم والثغور.

على أن ما ذكره من التحديد في « التعريف » و « تقويم البلدان » لا يخلو عن تساهل. فقد قال في « التعريف »: بعد ذكر الحدود التي أوردها: وهذه الحدود هي الجامعة على ما يحتاج إليه، وإذا فُصّلت تحتاج إلى زيادة إيضاح. وقال في « تقويم البلدان »: بعد ذكر الحدود التي أوردها أيضاً: وبعض هذه الحدود قد تقع شرقية عن بعض الشام وهي بعينها جنوبية عن بعض آخر، مثل البلَقاء فإنها جنوبية عن حلب وما على سمتها، وشرقية عن مثل غزة وما على سمتها فليُعلم العذر في ذلك.

قال ابن حوقل: وطول الشام من مَلَطْيَة إلى رفح خمس وعشرون مرحلة. فمن مَلَطْيَة إلى مَنبج أربع مراحل، ومن مَنبج إلى حَلَب مرحلتان، ومن حلب إلى حمص خمس مراحل، ومن حمص إلى دمشق خمس مراحل، ومن دمشق إلى طبرية أربع، ومن طبرية إلى الرملة ثلاث مراحل، ومن الرملة إلى رفح مرحلتان.

قال التيفاشي في « سرور النفس »: وطوله أكثر من شهر. قال ابن حوْقل: وأعرض ما فيه طرفاه. فأحد طرفيه من الفرات من جسر منبج على منبج على قورُس في حدّ قنّسرين، ثم على العاصم في حدّ إنطاكية، ثم يقع على جبل اللُّكام، ثم على المَصِّيصة، ثم على أذَنَة، ثم على طرسوس، وذلك نحو عشر مراحل وهذا هو السَّمْتُ المستقيم. والطرف الآخر يأخذ في البحر من حد يافا من جند فلسطين حتى ينتهي إلى الرملة إلى بيت المقدس، ثم إلى أريحا، ثم إلى زُغر، ثم إلى جبل الشراة إلى أن يتأتى إلى معان، وتقدير ذلك ست مراحل. ثم قال: أما ما بين هذين الطرفين من الشام فلا يكاد بين الأردن ودمشق وحِمْص يزيد على أكثر من ثلاثة أيام، لأن من دمشق إلى طرابلس على بحر الروم غرباً يوماً وإلى أقصى الغوطة شرقاً حتى يتصل بالبادية يوماً، ومن حمص إلى أنطَرْطوس على بحر الروم غرباً يومين، ومن حمص إلى سلَمْيَة على البادية شرقاً يوماً، ومن طبرية من جُند الأردن إلى صور على البحر الرومي غرباً يوماً، ومنها إلى أريحا على حدود بني فزارة شرقاً يوماً » (القلقشندي: ج 4، ص 75-77).

3- المقصد الثاني: (في ابتداء عمارته وتسمية شاماً وما يلتحق بذلك)

(اعلاه ص 78)

« أما ابتداء عمارته، فقد روى الحافظ بن عساكر في تاريخ الشام عن هشام ابن محمد عن أبيه: أن نوحاً ﷺ لما قسم الأرض بين بنيه لحق قوم من بني كنعان ابن حام بن نوح ﷺ فسميت الشام، حين تشاءموا إليها، يعني من أرض بابل

كما جاء في الرواية الأخرى. قال: فكانت الشأم يقال لها لذلك أرض كنعان، وجاء بنو إسرائيل فأجلوهم عنها، ويقيت الشام لبني إسرائيل إلى أن غلب عليه الروم وانتزعوه منهم فأجلوهم إلى العراق إلا قليلاً منهم، ثم جاء العرب فغلبوا على الشام (يعني في الفتح الإسلامي) ثم الشأم مهموز مقصور. قال النووي في « تهذيب الأسماء واللغات » وغيره: ويجوز فيه فتح الشين والمدّ. قال: وهي ضعيفة وإن كانت مشهورة قال الجوهري: ويجوز في التذكير والتأنيث: قال النووي: والمشهور التذكير. وقد اختلف في سبب تسميته شاماً فقيل لتشاؤم بني كنعان إليه كما تقدم في كلام ابن عساكر، وقيل سمي بسام بن نوح لأنه نزل به، واسمه بالسريانية شام بشين معجمة، والعرب تنقلها إلى السين المهملة. وقيل لأن أرضه مختلفة الألوان بالحمرة والسواد والبياض فسمّي شاماً لذلك كما يسمى الخال في بدن الإنسان شامة. وقيل سميت شاماً لأنها عن شمال الكعبة، ولشام لغة في الشمال. قال أبو بكر بن محمد ويجوز فيه وجهان. أحدهما أن يكون من اليد الشؤمى وهي اليسرى. والثاني أن يكون فعلاً من الشُؤم » (القلقشندي: ج 4، ص 78).

4- نهر الأردن

(القلقشندي أعلاه، ص 81)

« الثالث – نهر الأردن. والأردن بضمّ الهمزة وسكون الراء المهملة وضم الدال المهملة أيضاً وتشديد النون. كذا ضبطه السمعاني في « اللُباب » قال: وهي بلدة من بلاد الغور من الشام نسب إليها النهر ويسمى الشريعة[1] أيضاً وأصله

(1) لم نجد إشارة إلى بلدة في أرض الغور تسمى: الأردن، فَعَمّ الاسم بنسبة النهر إلى هذا الموقع والوطن نسبةً إلى هذا النهر. وفي رأيي أن ذلك غير متفق مع تناسق المعاني للأردن، ولكن يبدو أن اسم البلدة المسماة: الأردن، قد سميت نسبةً لاسم النهر وليس لأي سبب آخر.

من أنهار تصب من جبل الثلج إلى بحيرة بانياس، ثم يخرج من البحيرة المذكورة ويصب في بحيرة طبرية، ويمتد جنوباً، وهناك يصب في نهر اليرموك بين بحيرة طبرية المذكورة وبين القُصيْر، ويمتد في وسط الغور جنوباً حتى يجاوز بيسان، ويمتد في الجنوب كذلك إلى أريحا، ولا يزال يمتد في الجنوب حتى يصب في بحيرة زُغَر وهي البحيرة المنتنة المعروفة ببحيرة لوط » (القلقشندي: ج 4، ص 81).

5- جند فلسطين (اعلاه ص 89):

« الأول – (جند فلسطين) وفلسطين بكسر الفاء وفتح اللام وسكون السين وكسر الطاء المهملتين وسكون الياء المثناة تحت ونون في الأخر. قال الزجاجي: سميت بفلسطين بن كُلْثوم من ولد فلان بن نوح، بلدة كانت قديماً نسبت الكورة إليها. قال ابن حوقل: وهو أول الأجناد الخمسة من جهة الغرب من رفح إلى اللُّجُون، وعرْضه من يافا إلى أريحا نحو يومين. قال ابن الأثير: هي كورة كبيرة تشتمل على بلاد المقدس وغزة وعسقلان. قال ابن حوقل: وهي أرخى بلاد الشام.

6- جند الأردن (اعلاه، ص 89)

الثاني – (جند الأردن) والأردن بلدة قديمة من بلاد الغور نسبة الكورة إليها، وقد مرّ ضبطها في الكلام على نهر الأردن عند ذكر الأنهار[1]، وقد نسبت الكورة إليها كما نسب إليها النهر المتقدم ذكره. قال ابن حوقل: وديار قوم لوط

(1) إن إشارة القلقشندي هذه في غاية الأهمية، حيث يذكر أن أصل اسم الأردن كان يُطلق على بلدة قديمة في الغور، ثم تمّدد الاسم ليشمل الغور والنهر والأرض. وإذا ثبت ذلك فهو في غاية الأهمية، لأنه يفنّد الإسرائيليات التي تدّعي أن اسم الأردن هو دمج بين اسمين هما أولاد سيدنا إبراهيم وهم جور ودان، وهذا كلام غير صحيح. وقد سبق وشرحنا معنى الأردن في موضعه في حينه من هذا الكتاب.

والبحيرة المنتنة وزُغر إلى بيسان وإلى طبرية تسمى الغور: لأنه بين جبلين، وسائر بلاد الشام مرتفعة عليه. قال: وبعضها من الأردن وبعضها من فلسطين » (القلقشندي: ج 4، ص 89).

« ومنها وَقْعة مَرْج راهط؛ وكان من حديثها أنه لما هلك يزيد بن معاوية، كان سعيد بن بحْدل على قنّسرين، فوثب عليه زُفر بن الحارث فأخرجه منها وبايع عبدالله بن الزبير، فلما قعد زُفَر على المنبر. قال: الحمد لله الذي أقعدني مَقْعَد الغادِر الفاجر، وحَصِر، فضحك الناس من قوله؛ وكان حسّان بن بحدل على فلسطين، والأردن. فاستعمل على فلسطين رَوْح بن زِنْباع الجُذامي، ونزل هو الأردن، فوثب ناتل بن قيس الجُذاميّ على رَوْح بن زنباع فأخرجه من فلسطين وبايع ابن الزبير؛ وكان النعمان بن بشير على حمص فبايع لابن الزبير، وكان الضّحّاك بن قيس على دمشق، فجعل يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، فقَدِمَ عليه مروان بن الحكم فقال الضحاك هل لك أن تقدم على ابن الزبير ببيعة أهل الشام، قال نعم ووافق على ذلك بنو أمية، واليمانيون؛ فلما فشا ذلك أرسل الضحاك إلى بني أمية تصدر إليهم؛ وقال لمروان وعمرو بن سعيد: اكتبوا إلى حسان بن بحدل فيسير من الأردن حتى ينزل الجابية، ونسير نحن من هنا حتى نلقاه فننظر هناك رجلاً ترضونه؛ فلما استقلت رايات الضحاك من دمشق، قالت القيسية لا نصحبك دعوتنا إلى بيعة ابن الزبير » (القلقشندي: ج 1، ص 394).

-49-

أجناد الشام

(القلقشندي، صبح الأعشى، ج 7، ص 13)

ومنها أجناد الشام التي:

«منها جند حمص، وكانت دارهم ودار هرقل عظيم الروم ومن قبله من عظمائها.

ومنها جند دمشق على جلالته في القديم والحديث، واختيار الملوك المتقدمين له.

ومنها جند الأردن على جلالة قدره، وأنه دار المسيح ﷺ وغيره من الأنبياء والحواريين[1].

ومنها جند فلسطين، وهي الأرض المقدسة، وبها المسجد الأقصى، وكرسيّ النصرانية، ومعتقد غيرها، ومَحَجّ النصارى واليهود طُرّاً، ومقر داود وسليمان ومسجدهما. وبها مسجد إبراهيم وقبره وقبر إسحاق ويعقوب ويوسف وإخوته وأزواجهم عليهم السلام، وبها مولد المسيح وأمه وقبرها » (القلقشندي: ج 7، ص 13).

1- الأردن (الحميري، القرن الثامن الهجري، ص 21)

« الأردن: بضم أوله، نهر بالشام وهو نهر طبرية عليه مدن، وكل من على جنبيه أردني[2]، وكان مُلْك داود ﷺ في الأردن وفلسطين، وكان عَسْكَرُه ستين

---

(1) الحواريون المذكورون في القرآن الكريم، وهم صحابة سيدنا عيسى ﷺ وتلاميذه، هم أردنيون ومن أرض الأردن. ومن خلال استخدام كلمة جند، نجد أن هذا الاصلاح دليل على المفهوم العسكري الذي شاع في بداية الفتوحات الإسلامية، ذلك أن هذه البلدان دخلت تحت ظلال الإسلام بالحرب (سواء بالمصالحة أو الاستسلام أو الهزيمة العسكرية). وبالتالي كان لابد من تقسيم البلاد إلى اجناد أي قطاعات عسكرية، لأنهم على ثغور الروم وفي حرب مستمر معهم، وفي الأراضي التي كان يحتلها الروم والذين بدورهم يطمعون لإعادة احتلالها من العرب المسلمين ثانيةً. لذا بقيت جبهة عسكرية، ويبقي العنوان « جند » والمحتويات كُوَر مفردها كُوْرة. ونرى ان الأردن هو: دار المسيح ﷺ ودار الحواريين، ودار العديد من الأنبياء الكرام.

(2) الحميري (ق 8 هـ) يذكر عبارة في غاية الأهمية وهي أن كل ما هو على جنبيّ نهر الأردن، أردني. وهذه إشارة جغرافية سياسية واجتماعية هامة. وقد سبق وعلّقنا بما فيه الكفاية على هذه العبارة في الجزء الأول من هذا الكتاب.

ألفاً أصحاب درق وسيوف وفي سير ابن إسحاق أن أبا جهل قال للذين بيّتوا رسول الله ﷺ للفتك به وهم على بابه: إن محمداً يزعم أنكم إن بايعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بُعثتم من بعد موتكم فجُعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ثم بُعثتم من بعد موتكم فجُعِلَت لكم نار تُحرقون فيها، وخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: « نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم »، وأخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم، إلى آخر الخبر.

وفي حديث مكحول: لما فتحت جزيرة العرب قال رجل عند ذلك: أبهوا الخيل والسلاح فقد وضعت الحرب أوزارها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فردّ قوله وقال: « لا تزالون تقاتلون الكفار حتى يقاتل بقاياكم الدجال بقطر[1] الأردن، أنتم من غربيّه والدجال من شرقيّه »، قال الراوي: ما كنت أدري ما الأردن حتى سمعته من رسول الله ﷺ.

وقالوا: احتاج الوليد بن عبدالملك إلى رصاص حين بنى مسجد دمشق فقيل له: إن بالأردن منارة فيها رصاص فبعث إليها، فذهب رجل يضرب بمعوله فأصاب رجلاً فسأل: من أنت؟ فقيل: هذا طالوت[2].

---

(1) نجد هنا أن الحديث الشريف استخدم كلمة قطر وهو الاصطلاح الذي استخدمه دعاة القومية العربية في إطلاق كلمة قطر على كل بلد من بلاد العرب. وهذا دليل واضح أن الأردن كانت معروفة كبلاد وقُطرٍ لها هويتها الجغرافية والطبيعية والاجتماعية، وأنها جنات كريمة يانعة خضراء.

(2) أم الرصاص، وهي مدينة أثرية تقع إلى الشرق من ذيبان (ديبون المؤابية)، وهي في ديرة بني صخرة، وقد كشفت الحفريات فيها عن كنائس ذات أرضية فسيفسائية متقنة وملونة ورائعة وعليها رسوم، وقد زرتها ورأيتها بنفسي (أنا المؤلف). وفيها برج طويل، يعتقدون أنه كان به رصاص، وأن فيه كنز. لذلك سميت أم الرصاص من هذا المعدن. وهي ميفعة القديمة التي مرّ بها رسول الله ﷺ في تجارته مع عمّه أبي طالب إلى الشام ولقيه الراهب العربي الأردني بحيرة / بيحرا ونصحه أن يحافظ عليه من اليهود.

وكان أهل الأردن قد رفضوا بيعة ابن الزبير رضي الله عنهما[2] » (الحميري: الروض المعطار، ص 21).

2- الغـور

وقد ورد ذكر الغور، عند ابن خرداذبة في القرن الثالث الهجري (ت 280 هـ)، من ضمن كورة دمشق، وذلك في كتابه: المسالك والممالك.

« ... وظاهر البلقاء، وجبل الغور، وكورة مآب،... » (ابن خرداذبة: ص 77).

3- الشراة

كما ورد ذكر الشراة في ضمن كورة دمشق أيضاً.

«... وكورة جبال، وكورة الشراة، وكورة بصرى... » (ابن خرداذبة: ص 77).

4- مــآب

وكذلك ورد ذكر مآب من ضمن كورة دمشق.

«... وكورة مآب، وكورة جبال، وكورة الشراة،... » (ابن خرداذبة: ص77) [2].

---

(1) إن اهل الأردن هم الذين اعادوا بني أمية إلى ملكهم أو اعادوا مُلك بني أمية إليهم بعد أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من الزوال، ولذلك قال الشاعر:

لـولا الإلـه وأهـل الأردن اقتُسمت يـوم الوقيعـة نـارُ المـرج نـيران

وقد دفع الأردن والأردنيون ثمناً باهضاً زمن بني العباس، وذلك من قطع الأشجار والإهمال على أيدي العباسيين، الأمر الذي أدى إلى تحويل الأردن إلى عامل طرد سكاني، للأسف الشديد، فخسر الوطن كثيراً من أهله وغشاه التصحّر. وهذا دليل أيضاً على أن ما يتقرر على أرض الأردن هو الذي يغيّر التاريخ. فلو وقف أهل الأردن إلى جانب عبدالله بن الزبير لكان تاريخ العرب والمسلمين شيء مختلف تماماً عما هو عليه الآن.

(2) نجد هنا برهاناً جديداً على أن جنوب الأردن تابع إلى دمشق، وليس إلى مصر ولا إلى الحجاز ولا إلى فلسطين. وأن جنوب الأردن جزء من الأردن وليس من مصر ولا فلسطين ولا من =

5- الغور (البكري (ت 487هـ) ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج 3، ص 1008)

الغَوْر: غور تِهامة: معروف، قد تقدم ذكره وتحديده.

والغور مثله: موضع بالشام: والسُّرَيَّة: قرية بالغور الشامي، قال أرْطاة ابن سُهَيَّة:

دَعَانا شَبيبٌ بالسُّرَيَّةِ دَعْوَةً   فقام له بالحَرَّتَيْنِ مُجيبُ

وهذا الغور الشامي هو الذي أراد أبو الطيب المتنبي بقوله:

لَوْلاَكَ لم أتْرُكِ البُحَيْرَةَ والغَوْ   رُ دفِيءٌ وماؤُها شَبِمُ

(البكري: ج 3، ص 1008)

6- الغور [2] (الحموي (ت 626هـ)، معجم البلدان، ج 4، ص 216-217)

الغور: بالفتح ثم السكون، وآخره راء، والغور: المنخفض من الأرض، وقال الزجاج: الغور أصله ما تداخل وما هبط، فمن ذلك غور تهامة، يقال للرجل: قد أغار إذا دخل تهامة، وغور كل شيء قعره، وكل ما وصفنا به تهامة فهو من صفة الغَوْر لأنهما اسمان لمسمى واحد؛ قال أعرابي:

= جزيرة العرب. كما أننا نجد هنا أن اصطلاح جند قد تلاشى لتلاشي خطر وتهديد الدولة البيزنطية، ولأن الدولة العربية استقرت وازدهرت، فأصبح الاصطلاح كورة (اصطلاح اقتصادي وإعمار وبناء وازدهار) بدلاً من جند وهو اصطلاح العسكري.

(1) المعنى الوارد هنا للدلالة على الغور هو نفسه المستخدم في لهجة الأردنيين، ويقولون: فلان يَغُور إذا كان ذمّاً له وأنه دخل في عمق الفشل، ويقولون: فلان الله يْغَوّره: أي يدفنه في منخفض عميق من الأرض: ويقولون غارة وهي الهجوم العسكري على الخصوم أو الزيارة القصيرة لصديق أو غيره، ويقولون: غُرْ: فعل أمر أي أن يختفي من الموقع المشْرِف إلى الموقع الذي ينطوي على الإهانة. والغور هو غور الأردن الذي تنطبق عليه المواصفات الطبيعية من الانخفاض.

أراني ساكنٌ من بعد نجد بلاد الغور والبلد التُّهاما
فرُبتما مشيت بحرّ نجد وربتما ضرب بها الخياما
وربُتما رأيتُ بحر نجد على اللأواء أخلاقاً كراماً
أليس اليوم آخر عهد نجد؟ بلى فاقروا على نجد السلاما

قال الأزهري: الغور تهامة وما يلي اليمن، وقال الأصمعي: ما بين ذات عِرْق إلى البحر غَوْر تهامة، وطرف تهامة: من قبل الحجاز مَدَارج العَرْج وأولها من قبل نجد مدارج ذات عرق، والمدارس: الثنايا الغلاظ وقال الباهلي: كل ما انحدر سيله مغرّباً عن تهامة فهو غورن وقال الأصمعي: يقال غارَ الرجل يغور إذا سار في بلاد الغور، وهكذا قال الكسائي وأنشد قول جرير:

يا أمّ طلحة ما رأينا مثلكم في المنجدين ولا بغور الغائر

لو كان من أغار لكان مغيراً، فلما قال الغائر دلّ على أنه من غار يغور؛ وسئل الكسائي عن قول الأعشى:

نبيٌّ يرى ما ترون، وذكرُهُ أغار، لعَمري، في البلاد وأنجدا

فقال: ليس هذا من الغور وإنما هو من أغار إذا أسرع، وكذلك قال الأصمعي؛ وروى ابن الأنباري أن الأصمعي كان يروي هذا البيت:

نبيٌّ يرى ما لا ترون، وذكره لعَمْري غارَ في البلاد وأنجدَا

وروي عن ابن الأعرابي أنه قال: غار القوم وأغاروا إذا انحدروا نحو الغور، قال: والعرب تقول: ما أريد أغار فلان أم أنجد أي ما أدري أتى الغور أم أتى نجداً، وكذلك قال الفرّاء واحتج بقول الأعشى.

والغور: غور الأردن[1] بالشام بين البيت المقدس ودمشق، وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض البيت المقدس ولذلك سمي الغور، طوله مسيرة ثلاثة أيام، وعرضه نحو يوم، فيه نهر الأردن وبلاد وقرى كثيرة، وعلى طرفه طبرية وبحيرتها ومنها مأخذ مياهها، وأشهر بلاده بيسان بعد طبرية، وهو وخم شديد الحر غير طيب الماء وأكثر ما يزرع فيه قصب السكر، ومن قراه أريحا مدينة الجبارين، وفي طرفه الغربي البحيرة المنتنة وفي طرفه الشرقي بحيرة طبرية. وغور العِماد: موضع في ديار بني سليم. والغور أيضاً غور ملح: ماء لبني العدوية. قال الهيش بن شراحيل المازني مازن بني عمرو بن تميم:

فإن قتلت أخي، إذ حُمّ مقتلُهُ، ... فلستَ أولَ عبدٍ ربُّه قتلا
لقيته طيّباً نفساً بميتته ... لَما رأى الموت لا نِكْساً ولا وَكَلا
وقد دعَوْتُك يوم الغوْر من مَلَح ... إلى النزال فلم تنزل كما نزلا
فلا عدمتَ أمرأ هالتْك خيفته ... حتى حسبتَ المنايا تسبق الأجلا
ولا أسنّةَ قوم أرشدوك بها ... سُبْلَ القرار فلم تعدل بها سُبُلا

وكان الهيش من قُتّال بني مازن وشجعانها وشعرائها، والأيام والأحاديث في الغور كثيرة؛ وقالت ماجدة البكرية:

ألا يا جبالَ الغوْر خلّين بيننا ... وبين الصَّبا يجري علينا شنينُها
لقد طال ما جالت ذراكنّ بيننا ... وبين ذرى نجد فما نستبينها

وقال جميل:

---

(1) هذه إشارة واضحة ويقينية أن الغور هو غور الأردن، وأنه يحمل اسم الأردن، ونرى أن أريحا في الغور وكانت من أهم قراه، وهي بذلك أيضاً أردنية في هذا السياق. وأن الاسم منسوب للأردن، إذ قيل غور الأردن، ولم يُقَلْ: أردن الغور؛ لأن الأردن اسم شامل واسع كبير وأن الغور جزء منه ويقع ضمن حدوده ومحتواه.

يغورُ، إذا غارت، فؤادي وإن تكن بنجد يَهِـمْ منّي الفـؤاد إلى نجد
أتيتُ بني سعد صحيحاً مسلّماً، وكان سقامُ القلب حُبُّ بني سعد

وقال الأحوص:

وإنكِ إن تنزحْ بكِ الدارُ آتكم وشيكاً، وإن يُصعد بك العيسُ أُصْعِدِ
وإن غُرتِ غرْنا حيث كنت وغرتمُ، أو انجدْتِ انجدنا مع المتنجّدِ
متى تنزلي عيناً بأرض وتلعةٍ أَزُرْكِ ويكثرْ حيث كنتِ تردّدي

(الحموي: ج 4، ص 217-218)

-50-

القُصَيـر(1)

(الحموي، (ق 7 هـ) أعلاه، ج 4، ص 267)

« القُصَيرُ: بلفظ تصغير قصر، في عدة مواضع، منها: قُصير مُعين الدين بالغور من أعمال الأردن يكثر فيه قصب السكر، والقصير: ضيعة أول منزل لمن يريد حمص من دمشق، والقصر: موضع قرب عيذاب بينه وبين قُوص قصبة الصعيد خمسة أيام وبينه وبين عيذاب ثمانية أيام وفيه مرفأ سفن اليمن، وقال بن عبدالحكم: المقطم ما بين القصير إلى مقطع الحجارة وما بعد ذلك من اليحموم، وقد اختلف في القصير فقال ابن لهيعة: ليس بقُصير موسى، عليه السلام ، ولكنه قصير

(1) القصير: تصغير قَصْر، ويلفظه الأردنيون: قْصِير بسكون القاف واراء وكسر الصاد. ويطلق هذا على كل مكان فيه موقع أثري قديم، يعتبرونه قصراً. وحيث أنهم مولعون بتصغير التحبب نجدهم يقولون: قْصِير (قَصَيْر). وهناك في أم عبهرة، موقع بهذا الاسم، وآخر في منطقة دابوق وكلاهما في عمان الغربية وفي أراضي العبابيد، وآخر في منطقة الذراع إلى الغرب من بيادر وادي السير.

موسى الساحر، وقال المفضل بن فضالة عن أبيه قال: دخلنا على كعب الأحبار فقال: ممن أنتم؟ قلنا: من مصر، قال: ما تقولون في القصير؟ قلنا: قصير موسى، فقال: ليس بقصير موسى ولكنه قصير عزيز مصر، وكان إذا جرى النيل يترفع فيه، وعلى ذلك فإنه مقدّس من الجبل إلى البحر » (الحموي: ج 4، ص 267).

« وإقليم محل والغور الأعلى والقصَيْر ومدينة بيسان والغور مقسّم ثلاثة أقسام: الأعلى هذا والأوسط غور حقاً وأريحا والسفل غور زغر (ومدينة زغر وطوله نحو من أربعة أيام وعرضه الأعرض يوم) ومن عجيب مياهه الجارية أن بأعلاه بحيرة قدس يفيض الماء ويسبح نهراً هو نهر الأردن ثم يمر ويصب في بحيرة طبرية بوسط الغور ثم يخرج ويمر بالغور في وسطه حتى يصب في بحيرة لوط (عليه السلام) بأسفل الغور ثم لا يخرج منها فكأن نهر الأردن تلك دائر مطلعه من بحيرة قدس بأعلى الغور وبسط دورة قوسه بحيرة طبرية (وغروبه بحيرة زغر وبه من العجائب ما سنورد ذكرها في خصائص البلاد عند ذكرنا لها) » (الدمشقي شيخ الربوة محمد بن أبي طالب ت 727هـ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر: ص 201).

-51-

الحفرة الانهدامية الجنوبية

الغـور[1]

« والغور طويل ويحسن فيه قصب السكر والموز وآخره أريحا التي على أول البحيرة الميتة كانت مدينة للجبارين، وهي الآن منيعة. وما بين هذا الغور

---

(1) نجد أن غور الأردن كان ينتج السكر، وهو معدوم الآن (القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين)، ذلك أن المياه كانت أكثر نقاءً ووفرة، والأرض أكثر طهراً وخصوبة، ولكن تغير كل شيء، ولكن الموز لا زال من الفواكه التي ينتجها الغور الأردني إلى الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين).

والساحل غور بيسان. ومن أخذ على الطريق اليسرى سار على نابلس التي جبلها حج وقبله للسمرة » (ابن سعيد المغربي (ت 685هـ): الضوء اللامع لأل القرن التاسع، ص 152).

1- البحَيْرة المنتنة

وقد أوردها ابن خرداذبة في ذكر المسافة بينها وبين بيت المقدس فيقول: « ... ومن البيت المقدس إلى البحيرة المنتنة بلا شك أربعة أميال ويخرج من البحيرة المنتنة ملح يصلح للصاغة وقير يسمى الحُمّر وهو قفر اليهود، ويقال نهر الأردن الذي يصب في البحيرة المنتنة يخرج بأرض الهند »[1] (ابن خرداذبة (ت 280هـ): المسالك والممالك ص 79).

2- البحر الميت: (الاصطخري (ت 346هـ)، مسالك الممالك، ص 64-65)

« البحيرة المنتنة: من الغور بقرب زغر وإنما تسمى المنتنة لأنه ليس فيها شيء من الحيوان لا سمك ولا غيره وتقف بشيء يسمى الحُمّر، منه يلقحون كروم فلسطين كما يلقّح الخل بطَلْع الفحّال منها. وبزغر بسر[2] يقال له الأنقلاء لم أرَ بالعراق ولا بمكان أعذب ولا أحسن منظراً منه كأن لونه الزعفران لا يغادر منه شيئاً ويكون أربعة منه شبراً. وديار قوم لوط هي أرض تسمى الأرض المقلوبة وليس بها زرع ولا ضرع ولا حشيش وهي بقعة سوداء قد فُرشت

---

(1) هذه خرافة، فالأردن بعيد كل البعد عن الهند، كما أن المسافة ما بين بيت المقدس والبحر الميت مسيرة يوم تقريباً وليست أربعة أميال.

(2) البسر هو نوع من أنواع الرطب كان يزرع في غور الصافي جنوب البحر الميت، وكان مشهوراً بهذه الديار ويسمى الأنقلاء. إلا أنه لم يعد موجوداً في هذه الأجيال (القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين).

بحجارة كلها متقاربة في الكبر يروى أنها الحجارة المسوّمة التي رُمي بها قوم لوط وعلى عامة تلك الحجارة كالطابع » (الاصطخري: ص 64-65).

« والبحيرة الميتة من الغور بقرب زُغَر، وإنما تسمى الميتة لأنه ليس فيها شيء من الحيوان لا سمك ولا غيره، وتقذف بشيء يسمى الحُمّر، منه يلقّحون كروم فلسطين، كما يُلقّح النخل بطلع الفُحّال (أي الذكور) منها » (الاصطخري، أعلاه: ص 47).

3- زُغَــر

« وبزُغَر بسر يقال له الانقلاء[1]، لم أرَ بالعراق ولا بمكان أعذب ولا أحسن منظراً منه، كأن لونه الزعفران لا يغادر منه شيئاً، ويكون أربعة منه شِبْراً، وديار قوم لوط هي أرض تسمى المقلوبة، وليس بها ضرع ولا حشيش، وهي بقعة سوداء قد فرشت بحجارة كلها متقاربة الكبر، يروى أنها الحجارة المُسَوّمة التي رُمي بها قوم لوط، وعلى عامة تلك الحجارة كالطابع » (الاصطخري، أعلاه: ص 47-48).

« زغر قرية بينها وبين البيت المقدس ثلاثة أيام في طرف البحيرة المنتنة وزغر اسم بنت لوط ﷺ نزلت بهذه القرية فسميت باسمها وهي في واد وخم ردي في (كلمة غير مقروءة) بقيعة يسكنها أهلها لحب الوطن، بها عين زغر ذكر أنها تفور في آخر الزمان » (الباكوني: ص 11 ‌!).

« صُغَر: أهل الكورتين يسمونها صقر وكتب المقدسي إلى أهله من سقر السفلى إلى الفردوس الأعلى وذلك أنه بلد قاتل للغرباء رديء الماء ومن أبطأ عليه ملك الموت ليرحل إليها ولا أعرف في الإسلام لها نظيراً في هذا الباب.

(1) البسرُ كما قلنا أعلاه هو نوع من أنواع الرطب (الثمر) ويسمى: الانقلاء، ولم يكن يوجد إلا في غور الصافي جنوب الأردن (في زغر). كما تشير كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين.

وقد رأيت بلداناً وبيّة ولكن ليس كهذه أهلها سود، غلاظ وماؤها حميم وكأنها جحيم إلا أنها البصرة الصغرى والمتجر المربح وهي على البحيرة المقلوبة وبقية مدائن لوط وإنما نجت لأن أهلها لم يكونوا يعملون الفاحشة والجبال منها قريبة » (المقدسي (ت 380هـ) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ص 178).

4- سدوم

« سدوم: بفتح أوّله: مدينة من مدائن لوط، كان قاضيها يقال له سدوم، ويُضرب به المثل، ويقال: أجورُ من قاضي سدوم، وأجورُ من سدوم.

وقال ابن الأنباري عن أبي حاتم: سدوم، بذال معجمة: رجل كان في الأعصر الخوالي؛ وهو الذي يقال فيه: قضاء سذُوم» (البكري: معجم ما استعجم، ج3، ص729).

5- زُغـر

زُغَر: وردت عند البكري (معجم ما استعجم: ج 1، ص 324-325)، ضمن شرح كلمة توضح حيث يقول: « تُوْضِحْ بضم أوّله، وبالضاد المعجمة المكسورة، والحاء المهملة: موضع ما بين رمل السُّبَخة وأوْد. وقال الحَرْبي: تُوضح من الحِمَى، وأنشد للنابغة:

الواهـب المائـة الأبكـارَ زَيَّـنَها سَعْدَانُ تُوْضِحَ في أوبارها اللِّبَدِ

وقال أبو زيد عمر بن شَبَّة، عن هشام، قال: حدثني محمد بن عبدالرحمن النصاري، عن عمرو بن الصامت، بن شداد بن يزيد بن مِرْداس السلمى، عن أشياخ من بني تميم قد أدركوا الجاهلية، قالوا:

وجدنا بالجزيرة زمن عمر بن الخطاب شيخاً قديماً، قد كُفَّ بصره، فسألناه عن مياه بالبادية، فقال: هل وجدتم تُوْضِحَ، التي يقول فيها امرؤ القيس:

فتوضِـحَ فالمِقراةِ لم يَعفُ رَسمُها   لما نَسَجَتْها من جنوبٍ وشَمْألِ

وهي بين رمل السَّبْخة وأود، التي قال فيها مالك بن الرَّيْب:

دَعـاني الهَوَى من أهل أوْدَ وصُحْبتي   بـذي الطَّبَسَـيْن فالْـتَفَتُّ ورائيـا

قلنا: لا والله قال: أما والله لو جئتُ في ليلة مظلمة، لوقفتُ على فمِ طويِّها. قال: فقالوا له إن فيها لشجراء، ولم توجد تُوْضِحُ إلى اليوم.

قال: فهل وجدتم السُّمَيْنة؟ قلنا: نعم. قال: أين؟ قلنا: تلك السُّمَينة، ولكن تلك زُغَر، والسُّمَينة بينها وبين مغيب الشمس، حيث لا تبين أعناق الركاب تحت الرحال: أحُمْرٌ هي أم صُفْر. قال: فوجدنا السُّمينة بعد ذلك حيث نَعَت.

قال: فهل وَجَدْتم شَرْجا؟ قلنا: نعم. قال: أين؟ قلنا: بالصحراء، بين الجِوَاءِ وناظرة. قال: ليس ذلك بشرج، ولكن ذاك رُيَض، وإنما شَرْجٌ بينه وبين مطلع الشمس، في كُفَّة الشجر، عند النَّوْط ذات الطلح.

قال: فوجدت شَرْجاً بعد ذلك حيث نَعَت » (البكري: ج 1، ص 324-325).

6- عين زغر

« عَيْن زُغَر: بضم أوله، وفتح ثانيه، بعده راء مهملة: اختُلف فيها، فقيل: هي بالشام. قال الكلبي: زُغَر: امرأة نُسبت إليها هذه العين. قال حاتم:

سقى الله ربُّ الناس سَحّاً وديمةً   جَنُوب الشَرَاةِ من مَآبَ إلى زُغَرْ

7- الشَّرَاة

أرض من ناحية الشام، ومآب: موضع هناك. وفي حديث عليّ بن أبي طالب ﷺ ، أن زُغَر بالبصرة، قال ابن عباس فيما رُوي عنه: إن علياً لما فرغ من

حرب البصرة خطب الناس، فذكر أحداثاً تكون بالبصرة، ثم قال: وتكون هنات وهنات، ثم تَغْرَقُ الأرضُ التي من حول عين زُغَر؛ قال: ثم نزل، واتبعه الناس، وبيده قضيب، حتى انتهى إلى بركة ضيقة الرأس، فقال، وأومأ بالقضيب إلى فُوَّهتها: هذه زُغَر، هذه زُغر. قال ابن عباس: ففاضت، فقال لها أمير المؤمنين: اسْكُني زُغَر، كُفّي زغر. ما آن أوانُكِ، ولا حانَ حينُكِ. قال: فغارت. وعيْنُ زُغَر هي التي سأل عنها الدجّال في حديث تميم الداريّ؛ قال ابن سهل الأحْول: سميت بزُغر بنت لوط»[1] (البكري (ت487هـ): معجم ما استعجم، ج2، ص 699).

8- البحيرة المنتنة (الحموي: معجم البلدان، ج 1، ص 352)

« البحيرة المنتنة: وهي بحيرة زُغَر، ويقال لها: المقلوبة أيضاً، وهي غربي الأردن قرب أريحا[2]، وهي بحيرة ملعونة لا يُنتفع بها في شيء ولا يتولد فيها حيوان، ورائحتها في غاية النّتن، وقد تهيج في بعض الأعوام فيهلك كل من يقاربها من الحيوان الإنسيّ وغيره حتى تخلو القُرى المجاورة لها زماناً إلى أن يجيئها قوم آخرون لا رغبة لهم في الحياة فيسكنوها؛ وإن وقع في هذه البحيرة شيء لم يُنتفع به كائناً ما كان، فإنها تُفسده حتى الحطب فإن الرياح تُلقيه على ساحلها فيؤخذ ويُشعل فلا تعمل النار فيه، وذكر ابن الفقيه أن الغريق فيها لا يغوص ولكنه لا يزال طافياً حتى يموت » (الحموي: ج 1، ص 352).

---

(1) ما أورده البكري الأندلسي هنا من رواية زغر، وسيدنا علي بن أبي طالب، تبدو نوعاً من الخيال الذي لا يُقْنِع من له عقل. ونرى أنها من خزعبلات الرافضة الشيعة. وهناك خلط آخر لدى البكري عندما اعتبر مؤاب جزءاً من جبال الشراة، وهو أمر غير صحيح. والحقيقة أن مؤاب عاصمتها الكرك، والشراة عاصمتها معان، وأن جبال الطفيلة تفصل بينهما، اي أن الرحالة والجغرافيون المسلمون ذكروا في جنوب الأردن إلى ثلاثة سلاسل جبلية أُطلق اسم كلٍّ منها عليها وعلى ما حولها وهي: مؤاب ثم جِبَال ثم الشراة. أما مدين فتشمل هذه المناطق الثلاثة حتى نهاية الشراة التي تنتهي عند خط يربط تبوك بالبحر الأحمر.

(2) يقول: وهي غربي الأردن قرب أريحا، وذلك يعني أن ضفة الأردن الغربية من الغور هي أردنية، وأن أريحا جزء من الأردن، وليس من أرض أخرى.

9- سدوم (أعلاه، ج 3، ص 200-201)

« سدوم: فعول من السَّدَم، وهو النَّدَمُ مع غَمٍّ، قال أبو منصور: مدينة من مدائن قوم لوط كان قاضيها يقال له سدوم، وقال أبو حاتم في كتاب المزال والمفسد: إنما هو سذوم، بالذال المعجمة، قال: والدال خطأ، قال الأزهري: وهو الصحيح وهو أعجميّ، وقال الشاعر:

كذلك قوم لوط حين أضحوا ... كعصف في سَدُومهم رميم

وهذا يدل على أنه اسم البلد لا اسم القاضي، إلا أن قاضيها يضرب به المثل فيقال: أجور من قاضي سدوم. وذكر الميداني في كتاب الأمثال أن سدوم هي سرمين بلدة من أعمال حلب معروفة عامرة عندهم، وكان من جوره أنه حكم على أنه إذا ارتكبوا الفاحشة مع أحد أخذ منه أربعة دراهم[1]؛ وقد ذكر أمي بن أبي الصلت سدوم فقال:

ثمّ لوط أخو سدوم أتاها ... إذ أتاها برُشدها وهُداها
راوَدوه عن ضيفِه ثمّ قالوا: ... قد نهيناك أن تُقيم قِرَاها
عرضَ الشيخ عند ذاك بنات ... كظباء بأجْرُعٍ تُرْعاها
غضب القوم عند ذاك وقالوا ... أيها الشيخ خُطْبَةٌ نأباها
أجمع القوم أمرهم وعجوز ... خيّب الله سعيها ورجاها
أرسل الله عند ذاك عذاباً ... جعل الأرض سفلها أعلاها
ورماها بحاصب ثمّ طين ... ذي حروف مسوّم إذ رماها

(الحموي: ج 3، ص 201)

(1) أي أن قاضي سدوم حكم لشخص (أ) أن يرتكب فاحشة اللواط بالشخص (ب) لأن (ب) أخذ من (أ) أربعة دراهم.

10- سَدوم: (القزويني (ت 682هـ): آثار البلاد وأخبار العباد، ص 202-203)

قصبة قرى قوم لوط. وهي بين الحجاز والشام. كانت أحسن بلاد الله وأكثرها مياهاً وأشجاراً وحبوباً، والآن عبرة للنظارين. وتسمى الأرض المقلوبة لا زرع ولا ضرع ولا حشيش، وبقيت بقعة سوداء فرشت فيها حجارة، ذكر أنها الحجارة التي أمطرت عليهم وعلى عامتها كالطابع؛ قال أمية بن أبي الصلت:

ثُمّ لُوطٌ أخُو سَدُوم أتاهـا ... إذ أتاهـا برُشْـدِهَا وَهُدَاهَـا
رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ثمّ قالُوا: ... قَدْ نَهَيْنَاكَ أنْ تُقِيمَ قِرَاهَا
عَرَضَ الشّيخُ عِندَ ذاكَ بَناتٍ ... كَظِبَاءٍ بأجْرُعٍ تَرْعَاهَا
غَضِبَ القَوْمُ عِنْدَ ذاكَ وقالُوا ... أيّهَا الشّيخُ خُطْبَةٌ نأبَاهَا!
عَزَمَ القَوْمُ أمْرَهُمْ وعَجُوزٌ ... خَيَّبَ اللهُ سَعْيَهَا ورَجَاهَا
أرْسَلَ اللهُ عِنْدَ ذاكَ عَذاباً ... جَعَلَ الأرْضَ سُفْلَها أعلاهـا
وَرَمَاهَا بحَاصِبٍ ثمّ طِينٍ ... ذِي حُرُوفٍ مُسَوَّمٍ إذ رَمَاهَا

(القزويني: أعلاه، ص 202-203)

11- زُغَر (الحموي): (ت 626هـ)

يقول في كتابه: معجم البلدان:

« زُغَرُ: بوزن زُفَر، وآخره راء مهملة، قال أبو منصور: قال اللحياني زَخَرَتْ دجلة وزَغَرَتْ أي مدّت، وزَغْرُ كل شيء: كثرته والإفراط فيه؛ قال أبو صخر:

بَل قد أتاني ناصحٌ عن كاشح ... بعداوة ظهرتْ، وزَغْر أقاول

كذا نقلته من خطه سواء؛ قال: وزُغَرُ قرية بمشارف الشام؛ وإياها عنى أبو داؤد الإيادي حيث قال:

ككـــتابة الزُّغَـــريّ غشَّـــا هــا مــن الذهــب الدُّلامــص

قال: وقيل زُغَر اسم بنت لوط، ﷺ، نزلت بهذه القرية فسميت باسمها؛ وقال حاتم الطائي:

سـقى الله ربُّ الـناس سـحّاً وديمـةً جـنوب السـراة مـن مـآب إلى زُغَرْ
بـلادَ امـرئ لا يعـرف الـذّمّ بيـته، له المشربُ الصافي ولا يطعم الكدرْ

وجاء ذكر زُغَر في حديث الجسّاسة، وهي دابة في جزائر البحر تتجسّس الأخبار وتأتي بها إلى الدجال وتسمى دابة الأرض، وعينُ زُغَرَ تغور في آخر الزمان، وهي من علامات القيامة؛ روى الشعبي عن فاطمة بنت قيس قالت: خرج علينا رسول الله ﷺ في حرّ الظهيرة فخطبنا وقال: إني لم أجمعكم لرغبة ولا لرهبة ولكن لحديث حدثنيه تميم الداري مَنَعَني سرورُهُ القائلة، حدثني أن نفراً من قومه أقبلوا في البحر فأصابهم ريح عاصف فألجأتهم إلى جزيرة فإذا هم بدابة، قالوا لها: ما أنت؟ قالت: أنا الجسّاسة، قلنا: أخبرينا الخبر، قالت: إن أردتم الخبر فعليكم بهذا الدير فإن فيه رجلاً بالأشواق إليكم، فقال: ما فعلت بُحَيرة طبرية؟ قلنا؟ متدفق بين جوانبها، قال: ما فعلت نخل عَمّان وبَيْسان؟ قلنا: يجتنيها أهلها، قال: فما فعلت عينُ زُغَرَ؟ قلنا: يشرب منها أهلُها، قال: فلو يَبِسَتْ نفذتُ من وثاقي فوطئت بقدمي كل منهل إلا مكة والمدينة؛ وحدثني الثقة أن زغر هذه في طرف البحيرة المنتنة في واد هناك، بينها وبين البيت المقدس ثلاثة أيام، وهي من ناحية الحجاز، ولهم هناك زروع؛ قال ابن عباس، ﷺ: لما هلك قوم لوط مضى لوط، ﷺ، وبناته يريدون الشام فماتت الكبرى من بناته وكان يقال لها ربّة فدُفنت عند عين هناك فسميت باسمها عين ربّة، ثم ماتت بعد ذلك الصغرى وكان اسمها زُغَر فدفنت عند عين زغر، وهذه في واد وَخم

رديء في أشأم بقعة إنما يسكنه أهله لأجل الوطن وقد يهيج فيهم في بعض الأعوام مرض فيُفْنِي كل من فيه أو أكثرهم، فحدثني الوزير الأكرم، أطال الله بقاءه، قال: بلغني أن في بعض الأعوام هاج بهم ذلك حتى أهلك أكثرهم، وكان هناك دار من أعيان منازلهم وفيها جماعة تزيد على العشرة أنْفُسٍ فوقع فيهم الموت واحداً بعد واحد حتى لم يبقَ منهم إلا رجل واحد فرجع يوماً من المقبرة فدخل تلك الدار فاستوحش وحده فجلس على دكة هناك وأفكر ساعة ثم رفع رأسه قِبَل السماء وقال: يا رُبيبي وعزّتك لئن استمررت على هذا لتُفنين العالم في مدة يسيرة ولتقعدن على عرشك وحدك، وقيل: قال لتقعدن على عرشك وحيدك، هكذا قال بالتصغير في ربي ووحدك لأن من عادة تلك البلاد إذا أحبوا شيئاً خاطبوه بالتصغير على سبيل التحنّن والتلطف» (الحموي: ج3، ص142-143).

12- زُغَر (القزويني (ت 682هـ): في كتابه آثار البلاد وأخبار العباد ص 93)[1]

قرية بينها وبين بيت المقدس ثلاثة أيام في طرف البحيرة المنتنة، وزُغَر اسم بنت لوط ﷺ، نزلت بهذه القرية فسميت باسمها، وهي في وادٍ وخم رديّ في أشأم بقعة، يسكنها أهلها بحب الوطن، ويهيج بهم الوباء في بعض الأعوام فيفني جلّهم.

بها عيْنُ زُغَرَ وهي العين التي ذكر أنها تغور في آخر الزمان، وغورها من أشراط الساعة، جاء ذكرها في حديث الجسّاسة؛ قال البشاري: زغر قتّالة

(1) زُغَرْ: قد تكون جاءت من اسم ابنة سيدنا لوط، وليس غريباً، ولا غضاضة. ولكن زُغَر في لهجة الأردنيين القديمة تعني الشيء الغائر كما هو حال الشيء في الجحر العميق الذي يكون مجراه ملتوياً. ويسمى التجويف الذي يجمع مياه المطر في الصخر: الزّاغورة، أي الفجوة الصخرية الوعرة الطبيعية التي تتجمع فيها المياه، ولا يشرب منها إلا الإنسان والهوام الصغيرة القادرة على وضع الرأس داخل الفتحة الضيقة. وفي رأيي أن زُغر تعني أيضاً: عين الماء الغائرة وهو ما ينطبق على هذا النبع، والله أعلم.

للغرباء، من أبطأ عليه ملك الموت فليرحل إليها، فإنه يجده بها قاعداً بالرصد، وأهلها سودان غلاظ ماؤها حميم وهواؤها جحيم، إلا أنها البصرة الصغرى والمتجر المربح، وهي من بقية مدائن قوم لوط، وإنما نجَت لأن أهلها لم يكونوا يأتون بالفاحشة » (القزويني، ص 93).

13- سدوم (الحميري: ق 8 هـ في كتابه: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 308)

« سدوم: مدينة من مدائن قوم لوط، وهي وما حولها المؤتفكات وكانت خمس قريات، وسدوم هي القرية العظمى؛ وهي كلها خراب لا أنيس بها، وإلى أهلها أرسل الله سبحانه نبيه لوطاً ﷺ ، والحجارة الموسومة موجودة فيها يراها المسافر سوداء براقة. وكان في كل قرية منها مائة ألف، ويضرب المثل جور أحكام قاضي سدوم، وهي بأرض الشام.

وسدوم هذه القرية التي أُمْطِرَتْ مَطَرُ السَّوْءِ المذكور في سورة الفرقان الآية: 40 لأنها رجمت. وقصة قوم لوط ﷺ وزوجه في القُرى، وكانوا يعملون الخبائث كما قال الله تعالى وفيهم قالت الملائكة لإبراهيم ﷺ ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ [الحجر: 58] وقالوا للوط ﷺ : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ [هود: 81] قالوا: أدْخَلَ جبريل ﷺ جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوطن فقلعها وصعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمير ونباح الكلاب وصراخ الديكة، ثم قلبها دفعة واحدة وضرب بها على الأرض وأمطرت عليهم حجارة من سجيل. وكانت هذه القرى بين المدينة والشام ومنها صبعة وصعرة وعمرة وسدوم ودوما وهي المدينة العظمى، وقال بعض المفسرين: سدوم هي القرية التي كانت تعمل الخبائث، وقد قال إنه بذال المعجمة، وسدوم موضع بالشام كان قاضيه يضاف إلى الجور

فيقال في المثل: أجور من قاضي سدوم، ويقال أيضاً أجور من سدوم، قال عمرو بن دراك العبدي:

وإنـي إن قَطَعْـتُ جِـبَالَ قيـس وحـالفت المـزون عـلى تميـم
لأعظـم فجـرةً مـن آبـي رغـال وأجـور في الحكومـة من سدوم

وكانت لقوم لوط ﷺ مدينتان: سدوم وعامورا، وهما أعظم قراهم أهلكهما الله فيما أهلك منها، وقيل كان سدوم ملكاً وبه سميت المدينة، وكان من أجور الناس » (الحميري: ص 308).

14- زعورا:

«مدينة من مدائن قوم لوط. قالوا: لم ينج من العذاب سواها لأنها كانت مختصة بلوط ﷺ وهلك ما عداها كما قال تعالى: ﴿ جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [هود: 82]، وبقية خبرهم يرد في ذكر سدوم» (الحميري: ص 294).

15- بحر لوط (الموسوعة الإسلامية: ج 3، ص **285-386**)

« بحر لوط»: الاسم الذي يطلقه العرب اليوم عادة على البحر الميت، ويسميه جغرافيو العرب في الغالب البحيرة الميتة أو البحيرة المنتنة، أو البحيرة المقلوبة لأنها في الأرض المقلوبة، وفي أرض قوم لوط. كما يسمونه أيضاً بحيرة صوغر (زغر) (سُغَرْ) وبحيرة سدوم وكمرّة (قُمْرَة). ويظهر أن ناصري خسرو الفارسي الذي عاش في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كان أول جغرافي عرف اسم بحيرة لوط.

ويتصل اسم بحر لوط بالقصة المذكورة الإصحاح 19 من سفر التكوين، والتي ورد ذكرها كثيراً في القرآن الكريم دون أن يذكر اسم البحيرة نفسها.

والنكبات التي يتحدث عنها سفر التكوين الإصحاح 19، تذكرنا بها الآن أسماء بعض الأماكن القريبة من البحر الميت مثل جبل سدوم (آسدم) والأساطير الشائعة بين الناس هناك. وهي من غير شك تعتمد على ما ورد في الكتب أكثر من اعتمادها على الأساطير الشعبية.

16- جغرافية بحر لوط

يمتد البحر الميت من الجنوب إلى الشمال بين أرض صحراء يهوذا الوعرة الجرداء ومنطقة منبت الجبلية. ويبلغ طوله 76 كيلومتراً ومتوسط عرضه نحو 12 كيلومتراً. وهو منخفض عن سطح البحر بنحو 394 متراً؛ أي أن موقعه بين خطي عرض 31.5 و °31.45 شمالاً وعلى خط طول °35.30 شرقي جرينتش. وهو بحر راكد، وعمقه في أبعد أغواره 793 متراً. ويمتد من شاطئه الشرقي لسان يفصل الجزء الجنوبي من البحر وهو جزء ضئيل، عن الحوض الشمالي. وعلى الشاطئين الغربي والشرقي جبال قائمة يبلغ ارتفاعها أكثر من 1000 متر عن سطح البحر. ويمتد الانحدار إلى الشمال حتى مدخل الأردن. أما في الجنوب فترتفع الأرض تدريجياً في الغور والعربة حيث ينبغي البحث عند الشاطئ الشرقي للسبخة عن مدينة بنتبول (سدوم) Pentapole التي ورد ذكرها في الإصحاحين الرابع عشر والتاسع عشر من سفر التكوين. والملح موجود في ماء البحر بكثافة غير مألوفة جعلت الماء غير صالح للاستعمال في حاجات الحياة بل وجعلته غير صالح للملاحة أيضاً. وتوجد واحات مأهولة يكاد يكون لها خصائص منطقة المدارين في بعض نواحي الشاطئ لا غير.

17- طبقات الأرض « الجيولوجيا »

يغطي البحر الميت الجزء الأكثر انخفاضاً من المنحدر الذي تكون في سوريا في آخر العصر الجيولوجي الثالث. وفي أزمنة الأمطار التي هطلت في عصر

الطوفان وما عقبها من جفاف. ملأت السيول العظيمة الجزء الأكبر من وادي الأردن وجانباً من وادي العربة فجعلت فيهما بحيرة داخلية لم تتصل بالبحر الأحمر قط. ولما كانت مياه هذه البحيرة تتبخر دون أن تتصل بغيرها أصبحت مياهها التي جاءت إليها من منابع غنية بالمواد المعدنية مثقلة بعناصر من الملح عجيبة التكوين.

وفي عصر الجفاف الذي حدث في الأزمنة التاريخية انكمش البحر إلى القاع الذي يشغله الآن. على أنه قد لوحظ في القرن التاسع عشر أن مستوى سطح البحر يرتفع في بطء. وقد أثرت حركات الزلازل في الجزء المحيط بالبحر حتى في العصر الحاضر وكانت إحدى هذه الحركات التي حدثت أخيراً السبب في تكوين الحوض الجنوبي.

واستخرج الأسفلت من البحر الميت في العصور القديمة (لاحظ اسم بحيرة الأسفلت Lacus asphaltitis)، ويظهر أنه كان له شأن كبير في العصور الوسطى أيضاً. وكان الأسفلت يستعمل للوقاية من الحشرات في الكروم كما استعمل أيضاً في أغراض طبية كثيرة، ونسب إلى مياه البحر نفسها قوة على شفاء الأمراض.

18 غور الصافي

وكانت المحصولات الكثيرة التي تنتجها واحة زغر القريبة من مدينة « غور الصافية » الموجودة الآن تنقل عبر البحر الميت، وقد مخرت بابه أيضاً سفن الفرنج الصليبيين. ومنذ عهد الصليبيين تلاشت الأهمية السياسية البحر الميت والبلاد المحيطة به.

المصادر:

1- المكتبة الجغرافية العربية، ج1، ص64، ج2، ص123 وما بعدها، ج3، ص178، 184 وما بعدها، ج5، ص118، ج6، ص79، ص329، ج8، ص73 وما بعدها.

2- المسعودي: مروج الذهب، طبعة باربيه ده مينار، ج1، ص96.
3- الإدريسي: Zeitshcr. D. Deuteh pal-Vereins ، ج8، ص3.
4- ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص516، ج2، ص934.
5- الدمشقي، طبعة مهرن، ص108.
6- أبو الفداء، طبعة رينو Reinaud، ص228.
7- ابن البيطار: (ترجمة Sontheimer، شتتجارت 1842) ج2، ص309 وما بعدها.
8- ناصري خسرو، طبعة شيفر، ص17 وما بعدها. وقد جمع المصادر الإسلامية وترجمها G. Le Strnage ونشرها في كتابه Palestine under the Moslems ص64-67 وص286-292.
9- وقد جمع المعلومات السابقة Meusberger واستخدمها في كتابه Das Tote Meer، طبعة بركس 1907-1909. [هارتمان R. Hartmann]

-52-

الحفرة الانهدامية الشمالية

1- أريحا (الياكوتي ص 16 أ)

« أريحا: مدينة بقرب بيت المقدس من أعمال أردن بالغور ذات نخل وموز وسكر كثير وهي قرية الجبارين التي أمر الله تعالى موسى عليه السلام بدخولها فقال موسى لبني إسرائيل: ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة: 21] ، يعني أرض الشام (الياكوتي: ص 16 أ).

2- البحر الميت: (ابن حوقل، ت 367هـ)

يقول في كتابه: صورة الأرض:

« وأما البحيرة الميتة: فهي من الغور في صدر الشأم بقرب زغر وإنما تسمى الميتة لأنه لا شيء فيها من الحيوان إلا شيء تقذف به يُعرف بالحمرية وأهل زغر بناحية يُلَقّحون كرومهم وكروم فلسطين كما تُلَقّحُ النخل بالطلع الذكَر وكما

يُلَقِّح أهل المغرب تينهم بذكارهم[1]، وزغر مدينة حارة جرومية متصل بالبادية صالحة الخيرات وبها من عمل النيل والتجارة به وفيه ما لا يقصر عما بكابل من صنّاعه وعُمّاله غير أنه يقصر عن صباغ نيل كابل، وبزغر بسر يقال له الانقلا وليس بالعراق [55 ظ] ولا بمكان من الأرض أعذب ولا أحسن من منظره لأنه كالزعفران فلم يغادر منه شيئاً ويكون في أربعة من رطل، وديار قوم لوط وهي الأرض المعروفة بالملعونة وليس بها زرع ولا ضرع ولا حشيش [ولا نبات] وهي بقعة سوداء قد افترشتها حجارة متقاربة في الكبر ويروى أنها الحجارة المسومة التي رُمي به قوم لوط وعلى جميع تلك الحجارة كالطابع من وجهيها وهي شيء كقواليب الجبن المستديرة هيأتها وخَلْقُها فلا يرى فيها ما يخالف شيئاً من أشكالها[2].

ومعان: مدينة صغيرة على شفير البادية أيضاً سكانها بنو أمية وفيهم لبني السبيل مرفق ومغوثة، وحوران والبثنية رستاقان عظيمان من جند دمشق

---

(1) هذه إشارة هامة، جاء على ذكرها العديد من الرحالة والجغرافيين المسلمين، وهي استخدام القار «الحريّة» في تلقيح الكروم، ولست أدري إن كان المقصود تلقيحاً حقيقياً، أم أنه تعقيم الأشجار من الجراثيم؟! وذلك بقتل البويضات، والحيلولة دون تكاثرها، مما يعطي ثمار الشجرة جودة وتعقيماً. وفي الوقت الحاضر يتم رش الشجر قبل أن يورق بزيت شتوي خاص لأداء هذه المهمات.

(2) نجد هنا أن منطقة البحر الميت ثلاث مناطق:

أ- البحر الميت وما فهي من الخيرات رغم تعذر وجود السمك والحيوانات الحية الأخرى، ومع هذا فإن ماءه يشتمل على عناصر طبية، وشفائية، كما أن القار فيه كان يُستخدم للتحنيط وغيره، ويستخدم لتلقيح الكروم.

ب- منطقة اليابسة من بقايا أراضي قوم لوط، وهي مسخوطة لا زرع فيها ولا ضرع، لا زالت ملعونة، ليس فيها ما يعين الحياة، أو يؤدي إلى الحياة، وهي أرض المؤتفكات.

ج- القسم الذي نجاه الله من العذاب وهي صغر والصافية، حيث تنتج النيل الجيد، والرُطَب المسمى الأنقلاء، فضلاً عن الخضار والفواكه والتي لا زالت إلى الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين)

مزارعها مباخس ويتصل أعمالها بحدود نهر بين الذي عند البلقاء وعمان الذي جاء في الخبر أنه نهر من رَكيّ الحوض وأنه ما بين بُصرى وعمان » (ابن حوقل: ص 184-185).

3- أريحا (المقدسي): (ت 380هـ)

يقول في كتابه: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم:

« أريحا: مدينة الجبارين وبها الباب الذي ذكره الله لبني إسرائيل، وهي معدن النيل والنخيل رستاقها الغور وزروعهم تسقى من العيون شديدة الحر؛ معدن الحيّات والعقارب (...) كثيرة البراغيث، غير أن ماءها أخف ماء في الإسلام كثيرة الموز والأرطاب والريحان » (المقدسي: ص 174-175).

« أرْيَح قرية بالشام، وهي أريحا، سميت باريحاء بن لَمَك بن أرْفَخْشَدَ بن سام بن نوح، قال صخر الغيّ، وذكر سَيْفا:

فَـلَيْتُ عنه سُيُوفَ أرْيَحَ حتَّى بابكفّي ولم أكَدْ أجِدُ

أراد: باء، فقصر للضرورة. وروى السُكّريّ: « إذا بَا بكفّى ». وربما قالوا: أريحاء، فإذا نسبوا قالوا: أريحيٌّ لا غير، وانظره في رسم حاء.

4- أريحا: (القزويني (ت845هـ): ص 142-143)

يقول في كتابه: السلوك لمعرفة دول الملوك:

« مدينة بقرب بيت المقدس من أعمال الأردن بالغور. ذات نخل وموز وسكر كثير، وهي قرية الجبارين التي أمر الله موسى ﷺ بدخولها، فقال موسى لبني إسرائيل: يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، يعني أرض الشام، فخرج موسى من مصر بستمائة ألف مقاتل عازماً للشام، فلما وصلوا

إلى البرية التي بين مصر والشام، بعث موسى اثني عشر نقيباً من كل سبط واحداً رسولاً إلى الجبارين، ليعرفوا حالهم، فلما قربوا من أريحا تلقاهم رجل من العمالقة، سألهم عن حالهم فقالوا: إنا رسل موسى رسول الله إليكم. فجعلهم في كمّه كما يجعل أحدنا في كمّه العصافير، وذهب بهم إلى ملك العمالقة ونفضهم بين يديه، وقال: هؤلاء الذين يريدون قتالنا ! أتأذن لي أن أطأهم بقدمي أفسّخهم؟ فقال الملك: لا، اتركهم حتى يرجعوا إلى قومهم يعرّفونهم حالنا وقوّتنا وضعفهم[1].

فرجع النقباء وذكروا للقوم ما شاهدوا، فامتنع القوم عن دخول الشام وقالوا: إن فيها قوماً جبّارين. وكان من النقباء يوشع بن نون ابن عم موسى وكالب بن يوفنّا زوج أخت موسى، قالا: يا قوم ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون! وجد موسى وهارون جدّاً عظيماً، فقالوا: إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. فحبسهم الله تعالى في التيه أربعين سنة فماتوا كلهم سوى يوشع وكالب، وأوحى الله تعالى إلى يوشع فدخل الشام بأولاد الممتنعين وفتحها، فأمرهم الله تعالى أن يدخلوا مدينة أريحا سُجّداً لله تعالى شكراً قائلين: حطّه! أي سؤالنا حطّ ذنوبنا. وكانوا يدخلونها على ستاهم قائلين حنطة فسخط الله عليهم ورماهم

(1) هذه رواية لا تتفق مع عقل، ذلك أن كلمة الجبارين التي وردت في القرآن لوصف أهل غور الأردن (أريحا) أوجدت لدى الكُتّاب خيالاً عجيباً في تصور أناس عمالقة بالطول والجسم والعرض، بما يزيد عن سائر البشر الذين ألفناهم وعرفناهم.
وفي رأينا، أن ذلك لا يتفق مع العقل والتمحيص، وأن كلمة جبارين هي صفة لجبروت الناس من حيث القوة والبطش وعدم الكبر، والشعور بالجبروت على سائر الناس من حولهم، وربما على بعضهم بعضاً. فالجبارين هم أناس كسائر الناس من حيث الجسم، ولكنهم يمتازون بالتكبّر والقوة والعناد والشجاعة، وهذه كلها تعني: الجبارين، ومفردها جبار.

بالطاعون، فهلك منهم آلاف مؤلفة وذلك قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة: 59] [1] (القزويني (ت 845هـ): ص 142-143).

5- أريحا:

مدينة من أجلّ بلاد الغور بالشام، وفي الخبر أن عمر ﷺ أجلى اليهود إلى أريحا وكانوا طلبوا إلى النبي ﷺ حين غلب عليهم أن يقرّهم على أن لهم نصف الثمر، فقال: «نقركم متى شئنا»، فبقوا كذلك خلافة أبي بكر ﷺ وصدراً من خلافة عمر ﷺ ثم أجلاهم إلى أريحا، ذكره مسلم ابن الحجاج» (الحميري (ق8 هـ): ص 25).

6- بيسان:

وقد أوردها ابن خرداذبة في كتابه ضمن « كورة الأردن ».

« كورة طبرية، كورة السامرة، كورة بيسان، كورة فَحْل ... » (ابن خرداذبة (ت 280هـ): ص 78).

الجولان: وقد ورد ذكرها في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة على أنها من كورة دمشق وأقاليمها. « ... وكورة حوْران، وكورة الجوْلان، وظاهر البلقاء، ... » (ابن خرداذبة: ص 77).

(1) حيث كانوا في أريحا على ارض الأردن، فإن العذاب حلّ بمن ظلم فقط، وكتب الله السلامة للبقية. وهذه من كرامات ومميزات الأرض الأردنية أن العذاب لا يصيب من الناس إلا من كفر أو ظلم، ولا يصيب من الأرض إلا ما وقعت عليها الخطيئة. وهنا في هذه الآية الكريمة يقول الله سبحانه (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون)، وبذلك نجد العذاب اقتصر على من ارتكب الخطيئة فقط.

« قال حسان بن ثابت: (ابن خرداذبة: ص 78)

قَـد عَفَـا جاسِـمٌ إلى بَيْـتِ راسٍ   فـالجَوَابي فحـارِثُ الجَـوْلانِ »

7- بيسـان

وهي أيضاً من مدن الأردن التي فتحها القائد المسلم شرحبيل بن حسنة.

« ... وفتح شرحبيل جميع مدن الأردن وحصونها على هذا الصلح فتحاً يسيراً بغير قتال ففتح بيسان، وفتح سوسية، وفتح أفيق، وجرش، وبيت رأس، وقَدَسْ، والجولان... » (البلاذري: ص 116).

« نَـعْمَان[1]: بفتح أوّله، وإسكان ثانيه: وادي عَرَفَة [دُونها] إلى مِنًى، وهو كثير الأراك، وقد تقدم ذكره في رسم نيسان، قال ابن مُقْبل:

وجيـداً كجيـد الأدَمِ الفَرْد رَاعَهُ   بـنَعْمان حِذْسٌ من أنيسٍ فأتْلَعا

أي أتوا عرفات، وقال ابن أبي ربيعة:

تَخَيَّـرْتُ مـن نَعْمَـان عُودَ أراكةٍ   لِهِـنْدٍ ولكـن مَـنْ يُبَـلِّغه هِـنْدَا

وقال النُّمَيْرِيّ:

تَضَـوعَ مِسكاً بطنُ نعمان أن مَشَتْ   بـه زَيْـنَبُ في نِسْـوَةٍ خَفِـرَاتِ

وقال جرير:

---

(1) كان الاسم الأول بيسان، ولكن رسول الله ﷺ غيره إلى اسم نَـعْمان فغير الله الماء من مالح إلى عذب. والنصّة واردة في السياق تحت عنوان بيسـان، وأما نَـعْمان في في جزيرة العرب، وأما بيسان فهي في أرض الأردن في ناحية الغور قرب بحيرة طبرية.

لنا فَارِطًا حَوْضِ الرسول وحَوْضِنَا بِـنَعْمَان والأشـهادُ ليسـوا بِـغُيَّبِ

أراد حياض عبدالله بن عامر بن كُرَيْز بعرفات، وهو أول من بنى بها حِياضاً، وسقى الناس؛ وكانوا قبل ذلك يحملون الماء من منًى يتروّونه إلى عرفات، وبذلك سموه يوم التَّرْوية.

ونعمان على مثل لفظه: موضع بالشام أيضاً، وإياه أراد الأخطل بقوله:

وَرَمَّـتِ الـريحُ بالـبُهْمَى جَحَافـلَهُ واجـتمع الفيضُ من نُعمان والخَضَرُ

وقال الخليل: موضع بالحاز وبالعراق أيضاً (البكري: ج 4، ص 1316).

8- بيسان (احسن التقسيم / المقدسي: ص **162**)

« بيسان[1]: على النهر كثيرة النخيل وإزاء فلسطين، والأردن منها غزيرة المياه، رحبة، إلا أن ماءها ثقيل. اللجون مدينة على رأس حدّ فلسطين في الجبال بها ماءٌ جارٍ رحبة نزيهة » (المقدسي: ص 162).

بَيْسان (معجم ما استعجم / البكري: ج 1، ص 292-293)

« بَيْسان: بفتح أوله، وبالسين المهملة: موضعان؛ أحدهما بالشام، تُنسب إليه الخَمْرُ الطيبة، قال الأخطل:

---

(1) الأصل في كلمة بيسان: أنها مأخوذة من كلمة باشان، وهي المملكة الأمورية الأردنية العربية القديمة التي كانت عاصمتها أدرعي (درعا/ ذرعات) وتشمل حوران وشمال الأردن والجولان وطبرية وبحيرتها، والجانب الغربي لنهر الأردن بعد خروجه من طبرية (أي بيسان). وربما تكون مأخوذة من كلمتين بالأصل باشان: با - شأن، لتكون با: تعني ذات أو بيت أو مركز أو ذروة ولتكون شأن: بمعناها العربي: أي الشأن العظيم السامي المرتفع، وتصبح بعدها اسم المملكة: بيت الشأن السامي، ثم جرى تحريف الاسم لتصبح بيت شئان عبرياً وبيسان عربياً، ولا فارق في المعنى رغم تباين الألفاظ والله أعلم.

وجــاءوا ببَيْسَــانِيَّةٍ هــي بَعْدَمــا يَعُـلُّ بهـا السَّـاقِي أَلَـذُّ وأسْـهَلُ

والثاني بالحجاز، قال أبو دواد:

نخـلات مـن نخْـل بَيْسـان أيْـنَعْـ ـــنَ جميعـاً ونَبْــتُهُنَّ تُــؤَامُ

وقال نُصَيْب:

سَقَى أهلَ مَثْوَانا ببَيْسان وابلُ الـ ـــرَّبيع وصَــوْبُ الديمَـة المتهـلّلُ

رُوي عن رجاء بن حيْوَة أنه قال لغزوة بن رُديم: اذكر لي رجلين من صالحي أهل بيسان، فبلغني أن الله اختصهم برجلين من الأبدال، لا ينقص منهم رجل إلا أبدل الله مكانه رجلاً. لا تذكره لي مُتماوتاً ولا طَعّاناً على الأئمة، فإنه لا يكون منهم الأبدال.

وذكر الزبير أن رسول الله ﷺ مرّ بماءٍ يقال له بَيْسان، في غزوة ذي قَرَد، فسأل عنه، فقيل: اسمه يا رسول الله بَيْسان، وهو ملح. فقال: بل هو نعمان، وهو طيب. فغيّر رسول الله ﷺ اسمه/ وغيَّر الله الماء. فاشتراه طلحة بن عبيد الله، ثم تَصَدَّق به، فأُخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: ما أنت يا طلحة إلا فياض؛ فسُمي بذلك الفيّاض » (البكري: ج 1 ، ص 292).

9- بَيْسَانْ (معجم البلدان / الحموي: ج 1 ، ص 527)

« بيسان: بالفتح ثم السكون، وسين المهملة، ونون: مدينة بالأردن بالغور الشامي، ويقال هي لسان الأرض، وهي بين حوران وفلسطين، وبها عين الفلوس يقال إنها من الجنة، وهي عين فيها مُلوحة يسيرة، جاء ذكرها في حديث الجساسة، وقد ذكر حديث الجسّاسة بطوله في طيبة، وتوصف بكثرة النخل، وقد رأيتها مراراً فلم أرَ فيها غير نخلتين حائلتين، وهو من علامات خروج الدّجال،

وهي بلدة وبئة حارة أهلها سُمْرُ اللون جُعْدُ الشعور لشدة الحر الذي عندهم[1]، وإليها فيما أحسب ينسب الخمر؛ قالت ليلى الأخيلية في توبة:

جــزَى الله خــيراً، والجــزاءُ بكفِّــه، فـتىً مـن عُقَيْـلٍ سـاد غير مكلَّفِ
فَـتىً كـانت الدُّنيـا تهـونُ بأسْـرِها عـليه، ولم يـنفكَّ جَـمَّ التصـرُّفِ
يــنال عـــليّات الأمـــور بهُونَـــة، إذا هـي أعيَـت كلَّ خِرْقٍ مشرَّفِ
هـو الـذَّوْبُ، أو أرْيُ الضحالي، شُبْتُه بدِرْياقَـةٍ مـن خَمـرِ بيسـانَ قَرْقَفِ

وينسب إليها جماعة، منهم: سارية البيساني، وعبدالوارث بن الحسن بن عمر القُرَشي يُعرف بالترجمان البيساني، قدم دمشق وسمع بها أبا أيوب سليمان بن عبدالرحمن وهشام بن عمّار، ثم قدمها وحدث بها عن أبي عبدالرحمن عبدالله بن يزيد المقري وأبي حازم عبدالغفار بن الحسن وإسحاق بن بشر الكاهلي وإسماعيل بن أُوَيْس وعطاء بن همّام الكندي ومحمد بن المبارك الصوري وآدم بن أبي إياس ومحمد بن يوسف الفريابي ويحيى بن حبيب ويحيى ابن صالح الوُحاظي وجماعة، روى عنه أبو الدَّحداح وأبو العباس بن مَلاّس وإبراهيم بن عبدالرحمن بن مروان ومحمد بن عثمان بن جملة الأنصاري وعامر ابن خُزَيْم العُقَيْلي؛ وإليها أيضاً ينسب القاضي الفاضل أبو علي عبدالرحيم بن علي البيساني وزير الملك الناصر يوسف بن أيوب والمُتحكّم في دولته وصاحب البلاغة والإنشاء التي أعجزت كل بليغ، وفاق بفصاحته وبراعته المتقدمين

(1) بيسان كانت مشهورة بالنخل، إلا أن الحموي في القرن السابع الهجري المتوفى عام 626 هـ لم يرى فيها سوى نخلتين حائلتين، أي لم تُثمرا بسبب عدم تلقيحهما، وذلك يبيّن خراب حضائر النخل، وذلك لقلة السكان في تلك الفترة، حيث يصفها أنها: وبئة حارّة، مما يؤدي إلى كسل أهلها. ثم يصف من كان أو بقي فيها من أهلها أنهم: سُمْر السَّحنة، جُعْدَ الشَعر، وذلك لشدة الحرّ الذي عندهم. كما كانت مشهورة بإنتاج الخمر، ويسمى بَيْسَانَة.

والمتأخرين، مات بمصر سنة 596 هـ. وبيسان أيضاً: موضع في جهة خيبر من المدينة؛ وإياه أراد كُثيِّر بقوله لأنها بلاده:

فقُلْتُ ولم أملِكْ سوابقَ عَبْرَةٍ: سَقَى آلَ بَيْسان الدِّجانُ المواضِبُ

وعن أبي منصور في الحديث: قال رسول الله ﷺ في غزاة قَرَد على ماءٍ يقال له بيسان فسأل عن اسمه فقالوا: يا رسول الله اسمه بيْسان وهو ملح، فقال، ﷺ: بل هو نَعْمان وهو طيب، فغيّر رسول الله ﷺ الاسم وغيّر الله الماء، فاشتراه طلحة وتصدّق به؛ قال الزبير: وبيْسانُ أيضاً موضع معروف بأرض اليمامة[1]، والذي أراه أن هذا الموضع هو الموصوف بكثرة النخل لأنهم إنما احتجوا على كثرة نخل بيسان بقول أبي دُواد الإيادي:

نَخلاَت من نَخْل بيْسان أينَعْـ ـنَ جميعاً ونَبْتُهُنَّ تُؤَامُ

(الحموي: ج 1، ص 527)

10- بيسان (الروض المعطار / الحميري: ص 119-120)

« بيسان[2]: مدينة بالشام صغيرة جداً وتنسب الخمر الطيبة إليها، قال الأخطل[3]:

وجاءوا ببيسانية هي بعدما يُعلُّ بها الساقي ألذُّ وأسهلُ

---

(1) من هذا النص الذي أورده الحموي نجد موقعين آخرين يحملان اسم بيسان، وهم في داخل جزيرة العرب، الأول الذي غيّره رسول الله ﷺ من بَيْسان إلى نَعْمان، وهي الموصوفة قبل قليل في هذا السياق. وأما الموقع الآخر فهو بَيْسَان اليمامة وهو معروف بأرض اليمامة. وأما الثالث وهو مدر حديثنا فهو بَيْسان الأردن.

(2) معجم ما استعجم 292:1، ياقوت (بيسان.

(3) ديوان الأخطل: 3.

ويقال إن الموضع الذي قتل فيه جالوت كان بيسان من أرض الغور من بلاد الأردن. ومنها القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي البيساني كاتب صلاح الدين يوسف بن أيوب والغالب عليه، ذو الترسل البليغ. وينبت ببيسان السامان الذي تعمل منه الحصر السامانية لا يوجد نباته إلا بها وليس في سائر الشام شيء منه. وقال عطية بن قيس الكلابي: وافقني زرعة بن إبراهيم اليهودي فنزلنا ببيسان فقال: ألا أريك شيئاً حسناً، فانحدر إلى البحر فأخذ ضفدعاً، فجعل في عنقها شعرة من ذنب فرس، فحانت مني التفاتة فإذا هو خنزير، في عنقه حبل؛ ثم مشى، فدخل به بيسان، فباعه من بعض الأنباط بخمسة دراهم، ثم ارتحلنا، فسرنا غير بعيد، فإذا الأنباط يتعادون في أثرنا، فقلت: قد أتاك القوم، قال: فأقبل منهم رجل جسيم، فرفع يده فلكمه في أصل لحيته، فصرعه عن الدابة، فإذا برأسه معلق بجلدة من رقبته، وأوداجُه تشخب دماً. فقلت: قتلتم الرجل. فمضى القوم يتعادون هاربين. فقال لي الرأس: انظر، مرّوا؟ فقلت: نعم، قال: انظر، أمعنوا؟ فذهبت أنظر إليهم ثم التفتّ فإذا هو جالس ليس به بليّة » (الحميري: ص 119-120).

11- بيسان (الجغرافيا / المغربي: ص 152)

« وما بين هذا الغور والساحل غور بيسان ».

« قال ياقوت مدينة بالأردن بالغور الشامي هي لسان الأرض بين حوران وفلسطين وبها عين الجالود وهي عين فيها ملوحة يسيرة وبيسان أيضاً موقع معروف بأرض اليمامة وأيضاً من قرى مرو الشاهجان » (المغربي: ص 152).

12- ريحاء (الموسوعة الإسلامية)

1- عرف العرب مدينة Jericho الواردة في التوراة باسم ريحاء أو أريحا (Clermont Ganneau في Journal Asiatique 1877 م ، ج 1، ص 498). وهي مدينة على

مسيرة اثني عشر ميلاً شرقي بيت المقدس، ألحقت حيناً بجند فلسطين (ياقوت: المعجم، ج 3، ص 913) وحيناً بناحية البلقاء (اليعقوبي: المكتبة الجغرافية العربية، ج 7، ص 113). وعلى أنها كانت تعرف في بعض الأحيان بقصبة ولاية الأردن أو الغور، وهو وادي الأردن العريض المنخفض (نهر الأردن) الذي كانت ريحاء على مسيرة اثني عشر ميلاً منه (ياقوت، ج 1، ص 227). وكان ينبت في الأرض المحيطة بهذه المدينة نباتات النواحي شبه الاستوائية بالنظر إلى جوها الرطب الحار ووفرة المياه في حقولها. ومن محصولاتها التي عُرف بعضه من قبل في العصور القديمة البلح والموز والأزهار ذات الأريج (أي الرائحة الزكية) والنيلة (وكانت تستحضر من نبات الوصمة) وقصب السكر، وله فضل على سائر سكر الغور. وتقوم على مقربة منها العيون الكبريتية الوحيدة في فلسطين (ابو الفداء، طبعة Reinaud ص 236). على أنه كانت تكثر فيها الحيات والعقارب والبراغيث. وكان يصنع من لحم هذه الحيات المعروف بالترياقية ترياق سمي « ترياق بيت المقدس ».

وأريحا في القرآن هي مدينة الجبارين الذين أسرهم يوشع[1]. ويشار فيها إلى قبر موسى وإلى المكان الذي يقول المسيحيون إن مخلصهم عمّد فيه. أما المؤسس الأول للمدينة، وهو أريحا، فيقال إنه حفيد أرفخشذ بن نوح. وكانت أريحا مدينة زاهرة بصفة خاصة أيام الحروب الصليبية، ثم بدأت في الاضمحلال، وأصبحت أطلالاً في القرن الثاني عشر. وتشغل مدينة أريحا الحديثة أو القلت موقع المدينة التي كانت قائمة إبان هذه الحروب. وهي منخفضة عن سطح البحر الأبيض بما يقرب من 800 قدم.

---

(1) يقول العلامة محمد علي في تعليقه على ترجمته للقرآن الكريم عند الآية 58 من سورة البقرة: إن من المحتمل أن تكون المدينة المقصودة هي « أريحا » في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ [البقرة: 58].

المصادر:

انظر عن المدينة القديمة التي كشفها ما بين عامي 1907 و 1909 سلن Sellin ثم أعاد كشفها كارستانك Garstang (في الشمال الغربي من أريحا الحديثة بالقرب من عين السلطان) وعن المدينة القديمة هيركوس:

1- E. Sellin & Jerico die egelnisse der: waltzingger Ausgrabungen, XXII, Wiss. Veroff der, D. O.G. 1913

2- C.F. Lehmann ج 14، Klio 1914 في Jericho: Haupt

3- J. Garstang: The Date في مجلة of the Destruction of Jericho Palestine Exploration Fund, Quarterly, Statement ص 18، 1930.

4- Wissowa-Beer: Pauly في Jercho مادة ج 9 ، عمود 922-928 Real-Encycl .

5- P. Thomsen مادة Jericho في Reallexickon d. Vorgesch ج 6، 1930، ص 153-157.

6- C. Watzinger: Zur Chronologie der Schichten von Zeitschr. Der Deutsch في مجلة Jericho Morgenl, Gesells ، ج5، 1926، ص 131-136.

7- Zeitschr. Der deutsch. Morgenl. Gesells ج 5، 1926، ص 131-136.

8- W.J. Phythian: Adams في المجلة المذكورة آنفاً، ص 34-47.

9- أما عن ريحاء العربية فانظر الاصطخري في المكتبة الجغرافية العربية، ج 1، ص 56-58.

10- ابن حوقل، المكتبة الجغرافية العربية، ج 2، ص 111-113.

11- المقدسي: المكتبة الجغرافية العربية، ج 3، ص 179 وما بعدها.

12- اليعقوبي: تاريخ، طبعة هوتسما، ص 113.

13- ياقوت: المعجم، طبعة فستنفلد، ج 1، ص 200، 227؛ ج 2، ص 884؛ ج 3، ص 823، 913.

14- صفي الدين: مراصد الاطلاع، طبعة جوينبل، ج1، ص 52، 496؛ ج2، ص 322، 362.

15- الإدريسي: طبعة Gilameister في Zeitshcrift des Deutschen Palostinavereins ج 3، ص 3.

16- أبو الفداء، طبعة رينو، ص 48، 236.

17- Palestine: Guyle Strnage under the Moslems لندن، 1890، ص 15، 18، 28، 32، 53، 288، 381، 396 وما بعدها.

2- بليدة من نواحي حلب يقول ياقوت إنها ذات بساتين وأشجار وأنهار، وهي « في طرف جبل لبنان ». وقد كان العرب لا يقصدون بهذا المصطلح جبل لبنان فحسب بل كانوا يقصدون به أيضاً امتداده حتى يبلغ نهر العاصي (sur le Notes: Lammens ؛6 ج2، ص 6؛ : Liban, de la Faculte Orientale de Beyrouth Melanges ج 1، 1906 ، ص 271) على أننا نلاحظ أن جعل المصطلح في الحالة التي نحن بصددها يشمل المرتفعات الواقعة إلى الشرق من نهر العاصي خطأ لا شك فيه. ذلك أن الأمر على عكس ما ذكر، لأن ريحاء تقع على الحافة الشمالية لجبل بني عُلَيم (ابن الشحنة، بيروت، ص 102، 130). وهو جبل أربعين الحديث الذي يعد جزءاً من جبل ريحاء أو جبل الزاوية (انظر خريطة جبل ريحاء او جبل الزاوية التي رسمها روبرت كاريت Rob. Garrett ونوريس F.A Norris في Public of the Princeton Univ. Arch. Exp. To Syria ، المجلد 2، قسم ب، ج 3، 1909).

وقد ذهب هارتمان M. Hartmann إلى أن الاسم ريحاء متضمن في اسم xwun Mayaparapixwv بناحية أفامية في نفس كونكورديا Concordia عند أكويليا Aquileia (C.I.G. ، ج5، صI.G. 8732، ج14، ص2334) وأن هذه هي «مُغارة» على مسيرة ستة أميال تقريباً من ريحاء. أمادوسو (Topographie: Dussaud de la Syrie) فيجنح إلى القول بأنها بليدة ريحاء نفسها. وقد كتب هارتمان ما يلي تأييداً لرأيه (Zeitschrift, des Deutschen Palastinavereins ، ج 2، ص 145، تعليق 3): «نلاحظ في صدد Jericho أن الرسم أريحا كان مستعملاً هو وريحا، يؤيد ذلك أن ياقوت قد أنكر بعبارة صريحة في ص 885 من الجزء الثاني من معجمه الرسم أريحا للدلالة على البليدة التي من نواحي حلب. ذلك أن اسم هذه البليدة لا يصح أن يكتب الف في حين أن الاسم سواء ألحقت به الألف أو لم تُلحق، كان علماً مشهوراً على المدينة التي في الغور ». وهذا الرأي صحيح لا ريب. وشاهد ذلك أن ابن الشحنة ذكر اسم أريحا مرتين (ص 130 مع الرواية المختلفة في رسمها وهي

ريحاء) كما أن روسو (J.B.L.J Rousseau Liste Alphabetique في Recueil de voyages et de memorics ، ج2، باريس 1825 ، ص215) قد عرف أريحاء وريحاء بوصفهما علماً على البلدة والناحية (انظر ايضاً سالنامه حلب، عن سنة 1286، ص 118)، على أن القول بأن « معرة تاريخ » هي مُغارة أو ريحاء لا يمكن الأخذ به، لأن معرة تاريخ قد ذكرت بالفعل قبل ذلك في كمال الدين (زبدة حلب في تاريخ حلب، باريس، المكتبة الأهلية، المخطوطات العربية، رقم 1666، ورقة 101) إذ قال « معرفة تاريخ من نواحي كفر طاب» (E. Honigmann في Syria ، ج10، 1929، ص282؛ ج12، 1931، ص99).

وكذلك لا نستطيع الأخذ بالرأي القائل أن ريحاء هي روكيا Ruqia أو شاتل روج Chastel Rouge وهما مدينتان كانتا من أملاك الفرنجة. وقد أصاب دوسو (Dussaud: Topogr. De la Syrie ، ص 167، 174، 176، 213) كبد الحقيقة بقوله إن من الأقرب أن نجعل هذه المدينة هي بلدة الروج عند العرب.

وثمة موضع اشتهر بأطلاله وعُرف باسم « رويحة » [1]، (تصغير ريحاء) على مسيرة ثمانية أميال جنوبي شرق ريحاء.

وقد تردد اسم ريحاء كثيراً في كتب الرحالة الحديثة، لأنها كانت واقعة على الطريقة الرئيسي من حلب إلى حماة (nRitten Eidkunde ج 17. ص 1502 ؛ .Topogr De: Dussaud; la Syrie ص 183)، وهو الطريق الذي سلكه ناصر خسرو (قبل عام 1047 م) وابن بطوطة (1326 م) في أيامها؛ ومن ثم ذكر هذه المدينة بيلون

(1) الرويحة موقع في غور الأردن الشرقي قرب مخرج نهر الزرقاء من الجبال وبه انسيابه في أرض الغور. من أراضي العبابيد، وهي إلى الشرق الصوالحة ودير علا. وأخبرني أهالي الموقع من العبابيد أن الاسم جاء من تخييم قوة تركية كانت هناك في الحرب العالمية الأولى وعندما صدر الأمر إليهم بالانسحاب، صاحوا: رويحة، رويحة، أي تعود إلى أهلنا، نـرَوِّح، فسمّيت الرويحة، والله أعلم.

دو مانس Belon du Mans (1548) وبيترو ده لافاله Pitro Della Valle (1616) ووانسلب Wannsleb (1971) وبوكوك Pocockc (1737) ودراموند Drummond ونيبور Niebubr وسيتزن Seetzen (1806-1807)، وبوركارت Burchardt (1810-1812) وكثير من الرحالة الآخرين.

-53-

يوم أجنادين ويُقال أجْنادَيْن

(فتوح البلدان / البلاذري (ق3هـ): ص 156-157)

« ثم كانت وقعة أجنادين وشهدها من الروم زهاء[1] مائة ألف، سرّب[2] هرقل أكثرهم وتجمّع باقوهم من النواحي، وهرقل يومئذ مقيم بحمص فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً وأبلى خالد بن الوليد يومئذ بلاءً حسناً ثم أن الله هزم أعداءه ومزّقهم كل ممزق، وقُتل منهم خلق كثير، واستُشهد يومئذ عبدالله بن الزبير بن عبدالمطلب بن هاشم، وعمرو بن سعيد بن العاصي بن أمية، وأخوه أبان بن سعيد، وذلك الثبت ويقال بل توفي أبان في سنة 29، وطُلَيْب بن عُمَيْر ابن وَهْب بن قُصيّ بارزه علج فضربه (ضرب طُلَيْب) ضربة أبانت يده اليمنى فسقط سيفه مع كفه، ثم غشيه فقتلوه، وأمّه أرْوَى بنت المُطَّلِبْ عمّة رسول الله ﷺ ، وكان يكنّى أبا عَدِيّ، وسَلَمَة بن هشام بن المغيرة، ويقال أنه قُتل بمرج الصُفّر، وعِكرمة بن أبي جهل بن هشام المخزومي، وهبّار بن سفيان بن عبد الأسد المخزومي، ويقال بل قتل يوم مؤتة، ونعيم بن عبدالله النحّام العَدَويّ ويقال قتل يوم اليرموك، وهشام بن العاصي بن وائل السَّهْمي، ويقال قتل يوم

(1) جاءت في الأصل: زها.
(2) سرّب، قال الحريري: « ويسرّب من يتبعه لكي يُجهل مربعه » أي يرده في سربه، أي طريقه، والراعي على الإبل، أرسلها قطعة قطعة.

اليرموك، وعمرو بن الطُفَيْل بن عمرو الدَّوْسي، ويقال قتل يوم اليرموك، وجُنْدب بن عمرو الدَّوْسي، وسعيد بن الحارث، والحارث بن الحارث، والحجاج ابن الحارث ابن قيس بن عدي السهمي، وقال هشام بن محمد الكلبي قُتل النَحّام يوم مؤتة، وقُتل سعيد الحارث بن قيس يوم اليرموك، وقُتل تميم بن الحارث يوم أجنادين، وقُتل عبيد الله بن عبد الأسد أخوه يوم اليرموك، قال وقتل الحارث بن هشام ابن المغيرة يوم أجنادين، قالوا ولما انتهى خبر هذه الوقعة إلى هرقل نُخِب قلبه وسقط في يده ومُلِيء رعباً فهرب من حمص إلى إنطاكية، وكانت وقعة أجنادين يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقية من جمادى الأولى سنة 13 ويقال لليلتين خلتا من جمادى الآخرة ويقال لليلتين بقيتا منه:

قالوا ثم جمعت الروم جمعاً بالياقوصة[1] والياقوصة وادٍ فمه الفوّارة، فلقيهم المسلمون هناك فكشفوهم وهزموهم وقتلوا كثيراً منهم، ولحق فلولهم بمدن الشام، وتوفي أبو بكر ﷺ في جمادى الآخرة سنة 13 فأتي المسلمين نعيه وهم بالياقوصة » (البلاذري: ص 156-157).

2- اجنادين (معجم ما استعجم / البكري: ج 1، ص 114-115) (معركة اجنادين 13 هـ قبل وفاة أبي بكر ﷺ بأربع وعشرين ليلة)

« أجْنادَيْن: بفتح الهمزة والنون والدال المهملة، بعدها ياء ونون، على لفظ التثنية، كأنه تثنية أجناد: موضع من بلاد الأردن بالشام، وقيل: بل من أرض فلسطين، بين الرملة وجَيْرون، قال كُثَيِّر:

إلى أهــل أجــنادَيْنِ مــن أرض مَنْـبجٍ   على الهَوْل إذ صَفْرُ القُوَى مُتَلاحِمُ

ومَنْبِجُ بالجزيرة. وقال أيضاً:

(1) وردت عند الطبري في ص 134 و 158 : الواقوصة.

فــإلاّ تكــن بالشــام داري مقــيمةً   فــإن بأجْـنادَيْن مِــنِّي ومَسْــكِنِ

مسكِنٌ: من أرض العراق، وهو موضع مُعسكر مصعب، وبه قُتل. يُخبر كُثيّر أنه كان مع عبدالملك في حُروبه تلك » (البكري: ج 1، ص 114-115).

أجنادين (معجم البلدان / الحموي: ص 103-104)

« أجْنادَيْن: بالفتح، ثم السكون، ونون وألف، وتُفْتَحُ الدال فتُكسر معها النون، فيصير بلفظ التثنية، وتُكسر الدال، وتُفتح النون بلفظ الجمع، وكثر أصحاب الحديث يقولون إنه بلفظ التثنية، ومن المحصّلين من يقوله بلفظ الجمع: وهو موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين. وفي كتاب أبي حذيفة إسحاق ابن بشير بخط أبي عامر العَبدري: أن أجنادين من الرملة من كورة بيت جَبْرين، كانت به وقعة، بين المسلمين والروم، مشهورة. وقالت العلماء بأخبار الفتوح: شهد يوم أجنادين مائة ألف من الروم، سَرَّبَ هرقل أكثرهم، وتجمّع الباقي من النواحي، هرقل يومئذ بحمص، فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً، ثم إن الله تعالى هزمهم وفرّقهم، وقتل المسلمون منهم خلقاً، واستُشهد من المسلمين طائفة؛ منهم عبدالله بن الزبير بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف، وعِكْرِمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وأبْلَى خالد بن الوليد يومئذ بلاءً مشهوراً، وانتهى خبر الوقعة إلى هرقل فنُخِب قلبُه ومُلِيء رُعباً، فهرب من حمص إلى إنطاكية. وكانت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة قبل وفاة أبي بكر، ﷺ ، بنحو شهر؛ فقال زياد بن حنظلة:

ونحــن تركــنا أرْطَــبُون مُطــرَّداً   إلى المسـجد الأقصى، وفيه حُسُورُ
عشــيّةَ أجــنادين لمــا تــتابعوا،   وقــامت عــليهم بالعَــراءِ نُسُــور
غَطَفْـنا لــه تحـت العَجـاج بطَعْنَة،   لهـا نَـشجٌ نـائي الشـهيق غزيـرُ

فطَمْنا بـه الـرومَ العريضـة، بُعـده   عـن الشـام أدنـى مـا هناك شطيرُ
تولّـتْ جموعُ الـروم تُتبعُ إثْـره،   تُكـاد مـن الذعْـر الشـديد تطـيرُ،
وغُـودِرَ صَـرعى في المَكَـرّ كـثيرةُ،   وعـاد إليـه الفـلُّ، وهـو حسـيرُ

وقال كُثيّر بن عبدالرحمن:

إلى خـير أحيـاءِ الـبريّة كـلّها،   لِـذي رُحُـمٍ أو خُـلّةٍ متأسّـنِ
لـه عَهْـدُ وُدٍّ لم يُكَـدَّرْ بريـبَةٍ   ونـاقولُ معـروفٍ حديـثٍ ومُـزمِنِ
وليـس امـرؤٌ مـن لم يَنَـلْهُ، كامـرئٍ،   بدَا نُصحُه فاستَوْجَبَ الرِّفْدَ مُحسِنِ
فـإن لم تُكُـنْ بالشـام داري مقـيمةً،   فـإن بأجْـنادين كِـنّي ومَسْـكَني
مـنازلَ صِـدْقٍ، لم تُغَـرْ رُسـومُها،   وأخـرى بِـمَيّـا فَـارِقِيْنَ فَمَـوْزَنِ »

(الحموي: ص 103-104)

3- اجنـاديـن (الروض المعطار / الحميري: ص 12)

« أجنادَيْن: بفتح الهمزة والنون والدال، بعدها ياء ونون على لفظ التثنية، موضع بالشام من بلاد الأردن[1] ، قال كثير:

فـإلا تكـن بالشـام داري مقيمة   فـإن بأجـنادين ركنّي ومسكن
مشـاهد لم يعْـفُ التـنائي قديمها   وأخـرى بمَيّافَـارِقِيْنَ فمـوزن

مسكن بالعراق وهو موضع معسكر مصعب وبه قُتل، يخبر كثيّر أنه كان مع عبدالملك في حروبه تلك، وبأجنادين كانت الوقعة بين المسلمين والنصارى

(1) وبذلك نجد الحميري (ق 8 هـ) يؤكد أن أجنادين في بلاد الأردن، وبها كانت أول معركة هامة بين العرب المسلمين والروم قبل وفاة سيدنا أبو بكر ﷺ بأربع وعشرين ليلة، وهو بذلك يخالف الحموي (ق7هـ) الذي يرى أن أجنادين من نواحي فلسطين. وعلى أية حال، فكلها أرض الله يورثها من يشاء من عباده.

في آخر خلافة الصدّيق ﷺ ، وهي أول وقعة عظيمة كانت بالشام، وكانت سنة ثلاث عشرة (للهجرة)؛ قبل وفاة أبي بكر ﷺ بأربع وعشرين ليلة، قتل المسلمون منهم في المعركة ثلاثة آلاف واتبعوهم يقتلونهم ويأسرونهم، وخرج كل الروم إلى إيليا وقيسارية ودمشق وحمص فتحصّنوا في المدائن العظام، وكتب خالد بن الوليد ﷺ بالفتح إلى أبي بكر ﷺ : أخبرك أيها الصدّيق أنّا لقينا المشركون وقد جمعوا لنا جموعاً جمة بأجنادين وقد رفعوا صُلُبَهم ونشروا كتبهم وتقاسموا بالله لا يفرّون حتى يفنونا أو يخرجونا من بلادهم، فخرجنا إليهم واثقين بالله متوكلين عليه، فطاعنّاهم بالرماح شيئاً ثم صرنا إلى السيوف فقارعناهم بها قدر جزر جزور، ثم إن الله أنزل نصره وأنجز وعده وهزم الكافرين فقاتلناهم في كل فج وشعب وغائط، فالحمد لله على إعزاز دينه وإذلال عدوّه وحسن الصنع لأوليائه والسلام. وفتوح الشام متضمنة لبسط هذا الخبر المجمل » (الحميري: ص 12).

-54-

أ/ يوم اليَرْموك

(فتوح البلدان / البلاذري: ص 184-187) (في 15 هـ في شهر رجب)

« قالوا: مع هِرَقْل جموعاً كثيرة من الروم، وأهل الشام، وأهل الجزيرة، وأرمينية، تكون زهاء مائتي ألف، وولّى عليهم رجلاً من خاصّته، وبعث على مقدمته جَبَلَة بن الأيْهَم الغسّاني في مستعربة الشام، من لَخْم، وجُذام وغيرهم، وعزم على محاربة المسلمين، فإن ظهروا وإلا دخل بلاد الروم فأقام القسطنطينية، واجتمع المسلمون فرجوا إليهم فاقتتلوا على اليرموك أشد قتال وأبرحه، واليرموك نهر، وكان المسلمون يومئذ أربعة وعشرين ألفاً، وتسلسلت (أي ربط كل منهم نفسه بالآخر بالسلاسل كي لا يهربوا) الروم وأتباعهم

يومئذ، لئلا يطمعوا أنفسهم في الهرب، فقتل الله منهم زهاء سبعين ألفاً، وهرب فلُّهم فلّحقوا بفلسطين وإنطاكية وحلب والجزيرة وأرمينية.

وقاتل يوم اليرموك نساء من نساء المسلمين قتالاً شديداً، وجعلت هند بنت عُتْبَة، أم معاوية بن أبي سفيان تقول: عضِّدُوا الغُلْفانَ بسيوفكم(1)، وكان زوجها أبو سفيان خرج إلى الشام تطوّعاً وأحبَّ مع ذلك أن يرى ولده، وحملها معه ثم أنه قدم المدينة فمات بها سنة 31، وهو ابن 88 سنة، ويقال أنه مات بالشام، فلما أتى أم حبيبة بنته نعيُه، دعت في اليوم الثالث بصفرة، فمسحت بها ذراعيها وعارضتها وقالت: لقد كنت عن هذا غنيّة لولا أني سمعت النبي ﷺ يقول لا تحدّ امرأة على ميّت سوى زوجها أكثر من ثلاث، ويقال أنها فعلت هذا الفعل حين أتاها نعي أخيها يزيد، والله أعلم.

وكان أبو سفيان بن حرب أحد العوران، ذهبت عينه يوم الطائف، قالوا وذهبت يوم اليرموك عين الأشعث بن قيس، وعين هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري، وهو المِقال، عين قيس بن مَكْشوح. واستشهد عامر بن أبي وقاص الزُهْري، وهو الذي كان قد الشام بكتاب عمر بن الخطاب، إلى أبي عبيدة بولايته الشام، ويقال بل مات في الطاعون، وقال بعض الرواة استشهد يوم أجنادين وليس ذلك بثبت.

---

(1) هذه إشارة يذكرها البلاذري وهو من أوائل المؤرخين المسلمين، وهو من الثقات أن المسلمات قاتلن إلى جانب الرجال، وأن هند بنت عتبة رضي الله عنها قاتلت، وكانت تثير الحماس والتحريض في جنود المسلمين وهي تقول عضّدوا (أي اقتلوهم) الغلفان (أي النصارى لأنهم لا يتطهرون كالمسلمين). ولا شك أن مشاركة المرأة في المعركة بهذا الطهر والشرف تعطي معنويات ودوافع عالية جداً للجنود لكي يستبسلوا في الحرب، والدفاع عن العِرْض والأرض والدين والكرامة.

قال وعقد أبو عبيدة لحبيب بن مسلمة الفهْري على خيل الطلب، فجعل يقتل من أدرك، وانحاز جَبَلَة بن الأيْهَم إلى الأنصار، فقال أنتم أخوتنا وبنو أبينا، وأظهر الإسلام، فلما قدم عمر بالاقتصاص منه، فقال: أوَعينه مثل عيني، والله لا أقيم ببلد عليّ به سلطان، فدخل بلاد الروم مرتداً[1]، وكان جَبَلَة ملك غسّان بعد الحارث بن أبي شِمْر.

وروي أيضاً أن جَبَلَة أتى عمر بن الخطاب، وهو على نصرانيته فعرض عمر عليه الإسلام، وأداء الصدقة، فأبى ذلك، وقال أقيم على ديني وأؤد الصدقة، فقال عمر إن أقمت على دينك فأدّ الجزية فأنف منها، فقال عمر: ما عندنا لك إلا واحدة من ثلاث، إما الإسلام، وإما أداء الجزية، وإما الذهاب إلى حيث شئت، فدخل بلاد الروم في ثلاثين ألفاً فلما بلغ ذلك عمر ندم وعاتبه عُبادة بن الصامت، فقال لو قبلت منه الصدقة ثمّ تألّفته لأسلم، وإن عمر ﷺ وجّه في سنة 21، عُمَيْد بن سعد الأنصاري إلى بلاد الروم في جيش عظيم وولاه الصائفة، وهي أوّل صائفة كانت، وأمره أن يتلطّف لجَبَلة بن الأيهم، ويستعطفه بالقرابة بينهما ويدعوه إلى الرجوع إلى بلاد الإسلام، على أن يؤدي ما كان بذل من الصدقة، ويقيم على دينه، فسار عُمَير حتى دخل بلاد الروم، وعرض على جَبَلَة ما أمره عمر بعرضه عليه، فأبى إلا المقام في بلاد الروم.

وانتهى عُمَير إلى موضع يعرف بالحِمَار، وهو وادٍ فأوقع بأهله وأخربه، فقيل أخرب من جوف حِمَارٍ. قالوا: ولما بلغ هرقل خبر أهل اليرموك وإيقاع

---

(1) هذه رواية مهمة أن جَبَلَة بن الأيهم أظهر الإسلام عندما شعر أنه لا محالة مقتول في اليرموك، وانحاز إلى الأنصار، فأخذوه إلى سيدنا عمر بن الخطاب، ثم كان له ما كان من قصة هروبه وارتداده ولحوقه بالروم في القسطنطينية، وهناك رواية أخرى أن أتى عمر بن الخطاب، وجَبَلَة على نصرانيته، فعرض عليه عمر الإسلام، وكان له هذه الرواية المثبتة أعلاه.

المسلمين بجنده، هرب من إنطاكية إلى قسطنطينية، فلما جاوز الدّرْب قال عليك يا سورية السلام، ونعم البلد هذا للعدو يعني أرض الشام[2] لكثرة مراعيها. وكانت وقعة اليرموك في رجب سنة 15. قال هشام بن الكلبي شهد اليرموك حُباش بن قيس القُشَيْري فقتل من العلوج خلقاً، وقُطعت رجله وهو لا يشعر، ثم جعل ينشدها، فقال سَوّار بن أوْفَى:

وَمِنَّا ابْنُ عَتَّابٍ وَنَاشِدُ رِجْلِهِ ... ومِنَّا الذِي أدَّى إلى الحَيِّ

يعني ذا الرُّقَيبة.

وحدثني أبو حفص الدمشقي قال حدّثنا سعيد بن عبدالعزيز، قال بلغني أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع، وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك، ردّوا على أهل حِمْص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا قد شُغِلْنا عن نصرتكم والدفع عنكم، فأنتم على أمركم، فقال أهل الحمص لوِلايَتِكُم وعدلكم أحبُّ إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعنّ جند هرقل عن المدينة مع عاملكم، ونهض اليهود فقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نُغلب ونُجهد فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى، واليهود، وقالوا إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه، وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد، فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلّسين فلعبوا وأدُّوا الخراج.

وسار أبو عبيدة إلى جند قنّسرين وإنطاكية ففتحها. وحدّثني العباس بن هشام الكلبي عن أبيه، عن جدّه، قال: أبلى السِمْط ابن الأسود الكندي بالشام وبحمص خاصة وفي يوم اليرموك، وهو الذي قسم منازل حمص بين أهلها، وكان ابنه شرحبيل بن السِّمْط بالكوفة مقاوماً للأشعث بن قيس الكندي في

الرياسة، فوفد السِّمْط إلى عمر، فقال له: يا أمير المؤمنين إنك لا تفرّق بين السبي، وقد فرّقت بيني وبين ولدي فحوّله إلى الشام، أو حوّلني إلى الكوفة، فقال: بل أحوّله إلى الشام فنزل حمص مع أبيه.

-54-

ب / اليَرْمُوك

(معجم ما استعجم / البكري: ج 4، ص 1393)

« اليَرْمُوك: بفتح أوله، وإسكان ثانيه: موضع مذكور في رسم خَمّان. وباليرموك التقى جمع الروم الأعظم والمسلمون، وأميرهم أبو عبيدة ومعه خالد ابن الوليد، فبرز منهم رجل عظيم الشأن، فقال أبو عبيدة: من يبْرُز إليه؟ فبرز إليه قيس بن هُبَيْرَة بن المكْشُوح، فطعنَه فأذراه عن فرسه، فنادى أبو عبيدة في الناس: والله ما بعدها إلا النصر، فاحملوا. فحمل المسلمون، وكانت الدَّبْرة على الروم، فقُتل منهم سبعون ألفاً، وذلك أنهم كانوا تقيّدوا للثبوت، فلم ينج منهم إلا أقل من الثلث، فلم يُقْتل في وقعة من أول الدهر إلى وقتنا هذا، أكثر من قتل اليرموك. وقال قيس [بن هُبَيْرة] بن المكشوح:

جَلَبْنَا الخَيْلَ من صَنْعاءَ تُرْدِي   بكلِّ مُدَجَّجٍ كالـلَّيْثِ حَـامِ
إلى وادي القـرى فديـار كـلـب   إلى اليرمـوك بالبـلد الشـام»

(البكري: ج 4، ص 1393)

-54-

ج / اليَرْمُوك

(معجم البلدان / الحموي: ج 5، ص 434)

« يرموك: واد بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن ثم يمضي إلى البحيرة المنتنة، كانت به حرب بين المسلمين والروم في أيام أبي بكر الصديق،

ﷺ ، وقدم خالد الشام مدداً لهم فوجدهم يقاتلون الروم متساندين كل أمير على جيش، أبو عبيدة على جيش ويزيد بن أبي سفيان على جيش وشرحبيل ابن حسنة على جيش وعمرو بن العاص على جيش، فقال خالد: إن هذا اليوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي فأخلصوا لله جهادكم وتوجهوا لله تعالى بعملكم فإن هذا يوم له منا بعده فلا تقاتلوا قوماً على نظم وتعبئة وأنتم على تساند وانتشار فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي، وإن من وراءكم لو يعلم عملكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه هو الرأي من واليكم،

قالوا: فما الرأي؟ قال: إن الذي أنتم عليه أشد على المسلمين مما غشيهم وأنفع للمشركين من أمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرّقت بينكم والله فهلمّوا فلنتعاونْ الإمارة فليكن علينا بعضنا اليوم وبعضنا غداً والآخر بعد غد حتى يتأمّر كلكم ودعوني اليوم عليكم، قالوا: نعم، فأمّروه، وهم يرون أنها كخرجاتهم فكان الفتح على يد خالد يومئذ وجاءه البريد يومئذ بموت أبي بكر ﷺ ، وخلافة عمر، ﷺ ، وتأمير أبي عبيدة على الشام كله وعزل خالد، فأخذ (أي أن خالد بن الوليد ﷺ أخذ الكتاب وكتمه على الناس) الكتاب منه وتركه في كنانته ووكّل به من يمنعه أن يخبر الناس عن الأمر لئلا يضعفوا إلى أن هزم الله الكفار وقتل منهم فيما يزعمون ما يزيد على مائة ألف ثم دخل على أبي عبيدة وسلّم عليه بالإمارة وكانت من أعظم فتوح المسلمين وباب ما جاء بعدها من الفتوح لأن الروم كانوا قد بالغوا في الاحتشاد فلما كسروا ضعفوا ودخلتهم هيبة[1]؛ وقال القعقاع بن عمرو يذكر مسيرة خالد من العراق إلى الشام بعد أبيات:

---

(1) عندما قرأت هذه الفقرة اقْشعرّ بدني، من روعة هذا القائد العملاق سيدنا خالد بن الوليد ﷺ ، فهو لم يغضب ولم يتوقف عن القتال، بل واصل القيادة حسبما وافق عليها بها القادة الكرام =

بدأنـا بجمـع الصُـفْرين فـلم نـدع — لغسّـان أنفـاً فـوقَ تـلك المـناخر
صـبيحة صـاحَ الحارثـان ومـن بـه — سـوى نفـر نجْـتَذُهُم بالـسبواتر
وجئـنا إلى بُصـرى وبصـرى مقـيمة، — فـألقتْ إليـنا بالحشـا والمعـاذر
فضضـنا بهـا أبوابهـا ثـم قابـلت — بنا العيسُ في اليرمـوك جمع العشائر»

(الحموي: ج 5، ص 434)

-54-

د / اليرموك

(نهاية الأرب / النويري: ج 19، ص 117)

وقدِم عِكرمة بن أبي جهل على أبي بكر فيمن كان معه من تِهامة عُمان والبحرين، فجعل أبو بكر عكرمة ردءاً للناس. وبلغ الروم ذلك، فكتبوا إلى هِرقل، فخرج هرقل حتى أتى حمص، فأعدّ لهم الجنود، وأرسل أخاه إلى عمرو، فخرج نحوه في تسعين ألفاً، فهابَهم المسلمون، وجميع فرق المسلمين واحد وعشرون ألفاً سوى عكرمة؛ فإنه في ستة آلاف، فكتبوا إلى عمرو بن العاص: ما الرأي؟ فكاتبهم أن الرأي الاجتماع، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لا يُغلب من قلّة فاتّعدوا اليرموكَ ليجتمعوا به، وكان المسلمون كتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كتبوا به إلى عمرو، فجاءهم بمثل ما رأى عمرو. وبلغ ذلك هرقل، فكتب إلى بطارقته أن اجتمعوا لهم، وانْزِلوا بالروم مَنْزِلاً واسعَ المطْرد ضيّق المَهْرب، ففعلوا، ونزلوا

= العظام الآخرين. وكان همّه تحقيق النصر للمسلمين، ودحر الكفار والروم. وبذلك تحقق النصر للمسلمين، وتحققت الإمارة لسيدنا أبي عبيدة، وقال خالد بن الوليد مقولته المشهورة: «أنا لا أقاتل من أجل عمر، وإنا من أجل الله وفي سبيل الله» . وهكذا كان النصر، وفيما بعد كانت مقولة سيدنا عمر بن الخطاب: «رحمه الله أبا بكر فقد كان أعلم مني بالرجال» يعني تعيينه لخالد بن الوليد.

الواقواصة، وهي على ضَفَّة اليرموك، وصار الوادي خندقاً لهم، وأقبل المسلمون، فنزلوا عليهم بحذائهم، فأقاموا صفر وشَهْرَيْ ربيع لا يقدرون من الروم على شيء، حتى إذا انسلخ شهر ربيع الأول، كتبوا إلى أبي بكر يستمدونه، فكتب إلى خالد بن الوليد يلحق بهم، وأن يسير في نصف العسكر، ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيباني، ففعل. والله تعالى أعلم بالصواب » (النويري: ج 19، ص 117).

-54-

هـ/اليرموك

(الروض المعطار / الحميري: ص 617-618)

« اليرموك: موضع بالشام فيه كانت الوقيعة العظمى المشهورة للمسلمين على الروم في الصدر الأول.

قالوا[1]: إن أبا عبيدة بن الجراح ﷺ لما بلغه كتاب عمر بن الخطاب ﷺ يأمره بنزول حمص ويحذره من المتنصرة، انثنى أبو عبيدة ﷺ إلى حمص فنزل بها يوم الجمعة من شوال سنة أربع عشرة، فصالحه أهلها على أداء الجزية بعد أن قاتلهم، وبها مات عكرمة بن أبي جهل، وبعث خالداً ﷺ إلى المعرّات وبلد العواصم، فصالحه أهلها على أداء الجزية، فلما بلغ هرقل افتتاح العرب لهذه البلاد، جيّش الجيوش من كل ناحية، وارسل إلى أهل رومية وأهل قسطنطينية وأهل أرمينية ومن كان على دينه من أهل الجزيرة[2]، وبعث إلى عُمّاله أن يحشدوا كل من بلغ الحلم فما فوقه من أهل مملكته إلا الشيخ الفاني، فاجتمعوا، ووجّه معهم من الملوك ابن قاطر وجرجير الأرمني والدرنجار وقورين ابن أخته،

(1) انظر فتوح البلدان للبلاذري: 160، والطبري 1:200، وفتوح الأزدي: 134.

(2) المقصود جزيرة الفرات في سوريا.

ومعهم الشمامسة القسيسون والرهبان والأساقفة والبطارقة، ولم يبق في الصوامع راهب إلا نزل غضباً لدينهم، فرفعوا مائة وستين صليباً تحت كل صليب عشرة آلاف، وأمر عليهم ماهان الأرمني، وكان من أشرافهم وعظمائهم ليس فيهم أشجع منه.

فلما بلغ[1] المسلمين اجتماع جموع الروم استشار أبو عبيدة ﷺ أهل الرأي، كلهم أشار عليه بالخروج عن الشام إلا خالد بن الوليد ﷺ ، وتبعه على ذلك قيس بن [هبيرة بن] مكشوح، وكان مثله في الشدة والإقدام والشجاعة، فقال خالد لأبي عبيدة: ولّني ما وراء بابك ودعني والأمر، فولاّه أبو عبيدة أمرهم » (الحميري: ص 617-618).

-54-

و/اليرموك

(5 رجب 15هـ) (الروض المعطار / الحميري: ب)

فصار خالد إلى اليرموك، واجتمع به جموع المسلمين، ونزل الروم بالواقوصة على ضفة اليرموك – وهو واد – وصار الوادي خندقاً بينهم، وهو لهب لا يدرك، وزحفت الروم في يوم ذي ضباب، وفيهم ثمانون ألف مقيد، وأربعون ألفاً في السلاسل، عشرة في سلسلة، وأربعون ألفاً مربوطون بالعمائم، واقبلوا لهم دويّ كدويّ الرعد، فأزالوا المسلمين على الميمنة إلى ناحية القلب، وكان خالد ﷺ في نحو ألف فارس، وقيل في نحو ستة آلاف، فلما رأى انكسار المسلمين واضطراب فرسان العرب، وكان إلى جنبه أكثر من مائة ألف من الروم، فاعترضهم وحمل عليهم، فما بلغتهم الحملة حتى فضّ الله جمعهم واتبعهم من يليهم، فانكشفوا بين أيديهم كما تُوَلّي الغنم بين يدي الأسد.

---

(1) فتوح الأزدي: 134.

وحمل عليهم المسلمون من كل ناحية، فمنحهم الله تعالى أكتافهم فقتلوهم كيف شاءوا لا يمتنعون من أحد، وركب الروم بعضهم بعضاً في الضباب إلى مكان مشرف على أهوية تحتهم، فأخذوا يتساقطون فيها لا يعلم آخرهم ما لقي أولهم من أجل الضباب، فكان من صبر للقتال من المقرنين يهوي به من خشعت نفسه، فيهوي الواحد بالعشرة فلا يطيقونه، فسقط فيها خلق كثير.

فبعث أبو عبيدة ﷺ من الغد شداد بن أوس بن ثابت ابن أخي حسّان يَعُدُّهُمْ فلم يقدر، فقطعت القصب من الوادي وجعل على كل ألف قتيل قصبة، فإذا القتلى مائة ألف وعشرون ألفاً، وعشرون ألفاً، فسميت تلك الأهوية حينئذ الواقوصة لأنهم وقصوا فيها، وما فطنوا بتساقطهم حتى انكشف الضباب، فأخذوا في وجه آخر، وقتل المسلمون منهم في المعركة مائة ألف وخمسة آلاف فيهم صناديدهم وفيهم أخو هرقل والتدارق والصقلار خصي هرقل، وذلك يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة خمس عشرة.

وفرّ ماهان في من بقي من الروم إلى دمشق، فأتبعه خالد ﷺ في جيشه فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وترجل ماهان فقتله النعمان بن علقمة الأزدي، وقيل بل عاصم بن حوال اليربوعي، فقومت عدته التي خرج بها للحرب بستين ألفاً لأنها كانت مرصعة بالدر والياقوت، ولم يزل خالد ﷺ يتبعهم فيقتلهم في كل واد وكل شعب وكل جبل. وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة رضي الله عنهما أن يقسم الغنائم على المسلمين، فقسمها بدمشق، فأصاب الفارس أربعة وعشرين ألفاً مثقال من الذهب الأحمر ومثلها من الفضة، وأصاب الراجل ثمانية آلاف من كل نوع، وأعطى الفرس الهجين سهماً والفَرَس العربي سهمين وألحق البراذين بالعربيات، وكانت أيام اليرموك من أشد أيام القتال، وأشدها يوم التغوير، وهو اليوم الذي أمر فيه ماهان مائة ألف

رامٍ من الأرمن أن يرموا فيه كلهم عن قوس واحدة، فرموا فغارت من المسلمين سبعمائة عين، منهم عين أبي سفيان بن حرب ﷺ .

وفي طريق آخر أنه لما تَصَافُّوا للقتال برز من صف العدو رجل منهم عظيم الشأن عندهم، فقال أبو عبيدة ﷺ : من يبرز إليه؟ فبرز إليه قيس بن هبيرة بن المكشوح، فطعنه فأرداه عن فرسه، فنادى أبو عبيدة ﷺ على الناس: والله ما بعدها إلا النصر فاحملوا، فحمل المسلمون فكانت الدبرة على الروم، فقتل منهم سبعون ألفاً لأنهم كانوا يتقيّدوا للثبوت فلم ينج منهم إلا الأقل من الثلث، ولم يُقْتَل في وقيعة من أهل الدهر إلى وقتنا هذا أكثر من قتلى اليرموك، وقال قيس ابن المكشوح:

جلبنا الخيل من صنعاء تردي   بكل مدجّج كالليث حامي
إلى وادي القرى فديار كلب   إلى اليرموك بالبلد الشآمي

واليرموك نهر بذلك الموضع وبه سمي.

وفي التفسير أن لقمان لما وعظ ابنه بقوله عز وجل: ﴿ يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ [لقمان: 16] أخذ حبة من خردل فأتى بها إلى اليرموك وألقاها في عَرْضِهِ، ثم مكث ما شاء الله تعالى، ثم ذكرها فبسط يده، فأقبل ذباب فألقاها في ناحيته[1].

ومن أمداح حسان بن ثابت لآل جفنة في الجاهلية قوله[2]:

---

(1) من المعروف أن لقمان ﷺ نزل في الأردن، ويقال أنه كان من أهل منطقة أدوم (الطفيلة)، والله أعلم.

(2) في هذه الأبيات نجد الارتباط بين معان والحمّان واليرموك كأجزاء من الأراضي الأردنية، وقد شرحنا ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب، ولا داعي للإعادة..

لمــن الــدار أقفــرت بمعــان بــين أصــل اليرمــوك فالخمّــان
ذاك مغنىً لآل جفنة في الدهــ ـــر محــلاً لحــادث الأزمــان

-55-

مواقع في شمال الأردن

1- أفيق : (معجم ما استعجم / البكري: ج 1، ص 178)

« أفِيق: بفتح أوله وكسر ثانيه، بعد ياء وقاف: قصرٌ باليَمَن، في بلاد عَنْس من مَذحِج. قال الهمداني. وأفيق أيضاً على مثل لفظه: قرية بالشام، مشرفة على الأردن، وعلى موضع يقال له الأُقْحُوَانة، وهي من دمشق على يومين ونصف. يفيق بالياء: موضع آخر بذي رُعَيْن » (البكري: ج 1، ص 178).

2- أَرْبَد : (معجم البلدان / الحموي: ج 1، ص 136)

أرْبَدُ: بالفتح، ثم السكون والباء الموحدة: قرية بالأردن، قرب طبرية، عن يمين طريق المغرب، بها قبر أم موسى بن عمران ﷺ ، وقبور أربعة من أولاد يعقوب ﷺ ، وهم: دان، وأيساخار، وذبولون، وكاد، فيما زعموا » (الحموي: ج 1، ص 136).

3- صفورية: (معجم البلدان / الحموي: ج 3، ص 414)

صَفّوريَة: بفتح أوّله، وتشديد ثانيه، وواو، وراء مهملة ثم ياء مخففة: كورة وبلدة من نواحي الأردن بالشام وهي قرب طبرية » (الحموي: ج 3، ص 414).

4- كفرمندة: (تلخيص الآثار / الباكوني: ص 29 ب)

« كفرمندة: قرية بالأردن بين عكة وطبرية قيل أنها هي مدين المذكور في القرآن وكانت منزل شعيب بها قبر بنته صافورا زوجة موسى ﷺ وبها الجبّ

الذي قلع موسى ﷺ الصخرة عن رأسه وسقى مواشي شعيب ﷺ والصخرة باقية إلى الآن » [1] (الياقوتي: ص 29 ب).

-56-

حطّين

(معجم البلدان / الحموي ج 2، ص 273-274)

حِطِّين: بكسر أوله وثانيه، وياء ساكنة، ونون: قرية بين أرْسُوف وقيسارية، وبها قبر شعيب ﷺ (انظر الحاشية السابقة)؛ كذا قال الحافظان أبو القاسم

---

(1) في هذا النص ثلاث نقاط:

أ- أنها منزل شعيب ﷺ ، وهذا في رأينا غير صحيح، لأن سيدنا شعيب نزل في مدين من أعمال الكرك ثم إلى الأيكة وهي وادي شعيب حيث يرقد هناك، وقبره معروف للناس عبر التاريخ. ولكن إذا كانت كفرمندة منزله لفترة بعد خروجه من منطقة الأيكة، فذلك الذي لا أعلمه، لكنه مدفون كما قلنا في وادي شعيب بجوار مدينة السلط.

ب- لا أدري كيف يكون قبر صافوراء بنت شعيب زوجة موسى ﷺ في شمال الأردن؟ وهو أمر غير مقنع ولا دليل عندي عيه أو ضده.

ج- أما موضوع الجب فقد يكون مشابهاً لكنه ليس هو، وقد شاهدت هذا الجب في منطقة مِدّين جنوب شرق مدينة الكرك، وكتبت تفاصيل الجولة في كتابي: العشائر الأردني، ج1، ج3.

ثم نؤكد حقيقة أخرى ولو كررنا مقولتنا أن قبر سيدنا شعيب ﷺ ، وهو الجذامي الأردني العربي خطيب الأنبياء، هو في وادي شعيب إلى الجنوب الغربي من السلط بمحاذاة الطريق الذي يؤدي من السلط إلى الغور. ولكن يبدو أن قبيلة جذام التي منها ونزل فيها سيدنا شعيب ﷺ كانت تمتد إلى شمال الأردن وشمال فلسطين وأنهم كانوا يتبركون بالنبي شعيب، فأقاموا له مقامات ونصبوا له قبوراً في عدد من القرى والتجمعات الجذامية باعتباره شيخهم، وهو منهم، ونبيّهم أيضاً. كما أن مثل هذا التبرّك كان خشية منهم أن يصيبهم الله بعذابه مثلما أصاب أبناء عمومتهم في مدين والأيكة. وبناءً عليه التبس الأمر على المؤرخين والأجيال اللاحقة، وهم يعتقدون أن هذا المقام أو ذاك هو مكان دفنه، وأن هذا البئر أو ذاك هو الذي كان يسقي منه مواشيه. والمؤكد أنه مدفون بوادي شعيب في المكان المعروف الآن حيث بُني على ضريحه مسجد واسع في نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين.

الدمشقي وأبو سعد المروزي، ونسبا إليها أبا محمد هيّاج بن محمد بن عبيد بن حسين الحِطّيني الزاهد نزل مكة، سمع أبا الحسن عليّ بن موسى بن الحسين السمسار وأبا عبدالله محمد ابن عبدالسلام بن عبدالرحمن بن معدان الدمشقي وأبا القاسم عبدالرحمن بن عبدالعزيز السُّرّاج وأبا الحسن عليّ بن محمد بن إبراهيم الحِنّائي بدمشق، وأبا أحمد محمد بن أحمد بن سهل القيسراني بقيسارية، وأبا العباس إسماعيل بن عمر النحاس، وأبا الفرج النحوي المقدسي وغيرهم، وسمع منه جماعة من الحُفّاظ منهم محمد بن طاهر المقدسي، وأبو القاسم بن أبي عليّ وغيرهم؛ وكان زاهداً فقيهاً مدرّساً، يفطر كل ثلاثة أيام ويعتمر كل يوم ثلاث عُمَر، ويلقي على المستفيدين كل يوم عدّة دروس، ولم يكن يدّخر شيئاً، وكان يزور رسول الله ﷺ كل سنة حافياً ويزور ابن عباس بالطائف، وكان يأكل بمكة أكلة وبالطائف أخرى، واستشهد بمكة في وقعة وقعت بين أهل السّنّة والرافضة، فحمله أميرها محمد بن أبي هاشم فضربه ضرباً شديداً على كبر السنّ، ثم حمله إلى منزله فعاش بعد الضرب أياماً ثم مات في سنة 472 وقد جاوز الثمانين.

قال المؤلف، رحمة الله عليه: كان صلاح الدين يوسف بن أيوب قد أوقع بالإفرنج في منتصف ربيع الآخر سنة 583 وقعة عظيمة منكرة ظفر فيها بملوك الإفرنج ظفراً كان سبباً لافتتاحه بلاد الساحل، وقتل فِرْعَونهم أرباط صاحب الكرك والشوبك، وذلك في موضع يقال له حطين بين طبرية وعكا، بينه وبين طبرية نحو فرسخين، بالقرب منها قرية يقال لها خِيارة، بها قبر شعيب عليه السلام، وهذا صحيح لا شك فيه وإن كان الحافظان ضبطاً أن حطين بين أرسوف وقيسارية ضبطاً صحيحاً، فهو غير الذي عند طبرية وإلا فهو غلط منهما. وحطين أيضاً موضع بين الفَرَما وتنّيس من أرض مصر، وهو بحيرة يصاد منها

السمك يُعرف بالحِطِّيني، وهو سمك فاضل، إذا شُقّ عن جوفه لا يوجد فيه غير الشحم فيُملّح ويُحمل إلى النواحي، اخبرني بذلك رجل اتّجر في هذا السمك لقيته بقَطْيَةَ موضع قرب الفَرَما » (الحموي ج 2، ص 274).

-57-

أ/طبريـا[1]

(الجغرافيا / المغربي (ابن سعيد المغربي علي بن موسى بن محمد ت 685هـ): ص 15)

يقول في كتابه: كتاب بسط الأرض في الطول والعرض (ص15):

« وتقع طبريا التي كانت قاعدة جند الأردن حيث الطول سبع وخمسون درجة وخمس وأربعون دقيقة وفي جهتها البحيرة المنسوبة إليها، بينها وبين عكا وصور ينزل إليها نهر من بحيرة قادوش التي فوقها، ويخرج منها نهر الأردن.

وفي طبريا عيون سخنة تغني أهلها عن الحمام. وقد خربت المدينة باختلاف الملّتين عليها وهي الآن مع عسقلان ويافا وقيسارية في حَوْزَةِ المسلمين» (المغربي: ص15).

طبريا: (الجغرافيا / المغربي: ص 151)

« وفي طبريا عيون سَخِنَةٌ تغني أهلها عن الحمام. وقد خربت المدينة باختلاف الملّتين عليها وهي الآن مع عسقلان ويافا وقيسارية في حوزة المسلمين » (المغربي: ص 151).

---

(1) طبريا: تُكتب بالألف الممدودة أو التاء المربوطة، وهو اسم للمدينة أو القرية وأطلق على المنطقة برمتها من حولها وعلى البحيرة، ونجد هنا بحيرة وليس بحر، لأن البحر هو ما اتصل بغيره من البحار، وغالباً ما يكون مالحاً لا يصلح للشرب، أما البحيرة فهي المغلقة، وقد تكون ماءً عذباً مثل طبريا، أو ملحاً أجاجاً مثل البحر الميت الذي يُطلق عليه: البحر، والبحيرة، فيقال: البحر الميت، ويقال: بحيرة لوط، والبحيرة المنتنة، وقد كانت طبريا في فترة من القرن السابع الهجري خربة، كما يقول ابن سعيد المغربي، وذلك بسبب تعاقب المسلمين والصليبيين عليها: «وقد خرِبَت المدينة باختلاف المِلّتين عليها» ، أي ملّة الإسلام، ومِلّة الكفر..

« ونهر الأردن المعروف يخرج من بحيرة طبريا ويمر بالغور حتى ينصب في هذه البحيرة الميتة » (المغربي: ص 151).

« قال ياقوت بليدة (أي طبريا) مطلة على البحيرة المعروفة بها وهي من أعمال في طرف الغور بينها وبين دمشق ثلاث أيام وكذلك بينها وبين بيت المقدس. وهي مستطيلة وعرضها قليل حتى تنتهي إلى جبل صغير عند آخره العمارة وفيها عيون ملحة حارة بنيت عليها حمامات فهي لا تحتاج إلى الوقود والحمام الذي يقال أنه من عجائب الدنيا وينسب إليها ليس بها وإنما هو في أعمالها في موضع يقال له الحسينية في وادٍ وهو عمارات قديمة هيكل يخرج الماء من صدره من اثنتي عشر عيناً كل عين مخصوصة بمرض إذا اغتسل منها صاحب المرض برء بإذن الله تعالى[1]، وماؤه شديد الحرارة جداً، صافٍ، عذبٍ، طيب الرائحة يقصده المرضى يستشفون به وقيل طبرية موضع بواسط. أقول وقد كانت طبرية سبباً في وقائع شتى أيام الحروب الصليبية فكانت تارة تدخل في حوزة المسلمين وطور تخرج إلى حوزة المسيحيين ولإبراهيم باشا بن محمد علي أثر في أبنيتها» (قاموس الأمكنة / على بهجت: ص 144).

-57-

ب/طبرية

(المسالك والممالك / ابن خرداذبة)

« طبرية: مدينة الأردن »[2] هكذا وردت في أكثر من موضع في كتاب المسالك والممالك وهي في كورة الأردن والتي تتضمن:

---

(1) هذه خرافة عجيبة، لم أجدها في كتب أخرى، كما أنه قدّم لروايته لها بقوله: والحِمَّام الذي يُقال أنه من عجائب الدنيا.. الخ. فكيف يكون في هذا الجسم أو الهيكل مخارج لاثنتي عشر عيناً، كل واحدة مخصصة لشفاء مرض. هذا أمر لا يتفق مع العقل: «هيكل يخرج الماء من صدره من اثنتي عشر عيناً كل عين مخصوصة بمرض..الخ» . إن مثل هذا الكلام يحتاج إلى برهان.

(2) المسالك والممالك – ابن خرداذبة (ت 280هـ). ونجد هنا من الرحالة من يقول أنها قرية وآخر يقول بُلَيْدة، أي تصغير بلدة (مثلما ذكر ياقوت الحموي) ومنهم يقول مدينة مثل ابن خرداذبة. =

« كورة طبرية، كورة السامرة، كورة بيسان، كورة فحل، كورة جرش، كورة بيت رأس... كورة جَدَر، كورة آبل، كورة سوسية، كورة صفورية، كورة عكا، كورة قَدَس، كورة صور ... ».

وقد اقترن ذكرها بذكر الأردن أكثر من مرة في نفس الكتاب وقد أوردت ذلك عندما استعرضت الحديث عن الأردن في بداية البحث وأرى أنه لا داعي لتكرارها.

-57-

ج / قَـدَس

(المسالك والممالك / ابن خرداذبة ص 98)

وهي من كورة الأردن وقد أوردتها أكثر من مرة في معرض الحديث عن العديد من المواقع الأردنية في كتاب المسالك والممالك.

وقد ورد ذكرها أيضاً في الكتاب نفسه في وصف الطريق من الجزيرة إلى الساحل « ... ثم إلى صيدا، ثم إلى صور، ثم إلى قَدَس، ثم إلى قيسارية، ثم إلى أرسوف الشآمية، ... » (ابن خرداذبة: ص 98).

= وقد يكون السبب مرتبطاً بين تمدد وإعمار وازدهار وتوسع المدينة في ظروف الأمن والحماية، وتقلّصها لنزوح أهلها عنها في ظروف الحرب والخوف وصراع الدول، وبخاصة بين المسلمين والصليبيين. ونجد هنا اختفاء اصطلاح « الجند » واستبداله باصطلاح كورة، وهو اصطلاح اقتصادي يدل على الاستقرار والإنجاز الحضاري، وإعمار الأرض، ووفرة الإنتاج والجباية للدولة، وما يترتب على ذلك من تنظيم وإجراءات.

-58-

أ/الحُولَة[1]

(معجم البلدان / الحموي: ج 2 ، ص 323-324)

« الحُولَة: بالضم ثم السكون: اسم لناحيتين بالشام، إحداهما من أعمال حمص ثم من أعمال بارين بين حمص وطرابلس، والأخرى كورة بين بانياس وصور من أعمال دمشق ذات قرى كثيرة، من إحداهما كان الحارث الكذاب الذي ادعى النبوة أيام عبدالملك بن مروان؛ قال أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب: حدثنا عبدالوهاب بن نجدة حدثنا محمد بن مبارك حدثنا الوليد بن مسلمة عن عبدالرحمن بن حسان قال: كان الحارث الكذاب من أهل دمشق وكان مولى لابن الجُلاس وكان له أب بالحولة، فعرض له إبليس، كان رجلاً متعبداً زاهداً لو لبس جُبة من ذهب لرؤيت عليه زهادة، قال: وكان إذا أخذ في التحميد لم يستمع السامعون إلى كلام أحسن من كلامه، قال: فكتب إلى أبيه وهو بالحولة: يا أبتاه اعجلْ عليّ فإني رايت أشياء أتخوف أن يكون الشيطان عرض لي، قال: فزاره أبوه غِبّاً وكتب إليه: يا بنيّ أقبل على ما أُمرت به فإن الله تعالى يقول: على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم؛ ولست بأفاك ولا أثيم فامض لما أُمرت به؛ وكان يجيء إلى أهل المسجد رجلاً رجلاً فيذاكرهم أمره ويأخذ عليهم العهد والميثاق إن هو رأى ما يرضى قبل وإلا كتم عليه، قال: وكان يريهم الأعاجيب، كان يأتي رخامة في المسجد فينقرها بيده فتسبّح، وكان

---

(1) بحيرة الحولة إحدى البحيرات على مجرى روافد نهر الأردن وهو رافد بانياس، وقد قام العدو الصهيوني بتجفيفها كما جفف بحيرة بانياس وحوّل أراضيهما إلى حقول زراعية خصبة غزيرة الإنتاج ولا أدري من أين جاء الاسم؛ ولكن يبدو أنه جاء من التحول في مجرى النهر من الارتفاع إلى الأرض الأكثر سهولة وانسياباً للمياه بدل تدهورها وانحدارها السريع، اي تحوُّل سرعة الماء من الاندفاع السريع إلى الجريان الانسيابي، وصار المكان الذي تم فيه التحول: الحولة.

يطعمهم فواكه الصيف في الشتاء، وكان يقول لهم اخرجوا حتى أريكم الليلة فيخرجهم إلى دير مُرّان فيريهم رجالاً على خيل، فتبعه بشر كثير وفشا الأمر في المسجد وكثر أصحابه حتى وصل الأمر إلى القاسم بن مخيمرة، فعرض على القاسم وأخذ العهد والميثاق إن رضي أمراً قبله وإن كره كتم عليه، فقال له: إني نبيٌّ، فقال له القاسم: كذبت يا عدوّ الله ما أنت نبي ولا لك عهد ولا ميثاق ! فقال له أبو إدريس: ما صنعت شيئاً إذ لم يبين حتى نأخذه الآن يفر، قال: وقام من مجلسه حتى دخل على عبدالملك فأعلمه بأمر حادث من الحارث، فأمر عبدالملك بطلبه فلم يقدر عليه، وخرج عبدالملك فنزل الصُّبيرة، قال: واتهم عامة عسكره، يعني بالحارث، أن يكونوا يرون رأيه، وخرج الحارث حتى أتى بيت المقدس فاختفى فيه.

وكان أصحابه يخرجون فيلتمسون الرجال فيدخلونهم عليه وكان رجل من أهل البصرة قد أتى بيت المقدس فأتاه رجل من أصحاب الحارث فقال له: ههنا رجل يتكلم فهل لك أن تسمع من كلامه؟ قال: نعم، فانطلق معه حتى دخل على الحارث فأخذ في التحميد، فسمع البصري كلاماً حسناً، قال: ثم أخبره بأمره وأنه نبي مبعوث مرسل، فقال له: إن كلامك لحسن ولكن في هذا نظر فانظر، فخرج البصري ثم عاد إليه فرد كلامه فقال: إن كلامك لحسن وقد وقع في قلبي وقد آمنت بك وهذا الدين المستقيم، قال: فأمر أن لا يحجب، قال: فأقبل البصري يتردد ويعرف مداخله ومخارجه وأين يذهب وأين يهرب حتى صار من أخص الناس به، ثم قال له: ائذن لي، فقال: على أين؟ فقال: إلى البصرة أكون أول داعية لك بها، قال: فأذن له فخرج البصري مسرعاً إلى عبدالملك وهو بالصُّبيرة، فلما دنا من سُرادقه صاح النصيحة النصيحة ! فقال أهل العسكر: وما نصيحتك؟ قال: هي نصيحة لأمير المؤمنين، قال: فأمر

عبدالملك أن يأذنوا له فدخل وعنده أصحابه، قال: فصاح النصيحة النصيحة! فقال: وما نصيحتك؟ قال: اخلِني لا يكن عندك أحد، قال: فأخرج من كان عنده، وكان عبدالملك قد اتهم أهل عسكره أن يكون هواهم معه، ثم قال له: ادنني، فأدناه وعبدالملك على السرير.

فقال: ما عندك؟ فقال: عندي أخبار الحارث، فلما سمع عبدالملك بذكر الحارث طرد نفسه من السرير ثم قال: أين هو؟ قال: يا أمير المؤمنين هو ببيت المقدس وقد عرفت مداخله، وقصّ عليه قصته وكيف صنع به، فقال له: أنت صاحبه وأنت أمير بيت المقدس وأميرها ههنا فمرني بما شئت، فقال: ابعث معي قوماً لا يفقهون الكلام، فأمر اربعين رجلاً من أهل فرغانة وقال لهم: انطلقوا مع هذا فما أمركم به من شيء فأطيعوه، قال: وكتب إلى صاحب بيت المقدس إن فلاناً لأمير عليك حتى تخرج فأطعه فيما يأمرك به، فلما قدم البيت المقدس أعطاه الكتاب فقال له: مُرْني بما شئت فقال: له أجمع لي إن قدرت كل شمعة تقدر عليها ببيت المقدس وادفع كل شمعة إلى رجل ورتبهم على أزقة بيت المقدس فإذا قلت اسرجوا فليسرجوا جميعاً، قال: فرتبهم في أزقة بيت المقدس وفي زواياها بالشمع.

فأقبل البصرى وحده إلى منزل الحارث فأتى الباب وقال للحاجب: استأذن لي على نبي الله، قال: في هذه الساعة ما يؤذن عليه حتى تصبح! قال: أعلمه إنما رجعت شوقاً إليه قبل أن أصل، قال: فدخل عليه فأعلمه كلامه ففتح الباب ثم صاح البصري أسرجوا فأسرجت الشموع حتى كان بيت المقدس كأنه نهار، ثم قال: من مرّ بكم فاضبطوه، قال: ودخل هو إلى الموضع الذي يعرفه فنظره فلم يجده فقال أصحابه: هيهات تريدون أن تقتلوا نبي الله وقد رفعه الله إلى السماء! قال: فطلبه في شقّ كان هيأه سرَباً فأدخل البصري يده في ذلك

السرب فإذا بثوبه فاجتره فأخرجه إلى خارج ثم قال للفرغانيين: اربطوه فربطوه، فبينما هم كذلك يسيرون به على البريد إذ قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ فقال أهل فرغانة أولئك العجم: هذا كُرانا فهات كرانك أنت، فسار به حتى أتى عبدالملك، فلم سمع به أمر بخشبة فنصب فصلبه وأمر بحربة وأمر رجلاً فطعنه فأصاب ضِلعاً من أضلاعه فكاعت الحربة، فجعل الناس يصيحون: الأنبياء لا يجوز فيهم السلاح!

فلما رأى ذلك رجل من المسلمين تناول الحربة ثم مشى بها إليه ثم أقبل يتجسس حتى وافى بين ضلعين فطعنه بها فأنفذها فقتله؛ فقال الوليد: ولقد بلغني أن خالد بن يزيد بن معاوية دخل على عبدالملك فقال، لو حضرتُك ما أمرتك بقتله ! قال: ولِمَ؟ قال: إنما كان به المُذْهِبُ فلو جَوَّعه لذهب عنه ذلك، والمذهِب الوسوسة، ومنه المُذْهِبُ وهو وَسْوَسَة الوضوء ونحوه. قال القاضي عبدالصمد بن سعيد في تاريخ حمص: كان العِرْباض بن سارية السُّلَمي يسكن حولة حمص » (الحموي: ج 2، ص 323-324).

-58-

ب / الحُولة[1]

(الموسوعة الإسلامية)

---

(1) الحولة: اسم لبلدتين، تلك التي في دمشق، والتي يبدو أنها مشتقة من كلمة التحويل: أي أن تكون نقطة افتراق، يتحول فيها الشخص من جهة إلى أخرى، أو من جبل إلى سهل أو العكس. وقد تكون مأخوذة في نجد من الحَوَل وهو الانحراف في النظر، بحيث أن من ينظر إليها يشعر بذلك وقد تكون مشتقة من الحَوْل وهو مضي عام على الشيء ليبدأ العام الذي يليه: أي على الحَوْلْ. أما في مجرى نهر الأردن، فيبدو في الأغلب أن التسمية جاءت من التحول في مجرى النهر من الاندفاع إلى الانسياب، كما ذكرنا في حاشية سابقة، والله أعلم.

«حُولة» مدينة في بلاد العرب في ناحية صُدَيْر من أعمال نجد شمال حريملة (انظر هذه المادة)؛ وبعض أهلها تجار والبعض الآخر مزارعون، وقد ازدادت تجارتها ورخاؤها زيادة عظيمة في ظل الحكم الوهابي. وكانت حولة خلال إقامة بلجريف Palgrave بنجد من أكثر لأماكن ازدهاراً في تصدير، وتكتنف الأسوار هذه المدينة[1].

المصادر:

1- Narrative of a : Paligrave Years Journal in Arabia (لندن 1865، ج 1 ، ص 338 وما بعدها). يونس [شليفر J. Schleifer]

«الحولة» ناحية ملحقة بولاية دمشق بين بانياس وصور؛ وفي طرفها الجنوبي بحيرة حولة ويسميها الجغرافيون أيضاً بحيرة قَدَس، وقد كوّنها نهر الأردن، وتكتنفها مستنقعات حافلة بالعيون، ويطلق عليها السكان الحاليون اسم بحرة الخيط؛ وفي رواية المقدسي أنه أقيم عليها سدّ لزيادة مياه البحيرة، وكانت تغطي شواطئها الحلفاء التي ينسج منها السكان الحصر والحبال؛ وتزخر البحيرة بالسمك، ويذكر المقدسي من الأسماك البنى، وقد استحضر إليها من واسط (انظر Fleischer على كتاب Levy: Neubr. Ohald Worterbuch ج 1، ص 285؛ وانظر أيضاً Zeitschr. D. Deutsch Pal-Varcins ج 13 ص 75)؛ وأرض ناحية الحولة بعضها منخفض، وهي تنتج الصوف والأرز ويتبعها عدد كبير من القرى يزيد على المائتين في رواية الظاهري.

المصادر:

1- المكتبة الجغرافية العربية؛ ج 3، ص 156، ص 160 وما بعدها، ص 184 ؛ ج 5، ص 105.

(1) وبذلك نجد أن هناك ثلاثة مواقع تسمى الحولة وهي البحيرة التي تحمل هذا الاسم بالأردن، وهي على مجرى أحد روافده والثانية في حمص، والثالثة في نجد. وبحيرة الحولة تسمى بحيرة قَدَس.

2- الدمشقي Cosmographie (طبعة مهران)، ص 105.
3- ياقوت (طبعة فستنفلد)؛ ج 2، ص 366.
4- R. Hartmann : خليل الظاهري؛ ص 55.
5- Geographie des alten: Buhl Palastina ؛ ص 63 و 112 وما بعدها.
6- Palestine: Robinson ؛ ج 2، ص 393-396.
7- Zeischr. D. Deutson Pal-Vereins ؛ ج 9 ، ص 252.
8- Dalman: Plalastina Jahrtuch ، 1912، ص 44. خورشيد [بول Fr. Buhl]

-59-

1- عكــا[1]: (المسالك والممالك / ابن خرداذبة: ص **78**، ص **255**)

وهي من كورة الأردن ومن الثغور على الساحل ورد ذكرها عند ابن خرداذبة مرتين. في المرة الأولى في تعداد تتضمنه كورة الأردن « ... كورة صفورية، كورة عكا، كورة قَدَس، ... » (ابن خرداذبة: ص 78).

ووردت، بنفس الكتاب، في ذكر سواحل جند الأردن صور، وعكا معاً – « ... وسواحل جند الأردن صور وعكا وبصور صناعة المراكب، ... » (ابن خرداذبة: ص 255).

2- عكــا : (أحسن التقاسيم / المقدسي: ص **162-163**)

« عكّا: مدينة حصينة على البحر كبيرة الجامع فيه غابة زيتون تقوم بسرجه وزيادة ولم تكن على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون وقد كان رأى صور

---

(1) عكّا: تكتب بالألف الممدودة والتاء المربوطة، واحدة من ثغور الأردن وسواحله وموانئه التاريخية، وأصبحت فيما بعد من ثغور وسواحل فلسطين، ثم صار احتلالها عام 1948 من قِبَل الصهاينة، فأصبحت مدينة محتلة إسرائيلياً، إلا أن الباحث في تاريخها حتى نهاية العصر العباسي، يجدها واحدة من مدن الأردن وليس من مدن فلسطين. ولعكا تاريخ عريق.

ومنعتها واستدارة الحائط على ميناها فأحب أن يتخذ لعكا مثل المينا فجمع صنّاع الكَوْرَة وعرض عليهم ذلك فقيل لا يهتدى أحد إلى البناء في الماء في هذا الزمان ثم ذكر له جَدّنا أبو بكر البنّاء وقيل إن كان عند أحد علم هذا فعنده فكتب إلى صاحبه على بيت المقدس حتى أنهضه إليه فلما صار إليه وذكر له ذلك قال هذا أمر هيّن عليّ بفِلَق الجُمّيز الغلظية فصفّها على وجه الماء بقدر الحصن البريّ وخيّط بعضها ببعض وجعل لها باباً من الغرب عظيماً ثم بنى عليها بالحجارة والشيد وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها أعمدة غلاظ ليشتدّ البناء وجعلت الفلق كلما ثقلت نزلت حتى إذا علم أنها قد جلست على الرمل تركها حولاً كاملاً حتى أخذت قرارها ثم عاد فبنى من حيث ترك كلما بلغ البناء إلى الحائط القديم داخله فيه وخيّطه به ثم جعل على الباب قنطرة فالمراكب في كل ليلة تدخل المينا وتجرّ السلسلة مثل صر قال فدفع إليه ألف دينار سوى الخلع وغيرها من المركوب واسمه عليه مكتوب وقد كان العدو قبل ذلك يغير على المراكب والجشُّ قرية وهي قريبة من القصبة موضوعة بين أربعة من الرساتيق قريبة من البحر » (المقدسي: ص 162-163).

3- عكــا : (تلخيص الآثار / الباكوتي: ص 46 أ)

عكا: مدينة على ساحل بحر الشام من عمل الأردن أحسن بلاد الساحل وأعمرها وهي كثيرة حصينة ولم تكن على هذه الحصانة حتى قدمها ابن طولون قد رأى مدينة صور واستدارة الحايط على مبيتها فأجبر أن يتخذ عكة مثلها ذلك. بها عين البقر (كلمات غير مقروءة) وهي مباركة يزورها الناس» (الباكوتي: ص 46 أ).

4- مسلمو عكا: (ابن جبير (ت614هـ): ص 279-282)

ذكر في كتابه: رحلة ابن جبير:

«ثم عُدْنا إلى عكة في الباخرة، وحللناها صبيحة يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى المذكورة، وأول يوم من شهر أكتوبر[1]، واكترينا في مركب كبير نروم الإقلاع إلى مسّينة من بلاد جزيرة صقلية، والله تعالى كفيل بالتيسير والتسهيل بعزّته وقدرته. وكانت راحتنا مدة مقامنا بصور بمسجد بقي بأيدي المسلمين. ولهم فيها مساجد أخر. فأعلمنا به أحد أشياخ أهل صور من المسلمين أنها أُخذت منهم سنة ثماني عشرة وخمس مئة، وأُخذت عكة قبلها باثنتي عشرة سنة بعد محاصرة طويلة وبعد استيلاء المَسْغَبَة[2] عليهم؛ ذكرَ لنا أنهم انتهوا منها لحال نعوذ بالله منها، وأنهم حملتهم الأنفة على أن همّوا بركوب خُطّة عصمهم الله منها، وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبناءهم في المسجد الجامع ويحملوا السيف عليهم غيرة من تملك النصارى لهم ثم يخرجوا إلى عدوّهم بعزمة نافذة ويصدموهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد ويقضي الله قضاءه. فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورّعون منهم وأجمعوا على دفع البلد والخروج منه بسلام، فكان ذلك.

وتفرّقوا في بلاد المسلمين، ومنهم من استهواه حبّ الوطن فدعاه إلى الرجوع والسكنى بينهم بعد أمان كُتب لهم في ذلك بشروط اشترطوها، والله غالب على أمره، سبحانه جلّت قدرته، ونفذت في البريّة مشيئته، وليست له عند الله معذرة في حلول بلدة من بلاد الكفر إلاّ مجتازاً، وهو يجد مندوحة في بلاد المسلمين، لمشقّات وأهوال يعانيها في بلادهم: منها الذلّة والمسكنة الذميّة؛ ومنها سماع ما يفجع الأفئدة من ذكر من قَدّسَ الله ذكره، وأعلى خطره، لا سيما من أرذالهم وأسافلهم؛ ومنها عدم الطهارة، والتصرف بين الخنازير، وجميع المحرمات؛

---

(1) أكتوبر: تشرين الأول.

(2) المسغبة: الجوع.

إلى غير ذلك مما لا ينحصر ذكره ولا تعداده، فالحذر الحذر من دخول بلادهم، والله تعالى المسؤول حسن الإقالة والمغفرة من هذه الخطيئة التي زلّت فيها القدم، ولم تتداركها إلا بعد موافقة الندم، فهو سبحانه وليّ ذلك، لا ربّ غيره» (ابن جبير: ص 279-280).

5- أسرى المسلمين

« ومن الفجائع التي يعانيها من حلّ بلادهم أسرى المسلمين، يرسفون في القيود، ويُصرّفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك، في أسوُقهن خلاخيل الحديد، فتنفطر لهم الأفئدة ولا يُغْني الإشفاق عنهم شيئاً.

ومن جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة، بهذه البلاد الشامية الإفرنجية، أكل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعيّنها في افتكاك المغاربة خاصة لبُعدهم عن بلادهم وأنهم لا مخلّص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم. فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين من النساء وأهل اليسار والثراء إنما ينفقون أموالهم في هذه السبيل. وقد كان نور الدين، رحمه الله، نذر في مرْضة أصابته تفريق أثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة. فلما استبلّ من مرضه أرسل في فدائهم، فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة، وكانوا من حَمَاة من جملة عمالته، فأمر بصرفهم وإخراج عوض عنهم من المغاربة، وقال: هؤلاء يَفْتَكهم أهلوهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم. فانظر إلى لطيف صنع الله تعالى لهذا الصنف المغربي » (ابن جبير: ص 280).

وقيّض الله لهم بدمشق رجلين من مياسر التجار وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين في الثراء: أحدهما يعرف بنصر بن قوام، والثاني بأبي الدرّ ياقوت

مولى العطّافي، وتجارتهما كلها بهذا الساحل الإفرنجي، ولا ذكر فيه لسواهما، ولهما الأمناء من المُقارضين، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما، وشأنهما في الغنى كبير، وقدرهما عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير، وقد نصبهما الله عز وجل لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما وأموال ذوي الوصايا، لأنهما المقصودان بها لما قد اشتهر من أمانتهما وثقتهما وبذلهما أموالهما في هذه السبيل، فلا يكاد مغربي يُخلّص من الأسر إلا على أيديهما، فهما طول الدهر بهذه السبل ينفقان أموالهما ويبذلان اجتهادهما في تخليص عباد الله المسلمين من أيدي أعداء الله الكافرين، والله تعالى لا يضيع أجر المحسنين » (ابن جبير: ص 281).

6- سوء الاتفاق

« ومن سوء الاتفاقات، المستعاذ بالله من شرّها، أنه صَحِبنا في طرقنا إلى عكة من دمشق رجل مغربي من بُونَة عمل بجاية، كان أسيراً فتخلّص على يدي أبي الدرّ المذكور وبقي في جملة صبيانه، فوصل في قافلته إلى عكة، وكان قد صحب النصارى وتخلّق بكثير من أخلاقهم، فما زال الشيطان يستهويه ويغريه إلى أن نبذ دين الإسلام فكفر وتنصّر مدة مقامنا بصور. فانصرفنا إلى عكة، وأُعلِمْنا بخبره، وهو بها قد بُطِسَ[1] ورُجِس، وقد عقد الزنّار، واستعجل النار، وحقّت عليه كلمة العذاب، وتأهّب لسوء الحساب، وسَحِيق المآب، نسأل الله عز وجل أن يثبتنا بالقول الثابت في الدنيا والآخرة، ولا يعدل بنا عن الملّة الحنيفية، وأن يتوفانا مسلمين، بفضله ورحمته » (ابن جبير: ص 281).

وهذا الخنزير صاحب عكّة، المسمى عندهم بالملك، محجوب لا يظهر، قد ابتلاه الله بالجُذام، فعجّل له سوء الانتقام، قد شغلته بلواه في صباه، عن نعيم

(1) بطس: عَمّدَ، معرّبة عن الإسبانية.

دنياه، فهو فيها يشقى، ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى. وحاجبه وصاحب الحال عوضَه خالد القُومِس[1]، وهو صاحب المَجْبَى، وإليه ترتفع الأموال، والمُشرف على الجميع بالمكانة والوجاهة، وكبر الشأن في الإفرنجية اللعينة، القومِس اللعين، صاحب طرابلس وطبرية، وهو ذو قدر ومنزلة عند الإفرنج، وهو المؤهّل لِلمُلْكِ والمرشح له، وهو موصوف بالدهاء والمكر. وكان أسيراً عند نور الدين نحو اثنتي عشرة سنة أو أزيد، ثم تخلّص بمال عظيم بذل في نفسه مدة صلاح الدين وعند أول ولايته، وهو معترف لصلاح الدين بالعبودية والعتق.

وعلى بادية طبرية اختلاف القوافل من دمشق لسهولة طريقها. ويُقصد بقوافل البغال على تِبْنِين لوعورتها وقصد طريقها. وبحيرة طبرية مشهورة وهي ماء عذب، وسعتُها نحو ثلاثة فراسخ أو أربعة، وطولها نحو ستة فراسخ. والأقوال فيها تختلف، وهذا القول أقربها إلى الصحة، لأنا لم نعاينها، وعرضها أيضاً مختلف سعةً وضيقاً. وفيها قبور كثيرة من قبور الأنبياء، صلوات الله عليهم، كشعيب وسليمان ويهوذا ورُوبيل وابنة شعيب زوج الكليم موسى وغيرهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وجبل الطور منها قريب.

وبين عكة وبيت المقدس ثلاثة أيام. وبين دمشق وبينه مقدار ثمانية أيام وهو بيت المغرب والقبلة من عكة إلى جهة الإسكندرية، والله يعيده إلى أيدي المسلمين، ويطهّره من أيدي المشركين، بعزته وقدرته » (ابن جبير: ص 282).

7- ذكر مدينة عكة، دمرها الله واعادها (رحلة ابن جبير)

« هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام[2]، مرفأ كل سفينة، والمشبّهة في عظمها بالقسطنطينية، مجتمع السفن

(1) القومس: مأخوذة عن الإسبانية قوميز: الكونت.

(2) انظر سورة الرحمن، الآية 24.

والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، سككها وشوارعه تغصّ بالزحام، وتضيق فيها مواطئ الأقدام، تستعِر كفراً وطغياناً، وتفور خنازير وصلباناً، زَفِرَة قذرة، مملوءة كلها رِجْساً وعَذِرة. انتزعها الإفرنج من أيدي المسلمين في العشر الأول من المئة السادسة، فبكى لها الإسلام ملء جفونه، وكانت أحد شجونه. فعادت مساجدها كنائس، صوامعها مضارب للنواقيس، وطهّر الله من مسجدها الجامع بقعة بقيت بأيدي المسلمين مسجداً صغيراً، يجتمع الغرباء منهم فيه لإقامة فريضة الصلاة. وعند محرابه قبر صالح النبي ﷺ وعلى جميع الأنبياء، فحرس الله هذه البقعة من رجس الكفرة ببركة صاحب هذا القبر المقدس.

وفي شرقيّ البلدة العين المعروفة بعين البقر، وهي التي أخرج الله منها البقر لآدم، ﷺ . والمهبط لهذه العين على أدراج وَطِيّة، وعليها مسجد بقي محرابه على حاله، ووضع الإفرنج في شرقيّه حراباً لهم. فالمسلم والكافر يجتمعان فيه، يستقبل هذا مصلاّه وهذا مصلاّه. وهو بأيدي النصارى معظّم محفوظ، وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين.

فكان مقامنا بها يومين، ثم توجّهنا إلى صور يوم الخميس الثاني عشر لجمادى المذكورة، والموافي عشرين لشتنبر/ سبتمبر (شهر أيلول) المذكور على البر، واجتزنا في طريقنا على حصن كبير يُعرف بالزاب، وهي مطلة على قرى وعمائر متصلة وعلى قرية مسوّرة تُعرف باسكَنْدَرونة، وذلك لمطالعة مركب بها أعلمنا أنه يتوجه إلى بجاية طمعاً في الركوب فيه، فحللناها عشيّ يوم الخميس المذكور، لأن المسافة بين المدينتين نحو الثلاثين ميلاً، فنزلنا بها في خان مُعَدّ لنزول المسلمين » (ابن جبير: ص 276-277).

فنزلنا يوم الاثنين المذكور بضيعة من ضياع عكّة، على مقدار فرسخ، ورئيسها الناظر فيها من المسلمين مقدّم من جهة الإفرنج على من فيها من

عُمّارها من المسلمين. فضاف جميع أهل القافلة ضيافةً حفيلة وأحضرهم صغيراً وكبيراً في غرفة متسعة بمنزله وأنالهم ألواناً من الطعام قدّمها لهم، فعمّهم بتكرمته؛ وكنا فيمن حضر هذه الدعوة.

وبتنا تلك الليلة وصبحنا يوم الثلاثاء العاشر من الشهر المذكور، وهو الثامن عشر شتنبر (أيلول)، مدينة عكة، دمّرها الله، وحُمِلنا إلى الديوان، وهو خان مُعدّ لنزول القافلة، وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كُتّاب الديوان من النصارى بمحابر الأبنوس المذهّبة الحلى، وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها، ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يُعرف بالصاحب، لقب وقع عليه لمكانه من الخُطّة، وهم يعرفون به كل مُحتشم متعيّن عندهم من غير الجند» (ابن جبير: ص 275).

8- عكـة : (معجم البلدان / الحموي: ج **4**، ص **143-144**)

« عَكّةُ: بفتح أوله، تشديد ثانيه؛ قال أبو زيد: العَكّة الرملة حميت عليها الشمس، وقال الليث: العكة من الحرّ الفورة الشديدة في القيظ وهو الوقت الذي تركد فيه الريح، وقد تقدم في عك ما فيه كفاية؛ قال صاحب الملحمة: طول عكة ست وستون درجة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة، وفي ذرع أبي عون: طولها ثمان وخمسون درجة وخمس وعشرون دقيقة، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وثلث، وهي في الإقليم الرابع.

وعكة: اسم بلد على ساحل بحر الشام من عمل الأردن، وهي من أحسن بلاد الساحل في أيامنا هذه وأعمرها، قال أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء البشاري: عكة مدينة حصينة كبيرة الجامع فيه غابة زيتون يقوم بسرجه وزيادة، ولم تكن على هذه الحصانة حتى قدمها ابن طولون وكان قد رأى صور واستدارة الحائط على مينائها فأحب أن يتخذ لعكة مثل ذلك الميناء فَجَمَعَ صنّاع الكور وعرض عليهم ذلك فقيل له لا يهتدي أحد إلى البناء في الماء في هذا

الزمان، ثم ذكر له جدّنا أبو بكر البنّاء وقيل له: إن كان عندهم أحدهم فيه علم فهو عنده، فكتب إليه وأتي به من المقدس وعرض عليه ذلك فاستهان به والتمسَ منهم إحضار فِلَقٍ من خشب الجميز غليظة، فلما حضرت عمد يصفّها على وجه الماء بقدر الحصن البري وضمّ بعضها إلى بعضها وجعل لها باباً عظيماً من ناحية الغرب ثم بنى عليها الحجارة والشيد وجعل كلما بنى الخمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء، وجعلت الفلق كلما ثقلت نزلت حتى إذا علم أنها قد استقرت على الرمل تركها حولاً كاملاً حتى أخذت قرارها ثم عاد فبنى من حيث ترك، وكلما بلغ البناء إلى الحائط الذي قبله أدخله فيه ثم جعل على الباب قنطرة والمراكب كل ليلة تدخل الميناء وتجر سلسلة بينها وبين البحر الأعظم مثل صور، قال: فدفع إليه ألف دينار سوى الخلع والمركوب، واسمه عليه مكتوب إلى اليوم، قال: وكان العدو قبل ذلك يغير على المراكب.

وفتحت عكة في حدود سنة 15 هـ على يد عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان، وكان لمعاوية في فتحها وفتح السواحل أثر جميل، ولما ركب منها إلى غزوة قبرص[1] رمّها وأعاد ما تشعّث منها وكذلك فعل بصور، ثم خربت

(1) نلاحظ أن الأسطول البحري الإسلامي زمن معاوية بن أبي سفيان عندما كان والياً على الأردن، قد خرج من عكة، أي من الساحل الأردني وبذلك، يكون الأردن بلاداً تشتمل على:

أ- سَرَغ (المدورة حالياً) حيث اجتمعت الجيوش الإسلامية تفرّقت للفتح.

ب- معركة أبل الزيت (عابل) التي من خلالها دخل عمرو بن العاص فاتحاً لفلسطين ثم إلى مصر.

ج- معركة مؤتة.

د- معركة أجنادين.

هـ- معركة طبقة فحل.

و- معركة اليرموك وما أدراك ما اليرموك.

ز- الساحل الذي انطلقت منه الفتوحات البحرية، فضلاً عن حطين وعين جالوت.

فجدّدها هشام بن عبدالملك، وكانت فيها صناعة بلاد الأردن، وهي محسوبة من حدود الأردن، ثم نقل هشام الصناعة منها إلى صور فبقيت على ذلك إلى قرابة أيام الإمام المقتدر ثم اختلفت أيدي المتغلبين عليها، وعُمّرت عكة أحسن عمارة وصارت بها الصناعة إلى يوما هذا، وهي للإفرنج، وفي الحديث: طوبى لمن رأى عكة؛ وقال الفراء: هذه أرض عكة وأرض عكة، تضاف ولا تضاف، أي حارة؛ وكانت قديماً بيد المسلمين حتى أخذها الإفرنج ومُعْديهم بغدوين صاحب بيت المقدس من زهر الدولة بناء الجيوشي[1] منسوب إلى أمير الجيوش بدر الجمالي أو ابنه، وكان بها من قبل المصريين، فقصد الإفرنج براً وبحراً في سنة 497 هـ فقاتلهم أهل عكة حتى عجزوا عنهم لقصور المادة بهم وكان أهل مصر لا يمدونهم بشيء فسلموها إليهم وقتلوا منها خلقاً كثيراً وسبوا جماعة أخرى حملوهم إلى خلف البحر، وخرج زهر الدولة حتى وصل إلى دمشق ثم عاد إلى مصر، ولم تزل في أيديهم حتى افتتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب في جمادى الأولى سنة 583 هـ وأشحنها بالرجال والعدد والميرة، فعاد الإفرنج ونزلوا عليها وخندقوا دونهم خندقاً وجاءهم صلاح الدين ونزل دونهم وأقام حولهم ثلاث سنين حتى استعادها الإفرنج من المسلمين عنوة في سابع جمادى الآخرة سنة 587 وأحضروا أسارى المسلمين وكانوا نحو ثلاثة آلاف وحملوا عليهم حملة واحدة فقتلوهم عن آخرهم[2]، وهي في أيديهم إلى الآن، وقد نُسب إليها قوم،

---

(1) هكذا في الأصل.

(2) ثلاثة آلاف أسير مسلم، في عكة، يقتلهم الصليبيون دفعة واحدة، وفي وقت واحد، ومكان واحد، وهو ما لا يفعله المسلمون، وقد رأينا كيف ذكر ابن جبير ما حلّ بأهل المغرب والأندلس من ذكور وإناث من إذلال وعبودية، وإغلال وقيود وبيع في سوف النخاسة، واستخدام في الأعمال المذِلّة والشاقة. وبمقارنة بسيطة يحق لكل أوروبي أن يطأطأ رأسه من هذا الخزي من تاريخ آبائه وأجداده التي لا تعرف الإنسانية والشرف والكرامة، ويحق لكل مسلم أن يتباهى بتاريخنا العربي الإسلامي في الفتوحات والقتال القائم على الأخلاق وهي =

منهم: الحسن بن إبراهيم العكي، يروي عن الحسن بن جيري الصوري، روى عنه عبدالصمد بن الحكم » (الحموي: ج 4، ص 143-144).

9- عكـة: (آثار البلاد وأخبار العباد / القزويني: ص 223-224)

« مدينة على ساحل بحر الشام من عمل الأردن، من أحسن بلاد الساحل في أيامنا وأعمرها، وفي الحديث: طوبى لمن رأى عكة! قال البشاري: عكة مدينة حصينة على البحر كبيرة، لم تكن على هذه الحصانة حتى قدمها ابن طولون وقد رأى مدينة صور واستدارة الحائط على ميناها، فأحبّ أن يتخذ لعكة مثل ذلك، فجمع صُنّاع البلاد فقالوا: لا نهتدي إلى البناء في الماء، حتى ذكر عنده جدي أبو بكر البنّاء، فأحضره وعرض عليه فاستهان ذلك وأمر بإحضار فلق من خشب الجمّيز غليظة، نصبها على وجه الماء بقدر الحصن البري، وبنى عليها الحجارة والشيد، وجعل كلما بنى عليها خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء، والفلق كلما ثقلت نزلت حتى إذا علم أنها استقرت على الرمل تركها حولاً حتى أخذت قرارها، ثم عاد فبنى عليها، وكلما بلغ البناء إلى الحائط الذي قبله داخله فيه. وقد ترك لها باباً وجعل عليه قنطرة. فالمراكب في كل ليلة تدخل الميناء وتجرّ سلسلة بينها وبين البحر إلا عظم مثل مينة صور، فدفع ابن طولون إليه ألف دينار سوى الخلع والمراكب واسمه مكتوب على السور. ولم تزل في أيدي المسلمين حتى أخذها الفرنج في سنة سبع وتسعين وأربعمائة، وكان عليها زهر الدولة الجيوشي من قبل المصريين، فقاتل أهل عكة حتى عجزوا. فأخذها الفرنج قهراً وقتلوا وسلبوا ولم تزل في أيديهم إلى زمن صلاح الدين، فافتتحها سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وشحنها بالسلاح والرجال والميرة، فعاد الفرنج

= الأمور التي يرفضها ممن يدّعون أنهم جاءوا لتخليص الصليب من الاحتلال الإسلامي والعربي، فقتلوا المسيحي العربي قبل المسلم العربي وأسروا الجميع واعتبروهم مسلمين. يا إلهي هكذا مكتوب على أمتنا العربية أن نعاني من الإبادة والاضطهاد والاستبداد.

وتولوا عليها فأتاهم صلاح الدين وأزاحهم عنها، وقاتل الفرنج أشد القتال، وقتل خلق كثير حول عكة وثارت روائح الجيف وتأذى المسلمون منها وظهرت فيهم الأمراض، ومرض صلاح الدين أيضاً فأمره الأطباء بمفارقة ذلك الموضع ففارقه، فجاء الفرنج وتمكّنوا من حوالي عكّة وخندقوا دونهم، فكان الفرنج محيطين بالمدينة والخندق محيطاً بالفرنج، فعاودهم صلاح الدين وأقام حذاءهم ثلاث سنين حتى استعادها الفرنج سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وقتلوا فيها المسلمين وهي في أيديهم إلى الآن.

بها عين البقر وهي بقرب عكة يزورها المسلمون واليهود والنصارى، يقولون: إن البقر الذي ظهر لآدم عليه السلام ، فحرث عليها خرج منها، وعلى العين مشهد منسوب إلى عليّ بن أبي طالب » (القزويني: ص 223-224).

10- عكـا: (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر / الدمشقي شيخ الربوة محمد بن أبي طالب (ت727هـ): ص 213)

« ومدينة عكا بناها عبدالملك بن مروان وغلبت عليها النصارى ثم فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو الملك الناصر لم يفتح صور صلاح الدين يوسف فغلبت عليها النصارى ففتحها صلاح الدين خليل ابن الملك المنصور أخربها وفتح بفتحها عثليث وحيفا واسكندرونة وصور وصيدا وبيروت وجُبَيْل وأنفة والبَتْرون وصرفند في مدة سبعة وأربعين يوماً، وكان فتحاً مبيناً وثغراً غزيراً » (الدمشقي: ص 213).

11- مدينة عكا في رحلة ابن بطوطة:

(تحفة النظّار، في عجائب الأمصار، وغرائب الأمصار: ابن بطوطة (ت 779هـ): ص 35)

قال ابن بطوطة: « سافرت من القُصَيْر[1] إلى مدينة عكة وهي خراب، وكانت عكة قاعدة بلاد الإفرنج بالشام، ومرسى سفنهم، وتشبه قسطنطينية

---

(1) قرية تقع في غور الأردن.

العظمى، وبشرقيها عين ماء تُعرف بعين البقر، يقال: إن الله تعالى أخرج منها البقر لآدم ﷺ، وينزل إليها في درج، وكان عليها مسجد بقي منه محرابه، وبهذه المدينة قبر صالح ﷺ وهذه المدينة ميناء كباقي موانئ ساحل البحر الأبيض المتوسط، ولكنه لم يكن يحمل إلا السفن الصغيرة » (ابن بطوطة: ص 35). وسعت وصور أول الأمر.

12- عكـا: (الروض المعطار / الحميري: ص **410-411**)

« عَكّاً: مدينة كبيرة من ثغور الشام واسعة بينها وبين طبرية يومان.

وهي قاعدة[1] مدن الإفرنج بالشام ومحطّ الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة، والمشبهة في عظمها واحتفالها بالقسطنطينية، مجمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، سككها وشوارعها تغص بالزحام، وهي زَفِرَةٌ قَذِرَةٌ، مملوءة كلها رجساً وعُذْرَةً، أخذها الفرنج من أيدي المسلمين في العشر الأول من المائة السادسة، فعادت مساجدها كنائس، صوامعها مضارب للنواقيس، وطهر الله من مسجدها الجامع بقعة بقيت بأيدي المسلمين مسجداً صغيراً يجتمع الغرباء فيه لإقامة فريضتهم، وعند محرابه قبر النبي صالح ﷺ، وفي شرقي البلد العين المعروفة بعين البقر، وهي التي أخرج الله منها البقر لآدم ﷺ والمهبط إلى هذه العين على أدراج وطية، وعليها مسجد بقي محرابه على حاله، ووضع الإفرنج في شرقيه محراباً لهم، فالمسلم والكافر يجتمعان فيه، فيستقبل هذا مُصلاّه، وهذا مُصَلّه، وهو بأيدي النصارى معظم محفوظ. وهي كثيرة[2] الضياع ولها مرسى حسن مأمون، وبها أخلاط من ناس شتى.

---

(1) نجده نقل حرفيّاً ما ورد في رحلة ابن جبير ص303.

(2) نزهة المشتاق: 115.

وكانت قُطْراً معتبراً عند الإسلاميين وأهل الصليب متجاذباً أبداً مرغوباً فيه، وفي آخر الأمر استولى المسلمون عليه فهدموه ومحوا أثره على أيدي أحد الملوك المتأخرين من المصريين » (الحميري: ص 410-411).

-60-

أ/ صـور[1]

(المسالك والممالك / ابن خرداذبة: ص 198-229، ص 255)

وهي من كورة الأردن أيضاً قد تعدد ذكرها في الكتاب المذكور.

فذكرها ابن خرداذبة في وصف الطريق من الجزيرة إلى الساحل مبتدئاً بوصف الطريق من الرقة ومنتهياً بغزة.

«.... ثم إلى أطْرابُلُس الشامية، ثم إلى بيروت، ثم إلى صيدا، ثم إلى صور،...» (ابن خرداذبة، ص 198).

وعن السكك بين صور وطبرية يقول أبو الفرج في كتاب الخراج وصنعة الكتابة أن هناك سبع سكك. « ... نرجع إلى الطريق العادلة من طبرية إلى صور، من طبرية إلى صور سبع سكك » (ابن خرداذبة: ص 299). وفي تعداد الثغور البحرية وردت (صور) في كتاب أبي الفرج

« .... وسواحل جند الأردن صور وعكا وبصور صناعة المراكب... » (ابن خرداذبة: ص 255).

---

(1) صور: واحدة من ثغور الأردن التاريخية على البحر الرومي أي الأبيض المتوسط. وفي تاريخها العميق كانت فينيقية، سيطر عليها الفينيقيون العرب المهاجرين إليها من الساحل الشرقي لجزيرة العرب/ منطقة عُمَان، حيث لا تزال توجد مدينة أثرية هناك في عمان بنفس الاسم وهو: صور. وقد كانت عاصمة الفينيقيين الذين احتلوا الساحل الإفريقي واستقروا في قرطاج وهي تونس فيما بعد. وقد تحولت إلى لبنان في نهاية العصر العباسي بعد مئات السنين من أردنيّتها.

-60-

ب/ صــــور

(أحسن التقاسيم / المقدسي: ص 163-164)

« وصور: مدينة حصينة على البحر بل فيه يدخل إليها من باب واحد على جسر واحد قد أحاط البحر بها ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا أرض تدخل فيه المراكب كل ليلة ثم تجر السلسلة التي ذكرها محمد بن الحسن في كتاب الإكراه ولهم ماء يدخل في قناة معلّقة وهي مدينة جليلة نفيسة بها صنائع ولهم خصائص وبين عكا وصور شبه خليج ولذلك يقال: عكا حِذاء صور، إلا أنك تدور – يعني حول الماء – » (المقدسي: ص 163-164).

-60-

ج/ صــور

(معجم ما استعجم / البكري: ص7)

« ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين، ومرّ بعسقلان وسواحلها، وأتى على صور ساحل الأردن، وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق، ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنّسرين، حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات، منحطاً على أطراف قنسرين والجزيرة، إلى سواد العراق. فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة التي نزلوها على خمسة أقسام: تِهامة، والحِجاز، ونجْد، والعَرُوض، واليَمَن. ومعنى تِهامة والغَوْر واحد، ومَعْنى حِجاز وجَلْس واحد. هكذا ذكر الزُّبَيْر » (البكري: ص 7).

-60-

د/صــور

(رحلة ابن جبير / ابن جبير: ص 277-278)

« مدينة يُضرب بها المثل في الحصانة، لا تُلقي لطالبها بيد طاعة ولا استكانة، قد أعدّها الإفرنج مَفْزَعاً لحادثة زمانهم، وجعلوها مثابة لأمانهم، هي

أنظف من عكة سككاً وشوارع، وأهلها ألين في الكفر طبائع، وأجرى إلى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع، فخلائقُهم أسْجَح[1]، ومنازلهم أوسع وأفسح، وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن، وعكة أكبر وأطغى وأكفر.

وأما حصانتها ومناعتها فأعجب ما يُحدَّث به، وذلك أنها راجعة على بابين: أحدهما في البر، والآخر في البحر، وهو يحيط بها إلا من جهة واحدة، فالذي في البر يُفضي إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة، كلها في ستائر[2] مشيدة محيطة بالباب. وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء، ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها، يحيط بها سور المدينة من ثلاث جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجصّ. فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج، فلا مجال للمراكب إلا عند إزالتها، وعلى ذلك الباب حُرّاس وأمناء، لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم. فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حُسن الوضع، ولعكة مثلها في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وإنما ترسو خارجها والمراكب الصغار تدخل إليها، فالصورية أكمل وأجمل وأحفل.

فكان مقامنا بها أحد عشر يوماً، دخلناها يوم الخميس وخرجنا منها يوم الأحد الثاني والعشرين لجمادى المذكورة، وهو آخر يوم من شتنبر، وذلك أن المركب الذي كنا أملنا الركوب فيه استصغرناه فلم نرَ الركوب فيه.

---

(1) أسجح: ألطف.
(2) ستائر: حيطان.

-60-

هـ/عرس إفرنجي في صور

(رحلة ابن جبير)

ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدّث بها زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساء، واصطفّوا سِماطَيْن عند باب العروس المُهْدَاة، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهْويّة، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال، كأنهما من ذوي أرحامها، وهي في أبهى زيّ، وأفخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حُفّت بشبكة ذهب منسوجة، وعلى لَبّتها مثل ذلك منتظم، وهي رافلة في حَلْيها وحُلَلها، تمشي فِتراً في فِتْر مشي الحمامة أو سير الغمامة، نعوذ بالله من فتنة المناظر، وأمامها جلّة رجالها من النصارى في أفخر ملابسهم البهيّة، تُسحب أذيالها خلفهم، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادَيْن في أنفس الملابس ويرْفُلن في أرفل الحلى، والآلات اللهويّة قد تقدّمتهم، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ولا يُنكرون عليهم ذلك، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها، وأقاموا يومهم ذلك في وليمة. فأدّانا الاتفاق إلى رؤية هذا المنظر الزّخرفيّ المستعاذ بالله من الفتنة فيه » (ابن جبير: ص 277-279).

-60-

و/صــور

(معجم البلدان / الحموي: ج 3، 433-434)

« صور: بضم أوله، وسكون ثانيه، وآخره الراء، وهي في الإقليم الرابع، طولها تسع وخمسون درجة وربع، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وثلثان، وهو

في اللغة القرن، كذا قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ [ق: 20]؛ وهي مدينة مشهورة سكنها خلق من الزهّاد والعلماء، وكان من أهلها جماعة من الأئمة، كانت من ثغور المسلمين، وهي مشرفة على بحر الشام داخلة في البحر مثل الكف على الساعد يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الرابع الذي منه شروع بابها، وهي حصينة جداً ركينة لا سبيل إليها إلا الخذلان.

افتتحها المسلمون في أيام عمر الخطاب ﷺ ، ولم تزل في أيديهم على أحسن حال إلى سنة 518 هـ فنزل عليها الإفرنج وحاصروها وضايقوها حتى نفدت أزوادهم، كان صاحب مصر الآمر قد أنفذ إليها أزوادهم فعصفت الريح على الأسطول فردّته إلى مصر فتعوقت عن الوصول إليها فلما سلموها وصل بعد ذلك بدون العشرة أيام وقد فات الأمر وسلمها أهلها بالأمان وخرج منها المسلمون ولم يبقَ بها إلا صعلوك عاجز عن الحركة وتسلمها الإفرنج وحصنوها وأحكموها، وهي في أيديهم إلى الآن، والله المستعان المرجو لكل خير الفاعل لما يريد، وهي معدودة في أعمال الأردن، بينها وبين عكة ستة فراسخ، وهي شرقي عكة.

وقد نسب إليها طائفة من العلماء، منهم: أبو عبدالله محمد بن عليّ بن عبدالله الصوري الحافظ، سمع الحديث على كبر سن حتى صار رأساً وانتقل إلى بغداد سنة 418 بعد أن طاف البلاد ما بين مصر وأكثر تلك النواحي وكتب عمن بها من العلماء والمحدثين والشعراء وروى عن عبدالغني بن سعيد المصري وأبي الحسن ابن جميع وأبي عبدالله بن أبي كامل، وكان حافظاً متقناً خيّراً ديّناً يسرد الصوم ولا يفطر غير العيدين وأيام التشريق، وبدقة خطه كان يُضرب المثل، فإنه يكتب في الثُمن البغدادي سبعين سطراً أو ثمانين، روى عنه أبو بكر الحافظ الخطيب والقاضي أبو عبدالله الدامغاني وغيرهما، وزعم بعض العلماء أنه لما مات الصوري مضى الخطيب واشترى كتبه من بنت له فإن أجمع تصانيف

الخطيب منها ما عدا التاريخ فإنه من تصنيف الخطيب، قالوا: وكان يذاكر بمائتي ألف حديث، قال غيث: سمعت جماعة يقولون ما رأينا أحفظ منه، وتوفي ببغداد في جمادى الآخرة سنة 441 » (الحموي: ج 3، 433-434).

-60-

ز/عكة وصور

(رحلة ابن جبير / ابن جبير: ص 283)

« وهاتان المدينتان، عكّة وصور، لا بساتين حولهما، وإنما هما في بسيط من الأرض أفيح متصل بسيف البحر، والفواكه تجلب إليهما من بساتينهما التي بالقرب منهما، ولهما عِمّالة متسعة، والجبال التي تقرب منهما معمورة بالضياع، ومنها تُجبى الثمرات إليهما. وهما من غُرّ البلاد. ولعكة في الشرق منها، مع آخر البلد، واد يسيل ماء. ولها مع شاطئه مما يتصل بالبحر بسيط رمل لم يُرَ أجمل منه منظراً ولا ميدان للخيل يشبهه، وإليه ركوب صاحب البلد كل بكرة وعشيّة، وبه يجتمع العسكر، دمّره الله، لصور عند بابها البريّ عين معينة يُنحدر إليها على أدراج. والآبار والجباب بها كثيرة لا تخلو دار منها، والله تعالى يعيد إليها وإلى أخواتها كلمة الإسلام بمنّه وكرمه.

-60-

ح/في المركب الشراعي

وفي يوم السبت الثامن والعشرين لجمادى المذكورة، والسادس لأكتوبر، صعدنا إلى المركب، وهو سفينة من السفن الكبار، بمّنة الله على المسلمين بالماء والزاد، وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الإفرنج. وصعده من النصارى المعروفين بالبُلْغريّين[1]، وهم حجاج بيت المقدس، عالم لا يُحصى ينتهي إلى أزيد

---

(1) لفظة إسبانية معناها الحجاج أو الزوار.

من ألفي إنسان، أراح الله من صحبتهم بعاجل السلامة ومأمول التسهيل والصنع الجميل بمنّه وكرمه، لا معبود سواه. ونحن به منتظرون موافقة الريح وكمال الوسق، بمشيئة الله عز وجل » (ابن جبير: ص 283).

-60-

ط/صــور

(آثار البلاد وأخبار العباد / القزويني: ص 217)

« مدينة مشهورة على طرف بحر الشام، استدار حائطها على مبناها استدارة عجيبة، بها قنطرة من عجائب الدنيا وهي من أحد الطرفين إلى الآخر على قوس واحد. ليس في جميع البلاد قنطرة أعظم منها. ومثلها قنطرة طليطلة بالأندلس إلا أنها دون قنطرة صور في العظم، يُنسب إليها الدنانير الصورية التي تعامل عليها أهل الشام والعراق » (القزويني: ص 217).

-60-

ي/صــور

(نخبة الدهر / الدمشقي: ص 212)

«ويقال أن الإسكندر نزل صور فلم يصل إليها من سهامه سهم ولا من حجارة مجانيقه حجر فأرسل من أهله خفية من أهلها ورجع فأخبره أن قوماً (أي أهل صور في حينه) قد صرفوا عِمَمَهم (أي عمائمهم) إلى صرف ما ترمونهم به (أي ليرمي الإسكندر العمائم الوهمية على أنها رؤوس وهي ليست كذلك) فاجتمع رأي من مع الإسكندر في وضع الكوسات وأن يضربون عليها في وقت واحد عند السحر ويزحفون مع الضرب لها ففعلوا وفتحوها حين اشتغلت قلوب أولئك وتشوّشت خواطرهم ففاتهم » (الدمشقي: ص 212).

-60-

ك/مدينة صور في رحلة ابن بطوطة

(تحفة النظار، في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار: ج 1، ص 35-36)

قال ابن بطوطة: « سافرت من مدينة عكا إلى مدينة صور وكانت خرابا، وبخارجها قرية معمورة، وأكثر أهلها أرفاض، ولقد نزلت بها مدة على بعض المياه أريد الوضوء، فأتى بعض أهل القرية ليتوضأ، فبدأ بغسل رجليه، ثم غسل وجهه، ولم يتمضمض، ولا استنشق، ثم مسح رأسه، فأخذت عليه في فعله، فقال لي: إن البناء إنما يكون ابتداؤه من الأساس. ومدينة صور هي التي يُضرب بها المثل في الحصانة والمَنعَة، لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها، ولها بابان: أحدهما للبر، والثاني للبحر، ولبابها الذي يشرع للبر أربع فُصّلات، كلها في ستائر محيطة بالباب، وأما الباب الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين، وبناؤها ليس في بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأناً منه، لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها، وعلى الجهة الرابعة سور، تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك، وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة، لا سبيل إلى الداخل هنالك ولا إلى الخارج، إلا بعد حطها، وكان عليها الحراس والأمناء، فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج إلا على علم منهم » (ابن بطوطة: ج 1، ص 35-36).

-60-

ل/جبل عامر

(كتاب الجغرافيا / المغربي: ص 151)

« وجبل عامر ممتد في شرقي الساحل وجنوبه حتى يقرب من صور وعليه السقيف الذي استُرجع في عصرنا للمسلمين وكان رعاياه في حكم الفرنج فعادوا إلى حكم المسلمين ودخلوا في أقطاع الجند » (المغربي: ص 151).

-60-

م/صـــور
(الموسوعة الإسلامية ص 364-371)

« صور: هي المدينة الجزرية الفينيقية، وقد كانت منذ عهد العمارنة من أغنى المراكز التجارية على الساحل السوري ثم ارتقت شيئاً فشيئاً حتى غدت تنافس مدينة صيداء (انظر هذه المادة) منافسة قوية في السيطرة على المستعمرات الفينيقية في الغرب. وقد غزاها الإسكندر الأكبر ودمّرها، ولكن ذلك لم يقض على أهمية هذه القصبة الزاهرة إلا إلى حين، وإن كان قد انتهى إلى نتيجة هامة ثابتة هي أن هذه المدينة الجزرية قد وصلها من ثم بالبر الأصلي سد الإسكندر الذي اتسع اتساعاً مطرداً حتى غدا برزخاً بفعل المواد الرسوبية التي حملتها التيارات الساحلية الجنوبية الغربية. وكانت مدينة بالاتيروس (أشو الأشورية) تقوم منذ عهد ضارب في القدم على البر الأصلي تجاه هذه المدينة الجزرية. وكانت صور أيضاً في عهد الإمبراطورية الرومانية هي القصبة الدنيوية والدينية للولاية التي عرفت في اليونانية باسم ....

وقد استولى شرحبيل بن حسنة على صور وصفورية وغيرهما من بلدان هذا الإقليم بعد احتلال دمشق[1] (البلاذري، طبعة ده غوى، ص 116، Annali: Caetani dell Islam ، مجلد 2، ج2، الفصل 321؛ ج3، الفصل 107). وقد جاء في الكتاب المنحول للواقدي (فتوح الشام، طبعة القاهرة 1278 هـ ج2، ص58 وما بعدها) أن الاستيلاء على صور قد تم بخيانة أمير حلب عبدالله يوقنا، ويقول الواقدي وهشام بن الليث

(1) من المعروف أن شرحبيل بن حسنة هو فاتح الأردن، وقائد الجيش الذي أوكلت إليه مهمة الفتح في ديارنا. وعندما افتتح صور، فعل ذلك على أنها جزء من الأردن. حيث شكل بذلك ثغرة هائلة في الجبهة الرومية فاصلاً القوات الرومية الجنوبية عن الشرقية عن الشمالية، مما عجّل بالرحيل الرومي والانسحاب من دار العرب والحمد لله رب العالمين.

الصوري أن معاوية قد أصلح عكا وصور أثناء حملته على قبرص (27 هـ)، وفي سنة 42 هـ أتى بمستعمرين من الفرس، من بعلبك وحمص وإنطاكية. وأسكنهم مدن الأردن أي صور وعكا وغيرهما (البلاذري: المصدر المذكور، ص 117) ويستشهد هشام بن الليث الصوري الذي ذكرناه آنفاً بقول من نقل عنهم: « نزلنا صور والسواحل وبها جند من العرب وخلق من الروم، ثم نزع إلينا أهل بلدان شتى فنزلوها معنا وكذلك جميع سواحل الشام » وفي سنة 49 هـ أغار الأسطول الإغريقي على مدن الشام الساحلية التي لم يكن قد أقيم فيها بعد دور للصناعة (البلاذري: المصدر المذكور؛ محبوب المنجي: كتاب العنوان الذي نشره فاسيلف في Patrol. Orient ج 8 ، ص 492). ومن هنا أقام معاوية أحواضاً السفن في عكا لإقليم الأردن. وجدد عبدالملك بن مروان صور وقيسارية وأرباض عكا التي كانت قد تخربت مرة أخرى (البلاذري: المصدر المذكور، ص 117، 143). ثم حدث بعد ذلك أن أراد هشام بن عبدالملك أن يشتري من حفيد من أحفاد أبي معيط مصانع ومخازن فأبى الرجل أن يبيعها له، فما كان من هشام إلا نقل دار الصناعة إلى صور وبنى مخازن وأحواضاً هناك (البلاذري، ص 117). ويقول الواقدي أيضاً: إن صور حلت في عهد المروانيين محل عكا بوصفها محطة بحرية وظلت كذلك من بعد (البلاذري، ص 118؛ ابن جبير، طبعة رايت، ص 305). فلما جاء المتوكل (247/ 248 هـ) وزع الأسطول وجنود البحرية على بلدان الساحل الشآمي.

ويصف جغرافيو العرب صور فيقولون: إنها من سواحل الأردن المنيعة التحصين العامرة بالسكان يحف بها أراضي خصبة. وكانت هذه المدينة الجزرية لا يبلغها أحد إلا من البر الأصلي عن طريق باب يؤدي إلى جسر، وكانت أيضاً محصنة بأسوار تنهض عمودية من البحر وتكاد تكتنفها من جميع الجوانب، ويقوم جزء آخر من المدينة كما كانت الحال قديماً، تجاهها على البر الأصلي.

وقد وصف القزويني كذلك (طبعة فستنفلد، ج 2، ص 366، السطر الخامس من أسفل تحت اسم طليطلة) الجسر الذي ذكره المقدسي أيضاً، فقال إنه أكبر قنطرة في العالم (لعله خلط بينه وبين جسر سنجه). وكانت القنطرة المعلقة القديمة التي كانت تخرج من رأس العين أو الرشيدية، حتى صور مارة بتل المعشوق لا تزال تزود المدينة بالمياه في القرون الوسطى (المقدسي: المكتبة الجغرافية العربية، ج 2، ص 163؛ ناصر خسرو، طبعة شفرن ص 11). ويذكر ناصر خسرو الذي زار صور سنة 1048 م بيوتها التي تتراوح طبقاتها بين خمس طبقات وست طبقات، كما يذكر مشهداً غنياً بالزخارف قائماً عند باب المدينة. وكان معظم أهلها وقتذاك من الشيعة إلا القاضي فقد كان من أهل السنّة. وذكر الإدريسي في عهد الحروب الصليبية (1154) ما كان في صور من صناعة الزاهرة للزجاج والفخار ونسج الأقمشة النفيسة. وذكر قدامة أرصفة السفن القائمة في المدينة.

وقد كانت الشام منذ العهد الطولوني واقعة في جميع الأحوال (أي الأحوال المائعة التي لا تستقر على حال) تقريباً تحت سيادة مصر، واستتبت هذه السيادة أكثر وأكثر في عهد الفاطميين. وانتقض الصوريون على الخليفة الحاكم سنة 388 هـ / 998 م يقودهم فلاح يدعى: عَلاَّقة (اسم الفلاح القائد الثائر) في الوقت نفسه الذي انتقضت فيه الرملة وحاصر قلعة فامية القائدة الرومي (البيزنطي) دوكاس. وأنفذ والي الشام جيش ابن محمد بن صمصام إلى صور حسين بن عبدالله بن ناصر الدولة الخصي فاتق (وفي رواية نائق) البرّاز. فلما هاجم الرجلان صور من البر والبحر استجار عَلاَّقة بالإمبراطور البوزنطي طالباً منه العون، فأرسل الإمبراطور إليه عدة سفن، ولكن هذه السفن حلّت بها هزيمة منكرة في معركة بحرية، وهنالك انهارت معنويات السكان في صور ولم يعودوا يقوون على الاستماتة في المقاومة فسقطت المدينة ونهبت وذبِّح سكانها وعُذّب عَلاَّقة، ثم قتل في مصر.

على أن الفتن استمرت؛ ولم يجد الوزير بدر الجمالي بُدّاً سنة 1089 م أن ينتزع صور وعكا وجبيل من السلطان السلجوقي تتش. وفي سنة 490 هـ (1097/ 1098 م) أنزل خليفته الفضل شاهنشاه بالسكان العقاب على فتنة جديدة قاموا بها فذبحهم تذبيحاً، ولم ينج من ذلك حتى والي صور إذ أُخذ فقتل؛ حدث هذا في السنة نفسها التي غادر فيها الصليبيون القسطنطينية. وضربت السكة في صور باسم الخليفة المستعلي (1094-1101م).

وقد سَعَتْ صور أول الأمر (1100-1101م) إلى استمالة قلب بلدوين بالهدايا، ولكنها سرعان ما شاركت في الدفاع عن عكا وطرابلس (1103م). وبناءً على اتفاق تم بين الأمير عز الدين صاحب صور وبين طغتكين هاجم عز الدين سنة 500 هـ (1106-1107م) معقل الملك الصليبي في تبنين ونهب ضاحية من ضواحيها وذبّح أهلها، ثم عمد إلى الفرار سريعاً حين سار بلدوين من صور إلى طبرية. وظهر هذا الملك في السنة التالية أمام أسوار صور، وشيد قلعة على تلّ المعشوق وحاصر المدينة شهراً. ولم يجد واليها بُدّاً من أن يؤدي له نظير انسحابه من الحصار سبعين ألف دينار.

وبعد سقوط طرابلس بأسبوع، ظهر الأسطول المصري أمام هذه المدينة بجنوده وقد تزود بمال ومؤن تكفيه سنة، فلما سمع المصريون أن القلعة قد استولى عليها الفرنجة عادوا إلى صور ووزعوا الجنود والمؤن على صور وصيداء وبيروت.

وضرب بلدوين الحصار على صور مرة أخرى في الخامس والعشرين أو السابع والعشرين من شهر جمادى الأولى (27 أو 29 من نوفمبر سنة 1111)، وشيّد برجين خشبيين ارتفاعهما عشر أذرع، وقام في كل منهما ألف جندي ودفع بهما إلى أسوار المدينة؛ واستنجد الصوريون بطغتكين فقدم من دمشق إلى بانياس وبعث منها بالإمداد فقطعت المؤن عن الفرنجة، على حين سار هو نفسه إلى صيداء.

وكان بولدوين قد اقتحم بالفعل سورين من أسوار صور عندما عقد عز الملك الأعز والي صور مجلس حرب النبوى فيه شيخ سبق أن اشترك في الدفاع عن طرابلس مبدياً استعداده لتدمير برجي الحصار اللذين أقامهما الفرنجة. ونجح الشيخ نجاحاً في إشعال النار فيهما. ولم يظفر الفرنجة بطائل يستحق الذكر حتى ربيع عام 1112 م، وفي هذه الأثناء كان طغتكين قد أقبل في عشرين ألف مقاتل بعد أن استولى على قلعة الجيش في الشام وقطع المؤن عن الفرنجة. فلما أخذوا يجلبون المؤن بحراً ضرب الأراضي المحيطة بصيداء.

وفي 10 من شوال (21 إبريل) رفع بلدوين الحصار وارتدّ إلى عكا. ورحب سكان صور بطغتكين أجزلوا الهدايا النفيسة، ورمموا أسوار مدينتهم وخنادقها بعد أن حلّ بها الأذى من جراء الحصار، ثم غادر طغتكين المدينة وسلّمها للخليفة مرة أخرى، على أنه حدث في السنة التالية عينها أن خشي أهلها وأميرهم عز الملك نشتكين الأفضلي أن يشنّ عليهم الفرنجة غارة أخرى فاستقر رأيهم على أن يسلموا المدينة ثانيةً إلى طغتكين واستجاب طغتكين لرجائهم وبعث إليهم بالأمير مسعود زَوَّدَه بالجنود للدفاع عنها، ومع ذلك فقد ظلت الخطبة باسم الخليفة كما ضُربت السكة باسمه أيضاً.

وفي سنة 516 هـ (1122-1123م) أنفذ المأمون خليفة الأفضل أسطولاً من اربعين غليوناً مجهزاً تجهيزاً حسناً إلى صور بقيادة مسعود بن سلاّر، ولما صعد الأمير مسعود على ظهر السفن لتحية رجال الأسطول أُمِرَ به فقيد بالأغلال وحمل إلى مصر. ومع ذلك فقد قوبل هناك بحفاوة كبيرة وأرسل إلى دمشق حيث قدمت إليه الاعتذارات الدبلوماسية بما يزيل آثار هذا الحادث. ورد طغتكين رداً كريماً ووعد بأن يبذل العون من بعد في رد غائلة العدو المشترك.

على أن الفرنجة استبشروا لرحيل مسعود المغوار وأعدّوا العدة لحصار آخر تراودهم آمال جديدة. وتبين الوالي المصري ضعف الحامية وقلة المؤن في المدينة فلجأ إلى الخليفة طالباً منه العون، ورد الأمر بأنه سوف يضع أمر الدفاع في يد ظهير الدين (طغتكين) ومن ثم احتل ظهير الدين المدينة مرة أخرى وهيّأ لها أسباب الدفاع. وفي شهر ربيع الأول (إبريل 1124) بدأ الحصار الثاني يُضرب حول صور. فقد أقامت السفن البندقية نطاقاً حول الميناء في حين هاجمت الجنود المسلحة من البر أسوار المدينة ببرج من أبراج الحصار.

وقد أبلى الجنود الدمشقيون بلاءً حسناً في الدفاع. وانفذ المحاصرون جزءاً من جيشهم لقتال طغتكين على حين كلف البنادقة بإبعاد الأسطور المصري. ومضى القتال متقلباً ينتصر فيه هذا الجانب مرة وينتصر الآخر مرة، ثم استقر رأي الصوريين بعد أن تفشت المجاعة في المدينة على أن يسلموا إذا كانت شروط الفرنجة مرضية. وتولى طغتكين أمر المفاوضات مع قواد الفرنجة، وخُيّر الأهالي المحاصرون بين ترك المدينة بزادهم أو أن يظلوا مقيمين فيها بشرط أن يدفعوا الفدية. وفي الثالث والعشرين (أو الثامن والعشرين) من جمادى الأولى (9 أو 14 يولية سنة 1124) خرج الأهالي من المدينة بين جنود طغتكين وجيش الفرنجة، وسكن بعضهم دمشق، وبعضهم غزة.

وظلت صور، بعد هذا التسليم الذي هو أقصى ما بلغه الصليبيون من سلطان في الشام، في أيدي الفرنجة حتى 1291 (أي مائة وسبعة وستون عاماً) ويتحسر ابن الأثير على سقوط صور ويعدّه من النكبات الفادحة التي أُصيب بها العالم الإسلامي، ذلك أن صوراً كانت من أجمل الثغور وأمنعها ثم يزيد: « فالله يعيده إلى الإسلام ».

وفي سنة 258 هـ (1133/ 1134م) خرب شمس الملوك (بوري) صاحب دمشق، بعد غارة شنّها الفرنجة على إقليم طبرية، صور وسائر البلاد الساحلية

ثم عاد عن طريق الشعراء حاملاً غنائم عظيمة. وظهر أسطول مصري سنة 550 هـ (1155/1156م) في ميناء صور وأغرق السفن التابعة للحجاج المسيحيين وغيرها، وعاد بكثير من الأسرى والغنائم النفيسة. وفي سنة 552هـ/ 1157م ألمّ زلزال بصور وصيداء وبيروت وطرابلس وغيرها من البلدان فأصابها بخسائر.

وبين أيدينا أوصاف لصور منذ عهد الصليبيين كتبها الإدريسي وابن جبير. ويبدي الإدريسي إعجابه بمصنوعاتها الزجاجية والفخارية وبقماش نفيس بالغ الرقة واللطف كان يُنسج فيها. وقضى ابن جبير بها أحد عشر يوماً، فزودنا بوصف مفصل للمدينة ولاحتفال رائع أقيم بها أثناء زيارته وكان لصور من ناحية البر بين ثلاثة أبواب وأربعة أبواب متعاقبات. وكان الداخل إلى المدينة من البحر يمر بين برجين مرتفعين فيبلغ ميناءً (ميناء صور القديمة) من أجمل موانئ مدن الساحل جميعاً. وكانت الأسوار تكتنف هذا الميناء من ثلاثة جوانب، أما الجانب الرابع فكان يكتنفه سور في أسفله مدخل معقود ترسو تحته السفن. وهذا المرفأ الداخلي كان يمكن إغلاقه بسلسلة ضخمة تمد بين البرجين.

ولما استولى صلاح الدين على بيت المقدس وعلى معظم المدن الساحلية مضى يحاصر صور وأقام معسكره أمامها (وكان ذلك في الخامس من رمضان سنة 583، أو في 9 منه في رواية آخرين = 8 أو 12 نوفمبر سنة 1187 م). واضطر أول الأمر إلى الانتظار حتى يتم إعداد جيشه، فاستدعى ابنه الملك الظاهر من حلب وأخاه الملك العادل من بيت المقدس للانضمام إليه، وكان معه ابنه الثاني الأفضل وابن أخيه تقي الدين. وما إن قدم جنود الحصار بمنجنيقاتهم حتى بدأوا يقذفون المدينة بالقذائف من أبراج متحركة. وأخذت عشر سفن من عكا تضرب حصاراً على الميناء. ولكن أسطول الفرنجة باغتها ودمر بعضها أو أغرقه، وردت هجمة على أسوارها. وعقد صلاح الدين مجلس حرب فقرر تأجيل

الحصار إلى العام التالي بالنظر إلى قرب حلول الشتاء. وبدأ صلاح الدين وجيشه الانسحاب في اليوم الثاني من ذي القعدة سنة 584 (= 3 يناير سنة 1188 في رواية بهاء الدين، ويقول ابن الأثير إن ذلك كان في آخر شوال أي في أول يناير سنة 1188 م). ولم يكد محاصروها يرتدون عنها حتى دبّ النزاع بين الملك كي ده لوزينيان، الذي كان قد عاد وشيكاً من الأسر، والمدافع المغوار عن المدينة كونراد ده مونتفرا.

وقد كان عجز صلاح الدين عن الاستيلاء على هذا الثغر المنيع نكسة في سجل انتصاراته الحربية. وكانت صور هي وشقيف أرنون هما المعقلان الوحيدان اللذان بقيا في يد الفرنجة. وقد اجتمعت في صور الجيوش القوية في الحرب الصليبية الثالثة، ذلك أنه قد تدفقت عليها حاميات المدن التي استولى عليها صلاح الدين وتمكن من تحريرها باذلاً الكثير من آيات البطولة. ومنها قام صلاح الدين بضرب الحصار على عكا فصرف ذلك انتباهه كله عن صور.

وفي اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الثاني سنة 588 (29 إبريل سنة 1192) اغتال الإسماعيلية المركيز كونراد الذي كان آنئذ يعيش في صور بصفته ملك بيت القدس، وقد عقد خليفته هنري ده شامباني صلح الرملة مع صلاح الدين (سبتمبر سنة 1192) وقضى هذا الصلح بأن يظل الساحل من يافا إلى صور في يد الفرنجة.

ولما قامت حامية تبنين بحملة على صور وخربت أرباضها، بدأ الصليبيون في أول صفر سنة 594 (13 ديسمبر 1197) يحاصرون تبنين. على أنهم حين سمعوا باقتراب الملك العادل ارتدوا عنها دون أن يفوزوا بطائل. وفي شهر شعبان سنة 597 (مايو – يونية سنة 1201) نزل بصور زلزال، وفي سنة 600 هـ (1203-1204م) أصابها زلزال آخر انهارت على إثره أسوارها القديمة؛ وقضى

الصلح الذي عُقد بين فردريك الثاني والملك الكامل صاحب مصر (1299) بأن تظل صور هي وعدد من مدن الساحل الشآمي في يد النصارى علاوة على بيت المقدس. وفي السنوات التالية ازدادت قوة الفرنجة ضعفاً من جراء الصراع المتصل الذي نشب بين مدن الساحل والأسطولين البندقي والجنوي.

وفي مايو سنة 1266، وفي سنة 1269، شنّ الملك القوي بيبرس حملتين على صور، ويقال إن السبب في قيامه بالحملة الثانية هو الثأر لمقتل تاجر اغتيل في صور وقدمت إليه أم التاجر ظلامتها في بلدة خربة اللصوص. على أن بيبرس عقد مع أمير صور سنة 669 هـ (1270-1271 م) اتفاقاً قضى بأن يعطي هذا الأمير عشر نواحٍ من أرض صور، وأن يختار الخليفة خمس نواح، وأن تخضع النواحي الباقية لحكم مشترك، وقد دفعت مرغرين صاحبة صور ثمن صلح عقدته مع قلاوون تعهدت بمقتضاه في اغسطس سنة 1285 بأن تؤدي له نصف خراج المدينة وألا ترمم حصونها أبداً، فلما سقطت عكا سنة 1291 لم تستطع صور وغيرها من المدن القليلة الباقية في أيدي الفرنجة أن تصمد. ذلك أن خليلاً بعد أن استولى على صور أخذ يذبح سكانها أو يبيعهم في سوق العبيد كما دمّر المدينة نفسها.

وقد كانت المدينة لا تزال خراباً يباباً في عهد أبي الفدا (1321 م) والقلقشندي (حوالي سنة 1400) وخليل الظاهري (حوالي 1450م). ولم يجد فيها ابن بطوطة (1355 م) إلا آثاراً قليلة من أسوار مرفئها القديم، ومن ثم ظلت المدينة موضعاً تافه الشأن. ولم يستطع فخر الدين أمير الدروز (1595-1634 م) أن يصلح من شأنها، وكذلك عجز الشيخ ظاهر العمر صاحب عكا وخليفته الجزار باشا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وأصاب زلزال وقع سنة 1837 المدينة بنكبة أخرى، وبلغ عدد سكانها في العصر الحاضر 6.500

نسمة (سنة 1841 : 3000 نسمة؛ سنة 1880: 5000 نسمة؛ سنة 1900: 6000 نسمة) نصفهم تقريباً من المسلمين، وأقل من ذلك الروم واللاتين الكاثوليك، والبقية من اليهود.

-61-

الأردن

(الموسوعة الإسلامية: ص 589-593)

«الأردن: بالعبرية «(ها) يردن»، وذكرها « يوسفيوس » Josephus (ج 70) و «بلنيوس» Pliny وغيرهما باسم ؟؟؟؟؟؟ أصل هذا اللفظ غير معروف، وذهب البعض إلى أن دخيل (؟؟؟ اسم نهر في إقريطش). وقد سمى هذا النهر بعد الحروب الصليبية بـ «الشريعة الكبيرة» [الشريعة: مورد الشاربة] ولا يزال هذا الاسم شائعاً بين البدو إلى اليوم.

1- يتألف الأردن من ثلاثة جداول هي: الحَسْباني (الحاصباني) ونهر اللدان ونهر بانياس. وبعد تلاقيها بقليل يصل نهر الأردن إلى ناحية الحولة ويجري في بحرة الخيط (يقول دالمان Dalaman إن بحيرة الحولة ليست إلا مستنقعاً في الشمال ينبت فيه البردى). وينحدر وادي نهر الأردن بعد ذلك انحداراً شديداً نحو الجنوب حتى يجري في بحيرة طبرية (انظر هذه المادة) التي ينخفض سطحها عن مستوى البحر الأبيض المتوسط نحو 682 قدماً. ويعرف الوادي بعد ذلك باسم « الغور » (انظر هذه المادة) ابتداءً من الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية حتى مرتفع يقع على مسيرة ثلاث ساعات من جنوبي البحر الميت. وهنا يمتاز النهر بصفات تخالف صفات مجراه الأعلى: فهو يجري في سهل من الغرين الأبيض البراق كثير التعرج يبدو للناظر من عل أنه شريط أخضر ملتو، ذلك لأن ضفاف النهر تكسوها النباتات الكثيفة التي تحجب مجراه والسهل فيما عدا

ذلك خلو من النبات، وتوجد عدة واحات كثيرة الخصب (« حدائق الأردن » الطبري ج 1، ص 1232؛ وانظر مادة « ريحا ») عند سفح التلال الواقعة على الشاطئ الغربي للنهر. ويصب الأردن في البحر الميت (بحر لوط) الذي ينخفض عن سطح البحر نحو 1292 قدماً، والذي تبلغ أعمق نقطة فيه 2600 قدم. وليس لهذا البحر أي مخرج في جنوبه أو غربه، ولم يكن له شيء من هذا في كل العصور، وتتبخر المياه التي يصبها فيه نهر الأردن البالغة 1300 مليون جالون يومياً بفعل حرارة الشمس، ولذلك فإن منسوب مياه هذا البحر باقٍ على حاله رغم التغيرات الفصلية الطفيفة، ولهذا فالحياة مستحيلة في هذا البحر بسبب بقاء الأملاح والمعادن الذائبة فيه على حالها مع تبخر المياه. ويسمى المنخفض الواقع جنوبي البحر الميت « العربة »، وترتفع الأرض هنا كثيراً ولكنها تنحدر من جديد إلى مستوى خليج العقبة.

ونذكر هنا فروع نهر الأردن: فهو عندما يخرج من بحيرة طبرية يلتقي عن شماله بنهير « الشريعة الصغيرة » الذي كان يسمى قديماً اليرموك (انظر هذه المادة) ثم يلتقي بنهر الزرقاء الذي يصب في الأردن عند الدامية. ويلتقي عن يمينه بنهر جالوت الذي ينبع من عين جالوت ويمر ببيسان وينتهي بالأردن.

ولا يصلح نهر الأردن للملاحة بسبب تياراته وكثرة منعرجاته وضحل مياهه. وكانت مياهه الضحلة في كثير من أجزائه منذ العصور القديمة عبارة عن مخاضات تصل بين الأراضي الواقعة إلى شرقه والأراضي الواقعة إلى الغرب منه، فكانت بذلك تصل بين شاطئ البحر الأبيض المتوسط ومصر من جهة ودمشق من جهة أخرى. ويوجد إلى شمالي بحيرة طبرية خمس مخاضات وإلى جنوبها أربع وخمسون مخاضة، أكثرها قبالة بيسان. وتذكر هذه المخاضات في « العهد القديم » باسم « معبر » أو « معبرة ». ولسنا نعرف إذا كان بنو إسرائيل قد اتخذوا القوارب لعبورها أم لا.

وعلى كل حال فإن هذا لا يؤخذ من النص الغامض الوارد في سفر صموئيل الثاني (الإصحاح 19، الآية 19). ومن جهة أخرى فإنه من العسير أن نتصور كيف استطاع بنو إسرائيل في قتالهم مع الآراميين الذين كانوا في شرقيّ الأردن أن يعبروا بجنودهم وخيولهم وعرباتهم (سفر الملوك الأول، الإصحاح 22، الآية 35) نهر الأردن عن طريق هذه المخاضات، ولسنا نعرف كيف فعلوا ذلك (هل بالقوارب؟). ويمكن أن نقول إنهم عبروا النهر سباحة (سفر المكابيم الأول، الإصحاح 9، الآية 48) ولكن السباحة في هذا النهر تحتاج إلى مهارة وقوة لشدة تياره. ومن المحقق أنه لم تكن هناك وقتئذ جسور لأنها لم تُبْنَ إلا في عهد الروم.

وللمخاضة الواقعة إلى جنوبي إقليم الحولة أهمية خاصة، لأن طريقاً يبدأ منها فيمر بالقنطرة وينتهي بدمشق. ولا يؤخذ من الخريطة التي وضعها « تمسن » P. Thomsen (Z.D.P.V. ، ج 10، ص 33) أن ذلك الطريق كان معروفاً للروم، ولكن كثيراً ما كان يتردد ذكر هذه المخاضة في العصور الوسطى باسم Vadum jacobi. وكان لها أهمية حربية عظمى في الحروب الصليبية، فقد هزم عندها نور الدين بلدوين الثالث عام 1158. وابتنى بلدوين الرابع حصناً جنوب المخاضة عام 1178. ولكن صلاح الدين خرّبه في العام التالي. وقد بُني بعد ذلك جسر ذو ثلاث طاقات من كتل كبيرة من حجر البازلت في موضع هذه المخاضة نفسها (انظر الصورة المبنية في Z.D.P.V. ج 13، ص 74). وكان هذا الجسر وهو « جسر بنات يعقوب » إنما يشير إلى اسم المخاضة اللاتيني Vadum Jacobi وقد يسترعي هذا الاسم انتباهنا إذا عرفنا أن يعقوب لم تكن له بنات كثيرات.

وربما كان من أهم الطرق بين دمشق والجهات الواقعة إلى غربي نهر الأردن ذلك الطريق المار بـ « فيق » (أو أفيق وربما أفق Aphek ؛ الملوك الأول الإصحاح 20 الآية 86، 30، الإصحاح 13 ، الآية 22) إلى الطرف الجنوبي من بحيرة طبرية، حيث

كانت توجد مخاضة تعترض نهر الأردن عند خروجه من تلك البحيرة، وتوجد إلى جنوب هذه المخاضة بقليل أطلال قنطرين من الحجر هما « أم القناطر » و « جسر السد »، ولسنا نعرف شيئاً عن تاريخها، ولكن يحتمل أن إحداهما هي القنطرة الواقعة على جنوبي البحيرة التي أشار إليها المقدسي عند وصفه لبحيرة طبرية، والتي قال عنها ياقوت إنها « ذات طاقات كثيرة تزيد على العشرين ». وإلى القرن الرابع عشر الميلادي نجد رجلاً مثل « ده بالدنسل » W. de Baldensel يقص علينا أنه عبر نهر الأردن فوق قنطرة في هذا الموضع (Biblical Rescarches: Robinson in Palestine الطبعة الثانية، ج 3).

وتوجد قرب التقاء اليرموك بالأردن قنطرة تسمى « جسر المُجامع » يبدأ منها طريقان أحدهما إلى مكاس (أم قيس) والآخر إلى إربل (إربد) في صفح تلال قرن صرطبة. ونجد أيضاً إلى جنوبي ذلك قنطرة أخرى هي جسر الدامية تقوم الآن فوق أرض جافة لأن الأردن قد شقّ له هنا مجرى جديداً، وقد بنى هذه القنطرة المملوك القوي السلطان بيبرس عام 1266 كما ابتنى عدة قناطر غيرها في مواضيع أخرى (Rohricht في Archivesde l'orient Latin ص 382 ؛ Glermont Ganneau في J.A. المجموعة الثامنة، المجلد 10، 1887 ، ص 518). ومن أكثر الجسور استعمالاً الجسر الواقع إلى شمالي أريحا الذي يوصل إلى نمرين.

وهناك بعض التفاصيل الهامة في الأوصاف المختصرة التي ذكرها جغرافيو العرب في نهر الأردن، فقد ذكر المقدسي أن النهر غير صالح للملاحة، وقال ياقوت راوياً عن مصدر قديم إن الأردن قبل بحيرة طبرية كان يسمى الأردن الأكبر، بينما كان يسمى فيما بين طبرية والبحر الميت الأردن الأصغر، وربما كان في هذا القول خلط بين الأردن واليرموك. وذكر كذلك مزارع قصب السكر التي كان يرويها النهر في كورة الغور، (انظر مادة ريحا) وذكر الدمشقي الينابيع الحارة

القريبة من بحيرة طبرية ومن مجامع حيث يلتقي اليرموك بالأردن، وقد أشار كذلك إلى الظاهرة الغريبة التي تشاهد عند مصب هذا النهر، فالأردن يصب ليلاً ونهاراً في البحر الميت دون أن يكون لهذا البحر منفذ تتسرب المياه منه، ومع ذلك فإن مياه البحر لا تزيد شتاءً ولا تنقص صيفاً.

ويقول ابن خرداذبة (B. G.A. ج 6، ص 219) والجغرافيون الذين نحوا منحاه إن الطريق بين دمشق ومصر يمر بـ « فيق » إلى جنوبي بحيرة طبرية ثم ينحني حول طبرية إلى بيسان. وكان الطريق في القرن الرابع عشر يخترق جزءاً من عجلون لأن طريقاً آخر كان ينحدر من بيسان إلى وادي الأردن حتى يصل مجامع، ثم يمرّ فوق الجسر ملتقياً بطريق إربد. وابتدأ في القرن الخامس عشر الميلادي استعمال طريق إلى شمالي الطريق الأول يتجه إلى الشرق من العاصمة الجديدة « صفت » عابراً نهر الأردن فوق جسر بنات يعقوب ماراً بـ « نعران » و « قنيطرة » إلى دمشق. وظل هذا الطريق مطروقاً، وقد عُبِّدَ أخيراً بعد أن أصلح الطريق الموصل إلى هذا الجسر والآخذ منه.

2- والقسم الغربي من الأردن – وهو « جند الأردن » (أي القسم الغربي من جند الأردن) – هو عين Palaestina Sccunda المعروفة في التقسيم القديم لهذه الأقاليم؛ ويشمل هذا القسم الجليلين ووادي الأردن والجزء الغربي من الأراضي الواقعة إلى شرق الأردن. وقد استولى أبو عبيدة بن الجراح عام 14 هـ (635م) على معظم بلاد هذا القسم، واستولى على بقيتها خالد بن الوليد وعمرو بن العاص. وهناك روايات تذهب إلى أن شرحبيل هو الذي فتح هذه البلاد. وقد فُتِحَتْ كُلُّها بحد السيف عدا طبرية التي سُلِّمت في ظروف شائنة. وربما كان ذلك سبباً في جعلها عاصمة بدلاً من « بيت شن » Skythopilis (أي بيسان) ونستطيع أن نعرف حدود هذا القسم من أسماء البلاد التي ذكرها فيه جغرافيو العرب ومؤرخوهم.

فقد ذكر البلاذري: طبرية، بيسان، قدس، عكا، صور، صفورية، يوجد في شرق النهر: سوسية، عفيك، جرش، بيت رأس، الجولان، وسواد (الأردن). والبلاد كما يذكرها اليعقوبي هي: طبرية، صور، عكا، قدس، بيسان، وفي شرق الأردن: فحل جرش سواد (جرش). ويذكر ابن الفقيه: طبرية، السامرة (نابلس) بيسان، عكا، قدس، صور، وفي شرق الأردن: فحل وجرش.

ويذكرها المقدسي على النحو الآتي: طبرية، قدس، صور، فرذية، عكا، اللجون، كبول، بيسان؛ وفي شرق الأردن: أذرعات. ويوردها الإدريسي على النحو الآتي: طبرية اللجون، السامرة (نابلس) بيسان، أريحا، عكا، ناصرة، صور؛ وفي شرق الأردن: زغار، عمتا، حبيس (يابس؟) جدر، إيل، سوسية. وفي رواية ياقوت: طبرية، بيسان، صفورية، صور، عكا، وفي شرق الأردن: بيت رأس، جدر... الخ. ويتضح من هذه الروايات المختلفة أن حدود هذا القسم لم تبق على حال واحدة.

أما فيما يتعلق بخراج إقليم الأردن، فقد ذكر مؤلفو العرب الأرقام الآتية (انظر مادة « فلسطين »): كان الخراج في نهاية القرن الثامن الميلادي 96 ألفاً. ويقول ابن خرداذبة وابن الفقيه إنه كان 350 ألفاً. ويذكر قدامة أنه كان 109 آلاف، واليعقوبي أنه كان 100 ألف، والمقدسي أنه كان 170 ألف دينار (انظر Z.D.P.V. ، ج 3، ص 225).

وفي إبان الحروب الصليبية، ألغيت التقسيمات السابقة لهذا الإقليم، وأقام خلفاء صلاح الدين بدلها ممالك مختلفة. فكان أهم ممالك الأردن مملكة «صَفَت» التي كانت تشمل إلى جانب بلدة عُرفت بهذا الاسم نفسه الكور الآتية: مرج عيون، لجون، جنين، عكا، صور، صيا، أي كل البلاد الواقعة إلى غرب الأردن. ونجد في كتاب « المثير » الذي صنّفه شهاب الدين المقدسي عام 1351 والذي

كثيراً ما نقل عنه، تقسيماً آخر يجعل للغور والبلاد الواقعة غرب الأردن أهمية كبرى، وهي كورة حوران وعاصمتها طبرية، وكور الغور واليرموك وبيسان» (الموسوعة الإسلامية: ص 589-593) [1].

-62-

البلقاء

1- ظاهر البلقاء: (المسالك والممالك / ابن خرداذبة (ت 280هـ): ص 197)

وهي من كورة دمشق أيضاً. « ... وكورة الجولان، وظاهر البلقاء، وجبل الغور... » (ابن خرداذبة: ص 197).

2- البلقاء: (فتوح البلدان / البلاذري: ص 155-156)

وافتتح المسلمون جميع أرض حوران وغلبوا عليها، قال وتوجّه أبو عبيدة ابن الجرّاح في جماعة من المسلمين كثيفة من أصحاب الأمراء ضُمُّوا إليه فأتى مآب من أرض البلقاء وبها جمع العدو افتتحها صلحاً على مثل صلح بُصرى، وقال بعضهم[2] أن فتح مآب قبل فتح بُصرى، وقال بعضهم أن أبا عبيدة فتح مآب وهو أمير على جميع الشام أيام عمر.

3- البلقاء : (فتوح البلدان / البلاذري: ص 112-129)

وقد ورد ذكرها في كتاب فتوح البلدان للإمام أبي الحسن البلاذري رحمة الله عليه أكثر من مرة ففي حديثه عن فتح بصرى يقول:

---

(1) في زمن صلاح الدين أقيمت عدة ممالك بالأردن أهمها مملكة صفت لتشمل كل البلاد الواقعة إلى الغرب من مجرى نهر لأردن وهي الآن جنوب لبنان وشمال فلسطين.

(2) راجع الطبري: ص 114، والبكري، ص 33.

« وقالوا لما قدم خالد بن الوليد على المسلمين بصرى اجتمعوا عليه وأمَّروا خالداً في حربها ثم ألصقوا بها وحاربها بطريقها حتى الجأوه وكُماة أصحابه إليها ويقال بل كان يزيد بن أبي سفيان المتقلد لأمر الحرب لأن ولايتها وغمرتها كانت إليه لأنها من دمشق ثم إن أهلها صالحوا على أن يُؤمَنوا على دمائهم وأموالهم وأولادهم على أن يؤدّوا الجزية وذكر بعض الرواة أن أهل بُصرى صالحوا على أن يؤدّوا عن كل حالم (بالغ) ديناراً وجريب حنطة وافتتح المسلمون جميع أرض كورة حوران وغلبوا عليها، قال: وتوجه أبو عبيدة بن الجراح في جماعة من المسلمين كثيفة من أصحاب الأمراء ضُمّوا إليه فأتى مآب من أرض البلقاء وبها جمع العدو فافتتحها صلحاً على مثل صلح بصرى وقال بعضهم أن فتح مآب قبل فتح بصرى وقال بعضهم أن أبا عبيدة فتح مآب وهو أمير على جميع الشام أيام عمر » (البلاذري: ص 112-113).

« .. وحدثني أبو حفص الدمشقي عن سعيد بن عبدالعزيز عن مؤذن مسجد دمشق وغيره قالوا: اجتمع المسلمون عند قدوم خالد على بصرى ففتحوها صلحاً وانبثوا في أرض حوران جميعاً فغلبوا عليها وأتاهم صاحب أذرعات فطلب الصلح على مثل ما صولح عليه أهل بصرى... » (البلاذري: ص 126).

وقال أيضاً: «... حدثني الحسين بن علي بن الأسود العجْلي عن يحيى بن آدم عن مشايخ من الجزريين عن سليمان بن عطاء عن سلمة الجهني عن عمّه أن صاحب بصرى ذكر أنه صالح المسلمين على طعام وزيت وخلّ فسأله عمر أن يكتب له بذلك وكذبه أبو عبيدة وقال إنما صالحناه على شيء يُتبع به المسلمون لمشتاهم ففرض عليهم الجزية على الطبقات والخراج على الأرض» (البلاذري: ص 129).

وفي موقع آخر:

«... وسار يزيد إلى عمان ففتحها فتحاً يسيراً بصلح على مثل صلح بصرى وغلب على أرض البلقاء وولي أبو عبيدة وقد فتح هذا كله فكان أمير الناس حين فتحت دمشق ...» (البلاذري: ص 126).

وقال أيضاً: «وحدثني عدة من أهل العلم منهم جار لهشام بن عمّار أنه كانت لأبي سفيان بن حرب أيام تجارته إلى الشام في الجاهلية ضيعة بالبلقاء تدعى بقُبُش فصارت لمعاوية وولده ثم قبضت في أول الدولة وصارت لبعض ولد أمير المؤمنين المهدي ﷺ ثم صارت لقوم من الزيّاتين يُعرفون ببني نعيم من أهل الكوفة ...» (البلاذري: ص 129).

4- البلقاء : (معجم ما استعجم / البكري: ج 1، ص 275)

« البَلْقَاءُ: على لفظ تأنيث أبْلَق: أرض الشام ».

قال كُثيِّر: (البكري: ج 1، ص 275)

سقى الله قوماً بالمُوَقَّر دارُهم   إلى قَسطَلِ البلقاءِ ذات المحارب[1]

« فسار ضَجْعَمُ بن حَمَاطَة بن عوف بن سعد بن سَليح بن حُلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة، ولبيد بن الجذرِجان السَّليحيّ، في جماعة من سَليح وبائل من قضاعة، إلى أطراف الشام ومشارفها، ومَلِكُ العرب يومئذ ظَرِبُ بن حسان بن أُذَيْنة بن السَّمَيْدَع بن هَوْبَر العِمْليقي، فانضمّوا إليه، وصاروا معه، فأنزله مناظر الشام، من البلقاء إلى حُوّارين، إلى الزيتون، فلم يزالوا مع ملوك العماليق، يغزون معهم المغازي، ويصيبون معهم المغانم، حتى صاروا مع الزّباء بنت عمرو بن ظَرِب بن حسان المذكور، فكانوا فُرْسانها وولاة

(1) وهناك قسطل بالشام قرب حمص ورد ذكرها عند ابن خرداذبة (ص 76، 98، 218)؛ وهي ليست قسطل البلقاء.

أمرها، فلما قتلها عمرو بن عديّ بن نصر اللخمي، استولوا على الملك بعدها، فلم يزالوا ملوكاً حتى غلبتهم غسان على الملك، وسليح وتلك القبائل في منازلهم التي كانوا ينزلونها إلى اليوم » (البكري: ج 1، ص 26).

« أُبْنَى[1]: مضمومة الأول، ساكنة الثاني، بعده نون، على وزن فُعلى: موضع بناحية البلقاء من الشام، وهي التي روى فيها الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد: (أن رسول الله ﷺ بعثه إلى أُبْنَى، فقال آتها صباحاً ثم حَرِّق). ومن روَى في هذا الحديث « أبلَى» باللام، فقد صَحّف، لأن أبلَى في ناحية نجد؛ وقد ذكرناها محددة قبل هذا. ورواه أبو داود بالسند المذكور: (أن رسول الله ﷺ عهد إلى أسامة، وقال: أغِرْ على أُبنَى صباحاً ثم حَرِّق). وقال أبو داود: سمعت ابن أبي عمر العَدَنيّ قال: سمعت أبا مُسْهِرٍ قيل له أُبنَى، قال: نحن أعلم، هي بين فلسطين والبلقاء، هي التي بعث إليها رسول الله ﷺ زيداً أبا أسامة مع جعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة، فقُتلوا جميعاً رحمهم الله بمؤتة، من أرض البلقاء » (البكري: ج 1، ص 101).

« مَيْفَعَة[2]: بفتح أوّله، وبالفاء المفتوحة، بعدها عين مهملة: قرية من أرض البلقاء من الشام. ولما بلغ زيد بن عمرو بن نُفَيْل خبر رسول الله ﷺ ، أقبل من الشام يريده، فقتله أهل ميفعة. وميفعة أيضاً: في ديار همدان باليمن » (البكري: ج 4، ص 1284-1285).

(1) أبنى: لا أدري أين هي بالضبط، ومن تكون من قرى الأردن الآن، ولكن يبدو أنها، ومن خلال السياق، تقع في جنوب الأردن، بما في مناطق حسمى أو الشوبك، وفي أبعد حال في محافظة الطفيلة، لأن اسم أبنى، قريب من أبل الزيت وهي عابل، والله أعلم.

(2) ميفعة هي أم الرصاص، وهي قرية من قرى الأردن، في محافظة مادبا إلى الجنوب الشرقي من مدينة مادبا وإلى الشرق من بلدة ذيبان وهي من قرى بني صخر، فيها برج أثري عالي مبني من الحجارة، ومدينة أثرية واسعة، وهي المدينة التي التقى فيها سيدنا محمد ﷺ بالراهب بحيرا. والقصة معروفة بالتاريخ، والله أعلم. وهناك موقع آخر باليمن اسمه مَيْفَعة

5- ذبيــان[1]: (معجم البلدان / الحموي: ج 3، ص 4، ج 4، ص 240-241)

« ذِبْيان: بكسر أوّله، وسكون ثانيه، بلفظ القبيلة: بلد قاطع الأردن مما يلي البلقاء (الحموي: ج 3، ص 4).

« الفَدَّيْن: استوفد الوليد بن يزيد بن عبدالملك بن مروان فقهاء من أهل المدينة فيهم عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ﷺ ، يستفتيهم عن الطلاق قبل النكاح فمات عبدالرحمن بالفدّين من أرض حوران ودُفن بها؛ وسعيد بن خالد بن محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أمية الأموي العثماني الفدّيني خرج في أيام المأمون وادعى الخلافة بعد أبي العَمَيطر علي بن يحيى، خرج وأغار على ضياع بني شرنبث السعدي وجعل يطلب القيسية ويقتلهم ويتعصب لأهل اليمن فوجه إليه يحيى بن صالح في جيش فلما كان بالقرب من حصنه بالمعروف بالفدّين هرب منه العثماني فوقف يحيى بن صالح على الحصن حتى هدمه وخرّب زيزاء وتحصن العثماني في عُمان (منطقة عمّان) في قرية يقال لها ماسوح[2] وصار يحيى بن صالح إلى عمان واستمدّ العثماني بزيوندية الغور وبأراشة وبقوم من غطفان وانضمت إليه عيّارة من بني أمية ومن جلا عن دمشق من أصحاب أبي العَمَيطر ومسلمة فصار في زُهاء عشرين ألفاً، فلم يزل يحيى بن صالح يحاصره ويحاربه حتى أجلاه عن القريتين جميعاً، فصار إلى قرية حُسبان وبها حصن حصين فأقام به وتفرّق عن أصحابه، ولا أعرف ما جرى بعد ذلك » (الحموي: ج 4، ص 240-241).

---

(1) هو خطأ في الكتابة وهي ذيبان التي هي مدينة ديبون المؤابية القديمة التي كانت عاصمة الملك الأردني المؤابي الوطني ميشع الذي حرّر الأردن من اليهود وسجل انتصاراته وإنجازاته على حجر من الجرانيت محفوظ الآن في متحف اللوفر في باريس وقد رأيته هناك عام 1998 في ذلك المتحف.

(2) ماسوح خربة أثرية إلى الشرق من حسبان على سرير أحد الأودية

6- بلقاء: (آثار البلاد واخبار العباد / القزويني: ص **156-157**)

« كورة بين الشام ووادي القرى. بها قرية الجبارين ومدينة الشراة. وبها الكهف والرقيم فيما زعم بعضهم. وحديث الرقمي ما روى عبدالله بن عمر أنه قال: سمعت رسول الله، ﷺ يقول: انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار، فدخلوا فانحدرت صخرة من الجبل وسدّت عليهم الغار، فقالوا: لا يُنجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم ! قال رجل منهم: اللهم إنه لي أبوان شيخان كبيران فكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا ولداً، فباتا في ظل شجر يوماً فلم أبرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً ولا ولداً، فلبثت والقدح في يدي أنتظر استيقاظهما حتى طلع الفجر، والصبية يتضاغون، فاستيقظا وشربا غبوقهما ! اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ! فانفجرت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه.

وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم كانت من أحب الناس إليّ، فراودتها عن نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بنا سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها مائة وعشرين ديناراً على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت: لا يحل لك أن تفضّ الخاتم إلا بحقّه ! فتخرّجت من الوقوع عليها وانصرفت عنها، وهي أحبّ الناس إليّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرّج عنا ما نحن فيه! فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهم إنك تعلم أني استأجرت أجراً فاعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فَنَمتْ أجرته حتى كثرت منه الأموال. فجاءني بعد حين وقال: يا عبدالله هات أجرتي! فقلت له: كل ما ترى من

الإبل والبقر والغنم والرقيق من أجرتك! فقال: يا عبدالله لا تستهزئ بي! فقلت: لا أستهزئ! فاستاقه كله ولم يترك منه شيئاً: اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه! فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون » (القزويني: ص 156-157).

7- **البلقاء:** (نهاية الأرب في فنون الأدب / النويري: ج **13**، ص **267-271**)

« ذكر خبر مدينة بلقاء وخبر بَلْعَم بن باعورا وما يتصل بذلك.

قالوا: ولما دخل موسى بني إسرائيل أرض كنعان، سار منها يريد مدينة بلقاء. قال مقاتل: سميت بلقاء لأن ملكها كان يقال له: بالق، وكان بها بلْعَم بن باعورا، وهو الذي أنزل الله تعالى فيه: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف: 175].

وقيل: نزلت الآيات في غيره – على ما نذكره إن شاء الله تعالى آخر القصة واختلف أيضاً في اسمه ونسبه.

فقال ابن عباس – رضي الله عنهما – : هو بلعم بن باعورا. وقال ابن مسعود ﷺ بلعم بن أبر. وقال مجاهد: بلعام بن باعر. وقال الثعلبي: قال أكثر المفسرين: هو بلعام بن باعوراء بن أيدن بن مآرب ابن لوط، وكان من الكنعانيين.

وقال عطية عن ابن عباس: هو من بني إسرائيل » (النويري: ج 13، ص 267).

وقال علي بن أبي طلحة عنه: هو من الكنعانيين من مدينة الجبّارين.

وقال مقاتل: هو من مدينة بلقاء.

قالوا: فلما أقبل موسى ببني إسرائيل إلى مدينة بلقاء[1]، كان أهلها يعبدون الأصنام، فلما بلغ المِلكَ مسير موسى ﷺ إليه استشار أكابر دولته؛ فقالوا له:

(1) كانت مدينة بلقاء في حينه هي ديبون (ذيبان).

إن فرعون لم يطقه مع كثرة جنوده، فأنت أولى ألا تطيقه[1]، غير أن هاهنا رجلاً يعرف ببَلْعام مجابَ الدعوة، التمس منه أن يدعو عليه ليكفيك ربّك أمرَ موسى[2]. فبعث الملك إليه وأحضره وتحدث معه في أمر موسى؛ فقال: حتى أستأذن ربي. ودخل بلعم مصلاّه واستأذن في الخروج، فأوحى إليه أن هذا العسكر هم بنو إسرائيل، وعليهم موسى رسولي، ولا تخرج إليهم. فقال بلعم لرسل الملك: إن ربي قد منعني من ذلك، فانصرفوا وعرّفوا الملك.

وكان لبلعم امرأة، فأهدى لها الملك هدية نفيسة، وسألها أن تكلّم زوجها في التوجه مع الملك، فسألته؛ فقال: قد استأذنت ربي فنهاني. فلم تزل به حتى استأذن الله ثانياً؛ فأوحى الله إليه: أني نهيتك عن ذلك، والآن قد جعلتُ الأمر إليك. فطابت نفسه بالخروج مع الملك. حكاه الكسائي.

وقال الثعلبي في تفسيره، وعزاه إلى ابن عباس وابن إسحاق والسدّيّ وغيرهم: إن موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض كنعان من أرض الشام، أتى قوم بلعام – وكان عنده اسم الله الأعظم – فقالوا: إن موسى رجل حديد، ومعه جنود كثيرة، إنه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويُحِلُّها بني إسرائيل، وإنا قومك وبنو عمّك، وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج ودع الله أن يردّ عنا موسى وقومه[3]. فقال: ويلكم، هو نبي الله ومعه

(1) إن هذه العبارة، إن صحّت، وأظنها صحيحة، تدل على أن الممالك الأردنية كانت على صلات حضارية مع مصر والدول الأخرى، وأنها لم تكن دولاً منعزلة لا تعلم ما يدور حولها، وأنهم كانوا يدركون السياسة جيداً.

(2) نجدهم هنا يرون أن الأفضل هو اللجوء إلى الله سبحانه من خلال من عرفوا أنه مستجاب الدعوة، كما أن الملك كان ديمقراطياً حيث لم يتخذ قراره منفرداً.

(3) نجد هنا المبررات التي جعلت الملك بولاق، والمؤابيين ينفرون من موسى ويتخوفون من عواقب دخوله مملكتهم الأردنية، وهذه المخاوف نجدها على لسانهم في حديثهم مع بلعام: =

الملائكة والمؤمنون، كيف أدعوا عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! وإني إن فعلت ذلك ذهبت دنياي وآخرتي. فراجعوه في ذلك، فقال: حتى أؤامر ربي. — وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمَر به في المنام — فآمَرَ في الدعاء عليهم، فقيل له في المنام: لا تدعُ عليهم. فقال لقومه: إني قد نُهيت عن الدعاء عليهم. فأهدوا إليه هدية فقبلها، ثم راجعوه في الدعاء عليهم، فقال حتى أؤامر. فآمر فلم يجر إليه شيء فقال: قد آمرت فلم يجر إليّ شيء. فقالوا: لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك في المرة الأولى. فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن؛ فركب أتانا له متوجهاً إلى جبل يطلعه على عسكر بني إسرائيل يقال له: (حَبَّان)؛ فلما سار عليها غير كثير ربَضتْ، فنزل عنها فضربها، حتى إذا آلمها قامت، فركبها فلم تسر به كثيراً حتى ربضت، فنزل عنها وضربها حتى إذا آلمها أذن لها بالكلام، فتكلّمت حجّة عليه.

فقالت: ويحك يا بلعم، أين تذهب؟ ألا ترى الملائكة أمامي يردّونني عن وجهي هذا؟ تذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها؛ فخلّي

= أ- إن موسى رجل حديد أي قوي لا يستطيع ملك أن يقف أمامه، وبخاصة أنه مدعوم من الله سبحانه.

ب- كثرة جنوده، ذلك أنهم كانوا جميعاً شباباً، ذلك أن الجيل العاصي هلك كله في التيه، وصار مكانه جيل وُلد وتربى في الصحراء، ويبحث عن مكان ومستقر له.

ج- أنه جاء لإخراجهم من الأردن رغم أن مراسيله قالوا أنهم يمرون عبوراً دون أن يؤذوا أو يقتلوا أو ينهبوا فقد كان هاجس الطرد من البلاد مسيطراً على الأردنيين.

د- الخوف من القتل والإبادة، وهذا ما حدث كما شرحنا في الجزء الأول حيث ورد ذلك مفصلاً في التوراة.

هـ- وبالفعل قام بوزيعها على أسباط بني إسرائيل وكأنها غنائم.

و- إن بلعام مستجاب الدعوة ويريدونه أن يدعو لهم ضد موسى وقومه.

ز- من خلال هذه النقاط يتبين بُعد نظر رجال دولة ذلك الملك وتوقعهم للأمور قبل حدوثها.

الله سبيلها؛ فانطلقت حتى إذا أشرفت به على جبل (حَبّان) جعل يدعو عليهم، فلا يدعو بشرّ إلا صُرف به لسانه إلى قومه؛ ولا يدعو لقومه بخير إلا صُرِف لسانه إلى بني إسرائيل؛ فقال قومه: يا بلعم أتدري ما تصنع؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا. قال: فهذا ما لا أملك.

واندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لهم: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال، جمّلوا النساء وزيّنوهن وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه، ومروهنّ فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها؛ فإنهم إن زنى منهم رجل واحد كُفيتموهم. ففعلوا؛ فلما دخل النساء العسكر مرّت امرأة من الكنعانيين اسمها كُسْتى[1] بنت صعور برجل من عظماء بني إسرائيل يقال له: زمزي بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها.

ثم أقبل حتى وقف على موسى فقال له: إني أظنك ستقول: هذه حرام عليك. قال موسى: أجل، هي حرام عليك، لا تقربَها. قال: فوالله لا نطيعك في هذا. ثم دخل بها قبّته فوقع عليها فأرسل الله تعالى الطاعون على بني إسرائيل في الوقت، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى رجلاً قد أعطي بسطة في الخَلْق وقوة في البطش وكان غائباً حين صنع زمزي بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعون يجوس في بني إسرائيل فأخبر الخبر، فأخذ حربته، وكانت كلها من حديد، ثم دخل عليهما القبة وهما مضطجعان فنظمهما بحربته، ثم خرج بهما رافعاً حربته إلى السماء قد أخذها بذراعه، واعتمد بمرفقه على

(1) كذا ضبط هذا الاسم في تاريخ العيني في الأجزاء المكتوبة بخط المؤلف ضبطاً بالقلم.

خاصرته، وأسند الحربة إلى لحيته – وكان بكر العيزار – وجعل يقول: اللهم هكذا تفعل بمن يعصيك؛ ورُفع الطاعون، فحُسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون -- فيما بين أن أصاب المرأة إلى أن قتله فنحاص – فوجدوه قد أهلك منهم سبعين ألفاً في ساعة واحدة من النهار[1].

قال: فمن هناك يُعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها الخاصرة[2] والذراع واللحية، لاعتماده بالحربة على خاصرته، وأخذه إياها بذراعه، وإسناده إياها إلى لحيته، والبكر من كل أموالهم وأنفسهم، لأنه كان بكر العيزار بن هارون.

قال الثعلبي أيضاً: وقال مقاتل: إن ملك البلقاء قال لبلعام: ادع الله على موسى. فقال: إنه من أهل ديني فلا أدعو عليه. فنحت الملك خشبة ليصلبه فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعوَ عليه، فلما عاين عسكرهم قامت به الأتان وقد وقفت، فضربها، فقالت: لِمَ تضربني وأنا مأمورة؟ فلا تظلمني، وهذه نارٌ أمامي قد منعتني أن أمشي. فرجع فأخبر الملك؛ فقال: لتدعونّ عليه أو لأصلبنك. فدعا على موسى باسم الله الأعظم ألا يدخل المدينة، فاستُجيب له، ووقع موسى في التيه بدعائه، فقال موسى: يا رب بأي ذنب وقعنا في التيه. فقال: بدعاء بلعام. قال: رب بما سمعت دعاءه عليّ فاسمع دعائي عليه فدعا موسى أن ينزع منه الاسم الأعظم والإيمان. فسلخه الله مما كان عليه، ونزع منه

(1) هذه الواقعة، إن صحّت، وهي مأخوذة من التوراة تبيّن قدسية المكان في الأردن، وأن الله انتقم للأردن وأهله باللحظة نفسها بسبب المعصية. وقد توقفت المعصية بقتل العاصي، رفع الله عقابه عنهم. وهذا من جلال وجليل حرمة الأردن عند الله سبحانه.

(2) كذا في كتاب الثعلبي المنقول عنه هذا الكلام ص 182 طبع المطبعة البهية. والذي في كلا الأصلين: « القبة » وهو تبديل من الناسخ إذ لا يتناسب معناه سياق ما هنا.

المعرفة، فخرجت كحمامة بيضاء، فذلك قوله عز وجل: ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا ﴾ [الأعراف: 175].

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وأبو روق وزيد بن أسلم: نزلت هذه الآية في أمية بن أبي الصلت، وكانت قصته أنه كان في ابتداء أمره قد قرأ الكتب وعلم أن الله عز وجل مرسل رسولاً في ذلك الوقت، ورجا أن يكون هو ذلك الرسول، فلما أرسل الله تعالى محمداً ﷺ حسده وكان قد قصد بعض الملوك، فلما رجع مرّ بقتلى بدر، سأل عنهم؛ فقيل: قتلهم محمد. فقال: لو كان نبياً ما قتل أقرباء. فلما مات أتت أخته فارعة رسول الله ﷺ فسألها رسول الله عن وفاة أخيها؛ فقالت: بينما هو راقد أتاه اثنان فكشفا سقف البيت ونزلا، فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: أوَعى؟ قال: وَعَى. قال: أزَكَا[1] قال: أبى. [قالت][2]: فسألته عن ذلك؟ فقال: خير أريد بي فصُرِف عني. ثم غُشي عليه » (النويري: ج 13، ص 268-271).

8- البلقاء : (نهاية الأرب في فنون الأدب / النويري: ج **19**، ص **116**)

قال: وفي[3] سنة ثلاث عشرة وجّه أبو بكر ﷺ الجنود إلى الشام، بعد منصرفه من مكة إلى المدينة، فبعث عمرو بن العاص قِبَل فلسطين، وبعث يزيد بن أبي سفيان وأبي عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة، وأمرهم أن يسلكوا على البلقاء من علياء الشام. وقيل: أول لواء عقده أبو بكر ﷺ عند توجيهه

---

(1) كذا في كتاب الثعلبي المنقول عنه هنا الكلام ص 182 طبع المطبعة البهية والذي في كلتا النسختين: « إن كان » وهو تحريف.

(2) لم ترد هذه الكلمة التي بين مربعين في كلا الأصلين؛ وقد أثبتناها عن كتاب أبي إسحاق الثعلبي في قصص الأنبياء المنقول عنه هذا الكلام.

(3) تاريخ ابن الأثير 2: 275 وما بعدها.

الجنود إلى الشام لواء خالد بن سعيد بن العياض، ثم عزله قبل أن يسير » (النويري: ج 19، ص 116).

9- **البلقاء** : (الروض المعطار / الحميري: ص 97)

« البلقاء: مدينة بالشام من عمل دمشق سميت بالبلقاء بن سورية، من بني عبيل بن لوط وهو بناها، وبها كان اجتماع الحكَمَين: أبي موسى وعمرو بن العاص رضي الله عنهما فكان من أمرهما ما كان، وقيل كان ذلك بدومة الجندل على عشرة أيام من دمشق.

وفي بعض أخبار يوم اليرموك عن حنظلة بن جؤية قال: والله إني لفي الميسرة إذ مرّ بنا رجال من الروم وهم أشبه شيء بنا فلا أنسى قول قائل منهم: يا معشر العرب الحقوا بوادي القرى ويثرب ويقول:

في كـــل يـــوم خيلـــنا تغـــيرُ
نحـــن لـــنا البـــلقاء والســـدير
هيهـــات، يـــأبى ذلـــك الأمـــير
والمـــلك المـــتوّج المحـــبور

قال: فحملت عليه وحمل علي فاضطربنا بسيفينا فلم يغنيا شيئاً ثم اعتنقنا فخررنا جميعاً فاعتركنا ساعة ثم إنا تحاجزنا فنظرت إلى [ما بدا من] عنقه فوالله ما أخطأته، فقطعته فصرع فضربته حتى قتلته، وأقبلت إلى فرسي وقد كان عار، وإذا قومي قد حبسوه علي فأقبلت حتى ركبته.

وبالبلقاء مات يزيد بن عبدالملك بن مروان سنة خمسة ومائة وبويع لأخيه هشام بن عبدالملك » (الحميري: ص 97).

-63-

الحُميمة[1]

(الروض المعطار / الحميري: ص 799-200)

« الحُمَيْمة: بلفظ التصغير، قرية من كور دمشق من أعمال البلقاء، أقطعها عبدالملك بن مروان لعلي بن عبدالله بن العباس رضي الله عنهم فكان يسكنها، وفيها كان إبراهيم بن محمد الإمام مستتراً في مُدَّة (أي فترة حكمه) مروان بن محمد آخر خلفاء بن أمية.

فإنه لما[1] قوي أمر أبي مسلم داعي بني العباس وغلب على أكثر خراسان وضعف أمر نصر بن سيار وعدم النجدة خرج عن خراسان حتى أتى الري ثم خرج عنها فنزل ساوة بين بلاد همدان والري فمات (أي نصرين سيّار) بها كمداً، وكان لما صار بين الري وخراسان كتب كتاباً إلى مروان (آخر خلفاء بني أمية وهو الملقب بـ: مروان الحمار) يذكر فيه خروجه عن خراسان وأن هذا الأمر الذي أزعجه سيزيد حتى يملأ البلاد، وضمّن هذا الشعر:

إنا وما نكتم من أمرنا كالثور إذ قُرِّب للباخع
أو كالتي يحسبها أهلها عذراء بكراً وهي في التاسع

(1) الحميمة قرية أثرية في حوض الحميمة المجاور لحوض القويرة، المجاوران لمنطقة رم من جهة الغرب. وقد زرتها غير مرة، وهي إلى الغرب من الطريق الواصل بين معان والعقبة بعد الانتهاء من انحدار النقب إلى الأرض شبه المستوية، وكانت الطريق إليها ترابية رملية صعبة، وهي في أحضان الجبال، وكانت في زمنها جنات غنّاء تُسقى بماء النبع الآتي من رأس النقب الحالي، إلا أن الماء غار، وأتى التصحّر عليها للأسف الشديد وقد تم إنشاء قرية جديدة اسمها الحميمة الجديدة تقع على الطريق العام المذكور بمحاذاة الحميمة القديمة، وتقع الحميمة الآن في جبال الشراة، وهي من أراضي الحويطات، وهم أنباط. وقد كانت تاريخياً تعتبر من أراضي البلقاء إلا أن اسم البلقاء تقلّص الآن كما ذكرنا في موقع آخر من هذا الكتاب.

كسنا نسرفّيها فقد مزّقت واتسع الخرْق على الراقع
كالشرب إذ أنهج فيه السلى أعيا على ذي الحيلة الصانع

فلم يستتم مروان قراءة هذا الكتاب حتى مثل أصحابه بين يديه ممن كان وُكِّلَ بالطرق رسولاً من خراسان لأبي مسلم إلى إبراهيم بن محمد الإمام يخبره فيه خبره وما آل إليه، فلما تأمل مروان كتاب أبي مسلم قال للرسول: لا تُرَع (أي لا تخَفْ) كم دفع إليك صاحبك؟ قال: كذا وكذا، قال: فهذه عشرة آلاف درهم وإنما دفع إليك شيئاً يسيراً، فامض بهذا الكتاب إلى إبراهيم ولا تعلمه بشيء مما جرى وخذ جوابه فائتني به، ففعل الرسول ذلك، فتأمل مروان جواب إبراهيم إلى أبي مسلم بخطه يأمره فيه بالجد والاجتهاد والحيلة على عدوّه وغير ذلك من أمره ونهيه.

فاحتبس مروان الرسول قبله وكتب إلى الوليد بن معاوية بن عبدالملك وهو على دمشق يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء فيسير إلى القرية المعروفة بالكداد (بئر خداد) والحميمة فيأخذ إبراهيم بن محمد فيشده وثاقاً ويبعث به إليه في خيل كثيفة، فوجه الوليد إلى عامل البلقاء فأتى إبراهيم وهو جالس في مسجد القرية فحبسه في السجن بحران، فجرى بينه وبين مروان خطب طويل، وانكر إبراهيم الإمام كل ما ذكر له مروان من أمر أبي مسلم، فقال له مروان: يا منافق أليس هذا كتابك إلى أبي مسلم جواباً عن كتابه إليك، وأخرج له الرسول فقال: أتعرف هذا؟ فلما رأى ذلك أمسك وعلم انه أتي من مأمنه.

واشتد أمر أبي مسلم، وكان في الحبس مع إبراهيم جماعة من بني هاشم ومن الأمويين كان مروان يخاف أن يخالفوا عليه، فقيل إنه هجم عليهم في الحبس جماعة من موالي مروان من العجم وغيرهم فدخلوا البيت الذي كانوا فيه، فلما أصبح وُجدوا قد أتوا عليهم، وكان منهم غلامان صغيران من خدمهم فوجدا كالموتى، قال المخبر: فلما رأونا أنسوا بنا، فسألناهما عن الخبر فقالا: أما

الأمويون فجعلت على وجوههم مخاد وقعدوا فوقها فاضطربوا ثم بردوا، وأما إبراهيم فأُدخل رأسه في جراب نورة مسحوقة فاضطرب ساعة ثم خمد، وقيل هدم عليه بيتاً وقيل ألقي عليه قطيفة فقتله غمّاً وقيل سمّه في لبن سقاه إياه.

وفي الحميمة ولد المهدي، وولي ابنه الهادي سنة تسع وستين ومائة »[1] (الحميري: ص 199-200).

-64-

1- عمـان : (ابن خرداذبة: ص 77)

ورد ذكر عمان في كتاب المسالك والممالك لابن جرداذبة (ت 280هـ) معتبراً أنها من كورة دمشق وأقاليمها.

« .. وكورة الجولان، وظاهر البلقاء، وجبل الغور وكورة مآب، وكورة جبال، كورة الشراة، وكوة بُصرى، وكورة عمان، والجابية » (ابن خرداذبة: ص 77)[2].

وقد أورد قول أحد الشعراء:

« سَلِّمْ على دِمَنٍ أقْوَتْ بعَمَّانِ   واسْتَنْطِقِ الرَّبْعَ هَلْ يَرْجِع بتِبْيَانِ »

(ابن خرداذبة: ص 77)

---

(1) لابد من القول هنا أن أول ثلاثة خلفاء من بني العباس هم من مواليد وتربية الأردن، وتحركوا إلى العراق لاستلام الحكم فقط وهم: عبدالله السفاح، أبو جعفر المنصور والمهدي. وكانوا أكثر خلفاء بني العباس تنكيلاً ببلدهم الأردن وإهمالاً له وأذى لعشائره لأنها آزرت بني أمية؛ وذلك خشية أن تخرج منه دعوة تناوئهم كدعوتهم التي ناوأت بني أمية ونجحت واستلمت الحكم. وهكذا بقي الأردن على مرّ الدهور والعصور، كـ « خبز الشعير » مأكول ومذموم للأسف الشديد، حتى من قِبَل الذين بناهم وتبنّاهم وحماهم أثناء دعوتهم تلك.

(2) نجد هنا أن الأردن كانت في القرن الثالث الهجري تشتمل بالإضافة إلى الكور الأخرى، على كل من البلقاء، وجبال الغور، ومؤاب، وجبال (الطفيلة) والشراة، وبصرى (حوران) وعمان، والجابية، هذا فضلاً عن طبريا وبيسان وعكا وصور والحولة وقَدَس (بانياس) (ت 280هـ).

2- عمـان : (المسالك والممالك / الاصطخري: ص 48)

(وعند البلقاء عمان التي جاء في الخبر في ذكر الحوض أنه ما بين عمان وبُصرى » (ص 48).

3- عمـان : (احسن التقاسيم / المقدسي: ص 175)

« وعَمَّان: على سيف البادية ذات قرى ومزارع رستاقها البلقاء معدن الحبوب والأغنام بها عدة أنهار وأرحية يديرها الماء ولها جامع ظريف بطرف السوق مفسفس الصحن وقد قلنا أنه شبه مكة وقصر جالوت على جبل يطل عليها وبها قبر أوريّا عليه مسجد وملعب سليمان رخيصة الأسعار كثيرة الفواكه غير أن أهلها جهّال وإليها الطرق الصعبة »[1] (المقدسي: ص 175).

4- عمان : (معجم ما استعجم / البكري: ج 2، ص 482-483)

ووردت عمان لدى البكري (ج 2، ص 482)، ضمن مادة خاخ، حيث جاء ما نصّه: «خاخ: بخاء معجمة بعد الألف: موضع قد تقدّم ذكره في رسم النَّقيع[2]؛ وهو الذي يُنسب إليه روضة خاخ، قال الأحوص:

(1) بقيت مياه عمان قوية غزيرة حتى مطلع القرن العشرين، وكانت تسمى لغزارتها سيل عمان، وبقيت تقوم عليها الطواحين (الأرحية) حتى مطلع القرن العشرين، إلا أن وجود البنايات على الجبال حال دون توغل ماء المطر إلى باطن الأرض، وحرم المخزون الجوفي من التغذية، وأذكر في مطلع الخمسينات (من القرن العشرين) أن عين ماء عمان كانت قوية ورأيتها بأم عيني وأنا طفل مع والدي رحمه الله. ثم جفّت العين، وتم حفر بئر ارتوازي عند راس العين في الوادي، قرب مبنى الأمانة الحديث الحالي؛ وتحول مجرى السيل إلى مكرهة صحية ومجاري وجرى سقفه في الستينات من القرن العشرين، ثم أصبح سيل عمان يسمى: « سقف السيل » منذئذ. وهو مزدحم بالناس والباعة والسيارات وباعة البسطات، والمنحرفين.

(2) في الأصول: « البقيع » بالباء بدل النون؛ وهو خطأ من المؤلف، نبهنا عليه مراراً في هذا الجزء. وانظر صفحة (   ) من الجزء الأول، ففيها مقنع.

نظَرْتُ على فَوْتٍ فأوْفَى عَشيّةً بنا منظرٌ من حصن عمان يافع
لأبصِرَ أحْياءَ بخاخٍ تضمَّنَتْ منازلهم منها التلاع الدّاوفع

وقال علي بن أبي طالب: بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد[1] والزبير بن العوام، وكلّنا فارس، وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة من المشركين، معها كتاب من حاطب بن أبي بَلْتَعَة إلى المشركين. قال: فأدركناها تسير على بعير لها، حيث قال رسول الله ﷺ ، فقلنا لها: الكتاب. قالت: ما معي كتاب، فأنخناها والتمسناها، فلم نرَ كتاباً. قلنا: ما كُذِبَ رسول الله ! لتُخرجن الكتاب أو لنُجرِّدنك. فلما رأت الجدّ أهْوَتْ إلى حُجْزَتِها، وهي محتجزة بكساء، فأخرجته[2]، فانطلقنا بها إلى رسول الله؛ فقال عمر: يا رسول الله، قد خانَ الله ورسوله، فدعْني فلأضرب عنقه. فقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: والله ما بين إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله؛ أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي؛ وقال: وليس أحد من أصحابك إلا من له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله. فقال: صَدَقَ، ولا تقولوا له إلا خيراً. فقال عمر: إنه قد خانَ الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه. فقال أليس من أهل بدر، لعل الله اطّلع إلى أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم. فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.

وهذه المرأة هي سارة مولاة عمرو بن صيفيّ بن هاشم بن عبد مناف.

(1) لم يذكر ابن هشام في السيرة: أبا مرثد، انظر سيرة ابن هشام، ج 4، صفحتي 41، 42 طبعة الحلبي سنة 1936. وذكر ياقوت في معجم البلدان في رسم خاخ: المقداد، بدل أبي مرثد.
(2) في السيرة أنها أخرجت الكتاب من قرون رأسها.

5- عمان : (معجم ما استعجم / البكري: ج 3، ص 970)

« عَمَّان: بزيادة ألف ونون على الذي قبله، على وزن فَعْلان: قرية من عمل دمشق، سميت بعمان بن لوط ﷺ ، قال الفرزدق:

فحُبُّكِ أغْشاني بلاداً مُغيضَةً ... إلـيَّ ورُوميًّا بعَمَّان أقْشَرَا

ويقال أيضاً عَمَان، بتخفيف الميم؛ ويرى في حديث النبي ﷺ ما بين بُصْرَى وعمَّان وعَمَان، صحيحان. ذكره الخطابي » (البكري: ج 3، ص 970).

6- خَمَّان: (معجم ما استعجم / البكري: ج 2، ص 510-511)

« خَمَّان[1]: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، على وزن فعلان: جبل مذكور في رسم ثُربان، ورسم رَهْبَى.

وخَمَّانُ أيضاً: موضع آخر بالشام، قال حسّان:

لمـن الـدار أقفـرت بمَعَـان ... بـين شـطِّ اليَـرْمُوكِ والخَمَّـانِ
فالقُـرَيّاتِ مـن بَـلاَسٍ فدارَيَّـا ... فسَـكَّاءَ فالقُصُـورِ الدَّوَانـي
فقَفَـا جاسِـمٍ فأوْديـة الصُّـفَّـ ... ـرِ مَغْـنَى قـنابلٍ وهجَـان

(البكري: ج 2، ص 510-511)

---

(1) رجم عموني قديم مبني من حجارة الموقع، إلى الجنوب من زيزياء، في ديار بني صخر في بادية وسط الأردن ولا زال قائماً حتى الآن (2006) وهو على تل مرتفع ومعروف لجميع أبناء البادية وورد كثيراً في أشعارهم البدوية. ولا أدري من أين جاءت الكلمة، لكنها ربما تكون مشتقة من خَمَّن أي إذا اعتقد بشيء وهو على غير توكيد من صحته او عدمها. وبالتالي فالواصل هناك يُخمِّن أنه أصبح في هذه الديار أو تلك. وربما يكون اسم شخص، وقد تكون الكلمة مشتقة من خَمَّ، إذا أخذ أو اختطف أو سرق الشيء برشاقة وسرعة مقرونة بالغضب، وفي هذه الحالة يكون « خمَّان » كثير الخَمّ أي كثير التقاط الشيء أو نهبه بسرعة ورشاقة، وكما ورد لدى البكري اسم الخمّان في منطقة المدينة المنورة، وأن تشابه الأسماء أمر طبيعي في الجغرافيا، والله أعلم.

« الخمّان: وردت عند البكري أيضاً (ج1، ص 308) ضمن تربان، حيث يقول: « تُرْبان: بضم أوله، وإسكان ثانيه، وبالباء المعجمة بواحدة، على وزن فُعلان. قال أبو زياد: هو وادٍ به مياه كثيرة، وأنشد:

نظرتُ بمُفْضى سَيْلِ تُرْبَانَ نظرةً … هل اللهُ لي قَبْلَ المماتِ يُعِيدُها

وقال الأصمعي: تُرْبان: على ثمانية عشرة ميلاً من المدينة، على طريق مكة، قال حسّان:

يَكاد بعَلْياءِ العقيقِ خَوَاتُهُ … يَحُطُّ من الخَمَّانِ[1] رُكْناً مُلَمْلَمَا
فلما علا تُرْبَانَ وانْهَلَّ وَدْقُهُ … تَدَاعَى وألقَى بَرْكَهُ وتَهَدَّمَا

وانظره في رسم دَمْخ.

7- عمان: (معجم البلدان / الحموي: ج 4، ص 151-152)

« عمَّانُ: بالفتح ثم التشديد، وآخره نون، يجوز أن يكون فعْلان من عمّ يعمّ فلا ينصرف معرفة وينصرف نكرة، ويجوز أن يكون فعّالاً من عمن فيصرف في الحالتين إذا عني به البلد؛ وعمان: بلد في طرف الشام وكانت قصبة أرض البلقاء، والأكثر في حديث الحوض كذا ضبطه الخطابي ثم حكى فيه تخفيف الميم أيضاً وفي الترمذي: من عدن إلى عمان البلقاء، والبلقاء: بالشام وهو المراد في الحديث لذكره مع أذرح والجرباء وأيلة وكل من نواحي الشام، وقيل: إن عمان هي مدينة دقيانوس وبالقرب منها الكهف والرقيم معروف عند أهل تلك البلاد، والله أعلم، وقد قيل غير ذلك.

وقال أبو عبدالله محمد ابن أحمد البشاري: عَمَّانُ على سيف البادية ذات قرى ومزارع، ورستاقها البلقاء، وهي معدن الحبوب والأنعام، بها عدة أنهار

(1) في مخطوطات أخرى: الخمّار، والحوان.

وأرحية يديرها الماء، ولها جامع ظريف في طرف السوق مُفَسْفَسُ الصحن شبه مكة، وقصر جالوت على جبل يطل عليها، وبها قبر أوريّاء النبي ﷺ، وعليه مسجد وملعب سليمان بن داود، ﷺ وهي رخيصة الأسعار كثيرة الفواكه غير أن أهلها جهال والطرق إليها صعبة[1]، قال الأحوص بن محمد الأنصاري:

(1) من خلال هذا النص نجد أن عمان في القرن السابع الهجري، كما ذكر الحموي (ت 626هـ)، تمتاز بما يلي:
أ- موقعها على سيف البادية، أي عند التقاء الخضراء بالبيداء، أو إن شئت بالصحراء.
ب- أنها ذات قرى ومزارع مما يدل على أنها كان عامرة بالسكان والإنتاج والاستقرار والبناء.
ج- أنها عاصمة البلقاء، وأن بلاد البلقاء هي رستاقها أي الأرض التابعة لها والمرتبطة بها.
د- هي مصدر الحبوب والأنعام لكثرة الزراعة والمواشي، مما يدل على مناخ ماطر وأرض خصبة ومراعي مزدهرة، وزراعة ذات غلال كثيرة.
هـ- بها عدة أنهار والمقصود هو نهر عمان الذي هو جاف الآن (نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين).
و- توجد عدة أرحية أي طواحين مائية تديرها مياه السيول كدليل على قوة الماء، وكثرة السكان.
ز- بها مسجد في صحن المدينة ويشبه المسجد الحرام في مكة المكرمة من حيث الموقع.
ح- فيها قصر جالوت أي القلعة، وهذا يؤكد وجهة نظرنا، ويدحض الأقوال السابقة أن قصر جالوت وقبره في منطقة طبريا.
ط- فيها قبر النبي أوريّا الحثّي الأردني ﷺ الذي كان زمن النبي داود ﷺ وعلى قبر أوريّا مسجد.
ي- فيها ملعب النبي ﷺ بن داود ﷺ.
ك- هي رخيصة الأسعار بسبب وفرة الإنتاج.
ل- كثيرة الفواكه المتوعة.
م- أهلها جهّال وهذه ميّزة المكان أن من يقطنه يصبح جاهلاً بالسياسة لانشغاله بجمع المال، وكان عليه أن يدركها أكثر لتأثيرها على المال ورأس المال، ولكن يبدو أن تحصيل المال في عمان لا يكون إلا بجهل السياسة. فينشغلون به عن السياسة.
ن- الطرق إليها صعبة بسبب وعورة المكان وأنها جبلية.
س- في مواقع خرى وُصفت أنها بلاد العسل والزعتر.

أقــول بعمّــان وهــل طــربي بــه ... إلى أهــل سَلْع، إن تشَوّقْتُ،نافعُ
أصــاح الم يحـزُنْك ريــح مريضــة ... وبـرق تـلالأ بـالعقيقين لامـع؟
وإن غــريبَ الــدارِ ممّــا يشــوقُهُ ... نسيمُ الـرياحِ والـبروقُ اللوامعُ
وكيـف اشـتياقُ المرء يـبكي صبابة ... إلى مـن نأى عن دارِه وهو طامع
وقـد كنتُ أخشى، والنُّوى مطمئنةٌ ... بـنا وبكم، من علمِ ما اللهُ صانع
أريــد لأنســي ذكــرها فيشــوقني ... رِفـاقٌ إلى أرض الحجـاز رواجع

وقال الخطيم العُكلي اللص يذكر عَمّان:

أعـوذ بـربي أن أرى الشـام بعدهـا ... وعمّـان مـا غـنى الحمـامُ وغـرّدا
فـذاكَ الـذي اسـتنكَرْتُ يا أمّ مالك ... فأصبحتُ منه شاحبَ اللون أسودَا
وإنـي لماضـي العـزم لـو تعلميـنه، ... ورَكّابُ أهوالٍ يُخافُ بها الرّدى[1]

وينسب إلى عمان أسلم بن محمد بن سلامة بن عبدالله بن عبدالرحمن أبو دفافة الكناني العماني، قال الحافظ أبو القاسم: من أهل عمان مدينة عمان مدينة البلقاء، قدم دمشق وحدث بها عن عطاء بن السائب بن أحمد بن حفص العماني المخزومي ومحمد بن هارون بن بكار وعبدالله بن محمد بن جعفر القزويني القاضي، روى عنه أبو الحسين الرازي وأبو بكر أحمد بن صافي التنيسي مولى الحباب بن رحيم البزاز، قال ابن أب مسلم:مات أبو دفافة سنة 324، وقال

(1) هذا شعر للخطيم العُكلي اللصّ، وقد وجد نفسه تلميذاً باللصوصية، وضحية للمافيا في عمان. فهرب يولول، وهو اللص المحترف، وإذا به أمام لصوص ليس لديه مؤهلات أن يكون عندهم تلميذاً. وفي العصر الحاضر الحاضر لمجد المقولة تتكرر ولكن بأسلوب آخر وتعبير مختلف إذ يقال الآن: أن عمان هي البلد الوحيد في الدنيا التي لا تستطيع المافيا الدولية أن تدخلها، لأن بها عصابات من المافيا تبتلع المافيا الدولية بكل سهولة، وتذهب أية مافيا مولولة لما أصابها بعمان من أساليب جمع المال والاحتيال.. سبحان الله التاريخ يكرر نفسه ولو اختلف الأسلوب.

الرازي: سنة 325؛ وأبو الفتح نصر بن مسرور بن محمد الزهري العماني، حدث عن أبي الفتح محمد ب إبراهيم الطرسوسي ونفر سواه. وديرُ عمان: بنواحي حلب ذكر في الديرة؛ ومحمد بن كامل العماني، روى عن إبان بن يزيد العطار، روى عنه محمد بن زكرياء الأضخاي » (الحميري: ج 4، ص 151-152).

8- عمّان : (الروض المعطار / الحميري: ص 412)

« عمّان[1]: بفتح أوله وتشديد الميم، قرية من عمل دمشق، سميت بعمان بن لوط ﷺ »[2] (الحميري: ص 412).

9- الرّقيم : (المسالك والممالك / ابن خرداذبة: ص 106، 110، 111)

وقد ورد ذكرها في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة في أكثر من موقع فيقول: « ... فأما أصحاب الرقيم فبخرمة رستاق بين عمورية وفيقية، وكان الواثق بالله وجّه محمد بن موسى المنجّم إلى بلاد الروم ينظر إلى أصحاب الرقيم وكتب إلى عظيم الروم بتوجيه من يوقفه عليه... » (ابن خرداذبة: ص 106).

وفي موقع آخر:

« ... تأتي هوتة الرقيم وهي خسف في الأرض يكون مقدار مائتي ذراع في مائتي ذراع مشقوقة في وسطها كبيرة حولها أشجار حول الأشجار في أصل الجبال بيوت ومساكن وهي مخرج أكثر من مائة رجل ولها باب في الجبل تحت

---

(1) معجم ما استعجم 970:3.

(2) إن الروايات التي يتداولها بعض المؤرخين والرحّالة والجغرافيون المسلمون تقول: إن عمان هو ابن لوط، وهذه رواية غير صحيحة وغير علمية مأخوذة من التوراة أي أنها رواية من الإسرائيليات. والحقيقة أن عمان هي ربّة عمون، أي عاصمة العمونيين وهم عرب أموريون أردنيون دامت دولتهم في عمان وما حولها أزيد من 1200 سنة، ولا علاقة لها بالنبي لوط ﷺ لا من قريب ولا من بعيد، والله أعلم.

الأرض يخرجك إلى الوادي والناس حولها ينظرون إلى جوفها مثل القصعة وأخرجوا إلى عليّ بن يحيى جرّة من ماء البحيرة وخبز فرنية وجبنة هدية وقالوا نحن ضعفي الروم لا نقاتل إنما نخدم هؤلاء القوم الذين جعلهم الله هاهنا والقوم في مغارة يُصعد إليها من الأرض الهوتة بسلم لعله أن يكون ثمانية أذرع ونحو ذلك فإذا هم ثلاثة عشر رجلاً وفيهم غلام أمرد عليهم جباب صوف وأكسية صوف وعليهم خفاف ونعال فتناولت شعرات في جبهة أحدهم فمدتها فما تبعني منها شيء » (ابن خرداذبة: ص 110-111) [1].

10- الرّقيم : (المسالك والممالك / الاصطخري: ص 47-64)

«وأما رَقيم فإنها مدينة بقرب البلقاء، وهي صغيرة منحوتة بيوتها كلها، وجدرانها من صخر كأنها حجر واحد » (الاصطخري: ص 47).

« الرقيم: وأما رقيم فإنها مدينة بقرب البلقاء وهي صغيرة منحوتة بيوتها كلها وجدرانها من صخر كأنها حجر واحد » [2] (الاصطخري: ص 64).

---

(1) واضح أن هذه خرافة إسرائيلية أخرى، أما الرقيم فإن موقعها جنوب عمان بالأردن رغم العديد من الروايات الأخرى التي تجعلها في بلاد الترك.، كان حريٌ بالمؤرخين القدامى عدم نقلها، تحت أي ظرف وتحت أيّ باب لأنها لا تتفق مع العقل والعقيدة والمنطق.

(2) الرقيم التي فيها كهف أهل الكهف، هي طبقة صخرية واسعة جداً، وليس بها بيوت أثرية كما ورد في هذا النص وغير من النصوص، وإنما كانت هذه مقطعاً للحجارة تؤخذ للبقاء في مواقع أخرى، وقد بقيت آثار هذا القطع الحجري ظاهرة إلى الآن، وتم اختفاء بعضها بسبب العمران الحديث. كما توجد مقاطع أخرى إلى الجنوب من راس العين قرب السوق المركزي السابق، وأخرى في راس الوادي الذي ينتهي إلى وادي الحدادة.

وعدد آخر في مناطق ياجوز وبالإضافة إلى هذه المقاطع/ المحاجر، توجد في منطقة الكهف قبور عمونية ونبطية، حيث للقبر باب محفور بالصخر يؤدي إلى سراديب تحت أرضية فيها توابيت حجرية لدفن الموتى، وتنتشر هذه في مناطق حسبان والبصّة، والسويسة (الجانب الجنوبي من حرشة السوط) ومناطق اخرى كثيرة.

11- البلقاء : (مسالك الممالك / الاصطخري: ص **65**)

« وعند البلقاء عمان التي جاء في الخبر في ذكر الحوض أنه ما بين عمان وبصرى » (الاصطخري: ص 65).

-65-

اصحاب الكهف

1- أصحاب الكهف : (تلخيص الآثار / الياكوتي: ص **52** (ب) ، ص **53** (أ))

وعن مكان أصحاب الكهف، يقول الياكوتي:

« أفسوس مدية بأرض الروم وهي مدينة دقيانوس الجبار الذي هرب منه أصحاب الكهف وبين الكهف والمدينة مقدار فرسخ والكهف مستقبل بنات نعش لا تدخله الشمس، فيه رجال موتى لم يتغير وعددهم سبعة منهم نيام على ظهورهم وواحد في آخر الكهف مضطجع على يمينه وظهره إلى جدار الكهف وعند أرجلهم كلب ميت لم يسقط من أعضائه شيء وعلى الكهف مسجد يستجاب فيه الدعاء يقصده الناس، وأهل المدينة ويرون بالليل على الكهف نوراً عظيماً » (الياكوتي: ص 52 (ب)، 53 (أ))[1].

---

(1) إن الحديث عن عدم تحلل أجساد أهل الكهف أمر ينمّ على عدم الدقة العلمية، ويناقض الطبيعة. وفي الحقيقة أنني شاهدت بنفسي عظاماً في توابيت حجرية داخل الكهف الوارد ذكره في القرآن الكريم وهو في الرقيم جنوب عمان، (انظر الحاشية أعلاه)، وهو موضع الحديث هنا. ويوجد على سقف المغارة آثار مسجد قديم، وعند بابها من جهة الغرب بقايا جذع زيتونة أثرية. وتم بناء مسجد حديث إلى الغرب من الكهف المذكور والذي تنطبق عليه المواصفات المذكورة في القرآن الكريم، هذا ما شاهدته في هذه السنين.

2- الرقيم : (احسن التقاسيم / المقدسي: ص 175-176)

والرّقيم: قرية على فرسخ من عمان على تخوم البادية فيها مغارة لها بابان صغير وكبير يزعمون أن من دخل الكبير ولم يمكنه الدخول من الصغير فهو محذر وفي المارة ثلاثة قبور وهي التي حدثنا ابن أبي مريم قال أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة قال أخبرني نافع عن عبدالله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال بينما نفر ثلاثة يتماشون إذ أخذهم المطر فمالوا على غار في الجبل فانحطّت إلى فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض انظروا أعمالاً عملتموها لله عز وجل فادعوا الله بها لعله يفرجها[1].

فقال أحدهم اللهم كان لي والدان شيخان كبيران ولي صبية صغار كنت أرغى عليهم فلما رحتُ عليهم فحلبتُ بدأت بوالديّ أسقيتهما قبل ولدي وإنه نابني السخر يوماً فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمتُ عند رؤوسهما أكره أن أوقضهما من نومهما وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما والصبية ينضاعون فلم نزل كذلك حتى طلع الفجر فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجةً نرى منها السماء، ففرج الله تعالى فرجة رأوا منها السماء.

وقال الأخر اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحبّ الرجال فطلبتُ إليها نفسه فأتب حتى آتيها بمائة دينار فسعيت حتى جمعتُ مائة دينار فجئتها بها فلما وقعتُ بين رجليها قالت يا عبدالله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه فقمتُ عنها فإن كنتَ تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجاً، ففرج الله لهم فرجة.

---

(1) الحديث الشريف مدار البحث هنا، لا علاقة له بالرقيم، وأستغرب كيف أن المقدسي ضمّنه تحت عنوان الرقيم؟!.

وقال الآخر اللهم إني كنتُ استأجرت أجيراً بعُرْف من أرز فلما قضى عمله قال اعطني حقي فعرضت عليه حقّه فتركه ورغب عنه فلم أزل أزرعه حتى جمعتُ منه بقراً وراعيها فجاءني وقال اتق الله ولا تظلمني واعطني حقي فقلت اذهب إلى تلك البقر وراعيها فخذها فقال اتق الله ولا تهزأ بي فقلت إني لا أهزأ بك خذ تلك البقر وراعيها فأخذها وانطلق بها فإن كنتَ تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج ما بقي ففرج الله عنهم » (ص 175-176).

3- الرقيم : (معجم البلدان / الحموي: ج 3، ص 60، 61، 62)

« الرقيم: بفتح أوله، وكسر ثانيه، وهو الذي جاء ذكره في القرآن؛ والرَّقْمُ والترقيم: تعجيم الكتاب ونقطه وتبيين حروفه، وكتاب رقيم أي مرقوم، فعيل بمعنى مفعول؛ قال الشاعر:

سأرقم في الماء القراح إليكُمُ، على بُعدكم، إن كان للماء راقم

وبقرب البلقاء من أطراف الشام موضع يقال له الرقيم، يزعم بعضهم أن به أهل الكهف، والصحيح أنهم ببلاد الروم كما ذكره[1]؛ وهذا الرقيم أراد كثّير بقوله، وكان يزيد بن عبدالملك ينزله، وقد ذكرته الشعراء:

أميرَ المؤمنين إليك نهوي على البُخت الصّلادم والعُجُوم
إذا اتخذتْ وجوه القومِ نصباً أجيج الواهجات من السّموم

---

(1) أورد بعض المؤرخين المفسّرين والرحّالة مواقع تنطبق عليها المواصفات الواردة في القرآن الكريم على الكهف؛ مما أوجد الالتباس لديهم حول تحديد مكانه. والحقيقة أن الكهف والرقيم الذي به الكهف هو اسماً ورسماً ووصفاً الموجود في ضواحي عمان القديمة، وهو في الأردن، ولم يعد لدى الباحثين والأثريين أية حجج تنفي ذلك. بل إن الجميع بما فيها الروايات الشعبية المتوارثة عبر آلاف السنين أجمعت على أن هذا هو الرقيم والكهف. وإنني إذ أكرر قول ذلك في الحواشي من باب: فذكّر إن الذكرى تنفع المؤمنين ومن مبدأ: أن في الإعادة إفادة.

فكم غادَرْنَ دونك من جهيض	ومن نعلٍ مُطَرَّحةٍ جذيم
يَزُرْنَ، على تنائيهِ، يزيداً	بأكناف المَوْقَّر والرّقيم
تُهَنِّئهُ الوفود إذا أتوْهُ	بنصر الله والملك العظيم

قال الفراء في قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف:9] ؛ قالوا: هو لوح رصاص كُتبت فيه أنسابهم وأسماؤهم ودينهم ومما هربوا، وقيل: الرقيم اسم القرية التي كانوا فيها، وقيل: إنه اسم الجبل الذي فيه الكهف؛ وروى عكرمة عن ابن عباس، ﷺ ، أنه قال: ما أدري ما الرقيم أكتابٌ أم بنيان، وروى غيره عن ابن عباس: أصحاب الرقيم سبعة، وأسماؤهم يمليخا، مكسملينا، مشلينا، مرطونس، دبريوس، سرابيون، افستطيوس، واسم كلبهم قطمير، واسم ملكهم دقيانوس، واسم مدينتهم التي خرجوا منها أفسُس ورستاقها الرّس، واسم الكهف الرقيم، وكان فوقهم القُبطيّ دون الكُرديّ، وقد قيل غير ذلك في أسمائهم.

والكهف المذكور الذي فيه أصحاب الكهف بين عمورية ونيقية، وبينه[1] وبين طرسوس عشرة أيام أو أحد عشر يوماً، وكان الواثق قد وجّه محمد بن موسى المنجم إلى بلاد الروم للنظر إلى أصحاب الكهف والرقيم. قال: فوصلنا إلى بلد الروم فإذا هو جبل صغير قدر أسفله أقل من ألف ذراع ولن سَرَب من وجه الأرض فتدخل السرب فتمرّ في خسف من الأرض مقدار ثلاثمائة خطوة فيُخرجك إلى رواق في الجبل على أساطين منقورة وفيه عدة أبيات، منها: بيت مرتفع العتبة مقدار القمة عليها باب حجارة فيه الموتى ورجل موكل بهم

---

(1) تكرار للقصة الخيالية التي لا تتفق مع منطق، والتي أستغرب أن يقع بها عالم جليل مثل ياقوت الحموي (ت626هـ).

يحفظهم معه خصيّان، وإذا هو يحيدنا عن أن نراهم ونفتّشهم ويزعم أنه لا يأمن من أن يصيب من التمس ذلك آفة في بدنه، يريد التمويه ليدوم كسبه.

فقلت: دعني أنظر إليهم وأنت بريء، صعدت بمشقة عظيمة غليظة مع غلام من غلماني فنظرت إليهم وإذا في مُسوح شعر تتفتت في اليد، وإذا أجسادهم مطليّة بالصبر والمُرّ والكافور ليحفظها، وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم، غير أني أمررت يدي على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعره وقوّة ثيابه، ثم أحضرنا المتوكل بهم طعاماً وسألنا أن نأكل منه، فلما أخذناه منه ذقناه وقد أنكرت أنفسنا وتهوّعنا وكأن الخبيث أراد قتلنا أو قتل بعضها ليصحّ له ما كان يموّه به عبدالملك أنه فعل بنا هذا الفعل أصحاب الرقيم، فقلنا له: إنا ظننا أنهم أحياء يشبهون الموتى وليس هؤلاء كذلك، فتركناه وانصرفنا[1].

قال غيرهم: إن بالبلقاء بأرض العرب من نواحي دمشق موضعاً يزعمون أنه الكهف والرقيم قرب عمّان، وذكروا أن عمّان هي مدينة دقيانوس، وقيل: هي في أفسُس من بلاد الروم قرب أبُلُستَين، قيل: هي مدينة دقيانوس، وفي برّ الأندلس موضع يقال له جنان الورد به الكهف والرقيم، وبه قوم موتى لا يبلون كما ذكر أهلها، وقيل: إن طليطلة هي مدينة مغارة دقيانوس، وذكر عليّ بن يحيى أنه لما قتل من غزاته دخل ذلك الموضع فرآهم في مغارة يصعد إليها من الأرض بسُلّم مقدار ثلاثمائة ذراع، قال: فرأيتهم ثلاثة عشر رجلاً وفيهم غلام أمرَدُ عليهم جباب صوف وأكسية صوف وعليهم خفاف ونعال، فتناولت شعرات من جبهة أحدهم فمددتها فما منعني منها شيء[2].

---

(1) هذه خرافة لا يقبلها عقل، وهي من الإسرائيليات المدسوسة في الإسلام، لتشويه صورة ديننا الحنيف. وأستغرب كيف نقله الجغرافيون والمؤرخون دونما تمحيص دقيق.

(2) واضح أن هذه القصة خرافة أيضاً. وهو كلام سخيف لا يقبله العلم ولا الذوق.

والصحيح أن أصحاب الكهف سبعة وإنما الروم زادوا الباقي من عظماء أهل دينهم وعالجوا أجسادهم بالصبر وغيره على ما عرفوه؛ وروي عن عُبادة بن الصامت قال بعثني أبو بكر الصديق، ﷺ ، سنة استخلف إلى ملك الروم أدعوه إلى الإسلام أو أوذنه بحرب، قال: فسرت حتى دخلت بلد الروم فلما دَنوْتُ إلى قسطنطينية لاح لنا جبل أحمر قيل إن فيه أصحاب الكهف والرقيم، ودفعنا فيه إلى دير وسألنا أهل الدَّيْر عنهم فأوقفونا على سرب في الجبل، فقلنا لهم: إنا نريد أن ننظر إليهم، فقالوا: أعطونا شيئاً، فوهبنا لهم ديناراً، فدخلوا ودخلنا معهم في ذلك السرب وكان عليه باب حديد ففتحوه فانتهينا إلى بيت عظيم محفور في الجبل فيه ثلاثة عشر رجلاً مضطجعين على ظهورهم كأنهم رقود وعلى كل واحد منهم جُبّة غبراء وكساء أغبر قد غطوا بها رؤوسهم إلى أرجلهم، فلم ندر ما ثيابهم أمن صوف أو وبر أم غير ذلك إلا أنها كانت أصلب من الديباج وإذا هي تقعقع من الصفاقة والجودة.

ورأينا على أكثرهم خفافاً إلى أنصاف سوقهم وبعضهم منتعلين بنعال مخصوفة، ولخفافهم ونعالهم من جودة الخرز ولين الجلود ما لم يرَ مثله، فكشفنا عن وجوههم رجلاً بعد رجل فإذا بهم من ظهور الدم وصفاء الألوان كأفضل ما يكون للأحياء وإذا الشيب قد وخط بعضهم وبعضهم شبّان سود الشعور وبعضهم موفورة شعورهم وبعضهم مطمومة وهم على زي المسلمين، فانتهينا إلى آخرهم فإذا هو مضروب الوجه بالسيف وكأنه في ذلك اليوم ضرب، فسألنا أولئك الذين أدخلونا إليهم عن حالهم فأخبرونا أنهم يدخلون إليهم في كل يوم عيد لهم يجتمع أهل تلك البلاد من سائر المدن والقرى إلى باب هذا الكهف فنقيمهم أياماً من غير أن يمسّهم أحد فننفُضُ جباههم وأكسيتهم من التراب ونقلّم أظافرهم ونقص شواربهم ثم نضجعهم بعد ذلك على هيئتهم التي

ترونها، فسألناهم من هم وما أمرهم ومنذ كم هم بذلك المكان، فذكروا أنهم يجدون في كتبهم أنهم بمكانهم ذلك من قبل مبعث المسيح، ﷺ ، بأربعمائة سنة وأنهم كانوا أنبياء بُعثوا بعصر واحد وأنهم لا يعرفون من أمرهم شيئاً غير هذا، قال عبدالله الفقير إليه: هذا ما نقلته من كتب الثقات، والله أعلم بصحته ».
(الحموي: ج 3، ص 60-62).[1]

4- الرقيم : (الروض المعطار / الحميري: ص 271-272)

« الرقيم[2]: قال الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف: 9] قيل المعنى إنكار اعتقاد كون ذلك عجباً، أي لا يعظم ذلك فإن سائر آيات الله تعالى أعظم من قصتهم وأعجب، وهذا هو الأشهر، وقيل يجوز أن يكون المراد: هل علمت أن أصحاب الكهف كانوا عجباً بمعنى إثبات أنهم عجب، والكهف: الكهف المتسع في الجبل، فإن صغر فهو الغار، والرقيم الذي كانت بإزاء الكهف، وقيل الوادي الذي كان بإزائه وهو واد بين بيسان وايلة دون فلسطين[3]، وقيل هو الجبل الذي فيه الكهف، وقيل الصخرة التي كانت على الكهف، هذا قول من جعله موضعاً وحيزاً، والآخرون قالوا: هو كتاب مرقوم، وكان عندهم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى أو غيره في لوح نحاس أو رصاص أو حجارة، على اختلافهم في ذلك.

---

(1) هذه القصة تدخل في باب المعجزات والخيال، ولا تدخل في باب العقل البشري والمنطق والمعقول. إذن واضح أنها خرافة، وقد تم نقل الخبر ليس موثّقاً بالسند، وهو مَطْبٌ علمي وقع فيه الحموي.

(2) انظر زاد المسير 107:5 وكذلك سائر كتب التفسير كالطبري والكشاف والرازي.. الخ وقارن بياقوت (الرقيم)، وهذا وصف عام، ولكننا عند التدقيق به نجده يعني هذا الرقيم الذي في جنوب عمان.

(3) الرقيم / الكهف يقع إلى الشمال من أيلة في شرق الأردن إلى الجنوب الشرقي من بيسان في شمال الغور وشمال غرب الأردن.

وكانوا فتية في غابر الدهر فروا بدينهم، فدخلوا كهفاً خائفين من ملكهم وكان (أي الملك) عابد وثن. قالوا: مرّ ابن عباس رضي الله عنهما في بعض غزواته مع ناس على موضع الكهف وجبله فمشى الناس عليه فوجدوا عظاماً فقالوا: هذه عظام أهل الكهف، فقال لهم ابن عباس رضي الله عنهما: أولئك قوم فنوا وعدموا منذ مدة طويلة، فسمعه راهب فقال: ما كنت أحسب أن أحداً من العرب يعرف هذا، فقيل له: هذا ابن عباس ابن عم نبينا ﷺ فسكت[1].

قال ابن عطية: وبالشام على ما سمعت من ناس كثير، كهف فيه موتى يزعم مجاوروه أنهم أصحاب الكهف وعليهم مسجد وبناء يسمى الرقيم ومعهم كلب رمة. قال[2]: وفي الأندلس في جهة أغرناطة قرب قرية تسمى لوشة كهف فيه موتى ومعهم كلب رمة، وأكثرهم قد انجرد لحمه وبعضهم متماسك، وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شانهم ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف، قال: ودخلت إليهم ورأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة وعليهم مسجد وقريب منهم بناء رومي يسمى الرقيم كأنه قصر مخلق وقد بقي بعض جدرانه، وهو في فلاة من الأرض خربة، وبأعلى خضرة أغرناطة مما يلي القبلة آثار مدينة قديمة رومية يقال لها مدينة دقيوس وجدنا في آثارها غرائب وقبوراً.

وقال المسعودي[3]: قيصر قَلِبْسْ هو الذي دعي إلى دين النصرانية فأجاب، وترك ما كان عليه من مذاهب الصابئين، وأتبعه على ذلك خلق كثير من أهل

---

(1) هذه رواية معقولة ويركن إليها العقل ويطمئن المنطق والقلب.

(2) أورد الزهري تفصيلات كثيرة حول الكهف القريب من لوشة (ص 94-95) وقد رآه ورأى من فيه سنة 532هـ. وفي رأينا أن قولهم أنه بأرض الروم قد تكون إشارة إلى الأردن بما فيها الرقيم عندما كانت تحت الاحتلال الروماني، واعتبروها من أرض الروم. وفي هذه الحالة يكون الكلام مطابقاً أما إذا كان المقصود بأرض الروم بعد الفتح وذلك يعني اقتصارها على الديار البيزنطية، فإن الرواية تصبح غير صحيحة، لأنه بالأردن وليس في بيزنطة.

(3) التنبيه والإشراف: 133.

مملكته، فآل ذلك إلى تحزبهم واختلاف كلمتهم في الديانة، وكان ممن خالف عليه بطريق من بطارقته يقال له دافيوس، فقتل فَلَبِسْ واستولى على المُلْك، وملك سنتين، وتتبع النصارى فقتل منهم مقتلة عظيمة، ومنه هرب الفتية أصحاب الكهف، وهم في جبل من جبال الروم [يُعرف] بخاوس شرقي مدينة أفسيس وعلى نحو ألف ذراع منها، وكانت هذه المدينة على البحر الرومي فبعد البحر عنها.

وقال جماعة: أصحاب الكهف غير أصحاب الرقيم، وكلا موضعيهما بأرض الروم، وقد مرّ في حرف الخاء، في ذكر مدينة خارمي، ذكر هذا الكهف فنكتف بها القدر هنا (الحميري: ص 271-272).

5- أصحاب الكهف[1]: (الموسوعة الإسلامية، ج 1، ص 241-243)

« أصحاب الكهف: يريد القرآن بهذا الاسم الإشارة إلى الفتية الذين جرت العادة في الغرب على تسميتهم « نوام أفسس السبعة ». ويقص القرآن قصتهم في سورة الكهف (الآية الثامنة وما بعدها) فيقول إن بعض الفتية من مدينة كانت تعبد الأوثان ظلوا وحدهم يعبدون الله مخلصين، هربوا إلى كهف يطل بابه على ناحية الشمال، وهناك ضرب الله على آذانهم فناموا ومعهم كلبهم ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ [الكهف: 18] ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعاً، حتى إذا ما بعثهم الله فبعثوا

---

(1) حيث تتعدد الروايات، وذكر الأماكن المتشابهة التي تنطبق عليها مواصفات القرآن الكريم، فإنه قد يكون من المعقول أن يكون الموقع في الأردن موجود باسمين: «الكهف والرقيم»: وهو ليس كهفاً وحده، ولا رقيماً وحده بل كهف ورقيم، وأصحابهما، وقد يكون ما ذكره الرحالة في بلاد الروم (إن كان صحيحاً) أنها كهف به جثث، لكن ليس به أو حوله رقيم. وربما يكون ذكر القرآن الكريم لأصحاب الكهف والرقيم مخصص بما هو بالأردن، بينما يوجد أصحاب كهف آخرين في مواقع أخرى. ولكنهم ليسوا في الرقيم وليسوا هم المقصودين، والله أعلم.

بأحدهم إلى المدينة ليشتري لهم طعاماً. ولا يذكر القرآن عنهم أكثر من هذا إلا أنهم قالوا إن عددهم ثلاثة أو خمسة أو سبعة، وإن الغرض من هذه القصة هو تمكين الاعتقاد في البعث.

على أن المؤرخين والمفسرين قد ذكروا عن أهل الكهف شيئاً كثيراً. والروايات المختلفة التي أوردها الطبري (طبعة دي غوي، ج 1، ص 775 وما بعدها؛ التفسير، ج 15، ص 123 وما بعدها) يتفق أكثرها على القول بأن عدداً من الفتية نبذوا عبادة الأوثان واعتنقوا المسيحية في مدينة من مدن الروم (اليونان أو آسيا الصغرى) ثم فروا من تلك المدينة وآووا إلى كهف وكان معهم كلب عجزوا عن إبعاده، وناموا في هذا الكهف، ثم جاء الملك الوثني داقيوس (ويسمى أيضاً داقينوس وداقيانوس) ومعه أتباعه للقبض عليهم، ولكن لم يستطع أي واحد منهم دخول الكهف، فبنى عليهم داقيوس باب الكهف ليموت الفتية جوعاً وعطشاً. ونسي الناس أمرهم بعد ذلك.

وفي يوم من الأيام بعث أحد الرعاة برجاله وأمرهم بفتح الباب ليتخذ من الكهف حظيرة لغنمه، ولما دخل رجاله الكهف لم يروا أول الأمر الفتية الذين بعثهم الله في الأجل الذي ضربه ليقظتهم. وعندما استيقظوا كانوا لا يزالون يملؤهم الفزع والرعب من الخطر الذي نجوا منه، فعمدوا إلى الحيطة وبعثوا بأحدهم إلى المدينة ليشتري لهم طعاماً. ولم يعرف بائع الطعام النقود التي دفعها إليه الفتى، فساقه إلى الملك وهناك تبين كل شيء: فقد نام الفتية ثلثمائة سنة وتسعاً[1]، وكانت الوثنية قد انقرضت خلال هذه المدة وحلّت النصرانية محلها.

---

(1) قال تعالى في سورة الكهف: ﴿ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف:19] من خلال هذه الآية الكريمة يتبين أن نقودهم كانت من الفضة، وأنها كانت تُضرب في عمان، وأنها كانت تحمل تاريخ =

وفرح الملك بأصحاب الكهف فرحاً عظيماً لأن بعثهم أيّد عقيدة دينية كان البعض يشك في صحتها وهي أن الناس يبعثون بالجسد والروح معاً. ولم يكن الفتى ليعود إلى الكهف ثانية حتى ضرب الله على آذانهم مرة أخرى، فشيدوا في ذلك المكان كنيسة.

ولعل فيما ذكرناه الكفاية، غير أننا نريد أن نورد رواية أخرى تنسب إلى وهب بن منبه (الطبري، طبعة طه غوى ج 1، ص 778 وما بعدها؛ ابن لأثير طبعة تور نبرج، ج1، ص254 وما بعدها): تقول تلك الرواية « إنه جاء حواري من أصحاب عيسى إلى تلك المدينة وأراد أن يدخلها فقيل له إن على بابها صنماً، لا يدخلها أحد حتى يسجد له، فلم يدخلها وأتى محلاً قريباً من المدينة فكان يعمل فيه، فرأى صاحب الحمّام البركة عَلِقَت الفتى فجعل يخبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدقوه. فكان على ذلك حتى جاء ابن الملك بامرأة فدخل بها الحمام فعيره الحواري فاستحيا، ثم رجع مرة أخرى، فعيره فسبّه وانتهره، ودخل الحمام ومعه المرأة فماتا في الحمام، فقيل للملك إن الذي بالحمام قتلهما، فطلبه الملك فلم يجده، فقال من كان بصحبته فذكر الفتية فطلبهم فهربوا إلى الكهف مع صاحب لهم وتبعهم كلبه أيضاً »

ثم تتفق هذه الرواية مع الروايات الأخرى في بقية القصة. وقد زادت المصادر التي أوردت هذه القصة كثيراً من المعلومات التاريخية والجغرافية، غير أن الكثير منها متناقض، وبعضها لم يتيسر تعليله حتى الآن تعليلاً مقبولاً. وسنتكلم الآن على أهم هذه المعلومات فنقول: إن الملك الوثني الذي اضطهد النصارى كان يسمى داقيوس (249-251). أما الملك النصراني الذي بُعِثَ

= الصنع مما جعل الملك الجديد يعرف أيّ سنة ذهبوا إلى الكهف فعرفوا أنهم ناموا ثلاثمائة سنة شمسية وثلاثمائة وتسع سنين قمرية.

الفتية في عهده فهو الملك تيودوس الثاني (408-251). وهذا لا يتفق مع ما ورد في القرآن من أن أصحاب الكهف لبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعاً[1] ولا مع الروايات الأخرى التي تذهب إلى أنهم لبثوا فيه 372 عاماً. وهناك أمر آخر عظيم الأهمية هو معرفة المدينة التي حدثت فيها هذه القصة. تقول المصادر الغربية إنها حدثت في مدينة أفسس Ephese وتتفق معها في هذا بعض المصادر الشرقية أيضاً. على أن العرب يعرفون مدينتين بهذا الاسم: إحداهما المدينة المعروفة، والأخرى مدينة عربسوس القديمة في كبادوشيا وكانت تسمى أيضاً أبسس وتسمى اليوم بربوز. فهل كانت مدينة أبسس هذه هي المسرح الذي وقعت فيه تلك الحوادث الحقيقية أو التي أوحى بها الخيال؟ .

أما ده غوى فيؤيد هذا الرأي معتمداً على براهين استمدها من النصوص. وفي الحق إن بعض الرحالة قالوا إنهم رأوا في مدينة أبسس هذه كهفاً كان به جثث ثلاثة عشر رجلاً قد تيبست (ياقوت: المعجم، ج 2، ص 806؛ المقدسي، ص 153، ابن خرداذبة، ص 106، 110؛ البيروني: الآثار الباقية، طبعة سخاو ص 290)، وفوق هذا فقد

---

(1) الذي ألاحظه أن عبارة دائرة المعارف الإسلامية عبارة أكثر المفسرين تعتبر أن قوله تعالى ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾ [الكهف: 25] خبر عن مدة مكث أهل الكهف في كهفهم منذ دخلوه إلى أن استيقظوا.

ولكن أنهم غير ذلك وأقول إن قوله: (ولبثوا... الخ) معمول لقوله: (سيقولون ثلاثة .... الخ) فهو من مقول السائلين وليس خبراً من الله تعالى ولذا أتبع ذلك القول بقوله: ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [الكهف: 22].

وعلى ذلك القرآن الكريم لم ينص على عدد أهل الكهف ولا على المدة التي مكثوها فيه قبل أن يُعْثَر عليهم: بل أمر الله رسول أن يقول عن عددهم ﴿ رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ [الكهف: 22] وإن يرد عليهم حين يقولون ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾ [الكهف: 25] بقوله: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ [الكهف: 26] وقد ورد هذا القول عن ابن عباس.

تضمنت مجموعة النصوص المعلقة بتاريخ السلاجقة (طبعة هوتسما، ج 4، ص 152) ما ينص صراحة على أن عربسوس هي مدينة « أصحاب الكهف والرقيم » وربما كان اكتشاف هذه الجثث الثلاث عشرة هو الأصل الأول لقصة أهل الكهف ثم حرف الناس أبسس فيما بعد إلى أفسس؟ .

وهناك مسألة أخرى أيضاً هي معرفة معنى « أصحاب الكهف والرقيم » التي وردت في القرآن. ذهب الكثيرون إلى أن الرقيم هو اسم الكلب، وذهب آخرون إلى أن الرقيم هو اللوح الذي نقشت عليه قصة أصحاب الكهف. أما جغرافيو العرب فيرون أن الرقيم اسم مكان، فابن خرداذبة مثلاً يقول إن الكهف الذي كان فيه الجثث اسمه الرقيم وإن قصة أصحاب الكهف حدثت في أفسس. أما المقدسي فيرى أن الثلاثة عشر رجلاً الذين وُجدت جثثهم في الكهف كانوا اصحاب الكهف، ويروى أن الرقيم هي جهة في شرق الأردن قريبة من عمان. ويقال إن هذه الجهة كانت مسرحاً لحدث شاذ لثلاثة من الرجال. وقد زار الكهف الذي كان فيها كلرمون جانو Clermont Ganneau وهو يرى أن هذه الجهة هي التي جاء ذكرها في القرآن.

ولسنا ندري أي شأن للكلب في قصة أصحاب الكهف ولا مكان جبل أنخيلوس (ويرسم على أشكال مختلف) وليست المصادر متفقة في عدد الفتية ولا في أسمائهم.

وقد ظهرت قصة أصحاب الكهف لأول مرة في الشرق في كتاب سرياني يرجع تاريخه إلى القرن الخامس الميلادي، ذكرها دنيس. ووردت عند الغربيين في كتاب تيودوسيوس عن الأرض المقدسة. وأسماء الفتية في هذه المصادر أسماء يونانية، وليس هناك اتفاق على ما إذا كانت الرواية التي ذكرها دنيس قد نُقلت عن اليونانية أم كُتبت بالسريانية من أول الأمر.

وقصة أصحاب الكهف مشهورة ذائعة في الآداب الشرقية والغربية على حد سواء. راجع في هذا الصدد كتاب جون كوخ John Koch الذي حاول أن يجعل لهذه القصة أصلاً في الأساطير.

-66-

1- يَوم فِحْل[1] من الأردن : (فتوح البلدان / اللاذري، ص 158)

« قالوا وكانت وقعة فحل من الأردن لليلتين بقيتا من ذي القعدة بعد خلافة عمر بن الخطاب ﷺ بخمسة[2] أشهر وأمير الناس أبو عبيدة بن الجراح، وكان عمر قد كتب إليه بولايته الشام، وأمّره الأمراء مع عامر بن أبي وقّاص أخ سعد بن أبي وقاص، وقوم يقولون أن ولاية أبي عبيدة الشام أتته والناس محاصرون دمشق فكتمها خالداً (اي أن أبا عبيدة كتم الأمر عن خالد بن الوليد رضي الله عنهما) اياماً لأن خالداً كان أمير الناس في الحرب. فقال له (لأبي عبيدة) خالد ما دعاك رحمك الله إلى ما فعلت، قال كرهت أن أكسرك وأوهن أمرك وأنت بإزاء عدو، وكان سبب هذه الوقعة أن هرقل لما صار إلى إنطاكية استنفر الروم وأهل الجزيرة وبعث عليهم رجلاً من خاصته وثقاته في نفسه فلقوا المسلمين بفحل من الأردن فقاتلوهم أشد قتال وأبرحه، حتى أظهرهم الله عليهم، قتلوا بطريقهم زهاء[3] عشرة ألف معه (مع القائد الذي أرسله هرقل) وتفرّق الباقون في مدن الشام، ولحق بعضهم بهرقل وتحصّن أهل فحل فحصرهم المسلمون حتى سألوا الأمان على أداء الجزية عن رؤوسهم والخراج عن أرضهم، فأمنوهم على أنفسهم وأموالهم وأن لا تُهدَم حيطانهم وتولّى عند ذلك أبو عبيدة بن الجراح ويقال تولاّه شرحبيل بن حسنة » (البلاذري: ص 158).

(1) راجع الطبري، ص 158.
(2) ووردت في الأصل: زها بإسقاط الهمزة.

2- ذكر غزوة فحل : (نهاية الأرب / النويري: ج **19**، ص **159-160**)

« وفحل[1] بكسر الفاء وسكون الحاء المهملة وبعده لام، وهو بلد معروف بغور الشام. قال لما فُتحت دمشق في ستة ثلاث عشرة استخلف أبو عبيدة عليها يزيد بن أبي سفيان، وسار إلى فحل، وكان أهل فحل قد قصدوا بيسان. وكانت العرب تسمى هذه الغزوة ذات الرّدغة وبيسان وفحل.

وكان خالد بن الوليد على المقدمة، وعلى الناس شرحبيل بن حسنة وعلى المجنّبتين (أي الميمنة والميسرة) أبو عبيدة وعمرو بن العاص، وعلى الخيل ضرار بن الأزور، وعلى الرّجل عياض بن غنم.

فنزل شرحبيل بالناس على فحل، وبينهم وبين الروم تلك الأوحال، وكتبوا إلى عمر، وأقاموا ينتظرون جوابه، فخرج عليهم الروم، وعليهم سقلار بن مخراق فأتوهم، والمسلمون حذرون، وكان شرحبيل لا يبيت ولا يُصبح إلا على تعبئة؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى الصباح، ويومهم إلى الليل، فانهزم الروم، وقد أظلم الليل عليهم، فحاروا، وأصيب رئيسهم سقلار والذي يليه [فيهم][2] نسطورس، وظفر المسلمون بهم، وركبوهم، فلم يعرف الروم مأخذهم، فانتهت بهم الهزيمة إلى تلك الأوحال التي كانوا أعدّوها مكيدة للمسلمين، لحقهم المسلمون، فوخزوهم بالرماح، فكانت الهزيمة بفحل، والقتل الرّداع، فأصيبت الروم، وهم ثمانون ألفاً، لم يُفلت منهم إلا الشريد. فصنع الله للمسلمين وهم كارهون؛ كرهوا البثوق والأوحال، فكانت عوناً لهم على عدوهم، وغنموا أموالهم، وانصرف أبو عبيدة وخالد بن الوليد إلى حمص.

---

(1) تاريخ الطبري 3:442: وتاريخ بن الأثير 2:295.

(2) تكملة من ابن الأثير.

وقد اختُلف في فتح فحل ودمشق، وذكروا أن المسلمين لما فرغوا من أجنادين على رأس من جعلها بعد اليرموك؛ اجتمع الروم بفحل، فقصدها المسلمون فحاصروها وفتحت، وكانت فحل في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة، وفتح دمشق في شهر رجب سنة أربع عشرة. وقيل: كانت وقعة اليرموك في سنة خمس عشرة، ولم يكن للروم بعدها وقعة. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب » (النويري: ص 159-160).

3- فِحْل : (الروض المعطار / الحميري: ص 436)

« فِحْل: موضع أو مدينة بالشام، فيه كانت الوقيعة بين المسلمين والروم في إمرة أبي عبيدة بن الجراح ﷺ ، وهي من مشاهير أيامهم، حضرها معاذ بن جبل وخالد بن الوليد، وأمير الناس أبو عبيدة بن الجراح، فقتلوا منهم في المعركة نحو خمسة آلاف، وقتلوا في عسكرهم حين دخلوه نحواً من ألفين، وخرجوا عباديد منهزمين، وخيل المسلمين تتبعهم وتقتلهم، حتى اقتحموا في فحل، وفحل مطلّة على أهوية تحتها الماء فتحصنوا فيها، وأصاب المسلمون منهم نحواً من ألفي أسير فقتلهم المسلمون، وأقبل أبو عبيدة ﷺ حتى دخل عسكرهم وحوى ما فيه، وصار من بقي من العدو في الحصون وقد قتل الله منهم مقتلة عظيمة، وغلبوا على سواد الأردن وأرضها، وكتب أبو عبيدة إلى عمر رضي الله عنهما بالفتح، ولما رأى أهل فحل أن الأردن قد غلبوا عليها سألوا الصلح على أن يؤدوا الجزية، فصالحهم المسلمون وكتبوا لهم كتاباً » (الحميري: ص 436).

-67-

1- المُوَقَّر : (المسالك والممالك / ابن خرداذبة: ص 41، ص 42)

وقد ورد ذكرها في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة في وصفه (الطريق إلى الكور الجبلية وواسط والأهواز وفارس) (ابن خرداذبة: ص 41).

« ... أصبحت الأنبار داراً تعمر؛ وخربت من النفاق أدور حمص وقنسرين والموقر ... »[1] (ابن خرداذبة: ص 42).

2- الموقر : (معجم ما استعجم / البكري: ج 4، ص 1280ن ص 1330)

« الموقر: بضم أوله، وفتح ثانيه، وتشديد القاف وفتحها، بعدها راء مهملة: والقسطل: موضعان متجاوران، من عمل البلقاء بدمشق، قال كثير:

جَـزَى اللهُ حيّـاً بالمُوَقَّـر نضْـرَةً وجادَتْ عليها الرائحاتُ الهَوَاتِك

وفي شعر الأحوص ما يُنبئكَ أن الموقر من شق اليمن، قال:

ألا طَرَقَتْـنا بالمُوَقَّـرِ شَـعْفَرُ[2] ومـن دون مَسْرَاها قُدَيْدٌ وعزور
بسـوادٍ يمـانٍ نـازحٍ، جُـلُّ نَبْـتِهِ غضىً وأراك ينضح الماء أخضر[3]

(البكري: ج 4، ص 1280)

قال الأحوص بن محمد:

ألا لا تَـلُمْهُ اليـومَ أن يتَبَـلَّدَا فقـد غُـلِبَ المحزونُ أنْ يتجـلَّدَا

---

(1) سبحان الله العظيم يقول ابن خرداذبة أن البلاد التي خربت من النفاق هي: بلاد حمص، وقنسّرين، والموقر.. يا سبحان الله. ولمثل الأردني أيضاً: البراطيل خَرّبت جَرش.
(2) يتحدث الشاعر الأحوص عن جمال بنات الموقر قبل قرون طويلة، فالشعفر هي المرأة الحسناء، ويقابلها باللهجة الأردنية: الْجُشِيفْ وهو ابن الغزال الصغير الجميل المنظر الناعم الملمس القريب إلى النفس، ويقال: الكحيلة: أي الفتاة الأصيلة الجميلة كالفرس الكحيلة، ويقال النشمية عن الفتاة النشيطة المؤهلة لأن تكون أماً وعوناً للزوج، ومشجعة لأبناء العشيرة، ويقال: الغزال أيضاً عن الفتاة المشوقة الجميلة.
(3) قال في التاج: شعفر كجعفر: أهمله الجوهري. وقال الأزهري: هو اسم امرأة عن ابن الأعرابي. وقال ثعلب: هي شغفر بالغين. وقال أبو عمرو: الشعفر: المرأة الحسناء. وشعفر بلا لام: اسم امرأة أبي الطوق الأعرابي.

نظـــرتُ رجـــاءً بالمُوَقَّـــرِ أن أرى أكـــاريس[1] يحتلون خاخاً فَنُشِدَا

وقال أيضاً[2]:

ولهـــا مـــنزلٌ بروْضَـــةِ خـــاخٍ[3] ومُصـــيفٌ بالقصـــر قَصْـــرِ قُبـــاء

وخاخ: للعلويين وغيرهم من الناس » (البكري: ج 4، ص 1330).

3- موقر: (معجم البلدان / الحموي: ج 5، ص 226)

« مُوقَّر: بالضم ثم الفتح، وتشديد القاف وفتحها، يجوز أن يكون مفعّلاً من الوِقْر وهو الثقل الذي يُحمل على الظهر، ويجوز أن يكون من التوقير وهو التعظيم: اسم موضع بنواحي البلقاء من نواحي دمشق وكان يزيد بن عبدالملك ينزله؛ قال جرير:

أشـــاعتْ قـــريشٌ لـــلفرزدق خَـــزْيَةً وتـــلك الوفـــود الـــنازلون الموَقَّـــرَا
عشـــية لاقـــى القَيْـــنُ قَـــينُ مجاشـــع هِزَبْـــراً أبا شِبلَين في الغِيل قَسْوَرا

وقال كُثَيِّر:

ســـقى الله حيّـــاً بالموقّـــر دارهـــم إلى قســـطل البـــلقاء ذات المحارب

قال الحافظ أبو القاسم: الوليد بن محمد الموقري أبو بشير القرشي مولى يزيد بن عبدالملك من أهل الموقر حصن بالبلقاء، روى عن الزهري وعطاء الخراساني وثور بن يزيد، روى عنه الوليد بن مسلم وأبو صالح عبدالغفار بن داود الحرّاني والحكم بن موسى وسُرَيد بن سعيد وأبو الطاهر موسى بن عطاء

---

(1) الأكاريس: جمع أكراس، وهي جمع كرس، أي جماعة الخيل. وفي ج: أكاريش تحريف.
(2) الأنصاري، يريد الأحوص بن محمد.
(3) خاخ روضة (واحة) في الشق الأيسر لحمراء الأسد بالجزيرة العربية.

المقدسي وغيرهم، وقال عبدالله بن أحمد: سألت أبي عن الموقري فقال: ما أظنه ثقة، ولم يحمده، وقال إبراهيم بن يعقوب السعدي: الوليد بن محمد الموقري غير ثقة يروي عن الزهري عدة أحاديث ليس لها أصول، وقال محمد بن عوف الحمصي: الوليد الموقري ضعيف كذاب، وقال محمد بن المصفى: مات الوليد بن محمد الموقري سنة 282 قبل شهر رمضان، وقال عُتبة بن سعيد بن الرّخْس: مات الموقري سنة 281؛ وقد صرح الشاعر بأن الموقر من أرض الشام فقال:

أذنتَ عليّ اليوم إذ قلتُ إنني ... أحب من أهْل الشام أهلَ الموَقَّر
بهاليلُ شُهْمٌ عِصْمَةَ الناس كلّهم ... إذا الناس جالوا جَوْلة المتحير[1]

وقال كثيّر عزّة:

أقول، إذ الحَيّان كعب وعامر ... تلاقوا ولفّتنا هناك المناسكُ
جزى الله حيّاً بالموقّر نضرةً ... وجادت عليه الرائحات الهواتكُ
بكل حثيث الوبل زهر غمامُه، ... له دُرَرٌ بالقسطلين مَوَاسِكُ[2]

(الحموي: ج 5، ص 226)

(1) هذا الشاعر الأموي في القرن الهجري الأول يمتدح أهل الموقر، أنهم رجال صناديد شجعان (بهاليل) أصحاب شهامة (شُهُمٌ) وهم نقطة التوازن بين الناس، يتصرفون بحكمة، ورأي سديد إذا احتارت الناس ماذا تعمل وكيف تتصرف. إنها عبقرية المكان، والسكان الذي يتميّز به الأردن والأردنيون. وإن هذه الصفات لا زالت لها بقايا وإضاءات حتى اليوم. وكان الشاعر في حيرة من أمره في حبّ أهل الشام، فاختار أهل الموقر على سائر أهل الشام وكانوا جذاماً، ومن أحفادهم بني صخر أهل الموقر الحاليين (القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين).

(2) وهذا كُثيِّر عَزّة الشاعر الأردني العاشق، يمتدح أهل الموقّر أيضاً ويسأل الله سبحانه لهم المطر الطيب، وقد سمّى الموقر إذ ارتبطت بالقسطل - أقول سماهما: القسطلين. وعندما يقال القسطلين في الشعر العربي فالمقصود الموقر والقسطل، وكلاهما من ديار جذام العشيرة الأردنية العريقة، وهي لأحفادهم وبطن من بطونهم: بني صخر.

-68-

منطقة معان

1- معان : (المسالك والممالك / الاصطخري: ص **48**، ص **65**)

« ومعان مدينة صغيرة مكانها بنو أمية ومواليهم؛ وهو حصن من الشراة » (الاصطخري: ص 48).

« ومعان مدينة صغيرة سكانها بنو أمية ومواليهم؛ وهو حصن من الشراة وحوران » (الاصطخري: ص 65).

2- معان : (معجم ما استعجم / البكري: ج **4**، ص **1241-1242**)

« معان: بضم أوّله: جبل قد تقدم ذكره في رسم أَبْلَى. ومُعان أيضاً على لفظه: حصن كبير، على خمسة أيام من دمشق، في طريق مكة، وقد تقدّم ذكره وتحديده في رسم مؤتة، وسيأتي في رسم سَرْغ، قال هُدْبَةُ بن خَشْرَمٍ في مُعانِ الحجازية:

أنا ابنُ الذي استأداكُمُ قد علمتُمُ ... ببطنِ مُعانٍ والقِيادَ المُجَنَّبا

وقال جميل[1]:

ويومَ مُعانٍ قال لي فعَصَيْتُهُ ... أفِقْ عن بُثَيْنَ الكاشِحُ المتنصِّحُ

وكان فروة بن عمرو الجذامي عاملاً للروم على مُعان، الحِصْنِ المذكور وما يليه من أرض الشام، فأسلم وأهدى لرسول الله ﷺ بغلة بيضاء، فلما بلغ الروم

(1) الشاعر العربي العاشق جميل بثينة، هو وحبيبته من ديار الأردن من الجنوب من منطقة معان، وبذلك نجد أن عدداً من شعراء العشق والحب العذري والعفّة هم أردنيون، ومن جنوب الأردن بالتحديد، ومن هؤلاء: كُثَيِّر عَزَّة، وجميل بثينة. وهو هنا يتحدث عن ديار أهله وهي معان التي هي مركز ما حولها.

ذلك طلبوه حتى ظفروا به، فحسبوه، ثم قتلوه وصلبوه. قال ابن إسحاق: فزعم الزُّهري أنه لما قُدّم لتُضرب عنقه قال:

بَلِّغْ سَرَاةَ المسلمين بأنني   سَلْمٌ لربِّي أعظُمي ومُقامي

(البكري: ج 4، ص 1241-1242)

3- عفْرَى : (معجم البلدان / الحموي: ج 4، ص 131-132)

« عِفْرَى: بكسر أوله، والقصر: ماء بناحية فلسطين، قال ابن إسحاق: بعث فروة بن عمرو بن النافرة الجذامي ثم إلى رسول الله ﷺ رسولاً بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء، وكان فروة عاملاً للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله مُعَان وما حولها من أرض الشام، فلما بلغ الروم ذلك من إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم ثم أخرجوه ليصلبوه على ماء يقال له عِفْرى بفلسطين فقال عند ذلك:

ألا هل أتى سلمى بأن خليلها   على ماء عِفْرَى بين إحدى الرواحل
على ناقة لم يضرب الفحل أمها   مشذبة أطرافها بالمناجل

ثم قال أيضاً:

بلّغْ سَرَاةَ المسلمين بأنني   سَلْمٌ لربي أعظُمي ومقامي

ثم ضربوا عنقه وصلبوه على ذلك الماء، رحمة الله عليه؛ وقال عديّ بن الرقاع العاملي:

عرفت بعِفرى، أو برجلتها، رَبعا   رماداً وأحجاراً بقين بها سُفعا[1]

(1) عِفْرى: يتحدث الشاعر الأردني عدي بن الرقاع العاملي الذي عاش في القرن الأول للهجرة، وهو من الشعراء الأمويين، ومعروف بحبه للأردن وعشقه له، وتغنّيه بروابيه، يقول كلام -

الرجلة: مسايل من الروضة إلى الوادي، والجمع رجل » (الحموي: ج 4، ص 131-132).

4- الجَفْرُ[1]: (معجم البلدان / الحموي (ق7هـ): ج 2، ص 91-92)

« الجَفْرُ[2]: بالفتح ثم السكون وهو البئر الواسعة القعر لم تُطْوَ موضع بناحية ضرية من نواحي المدينة كان به ضيعة لأبي عبدالجبار سعيد بن سليمان

= المجرِّب الخبير أنه عرف رَبْعاً،أي قوماً وعشيرة أو مجموعة من الناس، في منطقة عفرا، وفي الوديان القريبة منها، وهي وهاد منطقة الطفيلة، وكانوا قوماً رُحّل، وعندما يرحلون إلى أماكن أخرى، تبقى النؤي (مفردها ناي) ومواقد النار وأثافي القدور والحجارة المستخدمة للأثافي ولبيوت الشعر وغيرها.

(1) الجفر منطقة بجنوب الأردن إلى الجنوب الشرقي من مدينة معان، وهي (الجفر) من ديار قبيلة الحويطات الأردنية الأصيلة المنحدرة من الأنباط. وقد اقترن اسم الجفر حديثاً (ق20م) بالسجن الموجود فيه الذي يتمتع بسوء الصيت وسوء السمعة، ولكن الموقع معروف في تاريخ القبائل الأردنية بتوفر مائه الذي يخرج من أعماق ضحلة من خلال الحفر السطحي في باطن الأرض. وقد أقيمت فيه وحدات سكنية لتوطين البدو في الخمسينات والستينات من القرن العشرين الميلادي، ثم تحولت إلى بلدة واسعة فيها البنية التحتية الحديثة. والجفر هي بلدة البطل الأردني المعروف المغفور له الشيخ عودة أبو تايه من فرقة الفرارجة من الحويطات، وهو جزء من تاريخ الحرب العربية والإنجليزية ضد الاستعمار التركي، وله الدور الأول والأكبر في تحرير الأردن وسوريا من ذلك الاستعمار الذي استمر أربعة قرون، وإن ظلمه المؤرخون ونسبوا الانتصارات والتحرير إلى لورنس وآخرين من عرب وأجانب. وقد مات عام 1925 في ظروف غامضة بعد إجراء عملية زائدة له في المستشفى الطلياني بعمان.

وقد أخبرني بذلك أستاذ في جامعة كيمبردج يدعى إيفانز، كان يشرف على الباب الأول من رسالتي للدكتوراه (عام 1980م)، وهو عن تاريخ الأردن الحديث، وقال: إن عودة أبو تايه عندما تحول إلى مصدر إزعاج Trouble Maker اتفقت سلطات الانتداب وأتباعها في الإدارة في حينه على التخلص منه أثناء عملية الزائدة في المستشفى الطلياني، هذا إن صدق، والله أعلم.

(2) من خلال ما أورده الحموي في معجم البلدان، نجد أن اسم الجفر يطلق على عدة مواقع خارج جَفْر الأردن، وهي: الجفر القريب من المدينة المنورة، وجفر ماء نصر بن قعين، وجفر الأملاك =

ابن نوفل بن مُساحق بن عبدالله بن مخرمة المديني كان يُكثر الخروج إليها فسُمّي الجفري. ولي القضاء أيام المهدي وكان محمود الأمر مشكور الطريقة.

والجفر أيضاً ماء لبني نصر بن قُعَيْن، وجَفْرُ الأملاك في أرض الحيرة له قصة في تسميته بهذا الاسم.

وجفر البعر قال الأصمعي: جفر البعر ماء يأخذ عليه طريق الحاج من حجر اليمامة بقرب راهص، وقال أبو زياد الكلابي جفر البعر من مياه أبي بكر ابن كلاب بين الحمى وبين مهب الجنوب على مسيرة يوم وقال غيره جفر البعر بين مكة واليمامة على الجادة وهو ماء لبني ربيعة بن عبدالله بن كلاب، ولا يعرف أي جفر أراد نصيب بقوله(1):

أما والذي حجّ الملبّونَ بيته ... وعظّم آيات الذبايح والنّحر
لقد زادني للجفر حُبّاً وأهله ... ليالي أقامتهن ليلى على الجفر
فهل يأثمني الله أني ذكرتها ... وعللت أصحابي بها ليلة النفر

وجفر الشحم ماء لبني عبس ببطن الرمة بحذاء أكمة الخيمة، وجفر ضمضم موضع في شعر كثير بن عبدالرحمن الخُزاعي:

إليك تبارى بعدما قلت قد بدت ... جبالُ الشبا أو تكّبت هضْب يريم
بنا العيش تجتاب الفلاة كأنها ... قطا النجد أمسى قارباً جفر ضمضم

= في أرض الحيرة، وجفر البعر وهو ماء في اليمامة، وجفر الشحم وهو ماء لبني عبس، وجفر ضمضم وجفر الفَرَس...الخ وهو ما نقرأه تحت هذا العنوان.

(1) واضح أن الشاعر نصيب أراد بالجفر هنا، هو جفر الأردن قرب معان حيث كانت مقاماً لأهل ليلى المشهورة، ومن خلال الشعر نجد أن أهلها لم يمكثوا طويلاً على ذلك الماء رغم توفره، وذلك، وحسبما يبدو لي بسبب عدم توفر الكلأ، وبالتالي يتحركون إلى موقع آخر، والله أعلم.

وجفر الفرس ماءه وقع فيها فرس في الجاهلية فغبر فيها يشرب من مائها ثم أخرجَ صحيحاً، وجفر من قال الزبير وهو يذكر قلة حالياً عن أبي عبيدة قال: واحتفرت كل قبيلة من قريش في رباعم بيراً، فاحتفروا بنو تيم بن مُرّة الجفر وهي بين مُرّة بن كعب وقال أيضاً وقيل جفرها أمية بن عبد شمس وسماها جفر مرة بن كعب، وقال أمية أنا حفرت للحجيج الجفرا، وجفر الهباءة اسم بئر بأرض الشربة قُتل بها حذيفة وحمل ابنا بدر الغزاريات قال قيس بن زهير وهو قتلهما:

تَعَلَّمْ أن خَيْرَ الناسِ ميتٌ   على جَفْرِ الهباءةِ لا يريم »

(الحموي: ج 2، ص 91-92)

-69-

ا/ مَعَان[1]

(معجم البلدان / الحموي: ج 5، ص 153-154)

« مَعَان: بالفتح، وآخره نون، والمحدثون يقولونه بالضم، وإياه عَنَى أهل اللغة، منهم: الحسن بن علي بن عيسى أبو عبيدة المعني الأزدي المعاني من أهل معان البلقاء، روى عن عبدالرزاق بن همام، روى عنه محمد وعامر ابنا خُزَيم وعمرو بن سعيد بن سان المنبجي وغيرهم، وكان ضعيفاً؛ والمعان: المنزل، يقال: الكوفة معاني أي منزلي، قال الأزهري: وميمه ميم مفعل: وهي مدينة في طرف

(1) يتحدث الحموي (ق7هـ) عن وجود واحد من أهل اللغة وهو الأزدي المعاني. أما الأزدي فهذا يدل على أنه من الغساسنة لأنهم من الأزد، من أهل امعان، وبالتالي أخذ اسم العشيرة واسم الموقع: الأزدي المعاني. ولا يكون الموقع مشهوراً بالمحدّثين إلا إذا كان معروفاً بالاستقرار والازدهار والحضارة والسكان، وهذا يدحض مقولة المثبورين أن المدن الأردنية لم تعرف الحياة الناس إلا حديثاً، وأن الخير والسكان والحياة دبّت فيها بعد أن حطّت بها الطيور المهاجرة ومثلت الغم، وهذا غير صحيح وأن التاريخ يبرهن على أنهم كاذبون.

بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء، وكان النبي ﷺ بعث جيشاً إلى مؤتة فيه زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة فساروا حتى بلغوا معان فأقاموا بها وأرادوا أن يكتبوا إلى النبي ﷺ عمّن تجمع من الجيوش، وقيل قد اجتمع من الروم والعرب نحو مائتي ألف فنهاهم عبدالله بن رواحة وقال: إنما هي الشهادة أو الطعن؛ ثم قال:

جَلَبنا الخيلَ من أجإٍ وقرّع — تُغَرُّ من الحشيش لها العُكومُ
حذونَاهم من الصوّان سِبْتاً — أزل كأن صفحته أديم
أقامت ليلتين من مُعان — فأعقب بعد فترتها جُموم
فرحْنا، والجيادُ مسوّماتٌ — تنفّسُ في مناخرها السموم
فلا وأبي مآبَ لآتينها — وإن كانت بها عرب وروم
فعبّأنا أعنّتها فجاءت — عَوَابس، والغُبار لها بريم
بذي لَجَب كأن البيض فيها، — إذا برزت قوانسُها، النجوم »

(الحموي: ج 5، ص 153-154)

-69-

ب / معان

(الروض المعطار / الحميري: ص 555)

« معان: موضع في طريق الشام من المدينة؛ وقال عبدالله بن رواحة ﷺ عند خروجه في المبعث الذي وجهه إليه رسول الله ﷺ مع غيره من الأمراء إلى مؤتة، وكان بلغهم أن الروم قد جمعت له، فتردد الناس وكأنهم تهيبوا فقال:

جلبنا الخيل من أجأ وفرع — تغرّ من الجشيش لها العكومُ
أقامت ليلتين على معان — فأعقب بعد فترتها جموم

فــلا وأبــي مــآب لنَأْتِيَـنْها | وإن كــانت بهــا عــرب وروم

وفي عشر أبي العلاء المعري:

مَعَـان مــن أحبتــنا معــان | تجيــب الطـاهلاتِ بـه القيـان »

(الحميري: ص 555)

-70-

جُلَّقْ

(الروض المعطار / الحميري: ص 169-171)

وردت معان في الروض المطار ضمن الحديث عن قصة جبلة تحت عنوان جلّق.

« جلق: بالشام وهي دمشق. وفي أخبار العجم أن شهريار بنى لدمشوس الملك مدينة جلق وهي مدينة دمشق، وحفر نهرها بردى ونقره في الجبل حتى جرى إلى المدينة. وهناك كانت مساكن آل جفنة الغسانيين الذين مدحهم في الجاهلية حسان بن ثابت ﷺ وفيهم يقول:

لله دَرُّ عُصَـابَةٍ نادمْـتُهُم | يومـاً بجُـلَّقَ في ازلمـانِ الأوّلِ
أولادُ جَفْـنَةَ حَـوْلَ قـبرِ أبيهِـمُ | قـبرِ ابـنِ ماريَـةَ الكـريمُ المُفضَلِ
يُغشَـوْن حـتى مـا تُهـرّ كِلابُهُـمْ | لا يسـألون عـن السـواد المقـبلِ
بيـضُ الوجـوهِ كـريمةٌ أحسـابُهُم | شُـمُّ الأنـوفِ مـن الطرازِ الأولِ

وسنذكر خبر دمشق في موضعها إن شاء الله تعالى.

وكان آخر ملوك الشام من الغسانيين جبلة بن الأيهم بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو ممدوح حسان بن ثابت ﷺ ، وأسلم جبلة هذا في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ ، ثم تنصر بعد ذلك ولحق بالروم، وقد اختلف في سبب تنصّره،

فقيل إنه مرّ في سوق دمشق فأوطأ رجلاً فَرَسُه فوثب الرجل فلطمه، فأخذ الغسانيون ذلك الرجل ودخلوا به على أبي عبيدة بن الجراح ﷺ فقالوا: إن هذا الرجل لطم سيدنا، فقال أبو عبيدة ﷺ : البينة أنه لطمك، قال له جبلة: وما تصنع بالبينة؟ قال: إن كان لطمك لطمته، قال: ولا يقتل؟ قال: لا، قال: ولا تقطع يديه؟ قال: لا إنما أمر الله تعالى بالقصاص فهي لطمة بلطمة، فخرج جبلة ولحق بأرض الروم وتنصّر(1).

وقيل كان سبب ذلك أنه وطئ رجل من بني فزارة على إزار جبلة فلطمه جبلة فأدخله الرجل على عمر بن الخطاب ﷺ ، فقال له عمر ﷺ : أنه يلطمك كما لطمته، قال: وتقيده مني وأنا ملك وهو سوقه ! قال: إما أن ترضيه وإلا أقدته منك، فإنه قد جمعه إياك الإسلام فما تفضله إلا بالعافية، قال: والله لقد رجوت أن أكون في الإسلام أعز مني في الجاهلية، قال عمر ﷺ : لابد من ذلك، قال: إذاً أتنصّر، قال: إن تنصّرت ضربت عنقك. قال: واجتمع قوم جبلة وبنو فزارة فكادت تكون فتنة، فقال جبلة: أخرني إلى غد يا أمير المؤمنين، قال: ذلك لك، فلما كان جنح الليل خرج هو وأصحابه فلم ينثن حتى دخل القسطنطينية على هرقل فتنصّر، وأعظم هرقل قدوم جبلة وسرّ بذلك وأقطعه الأموال والأرضين والرباع.

قال: ويُحكى أنه لما بعث عمر بن الخطاب ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، فأجابه على المصالحة على غير الإسلام، فلما أراد أن يكتب جواب عمر ﷺ قال للرسول: ألقيت ابن عمك جبلة هذا الذي ببلدنا – يعني جبلة بن الأيهم – الذي جاء راغباً في ديننا؟ قال: ما لقيته، قال: القه ثم إيتني أعطك

---

(1) هناك رواية أن أعرابياً وطأ إزار جَبَلة وهو يطوف الكعبة بعد إسلامه، فاشتكاه إلى عمر بن الخطاب ﷺ الذي أمر بالقصاص من جَبَلَة أو أن يعتذر للأعرابي فرفض ولحق بأرض الروم.

جواب كتابك، قال الرسول فذهبت إلى باب جبلة فإذا عليه من القهارمة والحجّاب والبهجة وكثرة الجمع مثل ما على باب قيصر، قال الرسول: فلم أزل الطف في الإذن حتى أذن لي، فدخلت فرأيت رجلاً أصهب اللحية ذا سبال وكان عهدي به أسمر سود اللحية والرأس، فنظرت إليه فأنكرته، وإذا به قد دعا بسحالة الذهب فذرّها في لحيته حتى عاد أصهباً، وهو قاعد على سرير من قوارير قوائمه سود من ذهب.

قال: فلما عرفني رفعني معه على السرير فجعل يسائلني عن المسلمين، فذكرت خيراً وقلت: قد أضعفوا أضعافاً على ما تعرف، قال: وكيف تركت عمر بن الخطاب ﷺ ؟ قلت: بخير، فرأيت الغم في وجهه، قال: فانحدرت عن السرير، قال: لِمَ تأبى الكرامة التي أكرمناك؟ قلت: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا، قال: نعم ﷺ ، ولكن نقّ قلبك من الدنس ولا تبال ما قعدت عليه، فلما سمعته يقول ﷺ طمعت فيه، وقلت له: ويحك يا جبلة ألا تُسلم وقد عرفت الإسلام وفضله؟ قال: بعدما كان مني؟

قلت: نعم، قد فعل رجل من بني فزارة أكثر مما فعلت، ارتدّ عن الإسلام وضرب وجوه المسلمين بالسيف ثم رجع إلى الإسلام، فقُبل منه ذلك وخلفته بالمدينة مسلماً، قال: ذرني من هذا إن كنت تضمن لي أن يزوجني عمر ابنته ويوليني الأمر من بعده رجعت إلى الإسلام، قال: فضمنت له التزويج ولم أضمن له الأمر، قال: أومأ إلى خادم بين يديه فذهب مسرعاً فإذا خدم قد جاءوا يحملون الصناديق فيها الطعام، فوُضعت صحاف الذهب وموائد الفضة، فقال لي: كُلْ، فقبضت يدي وقلت: إن رسول الله ﷺ نها عن الأكل في آنية الذهب والفضة، قال: نعم ﷺ ، ولكن نقّ قلبك وكُلْ فيما أحببت قال: فأكل في الذهب، وأكلت في الخلنج.

قال: فلما رفع الطعام جيء طساس الفضة وأباريق الذهب، وقال اغسل يدك فأبيت من ذلك، فغسل في الذهب وغسلت في الصفر ثم أومأ إلى خادم بين يديه فَمَرَّ مُسرعاً فسمعت حساً فإذا خدم معهم كراسي مرصعة بالجوهر، فوضعت عشرة عن يمينه وعشرة عن يساره، فسمعت حساً فإذا عشر جوارٍ قد أقبلن مضمومات الشعور متكسرات في الحلي عليهم ثياب الديباج، فلم أر وجهاً قط أحسن منهن فأقعدهن على الكراسي عن يمينه، ثم خرج عشر من الجواري في الشعور عليهن ثياب الوشي متكسرات في الحلي، فأقعدهن على الكراسي عن يساره، ثم سمعت حساً فالتفت فإذا جارية كأنها الشمس، على رأسها تاج، على ذلك التاج طائر لم أرَ أحسن منه، وفي يدها اليمنى جامة فيها مسك، وعنبر فتيت، وفي يدها اليسرى جامة فيها ماء، فأومأت إلى الطائر، أو قال، فصفرت بالطائر - فوقع في جامة ماء الورد فاضطرب فيها ثم أومأت إليه فطار حتى نزل في صليب تاج جبلة فلم يزل يرفرف حتى نفض ما في ريشه عليه وضحك جبلة من شدة السرور حتى بدت أنيابه، ثم التفت إلى الجواري التي يعني يمينه فقال لهن بالله أضحكننا فغنين بخفق عيدانهن وقلن:

لله دَرُّ عُصَابَةٍ نادمتُهم ... يوماً بِجُلَّقَ في الزمان الأول
يسقون من ورد (...) عليهم ... بردى يصفق بالرحيق السلسل
أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل
يُغْشَوْنَ حتى ما تهرّ كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل
بيضُ الوجوه أعفة أحسابهم ... شمّ الأنوف من الطراز الأول

فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال: أتدري من قائل هذا؟ قلت: لا والله، قال: قائلة حسان بن ثابت شاعر النبي ﷺ، ثم التفت إلى الجواري التي عن يساره فقال لهن: بالله أبكيننا، فاندفعن يتغنين:

لِمَــــنِ الــــدار أقفــــرت بمعــــان بــين أعــلى اليرمــوك فَالخَمَّــانِ
ذاك مغــنى لآل جفــنة في الدّهــــ ـــر محــلّى لحــادث الأزمــانِ
قــد أرانــي هــناك دهــراً مكيــناً عــند ذي الـتاج مقعدي ومكاني
ودَنــا الفصــح فــالولائد يــنظمـ ـــن ســراعاً أكــلة المــرجانِ

قال: فبكى حتى جعلت الدموع تسيل على لحيته، ثم قال: أتدري من قائل هذا؟ قلت: لا أدري، قال: حسان بن ثابت، ثم أنشأ يقول:

تنصّـرتِ الأشـراف مـن أجـل لطمـة وما كـان فيهـا لـو صـبرت لها ضرر
تكـــنّفني فيهـــا لجـــاجٌ ونخـــوة وبعـتُ بهـا العـين الصـحيحة بالعور
فيــا ليــت أمّــي لم تــلدن وليــتني رجعـت إلى القول الذي قال لي عمر
ويــا ليـتني أرعـى المخـاض بقفـرة وكـنتُ أسـيراً في ربيعـة أو مضـر[1]

ثم سألني عن حسان ﷺ أحيٌ هو؟ قلت له: نعم تركته حياً، فأمر لي بمال كثير وكسوة وأمر له بمال وكسوة ونوق موقرة بُراً ثم قال: إن وجدته حياً فادفع إليه هديتي واقرأه سلامي، وإن وجدته ميتاً فادفعها إلى أهله وانحر الإبل على قبره.

ثم أخبرت أمير المؤمنين بما قاله جبلة والشرط الذي اشترطه وأني ضمنت له التزويج ولم أضمن له الأمر، قال (عمر ﷺ): فهلاً ضمنت له الأمر فإذا فاء الله به إلى الإسلام قضى علينا بحكمه عز وجل، ثم ذكرت له الهدية التي أهداها إلى حسّان بن ثابت ﷺ فبعث إليه فأقبل وقد كفّ بصره وقائده يقوده، فلما دخل قال: يا أمير المؤمنين إني لأجد رياح آل جَفْنَة عندك، قال: نعم هذا رجل

(1) من هذه الأبيات التي نظمها جَبَلَةَ نفسه، نفهم أن سبب عودته إلى النصرانية وهروبه، هي قصّة اللطمة المذكورة أعلاه، والله أعلم.

أقبل من عنده، قال: هات يا ابن أخي ما بعث إليّ معك، قلت: وما علمك؟ قال: يا ابن أخي إنه كريم من عصبة كرام، مدحتهم في الجاهلية فحلف ألا يلقى أحداً يعرفني إلا أهدى إلي معه شيئاً، قال: فدفعت إليه المال والثياب وأخبرته بما كان أمر به في الإبل إن وجد ميتاً، قال: وددت إني كنت ميتاً فنحرت على قبري، قال: ثم جهزني عمر ﷺ إلى قيصر وأمرني أن أضمن لجبلة ما اشترط به، فلما قدمت القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته، فعلمت أن الشقاء غلب عليه. قالوا: وكان طوله اثني عشر شبراً » (الحميري: ص 169-171).

-71-

1- اذرُحُ : (معجم البلدان / الحموي: ج 1، ص 129-130)

« أذرُحُ: بالفتح، ثم السكون، وضم الراء، والحاء المهملة. وهو جمع ذريح، وذريحة جمعه الذرائح. وأذرح، إن كان منه فهو على غير قياس، لأن أفْعُلاً جمع فَعل غالباً: وهي هضاب تنبسط على الأرض حُمْر، وإن جُعل جمع الذرَح، وهو شجر تتخذ منه الرحالة، نحو زمن وازمن، فأصل افعُل أن يُجمع على أفعال، فيكون أيضاً على غير قياس، فأما أزمُن فمحمول على دَهْر وأدهُر، لأن معناهما واحد: وهو اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة، ثم من نواحي البلقاء. وعَمَّا مجاورة لأرض الحجاز. قال ابن الوضاح: هي من فلسطين. وهو غلط منه، وإنما هي في قبلي فلسطين من ناحية الشراة. وفي كتاب مسلم بن الحجاج: بين أذرُحَ والجَرْباء ثلاثة أيام. وحدثني الأمير شرف الدين يعقوب بن الحسن الهذياني، قبيل من الأكراد ينزلون في نواحي الموصل قال: رأيت أذرح والجرباء غير مرة، وبينهما ميل واحد وأقلّ، لأن الواقف في هذه، ينظر هذه، واستدعى رجلاً من أهل تلك الناحية ونحن بدمشق، واستشهده على صحة ذلك، فشهد به، ثم لقيت أنا غير واحد من أهل تلك الناحية وسألتهم عن

ذلك، فكل قال مثل قوله وقد وهم فيه قوم فرووه بالجيم. وبأذرح إلى الجرباء كان أمر الحكَمين بين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعراء؛ وقيل: بدومة الجندل، والصحيح أذرح والجرباء، ويشهد بذلك قول ذي الرُّمة يمدح بلال بن أبي بُردة بن أبي موسى الأشعري:

أبـوك تـلافي الديـن والـناس بعدمـا　　تساءوا، وبيت الدين منقطع الكِسْر
فشَـدّ إصـارَ الديـن، أيـام أذرح،　　ورَدّ حـروباً قـد لَقِحْـنَ إلى عُقْـرِ

وقال الأسود بن الهيثم:

لمـا تدارَكْـتُ الوفـودَ بـأذرُح　　وفي أشـعَريٍّ لا يحـل لـه غَـدْرُ
أدّى أمانـته ووفّـى نـسذره　　عـنه، وأصـبح فيهم غادراً عَمْرو
يـا عمـرو إن تـدْع القضـية تُعْرفَنْ　　ذلّ الحيـاة ويُـنزعُ النصـرُ
تـرك القـرآن فمـا تـأوّل آيـة،　　وارتـاب إذ جُعِـلتْ له مِصْـرُ

وفُتحت أذرح والجرباء في حياة رسول الله ﷺ سنة تسع، صولح أهل أذرح على مائة دينار جزية » (الحموي: ج 1، ص 129-130).

2- أذرح : (معجم ما استعجم / البكري : ج 1، ص 130-131)

« أذرح: بحاء مهملة على وزن أذرع: مدينة تلقاء الشراة[1] من أداني الشام. قال ابن وضّاح: أذرح بفلسطين، وبأذرح بايع الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان، وأعطاه معاوية مئة ألف دينار. قال كُثيِّر:

---

(1) في تاج العروس: الشارة موضع بين دمشق والمدينة، وقال نصر صقع قريب منه دمشق، وبقرية منها (أي من أذرح) يقال لها الحميمة كان سكن ولد علي بن عبدالله بن عباس أيام بني مروان. وقريب مه ما في معجم ياقوت.

قَعَدْتُ لَهُ ذاتَ العِشاءِ أشِيمُه ... بِمَرٍّ وأصحابي بجَنَّةِ أذرُحِ[1]

وقال جميل:

ولما نزلنا بالجبال عشيةً ... وقد حُبست فيها الشراة وأذرحُ[2]

ولما انتقل عليّ بن عبدالله بن عباس إلى الشام، اعتزل مدينة أذرح ونزل الحُمَيْمة، وبنى بها قصراً. وذلك أن أذرح افتتحت صلحاً على عهد رسول الله ﷺ، وهي من بلاد الصلح التي كانت تؤدي إليه الجزية، وكذلك دومة الجندل والبحران وهجر، وروى البخاري ومسلم جميعاً، بأسانيد من طريق عبيد الله بن عمر، عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « إنَّ[3] أمامكم حَوْضي كما بين جرباء وأذرُح ». زاد مسلم قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شَيْبَة، ثنا محمد بن بشر[4]، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، فذكر مثله. قال عبيد الله: فسألت ابن عمر، فقال: هما قريتان بالشام، بينهما مسيرة ثلاثة أيام » (البكري: ج 1، ص 130-131).

3- أذرح : (الروض المعطار / الحميري: ص 21)

« أذرح[5]: بحاء مهملة على وزن أذرع، مدينة في أداني الشام وقيل بفلسطين، وبها بايع الحسن بن علي معاوية رضي الله عنهم وأعطاه معاوية مائتي

---

(1) يذكر الشاعر كُثَيِّر عَزّة أذرح أنها منطقة خضراء يانعة كثيرة الأشجار والماء والظلال والفواكه، بقوله: بجَنَّةِ أذرح وهو بذلك يتحدث عن حبيبته التي هي أردنية من تلك الديار، ولكنها في موقع آخر، فراح يجلس «قعدت له» في الليل ليشتم رائحتها في منطقة قرّ وأصدقاؤه يتنعمون في جنان أذرح، هذا في القرن الهجري الأول. فماذا يقول الكاذبون ضد الأردن؟! .

(2) وهذا العاشق الآخر جميل بثينة ينزل أذرح التي احتضنتها جبال الشراة، فالشراة كالأم الرؤوم لأذرح ومع هذا فإن جميل ينزل مع عربانه وأغنامه في هضاب الشراة ووهادها. وذلك مؤشر على ما كانت تتمتع به من الخصب والاخضرار.

(3) « إنَّ » من لفظ الحديث كما في صحيح مسلم بشرح النووي، ج 15، ص 61، وهي ساقطة من جميع الأصول.

(4) كذا في معجم ياقوت وتاج العروس في (صبن). وفي الأصول « بسايونا »، وهو تصحيف.

(5) معجم ما استعجم: 130.

ألف دينار، ولما وصل علي بن عبدالله بن العباس رضي الله عنهم إلى الشام اعتزل أذرح ونزل الحميمة وبنى بها قصراً لأن أذرح افتتحت صلحاً على عهد رسول الله ﷺ وهي من بلاد الصلح التي كانت تؤدي الجزية وكذلك دومة الجندل والبحران وهجر؛ وفي الصحيح[1]: « أمامكم حوضي كما بين جرباء إلى أذرح » (الحميري: ص 21).

4- اذرح : (احسن التقاسيم / المقدسي: ص 178)

« أذرح: مدينة متطرفة حجازية شامية وعندهم بردة رسول الله ﷺ وعهده وهو مكتوب في أديم » (المقدسي: ص 178).

-72-

دومة الجندل

(الروض المعطار / الحميري: ص 245-247)

وبدومة الجندل اجتمع الحَكَمان[2]: أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص رضي الله عنهما، وذلك في سنة ثمان وثلاثين، بعث علي ، عبدالله بن عباس وشريح بن هانئ الهمداني رضي الله عنهم، في أربعمائة رجل، وفيهم أبو موسى الأشعري ، وبعث معاوية بن أبي سفيان بعمرو بن العاصي ومعه شرحبيل بن السمط رضي الله عنهم في أربعمائة رجل. فلما دنا القوم من الموضع الذي كان فيه الاجتماع، قال ابن عباس لأبي موسى: إن علياً لم يرض بك حكماً لفضل عندك والمقدمون عليك كثير، وأن الناس أبوا غيرك، وإني أظن ذلك لشرٍ يراد بهم. وقد ضمّ إليك داهية العرب. فمهما نسيت فلا تنس

---

(1) شرح النووي على صحيح مسلم: 16:15.

(2) في قصة الحكمين انظر الطبري 3354:1، والمؤلف ينقل هنا عن مروج الذهب.

أن علياً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر، وليست فيه خصلة تباعده من الخلافة، وليس في معاوية خصلة تقربه من الخلافة.

ووصى معاوية عمراً حين فارقه وهو يريد الاجتماع بأبي موسى فقال له: يا أبا عبدالله إن أهل العراق قد أكرهوا علياً على أبي موسى، وأنا وأهل الشام راضون بك، وقد ضُمَّ إليك رجل طويل اللسان قصير الراي فَأَجِدِ (من الإتقان والإجادة) الحزّ وطبق المفصل ولا تلقه برأيك كله. ووافاهم عبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي والمغيرة بن شعبة في ناس.

فاستقرّ جميعهم بدومة الجندل، فالتقى الحكمان[1]، فقال عمرو بن العاصي: يا أبا موسى ألست تعلم أن عثمان قُتل مظلوماً؟ قال: أشهد، قال: ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه؟ قال: بلى، قال فإن الله عز جل قال: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء: 33] فما يمنعك من معاوية ولي عثمان يا أبا موسى وبيته في قريش كما قد علمت، فإن تخوفت أن يقول الناس: ولي معاوية وليست له سابقة فإن لك في ذلك حجة، وجدته ولي عثمان بن عفان المظلوم والطالب بدمه، الحسن السياسة والتدبير، وهو أخو أم حبيبة زوج النبي ﷺ ، وكاتب رسول الله ﷺ ، وقد صحبه فهو أحد الصحابة رضي الله عنهم.

ثم عرض له عمرو بالسلطان فقال: والله إن ولي أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة، فقال له أبو موسى: يا عمرو اتق الله، فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف يُوَلاَّهُ أهله، ولو كان للشرف كان هذا الأمر إلى

---

(1) من هنا يبدأ النقل عن الطبري 3355:1.

أبرهة بن الصباح، إنما هو لأهل الدين والفضل، مع أني لو كنت معطيه أفضل قريش شرفاً أعطيته علياً، وأما قولك إن معاوية ولي دم عثمان فولّه هذا الأمر فإني لم أكن لأوليه معاوية وادع المهاجرين الأولين، وأما تعريضك لي بالسلطان فوالله لو خرج لي من سلطانه ما وليته ولا كنت لأرشي في حكم الله عز وجل، ولكن إن شئت أحيينا اسم عمر، فقال له عمرو، إن كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابني وأن تعرف فضله وصدقه؟ قال: إن ابنك رجل صدق ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة.

ثم قال[1]: أبو موسى: قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبداً وأن أهل الشام لا يحبون علياً أبداً فهلم فلنخلعهما معاً ونستخلف عبدالله بن عمر، وكان عبدالله بن عمر مُزَوَّجاً على بنت أبي موسى؛ قال عمرو: ويفعل ذلك عبد الله؟ قال أبو موسى: نعم إذا حمله الناس على ذلك، فصوب عمرو كل ما قاله أبو موسى وقال له عمرو: هل لك في سعد؟ قال أبو موسى: لا، وعدّ له عمرو جماعة وأبو موسى يأبى إلا صهره ابن عمر، فقال له عمرو: أرأيت لو رضي أهل العراق بعبدالله بن عمر وأبى أهل الشام أتقاتل أهل الشام؟ قال أبو موسى: لا، فقال عمرو: ولو رضي به أهل الشام وأبى أهل العراق أتقاتل أهل العراق؟ قال أبو موسى: لا.

فقال (عمرو بن العاص): أما إذا رأيت الصلاح والخير في هذا للمسلمين فقم فاخطب الناس واخلع صاحبينا جميعاً، وتكلم باسم هذا الذي تستخلف، فقال أبو موسى: بل أنت قم فاخطب فأنت أحق بذلك، فقال عمرو: ما أحب أن أتقدمك، وما قولي وقولك للناس إلا واحد فقم راشداً، فقام أبو موسى، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ﷺ ثم قال: أيها الناس، إنا نظرنا في

(1) من هنا عاد المؤلف ينقل عن مروج الذهب: 396.

أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا في الصلاح ولمّ الشعث وحقن الدماء وجمع الألفة خلعنا علياً ومعاوية، وقد خلعت علياً ومعاوية كما خلعت عمامتي هذه، ثم أهوى إلى عمامته فخلعها، واستخلفنا رجلاً قد صحب رسول الله ﷺ بنفسه، وصحب أبوه النبي ﷺ فبرز في سابقته، وهو عبدالله بن عمر وأطراه ورغّب الناس فيه ثم نزل.

فقام عمرو فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ﷺ ، ثم قال: أيها الناس إن أبا موسى عبدالله بن قيس خلع علياً وأخرجه من الأمر الذي يطلب وهو أعلم به، ألا وإني خلعت علياً معه وأثبت معاوية عليّ وعليكم، وقد صحب معاوية النبي ﷺ وصحب أبوه النبي ﷺ فهو الخليفة علينا وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان، فقام أبو موسى فقال: كذب عمرو لم نستخلف معاوية ولكنا خلعناه وعلياً جميعاً، فقال عمرو: بل كذب عبدالله بن قيس قد خلع علياً ولم أخلع معاوية.

وفي[1] رواية: أن أبا موسى قال في خطبة: أيها الناس قد أجمعت أنا وصاحبي أن أخلع أنا علي بن أبي طالب ويعزل هو معاوية بن أبي سفيان، ونجعل هذا الأمر لعبدالله بن عمر فإنه لم يخض في الفتنة ولم يغمس يده في دم مسلم، ألا وإني قد خلعت علي بن أبي طالب كما أخلع سيفي هذا، ثم خلع سيفه من عاتقه ثم جلس، وقال لعمرو: قُمْ، فقام عمرو بن العاصي فقال: أيها الناس إنه قد كان من رأي صاحبي ما قد سمعتم، وإنه أشهدكم أنه خلع علي ابن أبي طالب كما يخلع سيفه وأنا أشهدكم أني قد أثبت معاوية بن أبي سفيان كما أثبت سيفي هذا، وكان قد خلع سيفه قبل أن يقوم إلى الخطبة فأعاده على نفسه.

(1) من هنا لم يعد متابعاً للمسعودي.

فقال[1] أبو موسى لعمرو: لعنك الله فإنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فقال له عمرو: لعنك الله إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً، ثم ركل أبا موسى فألقاه لجنبه، فلما رأى شريح بن هانئ الهمداني ذلك قنع عمرواً بالسوط، وقام الناس فحجزوا بينهم، فكان شريح بعد ذلك يقول: ما ندمت على شيء ندامتي على ضرب عمرو بالسوط إلا أن أكون ضربته بالسيف، أتى بعد ذلك الدهر بما أتى.

وانخذل أبو موسى فاستوى على راحلته ولحق بمكة ولم يعد إلى الكوفة، وآلى ألا ينظر في وجه علي ﷺ ما بقي، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: قبّح الله رأي أبي موسى، حذرته وأمرته بالرأي فما عقل وكان أبو موسى يقول: لقد كان ابن عباس حذرني غدرة الفاسق، ولكني اطمأننت إليه وظننت أنه لا يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة. ثم انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية فسلموا عليه بالخلافة.

وكان السبب في بعث الحكَمين أن أهل الشام لما رأوا أهل العراق قد أشرفوا على الفتح رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح تالين: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ [آل عمران: 23] ويقولون: حاكمونا إلى كتاب الله، ونادوا كتاب الله بيننا وبينكم، وكان الأشتر النخعي يومئذ قد أشرف على الفتح، وهو يومئذ كان على الناس، فركنوا إلى ذلك، وعزموا على علي ﷺ في البعث إليه، فأرسل إليه فقال: أحين أشرفُ على الفتح تبعث إليّ؟ فأغلظوا له وألزموه بأن يبعث إليه، فبعث إليه كارهاً فانصرف ووقعت الفتنة والفُرقة.

(1) عاد النص مشابهاً لما عند المسعودي والطبري.

-73-

أ/ قصة مؤتة

(مغازي رسول الله ﷺ / الواقدي: ص 222-225)

« فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة من عمرته بعث سرية إلى مؤتة وأهل مؤتة يومئذ غسان والروم. وأمّر على تلك السرية زيد بن حارثة الكلبي[1]، وقال رسول الله ﷺ « إن قُتل زيد فأميركم جعفر بن أبي طالب، فإن قُتل جعفر فعبدالله بن رواحة » فلما انتهوا إلى مؤتة لقوا غسان ومعهم الروم؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل زيد بن حارثة، ثم رجع أصحاب رسول الله ﷺ إلى عسكرهم فشربوا من الماء ثم دفعوا الراية إلى جعفر بن أبي طالب، فضرب جعفر وجه فرسه، وقال: اقرؤوا على نبي الله مني السلام؛ فإني معرض نفسي للشهادة، فقاتل القوم هو وأصحابه، فضربه رجل من القوم فحط وسط جعفر بالسيف.

ثم أخذ عبدالله بن رواحة الراية وركب فرساً له، فطاعن القوم ساعة ثم ولى، فلام نفسه، فنزل عن فرسه، وقال لنفسه: أقسمت بالله لتنزلنه. إني أراك تكرهين الجنة فنزل، فطاعن القوم حتى قُتل، فقام خالد، يعني ابن الوليد، فأخذ الراية، فطاعن بها حتى فتح الله له، فحدثنا والله أعلم أن رسول الله ﷺ جعل ينعاهم وهو في المدينة رجلاً رجلاً ثم أخبرهم أنه قد فتح الله على أصحابكم على يدي خالد بن الوليد، وسماه يومئذ سيف الله كما يقال، فهذا ما كان من حديث مؤتة.

ثم إن حلفاء رسول الله ﷺ من خزاعة قاتلهم حلفاء بني أمية من كنانة، فأعانت بنو أمية حلفاءهم على حلفاء رسول الله ﷺ فأوجعوهم قتلاً، فركب

---

(1) هذه إشارة أن سيدنا زيد بن حارثة هو من بني كلب من جنوب الأردن. ولنا رأي أن إرساله لقيادة معركة مؤتة هي لفتة كريمة واستراتيجية من رسول الله ﷺ وكأنه يقول: يا زيد اذهب وحرِّر بلدك من الكفر والكفار، كما تحرر أهل بلدك من عبادة الأوثان والنار.

حلفاء رسول الله يسألونه النصر عليهم، فيهم بديل بن ورقاء (اسم شخص)؛ فقال: اللهم إني ناشد محمداً حلفاء أبينا وأبيه ألا تلدا ثم أسلمنا ولم تنزع بدأ. فوعدهم رسول الله ﷺ النصر إذا انقضى أجل بينه وبين أهل مكة من شرهم الذي كان اشترطوا عليه، فبلغ أبا سفيان الخبر وهو عند هرقل في تجارة له.

فقال هرقل: يا أبا سفيان. لقد كان يسرني أن ألقى رجلاً من أهل بلدك يخبرني عن هذا الرجل الذي خرج فيكم، فقال أبو سفيان: على الخبير سقطت، سلني عما شئت من أمر، فقال هرقل حدثني عنه أنبي هو أم كذاب. فقال أبو سفيان: هو كذاب. فقال هرقل: كيف يظهر عليكم إذا قاتلكم. قال: والله ما ظهر علينا قط إلا مرة واحدة، وقعة بدر، وأنا يومئذ غائب. ثم غزوته بعد مرتين. فأما مرة، فاقتتلنا محمداً وقد كسرنا فاه ووجهه. وأما الثانية فامتنع منا بخندق خندقه عليه وعلى أصحابه. قال هرقل: يا أبا سفيان إن هذا ليس بكذاب، إن الكذاب إذا خرج إنما هو كهيئة الحريق لا يظهر عليه أحد حتى يهلكه الله بمرة واحدة، وأسمع هذا يظهر عليكم مرة وتظهرون عليه أخرى. يا أبا سفيان: ما الذي يأمركم به، وما الذي ينهاكم عنه؟ قال: يأمرنا أن ننحني طرفي النهار كما تنحنى النساء. قال هرقل هذه الصلاة وما خير قوم لا يصلون. قال: ويأمرنا أن نعطيه خراجاً من أمولانا كل عام.

قال هرقل: يا أبا سفيان هذه الزكاة قد أُمرنا أن نأخذ بها ونعطيها. وقال: وينهانا عن الميتة والدم. قال هرقل وما خير الميتة والدم، أوَليس قولكم أن تقذروهما ولو لم ينهاكم عنها. قال هرقل: هذا رجل صالح يا أبا سفيان اتبعوه ولا تقاتلوه ولا تستنّوا بسنّة اليهود فإنهم أفعل الناس لذلك أن يقاتلوا أنبياءهم. ولكن أخبرني هل يغدر إذا واثق. قال: لا. والله ما غدر قط فيما مضى وإني لخائف أن يغدر هذه المرة.

قال هرقل: كيف يا أبا سفيان؟ قال: وادعناه ستين بعضنا لبعض آمن، فبلغني وأنا عندك أن حلفائي قاتلوا حلفاءه فأعانت عشيرتي حلفاءنا على حلفائه، فبلغني أن حلفاءه سألوه النصر فهو يريد أن يعين حلفاءه على قومي، قال هرقل: يا أبا سفيان أن يكن الحديث كما حدثتني، فأنتم أولى بالغدر منه، فأنتم استحللتم قتال حلفائه. ولكن أخبرني يا أبا سفيان كيف موضعه فيكم؟ قال: والله في الذروة منا. فضحك هرقل وقال: ما أراك إلا تخبرني بحقيقة أمره، ولقد وجدت فيم تتحدث أن الله لم يبعث نبياً بعد لوط إلا في ثروة قومه وذروتهم.

قال أبو سفيان عند ذلك لهرقل ما أراني إلا راجعاً. فرجع أبو سفيان إلى مكة فأمروه أن يأتي نبي الله ﷺ فيجدد حلفاً آخر. فقدم أبو سفيان المدينة؛ فنزل على فاطمة بنت رسول الله ﷺ . ثم غدا على رسول الله ﷺ . فلما انتهى إليه دفع في نحره وحيل بينه وبين رسول الله ﷺ . قال تحولون بيني وبين محمد، وإنما هو ابن أخي، قال رسول الله ﷺ ذروه. فنزل فجلس إلى نبي الله ﷺ . قال يا محمد جئتك أجدد الحلف بيننا وبينك قال له النبي ﷺ : وهل أحدثتم من حدث. قال: لا واللات والعزى.

قال رسول الله ﷺ : فأنا على حلفنا الأول. قال أبو سفيان: إني لا أدري لعلك بعد حدثنا الذي صنع قومنا وحلفاؤنا، فضحك رسول الله ﷺ وعرف أبو سفيان أن رسول الله ﷺ ناصر حلفاءه. قال أبو سفيان: يا ابن أبي قحافة ألا تأخذ علي قومك وتأخذ لهم، فقال الله ورسوله أعلم، قال يا ابن عفان ألا تأخذ على قومك وتأخذ لهم؟ قال لا. قال أبو سفيان لم؟ قال لأن الله ورسوله أعلم، فأقبل على عمر فقال: يا ابن الخطاب ألا تأخذ على قومك وتأخذ لهم تصل قرابتهم، قال عمر: لا. ما كان من قرابة فلا وصلها الله، وما كان من رحم فقطعه الله فوالذي نفس عمر بيده، لولا مجلسك من نبي الله ﷺ لضربت عنقك.

قال أبو سفيان: لعمري لقد رأيتك حدثاً ولست على بفاحش ولا جرى، فما أدري ما يحملك على ذلك يا ابن الخطاب، فقال له عمر: لكفرك بالله ورسوله وعداوتك إياهما.

ثم أذن المؤذن بالصلاة وأتى رسول الله ﷺ بماء في قدح فتوضأ منه، فجعل الناس بعد ما فرغ النبي ﷺ يتوضأون بفضله ويستنشقونه، قال أبو سفيان: لم أرَ كاليوم ملكاً قط أعظم، لقد سرت في الأرض بمائتي فارس ورأيت ملكهم، ورأيت الروم ذات القرون، ورأيت مُلْكهم، فما رأيت مُلْكاً قط أعظم من مُلْكِ محمد، إن أصحابه ليشربون وسخ يديه ويستنشقونه في مناخرهم، ويغسلون به وجوههم، فبُهت أبو سفيان من ذلك، وأقيمت الصلاة فقدم نبي الله ﷺ فصلى، فجعل الناس يركعون بركع رسول الله ويسجدون بسجوده؛ فعجب أبو سفيان من ذلك وقال: هذه وأبيكم الطاعة.

فلما انصرف نبي الله من الصلاة قال أبو سفيان إني والله ما أدري أبحرب راجع أم بصلح؟ فقال له نبي الله: ترجع مَرَّتكَ هذه حتى نرى أمرك إن شاء الله، قال فدخل أبو سفيان على فاطمة بنت رسول الله ﷺ فقال: يا فاطمة هل لك أن تكوني خير سخلة في العرب لقومها. قالت: وما ذاك يا أبا سفيان، قال تجيرين بين الناس. قالت لعمر الله إني إذاً لسفيهة إن أجرت على نبي الله ﷺ وهو شاهد.

قال لها أبو سفيان بل لا أعدمك فإن أختك زينب بنت محمد قد عقدت لزوجها أبي العاص بن الربيع وقد كان أبوك أمر بقتله. فأمضى عقدها وحقن دم زوجها فأبت عليه. فلما رأى ذلك أبو سفيان أقبل على الحسن والحسين وهما صبيان فقال لهما قولاً، فقالا نحن لا نجير بين الناس لنتخذ على محمد حجة، فقالا كما قالت أمهما. قال أبو سفيان قد لعمر الله كلمت رؤوسكم وأشرافكم ونساءكم حتى كلمت صبيانكم فما أرى قلوبكم إلا على قلب إنسان واحد فأما

إذا أبيتم فأنا أتحمل هذه الدماء، وأجير بين الناس فمن شاء أن يتعرض لي فليفعل، ثم ركب راحلته راجعاً إلى مكة. فسأل رسول الله ﷺ عن أبي سفيان ما فعل؟ قيل انطلق غير مفلح ولا منجح. قد أجار بين الناس كما يزعم » (الواقدي: ص 322-325).

-73-

ب / مؤتـة

(فتوح البلدان / البلاذري: ص 91، ص 114)

وهي المنطقة الواقعة بالقرب من مدينة الكرك وقد وقعت فيها غزوة مؤتة وفيها قبور للقادة الشهداء الذين استشهدوا في تلك الغزوة.

وقد ورد ذكر مؤتة في كتاب فتوح البلدان للبلاذري في أكثر من موقع حيث يقول: « ... وخالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية وعبدالله وهو الحكم بن سعيد بن العاصي بن أمية ويقال أنه قتل يوم مؤتة ... » (البلاذري: ص 91).

«... وهبّار بن سفيان بن عبد الأسد المخزومي ويقال بل قُتل يوم مؤتة..». «وقال هشام بن محمد الكلبي قُتل التمّام يوم مؤتة » (البلاذري: ص 114).

-73-

ج / مؤتـة

(تلخيص الآثار / الباكوني: ص 33 (أ))

« مؤتة من أعمال البلقاء من حدود الشام أرضها لا تقبل اليهود ولا يتهيأ أن يدفنوا بها وأن لا تلد بها عذراء وأن المرأة إذا قربت ولادتها خرجت منها فإذا وضعت عادت إليها والسيوف المشرفيّة منسوبة إليها لأنها من مشارف الشام»[1] (الباكوني: ص 33 (أ)).

---

(1) هناك عدة نقاط جاءت في هذا النص للباكوني وهي: =

-73-

د / مؤتــة

(أحسن التقاسيم / المقدسي: ص 178)

« مؤتة: من قراها (أي من قرى مآب)، وثم قبر جعفر الطيّار وعبدالله بن رواحة » (المقدسي: ص 178).

-73-

هـ / مؤتــة

(معجم ما استعجم / البكري: ج 4، (أ) ص 1172-1173)

«مؤتة: بضم أوله، وإسكان ثانيه بعده تاء معجمة باثنتين من فوقها: موضع من أرض الشام، من عمل البلقاء؛ وهو الذي بعث إليه رسول الله ﷺ الجيش سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة موْلاه، وقال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة، فأصيبوا متتابعين على ما قاله. وخرج إلى الظُّهْر من ذلك اليوم تُعرف الكَآبَةُ في وجهه، فخطب الناس بما كان من أمرهم، وقال: ثم أخذ اللواء سيف من سيوف الله: خالد بن الوليد، فقاتل حتى فتح الله عليه. فيومئذ سُمّي خالد سيف الله. وكان لقاؤهم الروم في

= أ- أن مؤتة من أعمال البلقاء وديارها.

ب- وأنها أرض لا تقبل اليهود، لأنها طاهرة لا ترضى بالدّنس.

ج- لا يجوز دفن اليهود فيها لأنها بلد مسلم محرّر بالسيف مطهّر بوجود القادة الثلاثة الشهداء وسائر شهداء المسلمين.

د- أما قوله أن المرأة لا تلد فيها فإنه مغاير للواقع والحقيقة، في زمننا هذا (القرن العشرين والحادي والعشرين).

هـ- أن السيوف المشرقية كانت تصنع في قرية المشيرفة المحاذية لمؤتة من جهة الشمال والمطلّة على الكرك وهي الآن على ناحية الطريق الجديدة ما بين الثنيّة ومؤتة التي تسلك عرنون التلال.

قرية يقال لها مشارف، من تُخُوم البلقاء. ثم انحاز المسلمون إلى مؤتة. قال ابن عمر: كنت فيهم تلك الغزوة، فالتمسنا جعفراً، فوجدناه في القتلى، ووجدنا في جسده بضعاً[1] وتسعين من طعنة ورَمْيَة. ذكره عنه البخاري.

قال ابن إسحاق: لما نزل المسلمون مُعان، وهي بين الحجاز والشام، حصن كبير على خمسة أيام من دمشق بطريق مكة، بلغهم أن هرقل قد نزل مَآب من أرض البلقاء، في مئة ألف، فأقام الناس بمُعان ليلتين، ثم إن عبدالله بن رواحة شجَّعهم، فاستمرّوا لوجْهتهم، وقال ابن رواحة:

جَلَبْنا الخَيْلَ من أجَإٍ وفُرْحٍ ... تُغَرُّ من الحشيش لها عُكُومُ[2]
أقامَتْ لَيْلَتَيْن على مَعَان ... وأعقَبَ بعد فَتْرَتها جُمُومُ
فرُحْنا والجيادُ مُسَوَّمَات ... تَنَفَّسُ في مناخِرِها السُّمُومُ
لا وأبي مَآبَ لتأتِيَنْها ... وإنْ كانت بها عَرَبٌ ورُومُ

ورواية أبي جعفر الطّبري:

جَلَبْنا الخَيْلَ من آجَامِ قُرْحٍ

وقال حسان بن ثابت يرثي أهل مؤتة:

فلا يُبْعِدَنَّ اللهُ قَتْلَى تَتَابَعُوا ... بمُؤْتَةَ منهم ذو الجَنَاحَيْن جَعْفَرُ[3]

---

(1) كذا في صحيح البخاري (البكري ج 4، ص 1172).

(2) اجأ: احد جبلي طيء. وقرح: سوق وادي القرى. والفرع: أطول جبل بأجأ وأوسطه. ورواية البيت في معجم ياقوت:

جلبنا الخيل من آجام قرح ... تُغَرُّ من الحشيش لها العكوم

وتغر: تطعم شيئاً بعد شيء. والعكوم: جمع عكم، بالفتح، وهو الجنب.

(3) تتابعوا: تهافتوا في القتال، وأسرعوا إليه.

وما زال في الإسلام من آل هاشم دَعَائمُ عِزٌ لا يُرَامُ ومَفْخَرُ
بَهَالِيلُ منهم جَعْفَرٌ وابنُ أُمِهِ عليٌّ ومنهم أحمد المُتَخَيَّرُ »

(البكري: ج 4، (ب) ص 1172-1173)

-73-

و / مؤتة

(معجم البلدان / الحموي: ج 5، ص 219-220)

« مُؤْتَةُ[1]: بالضم ثم واو مهموزة ساكنة، وتاء مثناة من فوقها، وبعضهم لا يهمزه، وأما ثعلب فإنه قال في الفصيح: موتة بمعنى الجنون غير مهموز، وأما البلد الذي قُتل به جعفر بن أبي طالب فإنه مُؤْتَة بالهمزة، قلت: لم أظفر في قول بمعنى مُؤتة مهموز فأما غير مهموز فقالوا هو الجنون، وقال النضر: المُوتة الذي يُصرع من الجنون أو غيره ثم يُفيق، وقال اللحياني: الموتة شبه الغشية؛ ومُؤتة: قري من قرى البلقاء في حدود الشام، وقيل: موتة من مشارف الشام وبها كانت تُطْبع السيوف وإليها تُنسب المشرفية من السيوف؛ قال ابن السكيت في تفسير قول كُثَيِّر:

إذا الناس ساموكم من الأمر خُطّةً لها خَطمةٌ فيها السمام المُثَمَّلُ
أبى الله للشُّمّ الأنوف كأنهم صَوَارِمُ يجلوها بمُؤتة صَيقلُ

(1) أهل الكرك الأردنيون يلفظون مؤتة بدون همزة على الواو، فيقولون: مُوْتِهْ، بضم الميم وسكون الواو والطاء في آخر الكلمة، وكسر التاء وأحياناً يلفظون مُوْتِ من ثلاثة أحرف (ميم مضمومة، وواو ساكنة، وتاء مكسورة، وبدون التاء المربوطة أو الهاء في آخر الكلمة). وأحياناً تتحول التاء المكسورة إلى تاء + ياء (موتي).

قال المهلبي: مآب وأذرُح مدينتا الشراة، على اثني عشر ميلاً من أذرح ضيعة تعرف بمؤتة بها قبر جعفر بن أبي طالب بعث النبي، ﷺ [1]، إليها وقال: إن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب الأمير، وإن أُصيب جعفر فعبدالله بن رواحة، فساروا حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة فالتقى الناس عندها فلقيتهم الروم في جمع عظيم فقاتل زيد حتى قُتل فأخذ الراية جعفر فقاتل حتى قُتل فأخذ الراية عبدالله بن رواحة فكانت تلك حاله فاجتمع المسلمون إلى خالد بن الوليد فانحاز بهم حتى قدم المدينة فجعل الصبيان يحثون عليهم التراب ويقولون: يا فُرار فَرَرتم في سبيل الله! فقال النبي، ﷺ : ليسوا بالفُرار لكنهم الكُرّار إن شاء الله؛ وقال حسان بن ثابت:

فلا يبعدنّ الله قتلى تتابعوا ... بمؤتةَ منهم ذو الجناحين جعفر
وزيدٌ وعبدالله هم خير عصبة ... تواصَوا وأسباب المنية تنظر »

(الحموي: ج 5، ص 219-220)

-74-

متفرقات في جنوب الأردن

الجرْباءُ

(معجم البلدان / الحموي: ج 1، ص 118)

« الجَرْبَاءُ: كأنه تأنيث الأجرب: موضع من أعمال عُمَان (المقصود عمّان) بالبلقاء من أرض الشام قرب جبال الشراة من ناحية الحجاز، وهي قرية من أذرُح

(1) المسافة هنا غير دقيقة، فيما بين أذرح ومؤتة، ذلك أن الأولى في محافظة معان، وهي على بُعد 25 كيلومتراً من معان المدينة، وأما الثانية فهي بجوار الكرك وإلى الجنوب منها باثني عشر كيلومتراً، وبين أذرح ومؤتة عشرات الكيلومترات.

التي تقدّم ذكرها، وبينهما كان أمر الحكمين بين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري، وروي جَرْبى بالقصر، وذكره بعد بأتم من هذا. والجرْباء أيضاً: ماءٌ لبني سعد بن زيد مناة بن تميم بن البصرة واليمامة » (الحموي: ج1، ص118).

1- مؤتة : (القزويني: ص 275)

« قال الجيهاني: مؤتة من أعمال البلقاء من حدود الشام، أرضها لا تقبل اليهود ولا يتهيأ أن يدفنوا بها.

ومن عجائبها ألا تلد بها عذراء، فإذا قربت المرأة ولادتها خرجت منها، فإذا وضعت عادت إليها. والسيوف المشرفية منسوبة إليها لأنها من مشارف الشام؛ قال الشاعر:

أَبى اللهُ للشُّمّ الأُنوفِ كأنَّهُمْ   صَوارِمُ يَجْلُوها بِمُؤتَةَ صَيْقَلُ »

(القزويني: ص 275)

2- الحساء[1] : (الروض المعطار / الحميري: ص 205)

« الحساء: قيل الحساء موضع في ديار بني أسد، قال بشر بن أبي خازم:

عفا منهن جزع عريتنات   فصارة فالقوارع فالحساء

والمشهور أن الحساء في طريق مؤتة، وهي المذكورة في شعر عبدالله بن رواحة، إذ قال يخاطب ناقته وهو متوجّه إلى مؤتة.

---

(1) معجم ما استعجم 446:2؛ وياقوت (الحساء) والحساء مياه لبني فزاة بين الربذة ونخل. وبذلك نجد أن الحساء اسم يطلق على أكثر من موقع، ومنها في الأردن، وهو موضوع اهتمامنا، وتقع الحسا في بادية محافظة الطفيلة، ويخترقها الطريق الصحراوي الحديث المؤدي إلى معان ثم إلى العقبة، ومن معان إلى المدورة ثم إلى تبوك عبر الحدود السياسية. وتشتهر الحسا بمناجم الفوسفات فيها، كما أن البلدة فيها توسعت وازداد عمرانها وسكانها وهم من بدو ومحافظات الجنوب.

إذا أدريتني وحملتِ رحلي   مسيرة أربع بعد الحساءِ
فشأنك فانعمي وخلاك ذمٌّ   ولا أرجعْ إلى أهلي ورائي

ذكر القصة ابن إسحاق[1]. ومن أهل الحساء عثمان بن شطيبة العامريّ الحسائي، له:

تسير وتسري ليله ونهارها   بعادٍ إلى أُفق الجلالة رائح
وهان عليها أو عليّ جميع   ألاقي وتلقى إذ تلاقي ابنَ راجح »

(الحميري: ص 205)

3- سَرْغ : (المسالك والممالك / ابن خرداذبة: ص **150**، ص **191**)

وهي المعروفة اليوم باسم المدورة وقد ورد ذكرها في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة في وصفه للطريق من دمشق إلى مكة. « ... ثم إلى ذات المنازل، ثم إلى سَرْغ، ثم إلى تبوك... » (ابن خرداذبة: ص 150).

وفي بند في كتاب الخراج وصنعة الكتابة لأبي الفرج ورد ذكرها أيضاً في وصف الطريق في دمشق إلى مكة. « فأما من دمشق إلى مكة فالمنازل منها إلى ذات المنازل ثم إلى سَرْغ، ثم إلى تبوك ... » (ابن خرداذبة: ص 191).

وردت في الكتاب المذكور في وصف الطريق من دمشق إلى مكة المكرمة فيقول: « من دمشق إلى منزل، ثم إلى منزل، ثم إلى ذات المنازل، ثم إلى سَرْغ، ثم إلى تبوك، ثم إلى المُحْدَثة، ثم إلى الأقرع، .... » (ابن خرداذبة: ص 150).

---

(1) السيرة 376:2.

4- سَرْغ: (معجم ما استعجم / البكري: ج 3، ص **735**)

« سَرْغ: بفتح أوّله، وإسكان ثانيه، بعده غين معجمة[1]: مدينة بالشام، افتتحها أبو عبيدة بن الجراح، هي واليرموك والجابية والرّمادة متصلة.

وروى مالك من طريق عبدالله بن عبدالله[2] بن الحارث، عن ابن عباس، أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسَرْغ، لقيَه أبو عبيدة وأصحابه، فأخبره أن الوباء قد وقع بالشام، فقال: ادعوا [لي] المهاجرين الأوّلين، وذكر الحديث بطوله»[3] (البكري: ج 3، ص 735).

5- سَرْغ : (معجم البلدان / الحموي: ج 3، ص **211-212**)

« سَرْغ: بفتح أوّله، وسكون ثانيه ثم غين معجمة؛ سُرُوغُ الكرم، قُضبانه الرطبة، الواحد سَرْغ، بالغين، والعين لغة فيه: وهو أول الحجاز وآخر الشام بين المُغيثة وتبوك من منازل حاج الشام، وهناك لقي عمر بن الخطاب، ﷺ ، أمراء الأجناد بينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة، وقال مالك بن أنس: هي قرية بوادي تبوك، وهي آخر عمل الحجاز الأول، وهناك لقي عمر بن الخطاب من أخبره بطاعون الشام فرجع إلى المدينة، وبها مات ثابت بن عبدالله بن الزبير بن العوّام في سبع أو ثمان وسبعين ومائة، وكان لسان آل الزبير، قال له عبد الملك وقد وفد عليه: أبوك كان أعلم بك حيث كان يشتمك، قال: يا أمير المؤمنين

---

(1) سَرْغ هي المعروفة اليوم باسم المدوّرة.

(2) المسالك والممالك – ابن خرداذبة، ص 150.

(3) نجد هنا أن أمراء الأجناد قد التقوا سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ في سَرْغ كونها نطقة الحدود الجنوبية لبلاد الشام، وبها اجتمعت الجيوش قبل أن تتوزع لأداء مهامّها، ونجد أيضاً أن القادة لابد وأن يستقبلوا قائدهم الأعلى عند نقطة الحدود، وهذا جزء من الطاعة والاحترام والالتزام وهيبة الحكم والخلافة، ولكي يتشاور معهم، حول المرحلة القادمة.

أتدري لم كان يشتمني؟ قال: لا والله، قال: لأني كنت نهيته أن يقاتل بأهل مكة وأهل المدينة فإن الله عز وجل لا ينصر بهم أحداً، أما أهل مكة فإنهم أخرجوا رسول الله ﷺ ، وأخافوه ثم جاؤوا إلى المدينة فأخرجهم رسول الله، ﷺ ، وسيرهم، (يعرّض في قوله هذا بالحكم بن أبي العاصي جدّ عبد الملك حيث نفاه رسول الله ﷺ)، وأما أهل المدينة فخذلوا عثمان ﷺ ، حتى قُتل بينهم ولم يروا أن يدفعوا عنه، فقال له عبد الملك: عليك لعنة الله ! قال: يستحقّها الظالمون كما قال الله تعالى: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: 18]؛ قال: فأمسك عنه » (البكري: ج 3، ص 211-212).

-75-

البَلْقَاء

(الموسوعة الإسلامية / ج 4، ص 106-107)

« البَلْقاء: الاسم العربي للنصف الجنوبي من شرق الأردن. والبلقاء فيما روى عن غزوة مؤتة تضم كذلك البلاد التي إلى الجنوب من آرنون Arnon لأن كلاً من مآب (ربّة مؤاب) ومؤتة وقرية مشارف (ويقول المبرد في كتابه الكامل ص 639 وما بعدها، إن قرية مشارف هذه هي عين مؤتة) داخلة فيها. ويقول الواقدي إن حدودها الجنوبية على مسيرة يوم من ذات أطلاح. ويُطلق على إقليم شرق الأردن بأكمله اسم البلقاء أو البثنية (انظر هذه المادة أو حوران (الطبري، ج 9، ص 2646 ؛ ج 3، ص 52). وتذكر مدينة أريد (إربِـد) التي مات فيها يزيد الثاني على أنها من مدن البلقاء (تاريخ الطبري، ج 2، ص 1463).

ولكنا نرى من جهة أخرى أن البلقاء بمعناها الضيق عند الجغرافيين هي الناحية التي عاصمتها عمّان، وكانت من بين بلاد فلسطين. وكانت عادة من أعمال دمشق، ولو أن المقدسي يذكر عمان من بين بلاد فلسطين. وكانت البلقاء

قضاءً منفصلاً يتولاه عامل كما ذكر ذلك في بعض الأحيان (تاريخ الطبري، ج 2، ص 1975، ج 3، ص 416) ويقول الدمشقي إن البلقاء كانت تابعة لمملكة كرك حوالي عام 1300م وأُلحقت بدمشق ثانية في عهد المماليك الثاني، وكانت قصبتها حسبان. وكثيراً ما يتحدث الجغرافيون عن ظاهر البلقاء، ولذلك يُطلق عليها أحياناً اسم « الظاهر » بدلاً من البلقاء.

والبلقاء اليوم بمعناها الضيق تشمل البلاد التي بين زرقاء عمّان وزرقاء معين، وهي بالتقريب بيريا Peraea القديمة، وقصبته السلط، ولكن لا يزال يطلق كذلك اسم البلقاء على الأقاليم التي إلى الجنوب من أرنون » (الموسوعة الإسلامية: ج 4، ص 106-107).

المصادر:

1- الاصطخري، طبعة دغ غوي، ص 65.
2- ابن حوقل، ص 124 وما بعدها، ويمكن الرجوع فيما يختص بالنص المبهم الوارد في هذا الكتاب إلى Gildemeister في Zuitschr. D. deutschen Palastina Vereins ج 6، ص 10.
3- اليعقوبي، ص 326.
4- المقدسي، ص 179، 187.
5- ابن خرداذبة، ص 77.
6- البكري، طبعة فستنفلد، ص 160.
7- ياقوت، طبعة فستنفلد، ج 1، ص 728.
8- الدمشقي، طبعة مهرن Mehren، ص 200، 213.
9- ابن فضل الله العمري: ضوء الصبح، القاهرة عام 1312هـ ص 178-183.
10- Die: Harmann Geogr. Nachrichten ub. Pal. U. Syr. In Khalil al0Zahiris Zubda عام 1907، ص 55.
11- ابن هشام، طبعة فستنفلد، ص 774.
12- الواقدي، ترجمة فلهاوزن، ص 308.
13- تاريخ الطبري، طبعة ده غوى، ج 1، ص 1614.
14- Arabia: Musil Petraca ، ج 1، ص 1. [بول Fr. Buhl].

-76-

جبال الشراة

(المسالك والممالك / ابن خرداذبة: ص 77)

« وهي من كور مشق وأقاليمها ».

« .. وكورة جبال، وكور الشراة، وكورة بُصرى، وكورة عمان... » (ابن خرداذبة، ص 77).

1- عَرَنْدَل[1] : (فتوح البلدان / البلاذري: ص 126)

ورد ذكرها في كتاب فتوح البلدان للبلاذري في حديثه عن فتح دمشق وأرضها أما عرندل فقد فتحها يزيد بن أبي سفيان.

« ... وتوجه يزيد بن أبي سفيان في ولاية أبي عبيد ففتح عَرَنْدَل صلحاً وغلب على أرض الشراة وجبالها... » (البلاذري: ص 126)

2- العَرَبَة : (فتوح البلدان / البلاذري: ص 109)

« وقد ورد ذكر العربة في كتاب فتوح البلدان للبلاذري في معرض حديثه عن فتوح الشام فيقول:

« ... وتوجه يزيد بن أبي سفيان في طلب ذلك البطريق فبلغه أن العرب من أرض فلسطين جمعاً للروم فوجه إليهم أبا أمامة الصُدَيّ بن عجلان الباهلي فأوقع بهم وقتل عظيمهم ثم انصرف، وروى أبو مخنف في يوم العربة أن ستة

---

(1) هي غرندل، وهي إلى الجنوب من الطفيلة بحوالي 25 كيلومتراً واسمها الآن عند الأردنيين: غرندل بالغين وليس عرندل بالعين. وفيها مدينة أثرية، ونبع ماء عليه بناء أدومي قديم، وكان يجري من هذه العين سيل ماء يجري إلى الشرق من بصيرا عاصمة الأدوميين التاريخية، تحول الآن إلى نبع فقط، يسقي القرية وشيئاً من بساتينها.

قواد من قوّاد الروم نزلوا العربة في ثلاثة ألف فسار إليهم أبو أمامة في كثير من المسلمين فهزمهم وقتل أحد القواد ثم اتبعهم فصارا إلى الدُّبَيّة (وهي الدابيَة) فهزمهم وغنم المسلمون غنماً حسناً، وحدثني أبو حفص الشامي عن مشايخ من أهل الشام قالوا كانت أول وقائع المسلمين وقعة العربة ولم يقاتلوا قبل ذلك من فصلوا من الحجاز لم يمرّوا بشيء من الأرض فيما بين الحجاز وموضع هذه الوقعة إلا غلبوا عليه بغير حرب وصار في أيديهم » (البلاذري: ص 109).

3- الجبال والشراة : (المسالك والممالك / الاصطخري: ص 44، ص 48-49)

« وأما الجبال والشراة فإنهما بلدان متميزان، أما الشراة فمدينتها تسمى أذرح، وأما الجبال فإن مدينتها تسمى رُوات، وهما بلدان في غاية الخصب والسّعة، وعامة سكانها العرب متغلّبون عليها » (الاصطخري: ص 44).

« ومن ريحا إلى زُغَرْ يومان، ومن زغر إلى جبال الشراة يوم ومن جبال الشراة إلى آخر الشراة يوم[1] » (الاصطخري: ص 48-49).

4- الشَّـراة : (معجم ما استعجم / البكري: ج 3، ص 789)

« الشراة: بزيادة هاء التأنيث: أرض من ناحية الشام، قد تقدّم ذكرها في رسم زُغَر. وقال حاتم:

إنّمـــا بَيْنَـــنا وبَيْـــنَك فاعْـــلَمْ   سَـيْرُ تِسْـعٍ لـلرّاكِبِ المُتَـتَابِ
وثـلاثٌ مــن الشَّــرَاةِ إلى الحِـــ   ـلّةِ للخضيْل جاهِداً والرّكَابِ

يخاطب بها الحارث بن أبي شَمِر؛ فذكر أن بين جَبَلَي طيّءٍ والشّراة تسعاً، وأن من الشراة إلى الحِلّة بأرض الشام ثلاثاً » (البكري: ج 3، ص 789).

---

(1) « فتوح البلدان » أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، ص 126.

5- وادي موسى: (معجم البلدان / الحموي: ج 5، ص 346)

« وادي موسى: منسوب إلى موسى بن عمران، عليه السلام : وهو وادي في قبلي بيت المقدس بينه وبين أرض الحجاز، وهو واد حسن كثير الزيتون وإنما سمي وادي موسى لأنه عليه السلام لما خرج من التيه ومعه بنو إسرائيل كان معه الحجر الذي ذكره الله تعالى في القرآن كان إذا ارتحل حمله معه وخرج فإذا نزل ألقاه على الأرض فخرجت منه اثنتا عشرة عيناً تتفرق على اثني عشر سبطاً قد علم كل أناس مشربهم، فلما رحل إلى هذا الوادي وعلم بقرب أجله عمد إلى ذلك الحجر فسمّره في الجبل هناك فخرجت منه اثنتا عشر عيناً وتفرقت على اثنتي عشر قرية كل قرية لسبط من الأسباط، ثم مات موسى عليه السلام ، وبقي الحجر على أمره هناك، وحدثني القاضي جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، أدام الله عُلوّه، أنه رآه هناك وأنه في قدر رأس العنز وأنه ليس في هذا الجبل شيء يشبهه » (الحموي: ج 5، ص 346).

6- إرَم : (معجم البلدان / الحموي: ج 1، ص 154-155)

« إرَم: بالكسر، ثم الفتح، والإرم في أصل اللغة حجارة تُنصب في المفازة عَلَماً، والجمع آرم وأُرُومٌ مثل ضِلع وأضلاع وضُلوع: وهو اسم عَلَم لجبل من جبال حِسْمَى من ديار جُذام، بين أيْلة وتيه بني إسرائيل، وهو جبل عالٍ عظيم العلو، يزعم أهل البادية أن فيه كروماً وصنوبراً. وكان النبي ﷺ قد كتب لبني جِعال بن ربيعة بن زيد الجذاميين، أن لهم إرَماً، لا يحلها أحد عليهم لغلبهم عليها، ولا يحاقّهم، فمن حاقّهم فلا حقّ له، وحقُّهُم حق » (الحموي: ج 1، ص 154-155).

7- حِسْمَى : (معجم البلدان / الحموي: ج 2، ص 258-259)

« حِسْمَى[1]: بالكسر ثم السكون، مقصور، يجوز أن يكون أصله من الحسم وهو المنع: وهو أرض بادية الشام، بينها وبين وادي القرى ليلتان، وأهل تبوك يَرَوْنَ جبل حِسْمى في غربيّهم وفي شرقيهم شَرَوْري، وبين وادي القرى والمدينة ست ليال؛ قال الراجز:

جـاوَزْنَ رمـلَ أيْـلَةَ الدَّهَاسـا، ويطـنَ حِسْـمى بـلداً هِرْماسـا

أي واسعاً، وأيلة قريبة من وادي القرى، وحسمى أرض غليظة وماؤها كذلك لا خير فيها، تنزلها جُذام؛ وقال ابن السكيت: حِسْمى لجذام جبال

(1) حِسْمى (بفتح الحاء وكسرها)، تضم في عرف الرحالة والجغرافيين المسلمين المناطق الممتدة من شرقي أيلة إلى وادي القرى، وهي بذلك واسعة شاسعة وحسبما يقول الشاعر أنها «بلداً هرماساً»، أي واسعاً، وهناك بئر يسمى بير ابن هرماس في داخل الحدود السعودية الآن، وهو ضمن أراضي حسما. وقد وجدت أن لتحديد هذه المنطقة الواسعة نصيب من الصحّة، ذلك أنها حوض ماء واسع وجوفي يبدأ من وادي اليتم وينتهي إلى تبوك، وهو من أجود مياه العالم على الإطلاق. وتتألف حسمى من المناطق التالية: حوض القويرة والحميمة، حوض وادي وجبال رم، وحوض الديسة، وحوض المدورة، وحوض ابن هرماس، وحوض تبوك، وهي في حقيقة حوضا الجوفي واحدة، وقد أصبحت حَسْمى عند بدو الأردن مقصورة على جزء من حسمى التاريخية، كما هو حال الأردن الذي لا يتألف إلا من جزء من مساحته التاريخية. ويقول البدو حسمى حجّادة الثرى، لأن تربتها رملية تبتلع ماء المطر وأن ثراها، أي تربتها، تغور فيها المياه، فلا تجد لها أثراً ظاهراً بعد سكبها على التراب. وفي منطقة حوض حسمى الجغرافي التاريخي تقع أجمل جبال في الدنيا وهي جبال رم، كما أن منطقة حسمى كانت غنية بالماء السطحي والنباتات والأشجار مما جعلها موئلاً للقبائل، ومن أهمهم جذام، لذا سميت حسمى باسم جذام وقيل: حسمى جذام. وفي الوقت الذي وصفها البعض بالسوء نجد المتنبي يصفها نثراً بأنها أرض طيبة وتنبت جميع النباتات، مملوءة جبالاً في كبد السماء، كما وصفها النابغة الذبياني أن غبار ترابها يطاول القتام ويبدو وكأنه خيام يحيط الجبال والمكان. قد أقيمت في حسمى، في حوض الديسة، مشاريع لاستنزاف المياه مقصورة على حيتان من الطيور المهاجرة.

وأرض بين أيلة وجانب تيه بني إسرائيل الذي يلي أيلة وبين أرض بني عُذرة من ظهر حرّة نِهْيا، فذلك كله حسمى؛ قال كُثيِّر:

سيأتي أمير المؤمنين، ودونه　　جماهير حِسْمى: قُورُها وحُزونُها
تجاوب أصدائي بكل قصيدة،　　من الشعر، مهداة لمن لا يُهينُها

ويقال: آخر ماء نَضَبَ من ماء الطوفان حِسْمى فبقيت منه هذه البقية إلى اليوم، فلذلك هو أخبث ماء؛ وفي أخبار المتنبي وحكاية مسيره من مصر إلى العراق قال: حسمى أرض طيبة تؤدّي لين النخلة من لينها وتنبت جميع النبات، مملوءة جبالاً في كبد السماء متناوحة مُلْس الجوانب، إذا أراد الناظر النظر إلى قلة أحدها فَتَلَ عنقه حتى يراها بشدة، ومنها ما لا يقدر أحد أن يراه ولا يصعده، ولا يكاد القتام يفارقها؛ ولهذا قال النابغة:

فأصبح عاقلاً بجبال حِسمى　　دُقاق التُّرْب محتزم القَتام

واختلف الناس في تفسيره ولم يعلموه، ويكون مسيرة ثلاثة أيام في يومين، يعرفها من رآها من حيث يراها لأنها لا مثل لها في الدنيا؛ ومن جبال حِسْمى جبل يعرف بإرَم، عظيم العلوّ تزعم أهل البادية أن فيه كروماً وصنوبراً؛ وفي حديث أبي هريرة: تُخرجكم الروم منها كَفْراً كَفْراً إلى سُنْبُك من الأرض، قيل له: وما ذلك السنبك؟ قال: حسمى جُذام؛ وقرأت في بعض الكُتُب أن بعض العرب قال: أنّ الله اجتبى ماءَ إرَم والبديعة ونَعْمان وعَلَلانَ بعباده المؤمنين، وهذه المياه كلها بحسمى؛ في كتب السير وأخبار نوح أن حسمى جبل مشرف على حَرّان قرب الجُودي وأن نوحاً نزل منه فبنى حرّان، وهذا بعيد من جهتين: إحداهما أن الجودي بعيد من حرّان بينهما أكثر من عشرة أيام، والثانية أنه لا يُعرف بالجزيرة جبل اسمه حِسْمى » (الحموي: ج 2، ص 258-259).

8- سَلْـعٌ: (معجم البلدان / الحموي: ج 3، ص 236-237)

« سَلْعٌ: بفتح أوّله، وسكون ثانيه؛ السُّلوع: شقوق في الجبال، واحدها سَلْع وسِلْع؛ وقال أبو زياد: الأسلاع طُرُق في الجبال يسمى الواحد منها سَلْعاً، وهو أن يصعد الإنسان في الشِّعْب وهو بين الجبلين يبلغ أعلى الوادي ثم يمضي فيسند[1] في الجبل حتى يطلع فيشرف على واد آخر يفصل بينهما هذا المسند الذي سند فيه ثم ينحدر حينئذ في الوادي الآخر حتى يخرج من الجبل منحدراً في فضاء الأرض فذاك الرأس الذي أشرف من الواديين السلع ولا يعلوه إلا راجل.

وسلْعٌ: جبل بسوق المدينة، قال الأزهري: سلْعٌ: جبل بسوق المدينة، قال الأزهري: سلْعٌ موضع بقرب المدينة. وسلع أيضاً: حصن بوادي موسى ﷺ ، بقرب البيت المقدس، حدث أبو بكر بن دُرَيد عن الثوري عن المعي قال: غَنّتْ حَبّابةُ جارية يزيد بن عبدالملك وكانت من أحسن الناس وجهاً ومسموعاً وكان شديد الكلف بها وكان منشؤها المدينة:

لعمـرك إنـي لأحِـبُّ سَـلْعاً ... لرؤيـته ومـن أكـناف سَـلْعِ
تقـرُّ بقـربه عيني،وإنـي ... لأخشـى أن يكـون يريد فجعي
حـلفتُ بـرب مكّـة والمصـلّى ... وأيـدي السـابحات غـداة جمـع
لأنـتِ عـلى التـنائي، فاعـلميه، ... أحـبُّ إليّ من بصري وسمعي

والشعر لقيس بن ذريح، ثم تنفّست الصُّعَدَاء، فقال لها: لم تتنفسين؟ والله لو أردته لقلعته إليك حجراً حجراً، فقالت: وما أصنع به إنما أردتُ ساكنيه؛

---

(1) السَّنَدْ هنا معنا صعود الجبال المرتفعة، وتسمى زاوية الجبل أو الأرض الوعرة بـ: السَّنَدَة، ويقولون للشخص الذي يسير هذا المرتفع: المْسَنِّدْ al-msannid ، ومعنى يَسَنّدْ في الجبل: أي يسير في الجانب الوعر صاعداً نحو قمّته.

وقال ابن السلماني: وكان إبراهيم بن عربي والي اليمامة قُبض عليه وحُمل إلى المدينة مأسوراً فلما مرّ بسَلْع قال:

لعَمْـرك إنـي يـوم سَـلْعٍ للائِـمٌ ... لنفسي، ولكـن مـا يـردّ التلوّمُ؟
أأمكَـنتُ مـن نفسـي عدُوّي ضَلّةً ... لَهفـاً عـلى ما فاتَ لو كنتُ أعلمُ
لـو أنّ صُـدورَ الأمرِ يبدون للفتى ... كأعقابــه لم تُــلْفِهِ يتَــنَدّمُ
لعمـري لقد كانتْ فجاجٌ عريضة، ... وليـلٌ سُـخاميٌّ الجناحين مظـلمُ
إذ الأرض لم تجهـل علـيّ فروجُها ... وإذ لِـيَ مــن دارِ المذلّـةِ مَــرْغَمُ

وسَلْعٌ: جبل في ديار هُذيل؛ قال البُرَيْق الهذلي:

سـقى الـرحمن حَـزومَ يُـنابعات ... مــن الجــوزاء أنــواءً غــزارًا
بمرْتجــز كــأنّ عــلى ذراهُ ... ركـابَ الشـامِ يحمـلنَ الـبهارًا
يحـطّ العُصْـمَ مـن أكنافِ شِعرٍ، ... ولم يـترك بـذي سـلع حِمـارًا

سِلْعٌ: بكسر أوّله، وسكون ثانيه، يقال: هذا سِلْعُ هذا ومثله وشَرْواه؛ والسِّلْعُ والسُّلْعُ: شقٌّ في الجبل؛ وسِلْعُ مَوْشُوم: واد في ديار باهلة. وسلعُ الكَلَدِيّة: لباهلة أيأ جبل أو واد. وسلع السُّتْر: موضع في ديار بني أسد؛ كله عن نصر.

سَلَعٌ: بالتحريك، وهو شجر مُرّ، كانت العرب في الجاهلية تعمد إلى حطب جر السَّلَع والعُشَر في المجاعات وقُحُوط القطر (أي المطر) فتوقر (أي تُحَمِّل) ظهور البقر منهما ثم تُضرمه ناراً وتسوقُها في المواضع العالية يستمطرون بلهب النار المشبه بسنا البرق؛ وإياه عنى أُميّة بن أبي الصلت حيث قال:

سَــلَعٌ مــا ومثــلُه عُشَــرٌ مــا ... عــائلٌ مــا وعــالت الـبَيْقُورَا

ما زائدة فيه كله. وذو سَلَع: موضع بين نجد والحجاز؛ وقال أبو دؤاد الإيادي:

وغَيْثٌ تُوَسّنَ منه الرّيا ح جَوْناً عشاء وجَوْناً ثقالا
إذا كَرْكَرَتْهُ رياحُ الجنو ب القَحْنَ منه عجافاً حِيالا
فحلّ بذي سَلَمٍ بَرْكُه تخالُ البوارقَ فيه الذُّبالا »

(الحموي: ج 3، ص 237)

9- وادي موسى : (القزويني: ص 219)

« في قبلي بيت المقدس، وادٍ طيب كثير الزيتون. نزل به موسى، ﷺ ، وعلم بقرب أجله فعمد إلى الحجر الذي يتفجر منه اثنتا عشرة عيناً، سمّره في جبل هناك فخرجت منه اثنتا عشر عيناً، وتفرّقت إلى اثنتي عشرة قرية، كل قرية لسبط من الأسباط، ثم قبض موسى ﷺ ، وبقي الحجر هناك، وذكر القاضي أبو الحسن عليّ بن يوسف أنه رأى الحجر هناك، وأنه في حجم راس عنز، وأنه ليس في جميع ذلك الجبر حجر يشبهه » (القزويني: ص 279).

-77-

جبل الثلج[1]

(صبح الأعشى / القلقشندي: ج 4، ص 85)

« جبل الثّلْج: بالثاء المثلثة والجيم، وما يتصل به. قال في (تقويم البلدان): والطرف الجنوبي لهذا الجبل بالقرب من صَفَدَ. قال في (رسم المعمور) حيث الطولُ

---

(1) جبل الثلج هو: جبل الشيخ وسمي كذلك لوقاره وبياضه الذي يشبه بياض شعر الشيخ الجليل إذا غطى رأسه ووجهه؛ ويسمى جبل الحسْن وذلك لحسنه وجماله وما يسببه من حُسْن المناخ والطقس في المناطق المجاورة في شمال الأردن وحوران وغربي دمشق وهو جبل الثلج لأنه مغطى بالثلج على الدوام. ونجد القلقشندي يتحدث عن سلسلة الجبال كاملة، بحيث جعل جبل الشيخ / الثلج هو شاخص الانطلاق، ومنه تمتد السلسلة حتى قاسيون شرقاً ثم غرباً إلى جبال لبنان حتى إنطاكية، مسمياً في كل محطة اسم الجبل حسبما هو في النص.

تسع وخمسون درجة وخمس وأربعون دقيقة، والعرضُ اثنتان وثلاثون درجة. قال: في (تقويم البلدان): ثم يمتد إلى الشمال ويتجاوز دمشق. فإذا صار في شماليّها، سمي جبل (سَنِير) ويسمى جانبه المطل على دمشق جبل (قاسِيُون) ويتجاوز دمشق ويمرّ غربيّ بعَلَبَك، ويسمى الجبل المقابل لبَعْلَبَك جبل (لِبْنانَ) بلام مكسورة وباء موحدة ساكنة ونون مفتوحة بعدها ألف ونون ثانية – وإذا تجاوز بعلبك وصار شرقيّ طرابلس سمي جبل (عَكّار) بعين مهملة مفتوحة وكاف مشددة وراء مهملة في الآخر – إضافة إلى حصن بأعلاه يسمى عَكّارَ، ثم يمر شمالاً ويتجاوز طرابلس إلى حِصْنِ الأكراد من عمل طرابلس، ويسامت حمص من غربيّها على مسيرة يوم ويمتد حتى يجاوز سَمْتَ حماة، ثم سَمْتَ شيْزَر، ثم سمت أفامِيَةَ، ويسمى قبالة هذه البلاد جبال (اللُّكامِ) بضم اللام. قال في «رسم المعمور».

وجبل اللُّكَامِ يمتد إلى أن يصير بينه وبين جبل شَحْشَبُو، اتساعه نصف يوم حتى يتجاوز صَهْيُون والشُّغْرَ ويكَاسَ والقُصَيْر؛ وينتهي إلى إنطاكية فينقطع هناك ويصير قُبالَة جبال الأرْمَن » (القلقشندي: ج 4، ص 85).

« قال في (تقويم البلدان): ويقابل جبل اللُّكام المذكور عند مسامتته لأفَامِيَةَ المتقدمة الذكر جبل آخر من شرقيّه، يسمى جبل (شَحْشَبُو) بشين معجمة مفتوحة وحاء مهملة ساكنة وشين ثانية مفتوحة بعدها باء موحدة مضمومة ثم واو – إضافة إلى قرية هناك تسمى بذلك، ويمر من الجنوب إلى الشمال على غربيّ المَعَرّة وسَرْمينَ وحَلَب، ثم يأخذ غربً ويتصل بجبال الروم.

ومنها – (جبال عامِلَةَ) [1] وهو جبل ممتد في شرقيّ ساحل بحر الروم وجنوبيّه، حتى يقرب من مدينة صور، وعليه شقيف أرنون، نزله بنو عاملة بن سبإٍ من عرب اليمن عند تفرّقهم بسَيْلِ العَرِمِ فعُرف بهم.

---

(1) جبل عاملة سُمّي كذلك نسبةً إلى بني عاملة، وهي قبيلة يمنية سبائية، اتخذت الأردن مقراً لها بعد خروجه من اليمن، وكانت من أهم وأقوى القبائل الأردنية قبل وأثناء الفتح الإسلامي، =

ومنها – (جبل عَوْف) وهو جبل بالقرب من عَجْلون، كان ينزله قوم من بني عوف من جَرْم قُضاعة فيُعرف بهم، وكانوا عُصاةً لا يدخلون تحت طاعة حتى بنى عليهم أسامة أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب قلعة عجلون فدخلوا تحت الطاعة على ما سيأتي ذكره

ومنها – (جبل الصَّلْت) إضافة إلى مدينة الصَّلْت الآتي ذكرها في أعمال دمشق، وهو جبل في شرقيّ جبل عَوْف وشماليّه، كان أهله عصاةً حتى بنى عليهم المُعظّم عيسى بن العادل حصن الصَّلْت فدخلوا في الطاعة » (القلقشندي: ج 4، ص 86).

-78-

ذو الشـرى

(الموسوعة الإسلامية: ج 9، ص 395-396)

« ذو الشرى: إله عربي قديم، تقول الروايات العربية إنه كان إلهاً (لدوس ذا حمى) به فجوة يسيل فيها الماء الهابط من الصخور وهذا يتفق وما نعرفه من وجود اسم عبد ذي الشرى بين هذه القبيلة. ويقول الكلبي (طبعة فستنفلد، ص 10، س 24) أيضاً إن هذا الإله كانت تعبده عشيرة بني الحارث. (انظر كذلك Lane مادة « ذو الشرى » وهو يقول إن عبادة هذا الإله كانت في السراة، ونحن نصادف ذا الشرى (دسارس) في أسانيد أقرب إلى التاريخ باعتباره كبير آلهة

= وقد تحرك جزء منهم مع الفتح ونزل الجبل المسمى باسمهم والذي كان جزءاً من الأردن في تلك الأيام، وبذلك انتقلوا من مكان إلى آخر داخل بلاد الأردن في عرفهم آنذاك وهو جبل بالقرب من صور ينتهي إلى البحر المتوسط. ونجد أن كلمة أرنون التي أطلقت (بضم الألف) على شقيق لتسمى: شقيق أرنون، مطابقة لوادي أرنون الأردني وهو الموجب الفاصل بين منطقة الكرك وذيبان وهنا نجد تكرار التسمية: بني عاملة وأرنون وأعطيت هذه الأسماء الأردنية من جنوب الأردن إلى مواقع أردنية في شمال الأردن في عُرف ذلك العصر البعيد.

النبطيين، ذلك أن اسمه يتردد كثيراً في كتابات هؤلاء القوم التي عُثر عليها في بطرة (البتراء)، وهي الأرض التي تمتد من الأردن إلى الحجر. وكان حرمه الأكبر في بطرة حيث كرس باسمه حجر كبير أسود مربع غير منحوت أقيم في معبد فخم. ولهذا الإله معبد هام آخر في سوادة عُرف بديونيزاياس نسبة إليه. وكانت تقام له الشعائر بسوادة في أغسطس، وهذا يتفق بلا شك والحقيقة التي تقول إنه هو ديونيزوس نفسه إله الإخصاب أو إله الخمر بصفة خاصة. وعلى أن أبيفانوس يذكر أن عبده يقام في بطرة وألوسة في الخامس والعشرين من ديسمبر، وهو اليوم الذي « تعبد فيه العذراء المسماة بالعربية ...... ويعبد في دسارس الابن الذي ولدته ...... بترانيم عربية ». ولكننا لا نستطيع أن نعرف مبلغ هذا القول من الحقيقة، بل إن معنى كلمة ...... مشكوك فيه أيضاً، وهو بطبيعة الحال يذكرنا بالكلمة العربية « كعاب » أي الفتاة الناهد. ولكن من الممكن أيضاً أن نربط بينه وبين كلمة كعب (انظر الكعبة في مكة).

وهذا التفسير هو مرجع الاعتقاد بأن هذا الإله نبت من الصخر[1].

وتدل الصيغة المركبة « ذي الشرى » على أنها ليست اسماً حقيقياً وإنما هي صفة لإله لا نزال نجهل اسمه الحقيقي وطبيعته الأصلية لقلة المصادر التي

(1) يبدو أن فكرة خروج الإله من الصخر عند الأنباط وقبائل الشراة (جنوب الأردن) مأخوذ أصلاً من خروج ناقة سيدنا صالح عليه السلام من الصخر، لتكون معجزة لقومه ثمود الذي عقروها فأهلكهم الله، كتب النجاة للمؤمنين مع سيدنا صالح. وإذ عرفنا أن جبال الشراة هي الامتداد الطبيعي لمنطقة مدائن صالح، وأن العشائر التي نجت من العذاب قد تحركت باتجاه الأردن، تخيّلنا كيف نقل هؤلاء معهم ما كان من أمر ظهور الناقة وعقرها وما حلّ بقومهم من الغضب والانتقام الإلهي «لذا نجد أن الإله» أو الشرى له علاقة بالصخر والماء، ذلك أن ناقة سيدنا صالح التي خرجت من الصخر كان لها شرب يوم وكان لبقية القوم شرب يوم كامل. أي كانت تشاطرهم الماء مناصفةً. ونحن نعرف أن الأنباط هم أكثر قوم اهتموا بالماء، وصارت لديهم فلسفة وهندسة وأساليب لجرّ الماء والاحتفاظ بكل نقطة تنزل على الصخور الصماء لتصبح ناقطة بالماء الذي جعل الله منه كل شيء.

بين أيدينا. أما القول بأنه كان إله الشمس الذي عبده النبط (إسترابون، ج 16، ص 4، س 26) فليس إلا احتمالاً من الاحتمالات. ولا شك في أنه إنما اكتسب صفته الديونيزية في بلد متحضر، ومن المهم في هذا الصدد أن نلاحظ أن كاتباً من الكُتّاب المتقدمين جداً مثل هيرودوتس (ج 3، 5، 8) يجعل الإله العربي أرُتل هو نفس الإله ديونيزوس.

ويحق لنا أن نتساءل عما إذا كان الإله الذي يحمل هذا اللقب هو الإله نفسه وإن تعددت البلاد التي عُبد فيها. ويتوقف جواب هذا السؤال على معنى هذا اللقب، وفي هذه الحالة تعرض لنا حلول كثيرة محتملة بحيث يتعذر علينا أن نجزم في هذا الشأن بقول حاسم. ويسوق لنا علماء اللغة المعاني الآتية للفظ يوردون مثالاً للمعنى الأول « شراء (أشراء) الحرم »، ومن ثم فإنه يجوز لنا أن نفسر اللفظ بأنه يدل على مالك مثل هذه الناحية، ويمكن بطبيعة الحال أن ينطبق هذا الاسم على آلهة شتى. على أن الكلمة ترد أيضاً علماً على مكان سواء ألحقت بها أداة التعريف أم لم تُلحق (انظر استيفانوس البوزنطي، ص 237).

ويقول الجغرافيون إنه أطلق من بين أسماء أماكن أخرى على تل في منازل طيء، على مكان بالقرب من مكة يستفاد من ديوان الهذليين (طبعة فلهاوزن، ص76، س19) أنه كان به مورد ماء وغزلان. وتردد ذكر مكان يعرف بالشرى كثيراً ما يلقى المرء فيه عدداً كبيراً من السباع (مثل الكامل، طبعة رايت، ص33، س22 ؛ ص154، س3؛ ص56، س4). ويمكن على الأرجح أن نقول إن المكان القريب من مكة هو نفس ذو الشرى القائم عند بني دوس (المكتبة الجغرافية العربية، ج7، ص316) وأقرب من هذا إلى الحقيقة أن نصل إله النبط بناحية الشرى (الشراة) التي تنطبق في الواقع على موقع المدينة القديمة إيدوم (أي أدوم – بصيرا)، على أن ثمة شيئاً من المجازفة في القول بأن الشرى هو الشراة من غير بحث دقيق لهذه المسألة، بالرغم من الرأي الذي ذهب إليه لاجارد وقرن فيه بينهما.

ويجب علينا أن نذكر أخيراً رأي إدوارد ماير الذي يقول بأن اسم الإله «شِرْحِت» التي تبدو في كتابات بصرى قد نشأت من كلمة الشرى التي كانت في الأصل اسم مكان أو اسم صنم (وهذا يماثل ما حدث قديماً بالنسبة لزوجة إبراهيم فقد كان اسمها سرج ثم أصبح ساراً) وهو يظن أيضاً أن من الممكن أن يكون الشرى كأسماء الأماكن التي كان يعبد فيها هذا الإله مشتقاً من الاسم ذي الشرى » (الموسوعة الإسلامية: ج 9، ص 395-396).

المصادر:

1- ابن هشام، طبعة فستنفلد، ص 253.
2- البكري Geogr, Worterbuch ، ص 805 وما بعدها.
3- ياقوت: المعجم، ج 3، ص 268 وما بعدها.
4- Lane ، تحت هذه المادة.
5- Mordtmann في Zuitschr. D. Deutsch. Morgenl. Gesellsch ، ج 29، ص 99-106.
6- Noldeke: Zuitschr. Deutsch. Morgenl. Gesellsch ، ج 41، ص 711 وما بعدها.
7- Wellhausen: Reste Arab. Heidentums ، ص 48-51.
8- Baethgen: Beitrage zur Semit. Religionsgesch ، ص 92-97.
9- Lagrange Etudes sur les Religions Semitiques ، الطبعة الثانية، ص 184، 188 وما بعدها، ص 507.
10- Lagarde: Ubersicht. Uber die Nominalbidung ، ص 92 وما بعدها.
11- Domaszewski: Brunnow & Die Provincia Arabia ، ج 1، ص 188 وما بعدها.
12- E. Meyer: Die Israeliten und ihre Nachbarstamme ، ص 267-271.

-79-

الجبـال[1]

(الموسوعة الإسلامية: ج 6، ص 269)

«جبال: جمع جبل وهو اسم أطلقه العرب على العراق العجمي وهو ميدية القديمة. وتضم الجبال «ماه» (مادة، ميدية: Noldeke: Gesch der Araber etc. ص103،

(1) رأينا نشر مادة جبال في الموسوعة الإسلامية، تذكر هنا عدة مواقع تسمى بهذا الاسم، وقد ذكرت الموسوعة مجموعة كبيرة من هذه المواقع، ثم تحدثت عن جبال الأردن في جنوب الأردن.

تعليق 1 متبعاً في ذلك Oishausen و Lagarde) الكوفة والبصرة (الاصطخري، ص 159؛ ابن حوقل، ص 255) وبعبارة أخرى الولاية التي تُحدُّ من ناحية الشرق بصحراء خراسان وفارس ومن الغرب بأذربيجان ومن الشمال بسلسلة جبال البرز ومن الجنوب بالعراق العربي وخوزستان. وسميت بهذا الاسم لأنها جبال كلها فيما عدا السهل الممتد من همذان إلى الريّ (بالقرب من طهران)، والسهل الممتد نحو قم، وليس فيها نهر صالح للملاحة. وهناك مناجم من الأثمد في اصفهان (الاصطخري، ص203؛ ابن حوقل، ص 267) والمناخ بارد على العموم، ويكثر الجليد شتاء. وعبارة Senior Senex, Vetulus de Monte، التي أطلقها مؤرخو القرون الوسطى على شيخ الحشاشين، ترجمة حرفية مضللة للكلمة « شيخ الجبال » التي تدل في الواقع على (شيخ « الإسماعيلية » في بلاد الجبال) وكانت قصبته قلعة ألموت بالقرب من قزوين.

المصادر:

1- ياقوت: المعجم، ج 2، ص 15 (Dict. De la Perse Barbier de Moynard ص 151).
2- A.F. Mehren: Manuel de la Cosmographie ، ص 248.
3- المقدسي، (طبعة de Goeje) ص 384.
4- G. Le Strange: The Lands of thc East ern Caliphate ، ص 185 وما بعدها.

[Cl. Huart هيوار]

« الجبال: اسم ناحية في أقصى الجنوب من بلاد الشام في النجاد شرقيّ عربة (انظر هذه المادة) بين سيل القراحى في الشمال ووادي « أبو الحمام » في الجنوب (انظر Nusil: Arabia Petraea ، المجلد الثاني، ج 1، ص 1). وقد ورد الاسم لأول مرة بالصيغة ..... في المزمور الثالث والثمانين، الفقرة الثامنة. واستعملت الكلمة اليونانية ...... استعمالاً غامضاً جداً في بعض الأحيان. وقد أطلق جغرافيو العرب القدامى اسم الجبال والشرى على ناحية بجند دمشق (اليعقوبي،

طبعة ده غوى، ص 114) أو جند فلسطين (الاصطخري، ص 58؛ ابن حوقل، ص 113) في حين يقول اليعقوبي إن عاصمتها غرندل وهي أرندله Arindela القديمة، ويقول الاصطخري إن عاصمتها رواث[1] (انظر Musil المصدر السابق، المجلد الثاني، ج 2، ص 240) ومن الجليّ أنها ربثه القديمة » (الموسوعة الإسلامية: ج 6، ص 269).

-80-

الأردن في رحلة ابن جبير

1- الحرب واتفاق النصارى والمسلمين : (رحلة ابن جبير/ ابن جبير: ص 260-261)

« ومن أعجب ما يُحدَّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان ويقع المُصافّ بينهم وفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم. شاهدنا في هذا الوقت، الذي هو شهر جمادى الأولى، من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكَرَك، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشفّ[2] قليلاً، وهو سَرارة[3] أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة، يُذكر أنه ينتهي إلى أربع مئة قرية. فنازله هذا السلطان وضيّق عليه وطال حصاره.

---

(1) والحقيقة أن رواث وغرندل/ عَرَنْدَل/ أرنديلا/ أرندله متجاورتان، وتقعان في نفس المنطقة، وتبعد غرندل عن رواث حوالي أربعة كيلومترات إلى الشرق. وتقع رواث غربي غرندل وكلاهما من اراضي محافظة الطفيلة إلى الجنوب من مدينة الطفيلة نفسها. وفي رأينا أن كلمة رواث التي وردت على أنها عاصمة الجبال هي المدينة التي كانت تمتد من نبع عين غرندل حتى رواث وتمتد على طرفي الوادي على مدى أربعة كيلومترات وتشكل رواث الحي الغربي منها، وغرندل الحي الشرقي منها ؟؟؟ لا فرق بينهما، والله أعلم.

(2) أشف: أكثر.

(3) سرارة الشيء: أطيبه.

واختلاف القوافل من مصر إلى عكّة كذلك. وتُجّار النصارى أيضاً لا يُمنع أحد منهم ولا يُعترض. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الأَمَنَة[1] على غاية. وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سِلَعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب » (ابن جبير: ص 260).

«هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك. ولا تُعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً. وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يُستوفى الحديث عنه، والله يُعلي كلمة الإسلام بمَنّه» (ابن جبير: ص 261).

2- حسن سيرة السلطان : (رحلة ابن جبير / ابن جبير: ص **270-271**)

وقد تقدم الذكر أيضاً في غير موضع من هذا الكتاب عن حسن سيرة السلطان بهذه الجهات: صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب، وما له من المآثر المأثورة في الدنيا والدين، ومثابرته على جهاد أعداء الله، لأنه ليس أمام هذه البلدة بلدة للإسلام، والشام أكثره بيد الإفرنج، فسبّب الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه الجهات، فهو لا يأوي لراحة، ولا يخلد إلى دَعَة، ولا يزال سرجه مُجْلَسةً؛ إنا بهذه البلدة نازلون منذ شهرين اثنين وحللناها وقد خرج لمنازلة حصن الكرك، وقد تقدّم الذكر أيضاً له، وهو عليه مُحاصِرٌ حتى الآن، والله تعالى يعينه على فتحه.

وسمعنا أحد فقهاء هذه البلدة وزعمائها المسلمين بسُدّة[2] هذا السلطان والحاضرين مجلسه يذكر عنه في حَضْرَة محفل علماء البلد وفقهائه ثلاث مناقب

---

(1) الأمنة: الأمن والاطمئنان.

(2) السدة: باب الدار ومدخلها.

في ثلاث كلمات حكاها عنه رأينا إثباتها هنا: إحداها أن الحلم من سجاياه، فقال، وقد صفح عن جريرة أحد الجُناة عليه: أما أنا فلأن أخطئ في العفو أحبَّ إليّ من أن أصيب في العقوبة. وهذا في الحلم مَنْزَع أحْنَفي[1]. وقال أيضاً، وقد تُنوشِدَت بحضرته الشعار وجرى ذكر من سلف من أكارم الملوك وأجوادهم: والله لو وهبت الدنيا للقاصد الآمل لما كنت أستكثرها له، ولو استفرغت له جميع ما في خزانتي لما كان عوضاً مما أراقه من حُرّ وجهه في استمناحه إياي. وهذا في الكرم مذهب رشيدي أو جعفري[2].

وحضره أحد مماليكه المتميزين لديه بالحظوة والأثرة مستعدياً على جمّال ذكر أنه باعه جملاً معيباً أو صرف عليه[3] جملاً بعيب لم يكن فيه، فقال السلطان له: ما عسى أن أصنع لك، وللمسلمين قاضٍ يحكم بينهم، والحقّ الشرعيّ مبسوط للخاصة والعامة، وأوامره ونواهيه ممتثلة، وإنما أنا عبد الشرع وشِحْنَته، والشُحنة عندهم صاحب الشرطة، فالحقّ يقضي لك أو عليك. وهذا في العقد مقصد عُمَري[4]. وهذه كلمات كفى بها لهذا السلطان فخراً، والله يمتّع ببقائه الإسلام والمسلمين بمنّه » (ابن جبير: ص 270-271).

شهر جمادى الآخرة، عرّفنا الله بركته

«استهلّ هلالُه ليلة الحد التاسع من شهر شتنبر[5] العجمي ونحن بدمشق، حرسها الله، على قدم الرحلة[6] إلى عكّة، فتحها الله، والتماس ركوب البحر مع

---

(1) الأحنفي نسبة إلى الأحنف بن قيس، الذي اشتهر بالحلم.

(2) رشيدي: نسبة إلى هارون الرشيد. جعفري: نسبة إلى جعفر المتوكل أو إلى جعفر البرمكي.

(3) صرف عليه: باعه.

(4) عمري: نسبة إلى عمر بن الخطاب.

(5) شتنبر: أيلول.

(6) على قدم الرحلة أي متأهبون لها.

تجار النصارى وفي مراكبهم المعدّة لسفر الخريف المعروف عندهم بالصليبية، عرّفنا الله في ذلك معهود خيرته. وتكَفَّلَنا بكلاءته وعِصْمَتِهُ، بعزّته وقدرته، إنه سبحانه الحنّان المنّان، وَلِيُّ الطَّوْل والإحسان، لا ربّ غيره، وكان انفصالنا منها عشيّ يوم الخميس الخامس من الشهر المذكور، وهو الثالث عشر من شهر شتنبر المذكور، في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع إلى عكة.

3- من أعجب الأحاديث:

ومن أعجب ما يُحدّث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسَبْيَهم يدخل إلى بلاد المسلمين؛ شاهدنا من ذلك عند خروجنا أمراً عجيباً، وذلك أن صلاح الدين عند منازلته حصن الكرك، المتقدم الذكر في هذا التاريخ، قصد إليه الإفرنج في جميعهم، وقد تألّبوا من كل أوب وراموا أن يسبقوه إلى موضع الماء ويقطعوا عنه الميرة من بلاد المسلمين. فصمد لهم وأقلع عن الحصن بجملته وسبقهم إلى موضع الماء. فحادوا عن طريقه وسلكوا طريقاً وعراً ذهب فيه أكثر دوابّهم، وتوجهوا إلى حصن الكرك المذكور، وقد سدّ عليهم بنيّات الطرق القاصدة على بلادهم ولم يبق لهم إلا طريق الحصن يأخذ على الصحراء ويبعد مداه عليهم بتحليق[1] يعترض فيه. فاهتبل[2] صلاح الدين في بلادهم الغِرّة وانتهز الفرصة وقصد قصدها عن الطريق القاصدة، فدهم مدينة نابُلُوس وهجمها بعسكره فاستولى عليها وسبى كل من فيها وأخذ إليها حصوناً وضياعاً.

وامتلأت أيدي المسلمين سَبْياً لا يحصى عدده من الإفرنج، ومن فرقة من اليهود تعرف بالسُّمَرَة منسوبة إلى السامريّ. وانبسط فيهم القتل الذريع،

(1) التحليق: السير في طريق دائري.

(2) اهتبل: اغتنم.

وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها، إلى ما اكتفت[1] من الأمتعة والذخائر والأسباب والأثاث، إلى النّعم والكُرّاع[2]، إلى غير ذلك. وكان من فعل هذا السلطان الموفق أن أطلق أيدي المسلمين على جميع ما احتازته، وسلّم لهم ذلك، فاحتازت كل يد ما حوَتْ وامتلأت غنىً ويساراً. وعفّى الجيش على رسوم تلك الجهات التي مرّ عليها من بلاد الفرنج. وآبوا غانمين فائزين بالسلامة والغنيمة والإياب، وخَلّصوا من أسرى المسلمين عدداً كثيراً، وكانت غزوة لم يسمع مثلها في البلاد.

وخرجنا نحن من دمشق وأوائل المسلمين قد طرقوا بالغنائم كلٌّ بما احتواه وحصلت يده عليه، وكان مبلغ السبي آلافاً لم نتحقق إحصاءها. ولحق السلطان حالة ترفيه، نعوذ بالله من الفتنة، وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلّة عن أوان ضمّها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً. ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل، رساتيقهم كلها للمسلمين، وهي القرى والضياع، وقد أُشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعُمّالهم، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق. وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين: أن يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له، ويحمده سرية ضدّه وعدوّه المالك له من الإفرنج، ويأنس بعدله[3]، فإلى الله المُشتكى من هذه

---

(1) اكتفت: أخذ.

(2) الكراع: الخيل والبغال والحمير.

(3) يقول ابن جبير هنا، أن القرى والمزارع المسلمة وأهلها من المسلمين الذين تحت الحكم الإسلامي أكثر تقشّفاً، وأكثر فقراً وظلماً من الحكام المسلمين لما يدفعه المواطنون من الضرائب العالية، وذلك على عكس ما عليه المسلمون الذين تحت الحكم الصليبي من الترفيه والحياة الهانئة. وبذلك نجد من الفتنة أن يجد المسلم الظلم على يد أخيه المسلم، والعدل على يد عدوّه الصليبي.

الحال، وحسبُنا تعزية وتسلية ما جاء في الكتاب العزيز: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ ﴾ [الأعراف: 155].

فنزلنا يوم الاثنين المذكور بضيعة من ضياع عكة، على مقدار فرسخ، ورئيسها الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الإفرنج على من فيها من عُمّارها من المسلمين. فأضاف جميع أهل القافلة ضيافةً حفيلة (حافلة) وأحضرهم صغيراً وكبيراً في غرفة متّسعة بمنزله وأنالهم ألواناً من الطعام قدّمها لهم، فعمّهم بتكرمته. وكنا فيمن حضر هذه الدعوة.

وبتنا تلك الليلة وصبحنا يوم الثلاثاء العاشر من الشهر المذكور، وهو الثامن عشر لشتنبر، مدينة عكة، دمّرها الله، وحُمِلنا إلى الديوان، وهو خان مُعدّ لنزول القافلة، وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كُتّاب الديوان من النصارى بمحابر الأبنوس المذهبة الحلى، وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها، ورئيسهم صاحب الديون والضامن له يعرف بالصاحب، لقب وقع عليه لمكانه من الخُطّة، وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند، وكل ما يجبى عندهم راجع إلى الضمان، وضمان هذا الديوان بمال عظيم. فأنزل التجار رحالهم به ونزلوا في أعلاه، وطُلب رَحْل من لا سلعة له لئلا يحتوي على سلعة مخبوءة فيه وأطلق سبيله فنزل حيث شاء. وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل. فنزلنا بها في بيت اكتريناه من نصرانية بإزاء البحر، وسألنا الله تعالى حسن الخلاص وتيسير السلامة » (ابن جبير: ص 271-276).

-81-

1- الكـرك : (معجم البلدان / الحموي: ج 4، ص 453)

« كَرَكُ: بفتح أوله وثانيه، وكاف أخرى، كلمة عجمية: اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القُلزُم وبيت

المقدس وهي على سن جبل عال تحيط بها أودية من جهة الربض؛ قال: واكرك أيضاً قرية كبيرة قرب بعلبك بها قبر طويل يزعم أهل تلك النواحي أنه قبر نوح ﷺ » (الحموي: ج 4، ص 453).

2- الكَـرَك : (نخبة الدهر / الدمشقي: ص **213**)

« القسم السابع مملكة الكرك وهو حصن منيع عال على قبّة جبل خندقة أودية بعيدة السفل يقال أنه كان ديراً للروم فبني حصناً ومن جنده. الشوبك: حصن [مدينة خصبة ولها فواكه كثيرة وعيون غزيرة] ومعان: مدينة صغيرة على سيف البريّة عَمَّرَها طائفة من بني أمية وسكنوها ثم ذهبوا وهي اليوم منزلة للحجاج [يقام به سوق في غدوّهم ورواحهم] وإقليم الجبال ومدينة الشراة ومدينة مآب على اثني عشر ميلاً منها قرية مؤتة ومن جند الكرك اللجون والحسا والأزرق والسلط ووادي موسى ووادي بني غير وجبل الضباب وجبل بني مهديّ وقلعة السلع وأرض مَدْيَن وأرض القُلْزُم وأرض الريّان وبالغور الزرقا والأزرق والجفار والتيه وزغر [وهي مدينة الغور ومعها السافية (غور الصافي) وبها رطب شبيه بالبرني والأزاد بالعراق ومدينة عمان التي لم تبق إلا دمنتها وعملها وأرض البلقاء] وحصن الكرك خزانة الأتراك ومعقلهم وبه أبداً نائب مأمون عندهم » (الدمشقي: ص 213).

3- الكـرك : (صبح الأعشى / القلقشندي: ج **4**، ص **155-157**)

القاعدة السادسة[(1)] : (من قواعد المملكة الشامية الكرك، وفيها جملتان) الجملة الأولى (في حاضرتها)

« كَرَك: وهي بفتح الكاف والراء المهملة ثم كاف ثانية، والألف واللام في أولها غير لازمتين. وتعرف بكرك الشوبك لمقاربتها لها. قال في (تقويم البلدان):

---

(1) شرحنا ما ورد في هذا النص في الجزء الأول من هذا الكتاب؛ ولا داعي للإعادة.

وهي من البلقاء وهما؛ وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة. قال ابن سعيد: وطولها سبع وخمسون درجة وخمسون دقيقة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة. وقال في (تقويم البلدان): القياس أن طولها سبع وخمسون درجة وخمسون دقيقة،وعرضها إحدى وثلاثون درجة وخمس دقائق. وهي مدينة محدَثة النصارى، فقامت لهم به أسواق ودرّت لهم فيه معايش، وأوَتْ إليه الفرنج فأداروا النصارى، وآلت إلى الفرنج فأدروا أسواره فصارت مدينة عظيمة، ثم بنوا به قلعة حصينة من أجلّ المعاقل وأحصنها وبقي الفرنج مستولين عليه حتى فتحه السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله) على يد أخيه العادل أبي بكر.

قال في (التعريف): وكانوا قد عملوا فيه مراكب ونقلوها إلى بحر الحجاز الشريف لأمور سوّلتها لهم أنفسهم، فأوقع الله تعالى الصلاحية، والهمم العادلية؛ فأُخذوا، وأمر بهم السلطان إلى منىً ونحروا بها على جَمْرة العقبة حيث تُنحر البُدْنُ بها الملمين من يومئذ واتخذها ملوك الإسلام حرزاً، ولأموالهم يستخلفون بها أولادهم ويُعدّونها لمخاوفهم؛ وهو بلد كثيرة وفواكه مفضلة. قال البلاذري في (فتوح البلدان): وكانت مدينة هذه الكورة في القديم الغُرُنْدُل[1].

4- الجملة الثانية : (في نواحيها وأعمالها) (القلقشندي)

قال في (التعريف): وحدّها من القبلة عَقَبة الصوّان؛ وحدّها من الشرق بلاد البلقاء؛ وحدّها من الشمال بحيرة سَدُوم المتقدم ذكرها؛ وحدّها من الغرب تيه بني إسرائي. ولها أربعة أعمال[2].

---

(1) لقد سوّلت للصليبيين أنفسهم بغزو الكعبة المشرفة والمدينة المنورة لتخريبها، ولكن ذلك الأسطول وقع بأيدي المسلمين، فأخذوهم وأمر السلطان صلاح الدين بنحر هؤلاء الجنود الكفرة في منى، حيث تُذبح الأضاحي.

(2) يذكر القلقشندي الكرك هنا: أن لها أربعة أعمال، تشكل الكرك عاصمتها وقصبتها. ومن خلال استعراض الديار التي يذكرها، نجدها واسعة جداً، أولها البرية التي تقع حولها وإلى =

الأول (عمل برّها) المختص ببلادها كما في غيرها من القواعد المتقدمة.

الثاني (عمل الشوبك) بألف ولام لازمتين وفتح الشين المعجمة المشددة وسكون الواو وفتح الباء الموحدة وكاف في الآخر. قال في (تقويم البلدان): وهي من جبل الشراة، وموقعها في الإقليم الثالث). قال ابن سعيد: طولها ست وخمسون درجة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة. وقال في (تقويم البلدان): القياس أن طولها ثمان وخمسون درجة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة. وهي بلدة صغيرة أكثر دخولاً في البر من الكرك، ذات عيون وجداول تجري، وبساتين وأشجار وفواكه مختلفة. قال في(العزيزيّ): ولها قلعة مبنية بالحجر الأبيض على مرتفع ابيضا مُطِلٌ على الغوْر من شرقيه. قال في (تقويم البلدان): وينبع من تحتد أقدام قلعتها عينان: إحداهما عن يمينها والأخرى عن يساره كالعينين للوجه يجريان في وادي الشوبك ومنهما شرب أهلها وبساتينها). قال: وكانت بأيدي الفرنج مع الكرك، وأقطعها السلطان صلاح الدين مع الكرك لأخيه العادل الملك المعظم عيسى، فاعتنى بأمرهما وجلب إلى الشوبك غرائب الأشجار والثمار من دمشق في بساتينها وتدفق أنهارها وتزيد بطيب مائها.

الكرك في (مسالك الأبصار): لها عملين آخرين

مدينة (زُغَر) – بضم الزاي وفتح الغين المعجمتين وفي آخرها راء متصل بالبادية سميت بزُغَرَ بنت لوط ﷺ . قال في (تقويم البلدان): وهي حيث الطول سبع وخمسون درجة وعشر دقائق والعرض ثلاثون درجة وكسر.

= الشرق منها كالبادية وغيرها، وثانيها الشوبك وما حولها حيث كانت الشوبك بلاد خصبة التربة غزيرة المياه، ذات موقع هام تجارياً وعسكرياً وسياسياً. ثم تأتي منطقة الغور وعاصمتها زُغر، ثم معان ما حولها وما يتبعها. وبذلك كانت منطقة الكرك تشمل على جبال الكرك والشراة، وجبال الطفيلة والبادية الجنوبية وغور زُغر ووادي عربة، ومعان ومناطقها.

الرابع – (عمل مُعانَ) بضم الميم[1] وفتح العين المهملة وألف ثم نون. قال ابن حوقل: وهي مدينة صغيرة كان يسكنها بنو أمية ومواليهم. قال في (مسالك الأبصار): وقد خربت هي وعملها ولم يبق بها أحد، وتعرف بمُعان بن لوط ﷺ. قال في (كتاب الأطوال): وهي حيث الطول سبع وخمسون درجة والعرض ثلاثون درجة. قال في (تقويم البلدان). وبينها وبين الشوبك مرحلة القلقشندي صبح الأعشى، ج4، ص155-157.

5- حصن الكرك : (الروض المعطار / الحميري: ص **202-203**)

« حصن الكرك[2]: هو من أعظم حصون النصارى (المقصود الصليبيون في حينه) معترض في طريق الحجاز، وهو من القدس على مسافة يوم أو أقل،

---

(1) ضبطها ياقوت بالفتح ثم قال: « والمحدثون يروونه بالضم».

(2) وقد نقل المؤلف الكلام عن حصن الكرك عن ابن جبير: 287-288، أما حصن الأكراد فإنه غير هذا تماماً، وانظر تعريفاً مفصلاً به في ياقوت (الحصن) والأعلاق الخطيرة (الجزء الخاص بلبنان والأردن وفلسطين). وقد اشتمل هذا النص على عدة نقاط مهمة جداً:

أ- أن منطقة الكرك كانت تتألف من أربعمائة قرية، وذلك يبيِّن أنها كانت أكثر سكان وإعماراً وأكثر عدداً في القرى، مما هي عليه الآن في نهاية القرن العشرين، ومطلع القرن الحادي والعشرين، وهذا يفنِّد أقوال الحاقدين الذين يفترون على الأردن أنه كان بلاداً صحراء جرداء لم يعرف الإعمار والازدهار والاستقرار إلا بعد أن أصبح محطّة للطيور المهاجرة والمقاطيع.

ب- أنه ورغم الحصار الذي أقام السلطان صلاح الدين، إلا أن ذلك لم يؤثر على حركة التجارة والاقتصاد، حيث كل واحد مشغول بمهنته والحياة تسير.

ج- أن القوافل التجارية كانت تتحرك من مصر إلى دمشق عبر البلاد التي يحتلها الفرنجة بشكل غير منقطع، وذلك لحاجة الجميع لهذه القوافل والبضائع، وبالتالي فإنها تساعد المسلم والإفرنجي على الحياة وتحسّن الأوضاع المادية.

د- أن المسلمين كانوا يتحركوا من دمشق إلى عكا، يبيعون ويشترون رغم أن الأولى تحت الحكم الإسلامي، والثانية تحت الاحتلال الإفرنجي الصليبي، وهذا يعني أن الجميع وصل =

وأهله يقطعون على المسلمين الطريق في البر، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة ينتهي إلى أربعمائة قرية، ونازله السلطان صلاح الدين بعساكره وضيّق عليه وطال حصاره له، ومع ذلك فالقوافل تمر من مصر إلى بلاد الإفرنج إلى دمشق غير منقطعة، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك، وثمار النصارى أيضاً لا يُمنَع أحد منهم ولا يتعرض له، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الأمن على غاية، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعتهم والاتفاق بينهم في ذلك والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب، هذه سيرة أهل هذه البلاد في بلادهم [في حربهم و] في الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك » (الحميري: ص 202-203).

6- الكرك : (الروض المعطار / الحميري: ص 493)

« الكرك[1]: حصن مشهور بناحية الشام ومعقل مشهور.

= إلى حالة من التفاهم حول تبادل الإنتاج وفائض الإنتاج والحاجات بين أجزاء الوطن الواحد، بين الجزء المحتل والجزء غير المحتل.

هـ- وبالمقابل نجد أن الثمار التي يتاجر بها النصارى أو التي أنتجتها البلاد الواقعة تحت احتلالهم، تأتي إلى الديار غير المحتلة ولا يعترضها أحد من المسلمين، لأن في ذلك فائدة لهم، وهم يشعرون أنها إنتاج بلادهم وأنها من حقهم، وأن ديارهم ستعود وكذلك كان.

و- أن للنصارى ضرائب على بضائع المسلمين مما يدلل على الاقتصاد كان هو العنصر الأساس عند الصليبيين بسماحهم بتصدير الإنتاج، ومرور البضائع، وورودها إليهم وكذلك يدفع النصارى ضرائب على بضائعهم عند المسلمين. وقد توصلوا إلى ذلك ضمن اتفاق واعتدال في التعامل بعيداً عن الجيوش والحروب.

ز- إن أهل الحروب مشغولون بحربهم، وأما الناس فمشغولون بمعايشهم وحياتهم والحياة مستمرة بين حرب وتجارة والحياة لمن غلب.

(1) قد مرّ الحديث عنها في مادة «حصن الكرك».

وحكي[1] أن السلطان العادل سيف الدين أبا بكر محمد بن أيوب، أخا صلاح الدين، سمعه مسخرة له يقال له خضير يقول في وضوئه: اللهم حاسبني حساباً يسيراً ولا تحاسبني حساباً عسيراً، فقال: يا خوند على أي شيء يحاسبك حساباً يسيراً؟ لو قال لك أين أموال الخلق التي أخذتها؟ قال له: تراها بأمانتها في الكرك ما أخْرَجْتُ منها شيئاً، وكان خزائن أمواله بهذا المعقل» (الحميري: ص 493).

7- الرُبَّــة : (معجم البلدان / الحموي: ج 3، ص 26)

الرُبَّة: بلفظ واحدة الرباب، عين الربة: قرية في طرف الغور بين أرض الأردنّ والبلقاء؛ قال ابن عباس، ﷺ كل ما خرج لوط ﷺ من دياره هارباً ومعه ابنتاه يقال لإحداهما رُبّة وللأخرى زُغَر فماتت الكبرى، وهي ربّة، عند عين فدفنت عندها وسميت العين باسمها عين ربّة وبُنيت عليها فسميت ربّة، وماتت زغر بعين زغر فسميت بها » (الحموي: ج 3، ص 26).

8- شيحان / سيحان : (معجم البلدان / الحموي: ج 3، ص 293-294)

سَيْحان: بفتح أوّله، وسكون ثانيه ثم حاء مهملة، وآخره نوه، فَعْلان من ساح الماء يسيح إذا سال: وهو نهر كبير بالثغر من نواحي المصيصة، وهو نهر أذنة بين إنطاكية والروم يمرّ بأذنة ثم ينفصل عنها لحو ستة أميال فيصب في بحر الروم، وإياه أراد المتنبي في مدح سيف الدولة:

أخـو غـزوات مـا تُغِـبُّ سـيوفُه رقـابُهُمْ إلاَّ وَسَـيْحَانُ جَـامِدُ

يريد أنه لا يترك الغزو إلا في شدة البرد إذا جمد سيحانُ، وهو غير سَيْحون الذي بما وراء انهر ببلاد الهياطلة، في هذه البلاد سَيحان وجَيحان وهناك سَيحون وجَيحون، وذلك كله ذكر في الأخبار. وسيْحان أيضاً: ماء لبني تميم.

(1) وردت هذه الحكاية في نفح الطيب 298:2.

وسيحان: قرية من عمل مآب بالبلقاء يقال بها قبر موسى بن عمران ﷺ وهو على جبل هناك، ونهر بالبصرة يقال له سيحان؛ قال البلاذري: سيحان نهر بالبصرة كان للبرامكة وهم سموه سيحان، وقد سمّت العرب كل ماء جار غير منقطع سيحان؛ قال أعرابي قدم البصرة فكرهها:

هــلِ اللهُ من وادي البصيرة مُخْرِجي ... فأصبحَ لا تبدو لعَيني قُصُورُها
وأصبح قــد جاوَزْتُ سَيحانَ سالماً، ... وأسلمني أسـواقُها وجُسـورُها
ومــربدها المُــدرِي علينــا تُــرابَهُ ... إذا شــحَجَتْ أبْغالُهــا وحميرُهــا
فنضــحي بهــا غُــرْزَ الــرّؤوس كأننا ... أناسِــيُّ موتى نُبْشَ عنها قبورُها

وذا من الضرورة المستعملة كقوله:

لو عُصِرَ منها البان والمسك انعَصَر

وقَدِمَ ابن شَدْقَم البصرة فآذاه قذرُها فقال:

إذا مــا سـقى اللهُ الـبلادَ فـلا سَـقَى ... بــلاداً بهــا ســيحانُ بَــرقاً ولا رَعْـدَا
بــلادٌ تهــبّ الــرّيحُ فيهــا خبيــثةً، ... وتــزداد نَتْــناً حــين تُمطَــرُ أو تُــندى
خليــلَيّ أشـرفْ فـوقَ غـرْفةِ دورهــم ... إلى قصر أوس فانظُرَنْ هل ترى لجدا»

(الحموي: ج 3، ص 293-294)

9- مــآب : (الروض المعطار / الحميري: ص 517)

مآب[1]: بالشام من أرض البلقاء.

قالوا[2]: لما خرج عمرو بن لحي من مكة إلى الشام في بعض أموره فقدم مآب من أرض البلقاء، بها يومئذ العمالي من ولد سام بن نوح رآهم يعبدون

(1) معجم ما استعجم 1169:4، وياقوت (مآب).
(2) السيرة 77:1.

الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها؟ فقالوا: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتُمْطِرُنا ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟ فأعطوه منها صنماً يقال له هبل، فقدم به مكة فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

ولما خرج الناس من مؤتة في البعث الذي وجههم فيه رسول الله ﷺ، فانتهوا إلى معان من أرض الشام بلغهم أن هرقل قد نزل مآب في أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليه أخلاط من العرب، فتهيب الناس، فقال عبدالله بن رواحة أحد أمراء هذا البعث من شعر له:

فــلا وأبــي مــآب لَنَأْتِيَــنْها وإن كـانت بهـا عَـرَبٌ ورومُ

والقصة مشروحة في سيرة ابن إسحاق[1].

ولما خرج[2] أبو عبيدة والمسلمون إلى الشام مروا بوادي القرى، ثم أخذوا على الحجر أرض صالح النبي ﷺ، ثم ذات المنار، ثم على زيزاء، ثم ساروا إلى مآب بمعان[3]، فخرج إليهم الروم، فلم يلبثهم المسلمون من أن هزموهم حتى دخلوا مدينتهم فحاصروهم فيها وصالح أهل مآب عليها فكانت أول مدائن الشام صالح وسار إلى الجابية » (الحميري: ص 517).[4]

(1) السيرة 2:375.
(2) فتوح الأزدي: 23.
(3) فتوح الأزدي: بعمان.
(4) لعل في هذا مغالطة، ذلك أن زيزياء في وسط الأردن وإلى الجنوب من عمان بحوالي ستة وثلاثين كيلومتراً، أما مؤاب فهي في ديار الكرك وتبعد حوالي مائة وخمسين كيلومتراً إلى الجنوب من زيزياء. وأستغرب كيف أن الجيوش صعدت شمالاً إلى زيزياء، ثم عرّجت عائدة جنوباً نحو مؤاب؟! إن هذا أمر يحتاج لمزيد من التحقق. كما أن المسلمين سلكوا طريق ـ

10- مآب : (احسن التقاسيم / المقدسي: ص 178)

«مآب في الجبل الكثيرة القرى واللوز والأعناب قريبة من البادية» (المقدسي: ص178).

11- مآب : (فتوح البلدان / البلاذري: ص 113)

أورد البلاذري ذكر مآب في حديثه عن فتح بصرى في كتابه فتوح البلدان.

« ... قال: وتوجّه أبو عبيدة بن الجراح في جماعة من المسلمين كثيفة من أصحاب الأمراء ضَمّوا إليه فأتى مآب من أرض البلقاء وبها جمع العدو فافتتحها صلحاً على مثل صلح بصرى وقال بعضهم أن فتح مآب قبل فتح بصرى وقال بعضهم أن أبا عبيدة فتح مآب وهو أمير على جميع الشام أيام عمر » (البلاذري: ص 113).

12- مـآب : (معجم ما استعجم / البكري: ج 4، ص 1169)

« مآب: بفتح أوّله وثانيه، بعده ألف وباء معجمة بواحدة؛ موضع بالشام[1]؛ قال البَعيث:

= سَرْغ باعتبارها كانت نبع ماء جارٍ غزير، ثم إلى معان ثم إلى ديار الشوبك فمؤتة، وهم بأي حال من الأحوال لا يمكن أن يمرّوا بزيزاء قبل مرورهم بمؤاب. اللهم إلا إذا سلكوا الصحراء، إلى المارة في البادية الأردنية الشمالية، المشار إليها هنا: ذات منار، ثم انحدروا جنوباً نحو زيزياء ثم على مؤاب، وذلك ضمن خطّة أن الحرب خدعة، وانهم جاءوا العدوّ عن طريق لا يتوقعونه، ومن جهة لا تخطر بباله، حينها تكون الرواية صحيحة، والله أعلم.

(1) عن المحكم لابن سيدة: مآب: اسم موضع من أرض الشام. قال عبدالله بن رواحة:

فـــلا وأبـــي مـــآب لَنَأْتِيـــنّها جنوب الشراة من مآب إلى زغر

وفي شعر شعر حاتم، رواية المرزباني وقد أنشد له:

سقى الله رب الناس سحا وديمة جنوب الشراة من مآب إلى زغر

مآب: تلي أيلة.

حديـــثٌ بإنْـــزَافٍ تُشَـــعَّب لُـــبُّهُ   كُمَيْتٌ سَبَتْها من مَآبَ الدَّوَارِعُ(1)

إنْزاف: سُكْر. أنْزف: أي سَكِر، وأنزَف: نَفِدَ شرابه. وقُرِئ هذا الحرف على الوجهين ولا يُنْزِفون، ولا يُنْزَفون، وانظره في رسم مؤتة بعد هذا » (البكري: ج 4، ص 1169).

13- أيلــة : (المسالك والممالك / ابن خرداذبة: ص **81، 83، 149، 190، 230، 247**)

وهي المدينة المعروفة اليوم باسم العقبة والواقعة في أقصى جنوب الأردن على شاطئ البحر الأحمر.

في ذكر كورة مصر ورد ذكر (أيلة) من ضمنها.

« ... والقُلْزم والطور وأيلة » (ابن خرداذبة: ص 81).

« وكأن أهل المغرب والقِبْط في ملك الروم وطول مصر من الشَجَرَتَيْن اللتين بين رفح والعريش إلى أسْوان وعرضها في برقة إلى أيْلة فهي مسيرة أربعين ليلة في أربعين ليلة » (ابن خرداذبة: ص 83).

وقد وردت (أيْلة) أيضاً في نفس الكتاب في ذكر الطريق في مصر إلى مكة.

« ... ثم إلى الكرسيّ، ثم إلى الحَفَر، ثم إلى منزل، ثم إلى أيْلة، ثم إلى حَقْل.. » (ابن خرداذبة: ص 149).

كما وردت (أيلة) في بند من كتاب الخراج وصنعة الكتبة لأبي الفرج قدامة بن جعفر والذي تضمنه كتاب المسالك والممالك في وصف الطريق من

---

(1) الذوارع: مفردها ذارع، وهو الزق الصغير يسلخ من قبل الذراع. وقيل: هو الزق الكبير المستخدم للماء ونحوه.

مصر إلى مكة حيث يعدد الكاتب المناطق التي يمر بها من يقصد مكة متوجهاً إليها من مصر. فيقول أبو الفرج:

« فأما من مصر إلى مكة منازلها على التوالي على ما نصفه الفسطاط اجب البويب بيدمة منزل ابن مرو، عَجْرود، ارُبَيْبَة، الكرسي، الحصن منزل أيْلَة، شرف البعل، مدين الإغراء... » (ابن خرداذبة: ص 190).

وفي وضع البحار من الأرض المعمورة أورد أبو الفرج ذكر (ايْلة) فهو يقول: «... وخليج آخر يمر بالمدينة المسماة أيلة طوله منذ يبتدأ إلى حيث ينتهي الف وأربعمائة ميل وعند منتهاه في المغرب والموضع المتصل بالبحر الأخضر مائتا ميل ... » (ابن خرداذبة: ص 230).

وفي موضع آخر يقول أبو الفرج:

« .. ومما ينسب إلى أسفل الأرض صان، وأبليل، نتو، اطرابية، الطور، أيلة، فاران، راية، الحجاز، الفرما، نوسا ... » (ابن خرداذبة: ص 247).

-82-

1- أيلـــة : (فتوح البلدان / البلاذري: ص **59**، ص **68**، ص **108**)

وهي المعروفة اليوم باسم العقبة والتي تقع في أقصى جنوب الأردن على خليج سمي باسمها. وقد ورد ذكر أيلة أكثر من مرة في كتاب فتوح البلدان للإمام أبي الحسن البلاذري.

« قالوا لما توجه رسول الله ﷺ إلى تبوك من أرض الشام لغزو من انتهى إليه أنه قد تجمع له من الروم وعامِلَة ولخم وجذام وغيرهم وذلك في سنة 9 من الهجرة لم يلقَ كيداً فأقام بتبوك أياماً فصالحه أهلها على الجزية وأتاه وهو بها يُحنّه بن رُؤْبَة صاحب أيلة فصالحه على أن يجعل له على كل حالم بأرضه في

السنة ديناراً فبلغ ذلك ثلاثمائة دينار واشترط عليهم قرى من مرّ بهم من المسلمين وكتب لهم كتاباً بأن يُحفظوا ويُمنعوا. فحدثني محمد بن سعد قال حدّثنا الواقدي عن خالد بن ربيعة عن طلحة الأيْلي أن عمر بن عبدالعزيز كان لا يزداد من أهل أيْلة على ثلاثمائة دينار شيئاً » (البلاذري: ص 59).

وفي موقع آخر من نفس الكتاب: « ... فكان أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب أهل نجران فيما علمنا وكانوا نصارى ثم أعطى أهل أيل[1] وأذرح وأهل أذرعات الجزية في غزوة تبوك » (البلاذري: ص 68).

وفي موقع آخر:

« ... وأمر أبو بكر ﷺ عمرو بن العاص أن يسلك طريق أيلة عامداً لفلسطين وأمر يزيد أن يسلك طريق تبوك وكتب إلى شرحبيل أن يسلك أيضاً طريق تبوك ... » (البلاذري: ص 108).

---

(1) أيل مدينة أثرية قديمة تقوم عليها قرية حديثة، وتقع في أحضان جبال الشراة، على الطريق الواصل ما بين معان إلى وادي موسى، وهي إلى الأخيرة أقرب. وبها عين ماء جار، كان في السابق نهراً جارياً، وعليه بساتين، ويشكل مورداً للعربان وأصحاب المواشي، وكان مصدر الحياة للمدينة الأثرية التي لم تبق منها إلا علامات ظاهرة من الأطلال، والأجزاء الأوسع مطموسة تحت التراب الذي حملته رياح القرون الخوالي حتى الآن (نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين). وهناك تشابه بين أيل هذه، وآبل الزيت وهي عابل الحالية إلى الجنوب من الطفيلة وهي مدينة أثرية قديمة أيضاً، تقوم عليها قرية حديثة، ويبدو أن الاسميم: أيل الموجودة في محافظة معان ما بين معان والبتراء، وآبل الزيت أو آبل أو عابل، متقاربين، ذلك أنهما كانا ضمن مملكة الأدوميين الأمورية العربية الأردنية. وأما من حيث الطبيعة فهما متشابهان حيث كل منهما في حضن الجبال، وبكل منها نبع ماء، وفي كل منهما مدينة أثرية، وتتشابهان في المناخ لارتفاعهما أيضاً، ولكن أبل تطل على الغرب وأيل تطل على الشرق، الأولى تطل على فلسطين، والثانية تطل على البادية الأردنية وتقترب تسمية ايلة ايضاً من اسمي أيل (في الشراة) وابل (عابل) أو آبل الزيت في جبال الطفيلة وجميعها كانت من المملكة الأمورية العربية الأردنية. وهذا يحتاج إلى متخصص في لهجة الأدوميين ومعنى هذه الكلمات في لغتهم وسيجدها متشابهة في المعنى، لتشابهها في المواقع.

2- أيلـة : (أحسن التقاسيم / المقدسي: ص **178**)

« ويلة: مدينة على طرف شعبة بحر الصين عامرة جليلة ذات نخيل وأسماك فرضة فلسطين وخزانة الحجاز والعامة يسمونها أيلة وأيلة قد خربت. على قرب منها وهي التي قال الله تعالى وأسألها عن القرية التي كانت حاضرة البحر[(1)].

3- أيلـة : (معجم ما استعجم / البكري: ج **1**، ص **216-217**)

« أَيْلة: بفتح أوّله، على وزن فَعْله: مدينة على شاطئ البحر، في مَنْصف ما بين مِصْرَ ومكّة. هذا قول أبي عبيدة، وقد أنشد قوله حسان:

مَـلَكاً مـن جَـبَل الثـلْج إلى   جانـبَيْ أَيْـلَةَ مـن عـبدٍ وحُـرْ

قال: وجبل الثلج بدمشق. يعني عمرو بن هند، وحُجْرَ بن الحارث الكِنْديّ. وقال محمد بن حبيب وقد أنشد قول كُثيِّر:

رأيـتُ وأصـحابي بأيْـلة موهِـناً   وقد غار نجمُ الفَرْقَدِ المتصوّب

أَيْلَة: شُعْبَةٌ من رَضْوَى، وهو جبل ينبع. ويُقوِّى هذا القول ما ذكته في رسم ضاس، فانظره هناك. والذي ذكره أبو عبيدة صحيح لا شك فيه؛ ولكن لا أعلم أيهما عَنَى حسّان. وبتبوك ورد صاحب أيلة على رسول الله ﷺ، واسمه

---

(1) يذكر المقدسي (ت380هـ) أن ويلة والتي يفترض أنها أيلة (العقبة) كانت خزانة الحجاز وفرضة فلسطين، فهي الميناء الذي يشكل المتنفّس لفلسطين، ولكنه لم يذكر انه جزء منها، كما ذكر أنه خزانة الحجاز وهو ليس جزءاً منها. والسبب أنه ميناء أردني تستخدمه فلسطين والحجاز، ذلك أن إنتاج الأردن وفلسطين ومصر يتجمع في أيلة، ليتم تصديره للحجاز عبر القوافل البرية التي تسير بمحاذاة الساحل، وأخرى تحملها السفن عبر البحر نفسه. وأما قوله أن أيلة قربت، فهو لا يتفق مع قوله أنها: «فرضة» و «خزانة» .

يُحَنّا، وأعطاه الجزية. قال الأحْوَل: سميت أيلة ببنت مدْيَن بن إبراهيم ﷺ . وقد رُوي أن أيلة هي القرية التي كانت حاضرة البحر» (البكري: ج1، ص216-217).

4- أيلـة : (معجم البلدان / الحموي)

« أيْلة[1]: بالفتح: مدينة على ساحل بحر القلزم (أي البحر الأحمر) مما يلي الشام؛ وقيل: هي آخر الحجاز وأول الشام، واشتقاقها قد ذكر في اشتقاق إيلياء بعده: قال أبو زيد: أيْلة مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير، وهي مدينة لليهود (أي كانت في زمن غابر من التاريخ قبل الميلاد) الذين حرّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فخالفوا فمُسِخوا قردة وخنازير، وبها في يد اليهود عهد لرسول الله ﷺ ، وقال أبو المنذر: سميت بأيلة بنت مدْين بن إبراهيم، ﷺ ؛ وقال أبو عبيدة: أيلة مدينة بين الفسطاط ومكة على شاطئ بحر القلزم تُعدّ في بلاد الشام، وقدم يوحَنّة بن رُؤْبَةَ على النبي، ﷺ ، من أيلة وهو في تبوك لصالحه على الجزية وقرّر على كل حالم بأرضه في السنة ديناراً فبلغ ذلك ثلاثمائة دينار، واشترط عليهم قِرَى من مرّ بهم من المسلمين وكتب لهم كتاباً أن يُحفظوا ويُمنعوا، فكان عمر بن عبدالعزيز لا يزداد على أهل أيلة عن الثلاثمائة دينار شيئاً؛ وقال أحَيْحَة بن الجُلاح يرثي ابنه:

ألا إن عَيْـني بالـبُكاءِ تهَـلَّلُ، جـزوعٌ صَبُورٌ كُلُّ ذلك يَفْعَلُ
فـإن تعتريـني بالـنهار كآبـة، فلَيـلي إذا أمْسَـى أمَرُّ وأطْوَلُ
فمـا هـبرزِيٌّ مـن دنـانيرَ أيْـلَةٍ، بأيْدي الوُشاةِ، ناصِعٌ يتأكَّلُ[2]
بأحْسـن مـنه يـومَ أصبَحَ غادياً، ونفَّسَـني فيـه الحِمـامُ المعجَّـلُ

(1) مجد الحموي (626هـ) يخبرنا أن أيلة كانت، أول الشام وآخر الحجاز، وبالتالي فهي نقطة أردنية من جنوب بلاد الشام، وهي بوابة الحجاز مما يلي التحام البر والبحر في بحر القلزم.

(2) هذا البيت يدل على أن أيلة كانت مركزاً من مراكز ضرب العملة، وأنها كانت تسمى دنانير أيلة.

الوُشاة الضَرّابون، وناصع مشرق، ويتآكل أي يأكل بعضه بعضاً من حسنه: وقال محمد بن الحسن المهلّبي: من الفسطاط إلى جُبُّ عميرة ستة أميال، ثم إلى منزل يقل له عجرود، وفيه بئر ملحة بعيدة الرّشاء (عميقة)، أربعون ميلاً، ثم إلى مدينة القلزم خمسة وثلاثون ميلاً، ثم إلى ماء يُعرف بشجر يومان، ثم إلى ماء يعرف بالكرسيّ فيه بئر رواء مرحلة، ثم إلى رأس عقبة أيلة مرحلة، ثم إلى مدينة أيلة مرحلة؛ قال: ومدينة أيلة جليلة على لسان من البحر الملح وبها مجتمع حج الفسطاط (القاهرة) والشام، وبها قوم يذكرون أنهم من موالي عثمان بن عفان؛ ويقال: إن بها برد النبي ﷺ ، وكان قد وهبه ليُوحَنَّةَ بن رُؤْبة لما سار إليه إلى تبوك؛ وخراج أيلة ووجوه الجبايات بها ثلاثة آلاف دينار[1].

وأيلة: في الإقليم الثالث وعرضها ثلاثون درجة؛ وينسب إلى أيلة جماعة من الرواة، منهم: يونس ابن زيد الأيْلي صاحب الزُهْري؛ توفي بصعيد مصر سنة 152؛ وإسحاق بن إسماعيل بن عبدالأعلى بن عبدالحميد بن يعقوب الأيلي، روى عن سفيان بن عُيَيْنَة وعن عبدالمجيد بن عبدالعزيز بن رضوّاد، حدّث عنه النسائي، مات بأيْلَةَ سنة 258، وحسّان بن أبان بن عثمان أبو علي الأيلي ولي قضاء دمياط وكان يفهم ما يحدّث به؛ وتوفي بها سنة 322، وأيلة

---

(1) نجد هنا أن أيلة كانت في زمن الحموي (ت626هـ) في القرن السابع هجري، أنها نقطة تجمع حجاج مصر والشام، وهو نفس الأمر الذي ذكره المقدسي (380هـ) في القرن الرابع الهجري، عندما ذكر أنها فرضة فلسطين وخزانة الحجاز. وبذلك نجد أنها أيضاً خزانة الحجاز من خلال الحجاج الذين يتجمعون في أيلة ليتوجهوا براً إليها. وقد ذكرنا في الجزء الأول كيف أن أيلة كانت محطة مهمة من محطات الحجاج، وأنه تم بناء قلعة فيها للحماية إذ لا تزال بقاياها إلى الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين). ويذكر الحموي أنها في زمنه كانت بها: برد الرسول ﷺ وأن مجموع الجبايات ثلاثة آلاف دينار بينما كانت الجزية عليهم زمن الرسول ﷺ ثلاثمائة دينار، وهذا يعني مضاعفة سكانها في القرن السابع الهجري، عما كانت عليه في مطلع القرن الأول الهجري 9هـ عند غزوة تبوك، ومجيء حنّة بن رؤية بن رؤية وتشرُّفه بمقابلة سيدنا محمد ﷺ .

أيضاً: موضع برضْوَى وهو جبل؛ قال ابن حبيب: أيلة من روضى وهو جبل ينبع بين مكة والمدينة، وهو غير المدينة المذكورة هذا لفظه: وأنشد غيره يقول:

مِنْ وَحْش أيلة مَوْشِيّ أكارعه

والوحش لا يُنسب إلى المدن.

وقال كثير:

رأيتُ، وأصحابي بأيْلة، موهناً، وقد غار نجمُ الفَرْقد المتصوِّبُ
لعزّة ناراً ما تَبوخُ، كأنها إذا ما رمَقْناها من البعد كوْكبُ
تعجّبَ أصحابي لها، حين أوْقَدَتْ، وللمُصطَليها آخر الليل أعْجَبُ
إذا ما خَبَتْ من آخر الليل خبوة أعيدَ لها بالمَنْدَلِي، فتثقُبُ

ومما يدل على أن أيلة جبل، قول كثيّر أيضاً:

ولو بذلت أم الوليد حديثها لعُصْم برَضْوَى، أصبحت تَتَقَرَّبُ
تهبّطْنَ من أركان ضاس وأيْلة إليها، ولو أغرَى بهنَّ المكلِّبُ»

(الحموي: ج 1، ص 292-293)

5- أيْلة : (القزويني: ص 153)

مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، كانت مدينة جليلة في زمن داود، عليه السلام ، والآن يجتمع بها حجيج الشام ومصر من جاء بطريق البحر، وهي القرية التي ذكرها الله تعالى حاضرة البحر.

كان أهلها يهوداً حرّم الله تعالى عليهم يوم السبت صيد السمك، وكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شُرّعاً بيضاً سماناً كأنها الماخض حتى لا يرى وجه الماء لكثرتها، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم. فكانوا على ذلك برهة من الدهر، ثم

إن الشيطان وسوس إليهم وقال: إنما نهيتم عن صيدها يوم السبت فاتخذوا حياضاً حول البحر، وسوقوا إليها الحيتان إلى السبت، فتبقى فيها محصورة واصطادوا يوم الأحد، وفي غير يوم السبت لا يأتيهم حوت واحد، ففعلوا ما أمرهم الشيطان خائفين. فلما رأوا أن العذاب لا يعاجلهم أخذوا وأكلوا وملحوا وباعوا.

وكان أهل القرية نحواً من سبعين ألفاً فصاروا أثلاثاً: ثلث ينهون القوم عن الذنب، وثلث قالوا: لم تعظون قوماً الله مهلكم أو معذبهم؟ وثلث يباشرون الخطيئة. فلما تنبّهوا قال الناهون: نحن لا نساكنكم. فقسموا القرية للناهين باب وللمعتدين باب، ولعنهم داود ﷺ . فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم لم يروا من المعتدين أحداً فقالوا: إن للقوم شأناً، لعل الخمر غلبتهم ! فعلوا الجدار ونظروا فإذا هم قردة فدخلوا عليهم، والقردة تعرف أنسابها والأنساب لا يعرفونها. فجعلت القردة تأتي نسبها من الإنس فتشمّ ثيابه وتذرف دمعة، فيقول نسبها: ألم أنهك عن السوء؟ فتشير القردة برأسها يعني نعم. ثم ماتت بعد ثلاثة أيام.

-83-

العقبة

(نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)

المشهورة بالرحلة الورثيلانية للشيخ العالم الرباني والشريف النوراني سيدي الحسين بن محمد الورثيلاني قدّس الله سرّه آمين

دار الكتاب العربي - بيروت 1394هـ / 1973م

(ص 332-343) و (ص 546-549)

من قرى بني ورثيلان، وبندر النخيل بندر عظيم فيه عسكر كما في عجرود وفيه أسواق فكل ما تريده موجود لأنه يأتي من ناحية الشام أناس بذلك أي من

بيت المقدس وقربها محل فيه أبسط الخيرات وأنواع الملذوذات لا سيما الفواكه في زمانها فلا تراها في غير ذلك المحل والشكر لله تعالى وهذا البندر رحمة للحجاج فوضعوا فيه أمتعتهم تخفيفاً ورحمة بالإبل إلى أن يرجعوا وكذا اشترى من خصه الإبل أو بدله فلما أصبح الله بخير الصباح ظننا منه عنه الضحى فلما انفصلنا تأخر بعض من أحبابنا وهو الحاج بلقاسم الحربيلي ثم اليعلاوي يشتري جملاً من بعض العرب فتأخرنا معه فاشتراه فلما اقبض الدراهم لصاحبه هرب الجمل فتبعته على بغلتي حتى أيست من لحوقه وخفت اللصوص من الحراميين ورجع سيدي أحمد المسارتي على فرسه ولحقه ثم وقع الصياح في آخر الركب أن فلاناً وأصحابه قد أخذه اللصوص فرجع البعض إلينا بأسلحتهم فلم نرَ إلا خيراً والحمد لله حتى لحقنا بالركب وصاروا يحمدون السلامة لنا لما علمت من كثرة عطب الطريق وكثرة محاربيه ولصوصه فلا ترى أحداً تأخر إلا أخذ وَسُلِبَ أو هلك فالحمد لله علينا نتأخر نحن معاشر الإخوان عن الركب كثيراً واللصوص في آثارنا فلا نرى منهم ما يكره فلم يسلب أحد إلى أن وصلنا إلى مكة المشرفة.

ثم كذلك نسير والحمد لله حتى قربنا بئر الصعاليك فبتنا ومن الحجاج من سقى من البئر المذكورة وهي عميقة جداً وماؤها بارد فكاد أن يكون كالثلج إلا أنه قبيح لا يكاد يساغ من مرارته وفي آثاره بناء قديم ولما ظعنا سرنا بعد في أودية وشِعَبٍ صعبة في يوم قوي ريحه واشتد أمره فلا تنفع فيه استراحة ولا تؤول ونحن كذلك سائرون إلى قرب سطح العقب فنزلنا وبيتنا في خير وعافية ومات بعض من أهل وطننا فدفناه ليلاً.

ولما صبح الله بخير الصباح ذهبنا إلى أن بلغنا سطح العقبة فانتظر الحجاج بعضهم بعضاً يسيرون على قدم واحد فاستعدوا بأسلحتهم وافترقوا فرقاً فمنهم

من سبق ومنهم من تأخر ومنهم من توسط خوفاً من متلصصي العرب لكونهم في الغالب لا يتركون الشر في ذلك الموضع فنحن معاشر ربنا لم نرَ منهم أحداً والحمد لله غير أن كل من كان من أهل الركب إلا نزل ولو كان من أهل المُخَدِرات (وهنّ النساء) فيسيرون على أرجلهن ولو نساء الملوك فرأينا نساء السلاطين ذاهبات على أرجلهن وأنا والحمد لله عيالي ما نزلوا أبداً نعم جعل الله البركة في الجمل الذي حمل اثنتين من النساء في المهيا وهو يسير كأنه ليس في ذلك المحل الصعب والمنة لله.

فتَعَجَّبَ كل من رأى ذلك وذلك كله من فضل الله تعالى علينا فلما انفصلنا وانحدرنا من العقبة إلى ساحل البحر اشتغل الناس بالغداء فلما فرغوا منه أخرجوا أسلحتهم وأمامهم من البارود واجتمعوا على قدم واحدة وقدموا أمامهم سلطان فزان بالبارود واللعب بالخيل وكذا الناس على الأرجل إرهاباً لعرب العقبة إذ العام الذي قبل عامنا أخذوا ركب المغربي لقلته وقلة سلاحه.

وبينما نحن كذلك وإذا عسكر من الركب المصري خرج ولقينا برعود من البارود الخيل تلعب والناس كذلك إلى أن وصلنا إلى البندر لتعجب كل من كان في ذلك من أهل ذلك الوطن من العرب ومن تسوق من غيره حتى بلغ ذلك أقصى عرب الحجاز فلا تجد سارقاً يدور بنا ولا قاطع طريق ليلاً ونهاراً خوفاً من الركب المغربي لكثرته وكثرة سلاحه لا سيما الركب الجزائري نعم الركب المصري يخاف منا ومع ذلك هو في قوة عظيمة أمَدُ مروره ثماني ساعات كما رسمه من اعتنى بذلك بالدرج فكل عام أمير الحاج من مصر يربط من الرَّكْب المغربي ويفعل فيه ما شاء قدمه وإن شاء أخره وإن شاء زاد في الكراد زاد وغير ذلك من ظلم الغُزّ أما عامنا ورَكْبُنا هذا فليس عليه حكم ولا له عبرة على أن رَكْبُنا تعصبوا وقالوا إن أبى إلاّ أن يحكم علينا منعناه وضربناه وقتناه فلما رأوا

منهم ذلك فروا عن الحكم عليه فلا نقول إلا سَلِمَ سَلِمَ كما سمعت منه ذلك منه ذلك ومع ذلك أنه رجل حليم لا يرضى الفساد ولا الظلم الكثير والحمد لله على ذلك.

قال شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر ما نصّه: ثم ظعنا بكرة يوم الخميس ثامن ذي القعدة التاسع والعشرين من دجنبر (ديسمبر شهر 11) وثامن عشر الليالي وما تعالى النهار، وتفتحت للشمس عيون الأزهار، حتى رأينا عقبة أيلة وخبرها قد روع القلوب، ونوع المهابة لأمرها فما من الركب إلا من هو من لباس الصقر مسلوب، فحصل هناك من الزحمة، ما تقطعت به القلوب رحمة، وتصادمت المحاف وتسرت، وبرزت أنياب النوق وتكشرت، فما كان بأسرع من خمود أمرها، وركود حرها وجمرها، وهي عقبة كؤد، صعبة الهبوط والصعود، إلا أن الطريق بها منحوتة، قد سويت في أكثر الأماكن الصعبة، وبنيت حافاتها ببناء متقن.

ولما كان المحل معروفاً للصوص الأعراب وحرابتهم، تهيأ الناس وأخذوا حذرهم وأبرزوا أسلحتهم، وعبوا تعبيتهم، خوفاً من أعدائهم فإن الغالب لابد أن يتعرضوا للركب في هذا الموضع لصعوبته وتقدمت طائفة من الحجاج بمدافعهم أمام الركب وتأخرت طائفة وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً فلم نرَ بها سارقاً ولا غائراً، ولا عاتياً ولا غادراً، فانفرجت هذه الشدة، وكفى الله منها مدية المدة، فما زهقت روح، ولا أثيرت جروح، وخلص الناس من تلك الضغطة، وخرجوا من ضيق القبض وجلسوا على بسط البسطة، ونزلوا الناس منها سالمين، وقيل الحمد لله رب العالمين، قال الشاعر:

كـم قـد فككنا رقـبة لما اقتحمنا العقـبة
وكـم لنا مـن أمـنية في حجـنا مرتقـبة

وبعد أن نزلنا من المنحدر الصعب جعلت الطريق تلتوي في شعاب كأنها أزِقَّةٌ يكثر فيها المخاوف والمتالف فيرى البحر من بعيد فيظن أنه قريب ووصلنا البندر ظهراً ولم يبلغ الحاج إلى قرب العصر وجدنا المصري به مخيماً وأرسل إلينا أمير الحاج إماءه، وأبلغنا سلامه، واسمه إبراهيم أبو شنب، وأقمنا بها الخميس والجمعة وفيها حصن حصين في قرية على شاطئ البحر في سفح جبل وبها آبار كثيرة وفيها نخيل وسوق كبير يحضره أهل غزة وتأتيه العرب بالإبل والغنم والسمن والعسل والعلف للدواب ووجدنا الفول فيها رخيصاً أرخص ممن اكترى عليه من مصر وبتنا بها وبات المصري هناك وأوقد بالليل نيراناً كثيرة وضرب المدافع ورمى المحارق في الهواء ولها منظر عجيب، وأسلوب غريب، كأنها شهب النجوم يرمى بها من الأرض إلى السماء فتراها في الجو طالعة حتى ترى من أعالي هام شوامخ الجبال دونها ثم تنعطف راجعة كأنها ثعبان أحمر ثم يسمع لها صوت وتخرج منها شرارات من النار فإذا انقطعت تلك اتبعها بأخرى وخروجهن فيما نرى من نار زرقاء كأنها نار الكبريت تشتعل اشتعالاً قوياً فتطلع منها تلك الشهب ولا نعلم صنعة ذلك وهي من الغرائب والرمي بها وبالمدافع عادة المصري في كل منزل أقام فيه إذا أراد الرحيل قاله الإمام أبو سالم.

ثم ارتحل في الغد وأقمنا بعده ولم نرَ في مبيتنا ولا إقامتنا ما يسوؤنا من سارق ولا غيره.

قال شيخنا أبو سالم وقد سألنا هناك وبحثنا عن القرية التي كان حاضرة البحر هل بقي من رسومها شيء فقد ذكر المفسرون أنها أيلة فلم نجد من يشفي لنا خبرها.

وقد ذكر لنا بعض الناس أن بأعلى الوادي أثر بناء كثير يشبه أن يكون مدينة ولعلها هي وقد أخبرنا كثير من متسوّقة الأعراب الذين هناك أن وراء

الجبل الكبير المشرف على القرية بلدة فيها نخل وماء إلا أنها خالية ويمكن أن تكون هي فإنها قريبة من البحر والعلم عند الله تبارك وتعالى.

(قلت) وفي الخطط للمقريزي أن أيلة مدينة في شاطئ البحر المالح سميت بأيلة ابنة مدين بن إبراهيم عليه السلام وقد كانت مدينة جليلة القدر بها التجارة الكبيرة وأهلها أخلاط من الناس وكانت حد مملكة الروم في الزمان الفائت وعلى ميل منها باب معقود لقيصر قد كان مسلحته يأخذون المكس وبين أيلة وبين القدس ست مراحل والطور الذي كلّم الله تعالى موسى عليه السلام على يوم وليلة من أيلة وكانت في الإسلام منزل بني أمية وأكثرهم موالي عثمان بن عفان رضي الله عنه كانوا سقاة الحجاج وكان بها علم كثير وأدب ومتاجر وأسواق عامرة وكانت كثيرة النخل والزرع.

قال وكانت بأيلة مساجد عديدة وبها كثير من اليهود يزعمون أن عندهم برداً للنبي صلى الله عليه وسلم وأنه بعثه إليهم أماناً وكانوا يخرجون رداءً عدنياً ملفوفاً في الثياب قد أبرزوا منه قدر شبر فقط.

ويقال أن أيلة هي القرية التي ذكرها الله في كتابه العزيز حيث قال واسألهم عن القرية كانت حاضرة البحر واختلف في تمييزها فقال ابن عباس وعكرمة والسدي رضي الله عنهم هي أيلة وعن ابن عباس أيضاً أنها مدينة بين أيلة والطور وعن الزهري أنها طبرية وقال قتادة وزيد بن أسلم هي ساحل من سواحل الشام بين مدين وعينونى.

وسئل الحسن بن الفضيل هل تجد في كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتاً والحرام يأتيك جزافاً قال نعم في قصة أيلة إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم انتهى المراد منه مع بعض حذف ولما التقينا بالمصري (أي مركب الحاج المصري) بالعقبة أخبرونا عن حالهم مع البرد وأنه قتل منهم

واحداً أو اثنين ليلة العقبة وقرب (أي قُتِلَ) عجرود ما ينيف على خمسين نفساً وذكروا أن الإنسان يكون في حمل الخشب فيوجد ميتاً بالبرد وعلى الدابة كذلك.

وحدثنا بعض حجاج القدس التقوا مع المصري في سطح العقبة أنه لاقوا من البرد والثلج والمطر ما يفضي منه العجب مكثوا يومين وليلتين ما أوقدوا ناراً ولا قدوراً عليها ولا أكلوا من كثرة المطر وأخبرني واحد منهم أنه عليه عدة لباس من الأقبية والقمص وجوخة فوق ذلك وبات من أول الليل إلى آخره واقفاً ورجلاه داخلتان في الطين إلى ركبتيه والمطر يصب عليه حتى أفضى إلى لحمه وعانوا من ذلك الموت الأحمر ونحن والحمد لله سلمنا الله من ذلك كله.

(تتمة) في ذكر كلام الطبري من النخيل إلى العقبة قال ثم سرنا من النخيل إلى وادي الفريض المشهور، وهو واد ينبت به الشكوك عرضاً عن الزهور، فكم آذى بشوكه أقدام، وعطل من له على المشي إقدام، ولا سيما الفيحاء لاتساع أرضه، وزيادة فضائه في طوله وعرضه، قال الشاعر:

في وادي الفـريض كـم سـائر   مـن غـير فعـل ثـابت الكعـب
قـد صـار كالأعجـام مـن شوكه   يرقص من رقص على الكعب

وسَيْرُنا اثنتا عشرة ساعة كاملة، محررة في الميقات متواصلة، ثم سار الركب إلى بئر العلاء في التجريد، وهي محطة ببئرها معطلة وليس بها قصر مشيد، وبقربها حدرة منحدرة، وأشجار اثل منتشر، وبجانبها فسقيتان ليس بهما منفعة، فما ورد عليها حيوان ظمآن إلا وقام عند رؤيتها بالربعة، قال الشاعر:

إلى بـئر العـلاء لقـد أتيـنا   وفـزنا بالـنجاح وبالهـناء
شـكرنا لـلدليل وقـد دعانـا   إلى شـيء يوصـل لـلعلاء

ومدة المسير، إليه اثنتا عشرة ساعة بالتحرير، وبعدها الجد إلى سطح العقبة في المسير، وهو سطح واسع الأكناف، متسع الجوانب والأطراف، لا يوصل إليه إلا بالاستطاعة، لأن مدة المسير إليه اثنتا عشرة ساعة، ثم سرنا إلى العقبة، وما أدراك ما العقبة، فكم بها من حدرة ومضيق، وجبال في شكل الحمرة والبياض وهي عقبة في الطريق، وصعود وانهباط، وعلو وانحطاط، قال الشاعر:

عقبات يسلك الناس بها ... بقلوب لم تزل مرتعبة
قد قطعناها بوقت هيّنٍ ... لم نرى فيها أموراً مُتْعِبَة
نحمد الله الذي خلصنا ... فاسترحنا من عقاب العقبة

فقطعنا تلك الحدرة الكبرى، ثم سرنا إلى واد بشاطئ البحر واحَطْتُ به خُبُراً، وبجانب البحر مغائر ماؤها عذب فرات، وآبار تسقى منها الناس بسائر الجهات، ورأينا نخلاً زاهية، وقلعة حصينة عالية، فأقمنا بتلك المنزلة ثلاثة أيام، ونحن في زيادة إنعام، وذبح أنعام، وقد وردت الفواكه من غزة وأعمالها، فنصبت للبيع وانخفضت[1] الأسعار ورفعت البواقي على أحمالها، وبقلعتها يوضع البضائع ودائع إلى الإياب، ومدة المسيرة تسع ساعات في الحساب»، انتهى كلام البكري.

وزرنا قبر الشيخ إبراهيم القاني في مقبرة هنالك محطة عليها بالإحجار على يسار الذاهب إلى منزل الركب أوقفنا عليه مغربي ساكن في بندر العقبة نيفاً وعشرين سنة ثم ارتحلنا من العصبة صبيحة السبت فسرنا في مسلك ضيق بين البحر والجبل لا يمر به إلا جمل إثر جمل كأنه مثل الصراط إلا أنه غير مستقيم وقلما يخلو هذا المحل من لصوص يتعرضون للركب فتشتد أذيتهم وتعظم نكايتهم لا سيما عند البرج قرب بندر العقبة ولكن ذلك في الرجوع أكثر ولم نرَ فيه والحمد لله بأساً ولا بؤساً ووصلنا ظهر الحمار بعد الظهر.

ووجدنا أخريات المصري (أي بواقي مركب الحج المصري) ووقفنا حتى غاب عنا وسار وصلينا العصر وهو بسيط من الأرض أحرش مرتفع يطلع إليه من مسلكين وقلما يخلو من عمارة بعض ضعفه الأعراب لا سيما في وقت جذاذ النخل ويكون فيها في ذلك الوقت رطب جيد وماء هذا المحل كله عذب طيب قال شيخنا أبو سالم في رحلته ويسمى ذلك المحل في زماننا هذا حفائر النخل وخلفنا البحر يميناً فسرنا ونزلنا بُعيد المغرب في فسحة من الأرض بين جبلين ثم ارتحلنا منه يوم الأحد الأول من يناير حادي عشر ذي القعدة وبلغنا عُشّ الغراب قبل الظهر وجاوزنا دار المصري بشرفات بني عطية بموضع يقال له أم العظام وهناك أرجام كالشعاب عن يمين الذاهب.

ذكر العبدري في رحلته أن ذلك قبر الشفاف والشفاف رجل كان يقطع الطريق على الحاج هناك في غابر الزمان وقصته مشهورة في رحلة العبدري ومن وراء الجبل الذي على يسار الذاهب بلد واسع فيه ماء جار وأرض مخصبة وربما عطش الركب في ذلك المحل فيأتي العرب بماء يبيعونه ونزلنا قبل مغيب الشفق وبنو عطية هم عرب هذا البلد[1].

قال الإمام أبو سالم ويقال لهذا المكان يعني الشرفات عش الغراب (غريبة) تزعم العرب أن الإبل تنفر في هذا المكان ويقولون أنها تسمع صوت سقب ناقة صالح وأنه في ذلك الجبل وأن هناك الصخرة التي دخل فيها لما عُقِرَتْ أمه فالإبل إذا وصلت إلى ذلك المكان تسمع صوت العشار فتنفر ولا أدري من أين لهم ذلك وهو بعيد إذ ليست هذه ديار ثمود الذين عقروا الناقة وهم قوم صالح على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام ثم منه يوم الاثنين وصلينا العصر بالمكان المسمى: بمغائر سيدنا شعيب على نبينا وعليه الصلاة والسلام في حَوْشٍ ملتف

(1) نجد هنا ذكر لبني عطية في منطقة العقبة (في الرحلة الورثيلانية).

ملنا إليه لأجل الحريم الذي معنا وهي إحساء كثيرة في مضيق بين جبلين فيها نخيل وماؤها طيب حلو خفيف نافع وعادة أعراب مدين أن تسوق الأركان هنالك بأحمال كثيرة من أنواع العنب وغيرها من الفواكه وتنخفض أسعار ذلك كله وبينها وبين مدين مسيرة نصف يوم وهي بلدة بساحل البحر كثيرة الفواكه والمياه الغزيرة وسكانها أعراب أهل بادية وكانت قبل ذلك مدينة ويذكر أن أثر البناء باقٍ فيها إلى الآن[1].

قال شيخنا العياشي وعلى يسار منزل الركب خارج المضيق مغارة يقال أن فيها كان شعيب على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام يأوي بغنمه وبإزائها بئر كبيرة معطلة وبجانبها بركة ويقال أن هنالك كانت البئر التي سقى منها موسى عليه السلام غنم شعيب عليه السلام وفي ذلك الوادي دوم طويل كأنه نخل صنوان وغير صنوان وعريش كثيرة في الوادي وهو محل مخافة قلما يخلو من لصوص الأعراب.

(قلت) ولمدين أخبار وآثار ذكر المقريزي منها نبذة ولما صلينا العصر بالمغارة كما تقدم تجاوزنا ونزلنا بين العشاءين في بسيط أفيح ثم ارتحلنا منه يوم الثلاثاء ونزلنا عيون الأقصاب بعد العصر وهو ماء حار في مضيق بين جبلين في محل كثير القصب والدّبْس وفي أعلى الوادي نخل وأرض صالحة للحرث قَلّما يخلو ذلك المحل من أعراب نزول به فيكثر الخوف ويعظم ضررهم لا سيما مع نزول الليل فيأخذ الناس حذرهم فيطلعون الرماة إلى أعلى الوادي مراقبين حتى يأخذ الناس حاجتهم من الماء ويكتفوا فيأتي الرماة لمنازلهم على شفير الوادي عند منزل الركب مسجد مبني بالحجارة المنحوتة ومنبر بإزائه.

(1) إن موقع سيدنا شعيب على نبينا وعليه الصلاة والسلام ليست في هذه الأماكن، وإنما إلى الجنوب الشرقي من الكرك كما سبق وشرحنا في الجزء الأول من هذا الكتاب، ولكن من الواضح أن هذه الديار كانت جزءاً من مملكة وبلاد مدين، وأن وجود البئر والماء أمر طبيعي في أرض جبلية، وأن ذلك يترتب عليه وجود الزراعة والاستقرار والحضارة.

ثم ارتحلنا منه يوم الأربعاء إلى أن وصلنا بندر المويلح وبنينا الأخبية بحيث تقرب الأمواج من الأستار وماء البندر فيها كثير حلو فيه آبار كثيرة وبساتين حسنة ونخل وهناك حصن كبير وفيه عسكر وأمير وتُخَزَّن فيه الميرة والفول كثيراً وعلى بابه سوق كبير يوجد فيه غالب المحتاج وبه مَرْسى حسنة تنزل بها السفن القادمة من السويس والقادمة من جدة ومن القصير.

(تميم) قال البكري ﷺ في ذكر المراحل من العقبة إلى المويلح ثم سرنا إلى مرحلة يقال أنها ظهر الحمار، وهي محطة عالية كثيرة الأوعار، يصعد إليها من عقبتين، واليمنى أوسع من اليسرى في المسلكين، قال الشاعر:

صعدوا على ظهر الحمار لعلهم إن يبلغوا بصعودهم كل الأمل
تعب الحمار من الطريق وطولها ومديدها واجتث من بعد الرمل
حتى الجمال به شكت ياها ترى يُقْبَلْ به عُذْرُ الحمارِ أمِ الجمل

ومدة المسير إليه ثمانية من الساعات، محررة عند أهل الميقات، ثم سرنا إلى بين الجرفين، وهو مكان كأن الجبال قد قسمت به شطرين، يحترز منه أن يقذف بالحجاج في أيام السيل إلى البحر المالح الأجاج. قال الشاعر ملغزاً فيه:

وخمسة أحرف في اللفظ تقرا قال صحفتها صحت بحرفين
وإن أسقطت خامسة فتبقى ثلاثة أحرف من أصل الفين

ومنها إلى الشرفة، وهي بطول السير متصفة، تتعب فيها الجمال، ولو رحلت بلا أحمال، لما فيها من الوهاد، والطلوعات الشداد، وخلف جبالها قبيلة بني عطية، المعروفين بالسرقة والأذية، قال الشاعر[1]:

(1) إشارة أخرى إلى بني عطية أنهم على ساحل البحر الأحمر إلى الجنوب من العقبة باتجاه مكة المكرمة.

إذا مـــا جـــئت للشـــرفة ... تـــرى العـــريان مختـــلفة
وأمـــا العيـــس فاجعـــلها ... بحســـن الحفـــظ متصـــفة
فـــإن مـــنعت بحارســـها ... وإلا فهـــي متصـــفة

ومدة المسير إليها خمس عشر ساعة من غير ريب، وبعدها المغار المعروف بمغار شعيب، وهو غار يتبرك به الناس، وترى فيه الحظ والإيناس، وبه الماء العذب والنخيل، وشجر المقل والإثل والظل الظليل، قال الشاعر:

قـد وصـلنا إلى مغـار شـعيب ... فرأيـنا الميـاه كالأنهـار
فاسـتقينا مـن مائـه واشـتفينا ... وظفـرنا بغايـة الأوطـار
وذكـرنا بغـارة غـار ثـور ... مـن حـوى للصـديق والمختار
خـير مـن أنـزل الإلـه عـليه ... ثـاني اثـنين إذ همـا في الغـار

ومدة المسير إليه ثمان عشرة ساعة، محررة عند أهل الصناعة، ثم منها إلى عيون القصب، إذا نظر إليها العاجز أذهبت عنه الوصب، لأن خضرتها نضرة، والأشجار بها منتظمة ومنتشرة، قال الشاعر:

قـد وصـلنا لعيـون القصـب ... واسـتراح القـلب بعد النصب
وعيـون المـاء فيهـا قـد جـرت ... كسيول الغيـث بـين القصب
فجلســنا بصــفاء حولهــا ... وظفــرنا عــندها بــالأرَب
وتشــوفنا لشــاد مطــرب ... يتغــنى بعيــون القصــب

ورأينا مجاوراً لتلك العيون، نسوة من العرب يوصفن بحسن العيون، ويتعاجبن بظفائر الشعور، فيمنعن من عقل الحب الشعور، كأنهن الأقمار، وكأنما نبتت في وجناتهن الأزهار، فكان قطع المفاوز والأوعار، كالمتنزهات في الرياض والأزهار، قال الشاعر في بدوية اسمها ساكتة:

بــروحي أفــدي ظــبية بدويــة   لهــا وجـنة فيهـا الأزاهـر نابتة
إذا رمــت منها أن تكلمني غدت   تكـلمني ألحاظهـا وهي ساكتة

ومدة المسير إليها أربع عشرة ساعة وثلاثة من الدرجة، يتعب في سيرها من ركب ومن درج، ثم ارتحلنا منها إلى بندر المويلح المشهور، ورأينا بساحله المراكب من السويس والطور، فياله من بندر فاق البنادر، يأتي إليه الوارد والصادر، وبه جملة من الكروم، التي تذهب برؤيها الهموم، وبمخازن القلعة تودع الودائع، وإلى سوقها تساق نفائس البضائع، من ثمار تجلبها العرب، وزلابية عجينها كاللجين فإذا قليت أشبهت الذهب.

وبهذا البندر رجل من أرباب الأحوال، حاز رتبتي الجلال والجمال، صاح مجذوب، تميل إليه محبة القلوب، وله أسرار ظاهرة، ومكاشفات باهرة، يعتقده الناس، ويحصل لهم به الإيناس، لا يعرف الدرهم ولا الدينار، ولا يقبل إلا القوت عند الاضطرار، لباسه جبة من صوف، ورأسه في غالب الأوقات مكشوف، إن نطق تكلم على الخواطر، وإن صمت نطقت عليه ألسنة الناس بالثناء العاطر، ويكسوه المارّة لعدد، فيقبلها ويعطيها لمن وجد، لأن من رآها عليه، يطلبها فيدفعه إليه، وهذا شأن الكرام، الذين قطعوا علائق الدنيا على الدوام، فأقمنا بهذا البندر ثلاثة أيام، وبعدها طوينا المضارب والخيام، ومدة المسير ثلاث عشرة ساعة، وخمس من الدرج في علم الصناعة»، انتهى كلام البكري إلى أن قال:

« ومررنا بالمضيق الموسوم بشقّ العوز وسايرنا البحر المالح عن يسارنا جبال سلمى وكفافة ومررنا ضحى بقبر سيدي مرزوق الكافاني على ساحل البحر عليه أعواد قد عَلَّمَ بها عليه والناس يتبركون به وطلعت الشمس فارتفعت حارة ونزلنا بندر الأزلم قبيل الاصفرار ووجدنا به شرذمة من الأعراب

يبيعون الحشيش والغنم وبه ثلاث آبار كبيرة محكمة البناء وماؤها غزيرة إلا أنه زعاق يصلح للإبل ولضرورية الناس من غسل ونحوه ولا يسيغه إلا المضطرون قال الشيخ أبو سالم وعلى يسار البندر بعيداً عن الآبار أن أي ماء حي محفور في الأرض ليس بمطري ماؤه أحسن من ماء الآباء إلا أنه قليل ولا يعرفه الكثير من الناس وهذا البندر قليل الجدوى لقبح مائه وقربه من المويلح ومن الوجه وهما أتم منه منفعة فليس فيه كبير فائدة وقد انهد ما في داخله من البيوت وتثلم بعض سوره والخلاء أقرب إليه من العمارة. شعر.

إذا لم يكن فيكن ظل ولا جنى   فأبعدكن الله من شجرات

(الورثيلاني من ص 332-343)

بها بعض ملوك مصر ومعه عسكر عظيم فيه طعام كثير وبشماط كذلك ودقيق كذلك وفول أكثر الجميع وقد رخص يوم دخولنا البندر كثيراً وبعد ذلك قد ارتفع غلاوة فكأنه لم تكن ملاقية من مصر فاشترينا منه ما نحتاج إليه من دقيق وفول وبشماط ثم أن أكثر الشيالين هربوا على الحجاج فمنهم من فرّ بابله ومنهم من تركها لغلاء العلف وقلة دراهم الكراء فهرب شيال سيدي أحمد الطيب بابله فكان ما كان من قدر الله تعالى من احتياجنا إلى الكراء فأنا أريد الكراء لحمل النساء وهو يريد الكراء له ولأصحابه فأتانا بعض الأعراب من البركة قد قدم مع تلك الملاقية فاكترينا منهم جميعاً غير أننا خفنا منهم الجديعة والهروب كما كان ممن قبلهم فقال رئيسهم عهد الله لا أخذنا منكم درهماً إلا بعد البلوغ إلى مصر فرأينا الفضل من الله تعالى والمنّة فاكتريت منهم جملين بأربعة عشر محبوباً فأحدهما ركب عليه امرأتان في المهيا والآخر ركب عليه ولدي مع زوجته في المهيا أيضاً وأحسنوا إلينا أحسن الله إليهم وجعل البكرة لديه فلم يقع منهم نفور ولا مشاجرة إلى أن وصلنا مصر فوفوا العهد أكرمهم بمنّه وكرمه.

ثم إن سيدي محمد المسعد هرب شياله أيضاً بابله فبقي كذلك مطروحاً في الأرض فضبعْنا آخر الليل على العادة المألوفة وتركنا المصري وراءنا فلما أخذ الناس في السفر سمعنا منادياً ينادي بأن شيخ الركب لم يجد ما يحمل عليه فلم يلتفت إليه الركب بل ذهب جميعه وتخلف سيد أحمد بن حمود وسيدي أحمد الطيب والعبد الزابر لهذه الرحلة مع أصحاب الجميع فرجعنا إلى منزل الركب فحططنا الرحال عند خيمة الشيخ فصلينا الصبح وانتظرنا من يكري له بعد سويعات كذلك إلى طلوع الشمس وإذا بالشيخ قد اكترى لنفسه ولأصحابه والركب وذهب بأجمعه وتركنا وراءه فالبعض منا يقول ننتظر المصري لأنه يرتحل عند الزوال ومنا من يقول نذهب على بركة الله حسن عونه إذ نحن في جماعة كثيرة غير أن المحاربين إذا أتوا في كثرة فلا طاقة لنا معهم.

ثم وقع الاتفاق منا على المشي من غير تأخير ولا انتظار فعزمنا وارتحلنا ساعتئذ فضبعْنا منه فسرنا كذلك من غير بأس ولا خوف إلى أن وصلنا عيون الأقصاب فوجدنا ركبنا نازلاً هناك فبيّتنا فيه خير مبيت ونحن لا سمن عندنا فاشترينا في هذا الموضع عكة سمن ونعم السمن هو ذوقاً بل وضع الله فيه البركة العظيمة قد شاهدناها عياناً ونحن جماعة كثيرة.

وقد كان معنا في الزاد الفاضل الكامل سيد علي نجل العالِم الفاضل الخطي المحدث سيدي عبد المؤمن البجائي الذي كان مفتياً فيها وسيدي علي هذا قد استوطن محروسة الجزائر وترك داره في بجاية أجزل الله خيره وجعل البركة في دينه ودنياه وكان لنا له ولذريته بالخير والتوفيق والعلم والعمل والغنى والكفاف والزهد والعفاف إلى غابر الدهر ثم إن هذا السمن فهي خير عظيم وفضل جسيم وما شهدنا ذلك إلا من الإحسان لإخواننا في الله مثل الود الصدوق والخل والفاروق ذي الفضائل والفواضل والمتوكل على الله الزاهد في الدنيا الراغب في الله سيدي الصالح الغربي.

وقد شاهدنا فيه أمراً عظيماً وكيف لا وهو تلميذ العالم العامل الورع الزاهد المتخلي عن الدنيا رأساً المتبتل المدرس المقتفي آثاره ﷺ سيدي أحمد بن بابلس الفليسي وقد أدركتُهُ وزُرْتُهُ في محله المعلوم وتبركت به وقد حصلت لي بركته والحمد لله وكذا ولده وقد صاحبته وجعلته أخاً في الله وهو فاضل عالِم متعبد زاهد ورع متمكن عارف منعزل في خلوته مدرس له كرامات عظيمة ومراءٍ طيبة قد زبرها تلامذته وقد رأى الله مراراً في النوم. وكذا النبي ﷺ وهو سيدي المحفوظ وان سيدي الصالح هذا صهر الشيخ أيضاً قد انفعلت سريرته له وظهرت آثار فضله عليه فلله الحمد على كونه من معارفنا وإخواننا في الله.

ثم ظعنا منه على بركة الله وحسن عونه إلى أن نزلنا مغارة سيدنا شعيب عليه السلام قرب العصر وهو قريب لمدين قال شيخنا ما نصّه وأتني رجل وبيده زيف فيه قليل عنب أسود وطرحه بإزائي لمحو عرجونين والله أعلم وقلت له أنت من مدين قال نعم وذكر أن العنب يطعم بمدين مرتين في العام وأكلت ذلك العنب ووجدته عنباً جديداً كان فيه قليل حموضة وهو طيب حلو وأكلت العنب الجديد في نصف مارس وذكر أبو سالم لما أنهم نزلوا هنا أتاهم الأعراب بأحمال كثيرة من العنب الأسود وهو غاية الحلاوة ويرمان كثير وبيع العنب أولاً بدرهمين للرطل ثم صار بعد ذلك رطل ونصف بدرهم.

ثم ظعنا فنزلنا شَرُفَ بني عطية وهو الموضع المسمى أبا العظام كما ذكره شيخنا المذكور وأما الآن فيكنى أم العظام ولا ماء فيه بتنا فيه خير مبيت ثم ارتحلنا منه آخر الليل ثم سرنا كلك إلى أن نزلنا بحفائر النخل فيه إحساء كثيرة في وسط حدائق النخل تحت ظهر الحمار وعلى سال البحر وبتنا فيه في أرغد عيش وأتمّه ثم ارتحلنا منه ونزلنا بندر العقبة أظنه عند الزوال أو بعد الظهر وبتنا فيه ليلتين واستقينا من البئر التي في وسط القصر فاشترى كل من أصحابنا كل

ما يخصه لأن فيه سوقاً عظيمة تأتيها الناس من كل فج لا سيما الملاقية من الشام وقد بقي لي جمل بعته بثلاث ريالات أبي طاقة وقد اشتريته في المدينة المشرفة بما يقرب من خمسة عشر أباطاقة أو بأزيد منه ثم ظعنا منه صبيحة ثم سرنا كذلك على شاطئ البحر إلى أن وصلنا العقبة فنزل كل من كان راكباً حتى النساء غير أن نساءنا ما نزلن في الطلعة ولا في الرجعة ولا أزيل عنهن الخدر فلله الفضل والمنّة وكذا لم يصبهن ظمأ ولا نصب كثير ولا مخمصة.

وكذا أصحابنا فإنهم مرضى غير أن الله تفضّل علينا فلم يبقَ أحد منهم وقد ركب الجميع مع العيش الرغد والماء الكثير ثم كذلك إلى أن نزلنا السطح عند القيلولة فلما حان وقت الظهر صليناه فاختلفت الحجاج فمنهم من يريد الارتحال ومنهم من يريد المبيت فراودناهم الاتفاق أنا والفاضل سيدي عبدالله بن رحاب فلم يساعدنا للارتحال سلطان فزان فارتحل جميعنا فلم يبق إلا ركبة ثم ارتحل ورامنا آخر الليل ونحن سرنا كذلك إلى الليل فبتنا ثم سرنا آخر الليل ثم سرنا كذلك إلى أن مررنا ببئر العلائي المسماة الآن ببئر الصعاليك وتوضأنا وصلينا الظهر عندها وماؤها اقبح المياه غير أن فيه برودة وبئره طويلة كبيرة ثم تجاوزناها إلى الليل فبتنا خير مبيت ثم ظعنا ونزلنا النخيل عند الظهر أو قربه والله أعلم ووجدنا به الملاقي وبيع فيه الفول برخص وكذا الشعير وسائر لأطعمة ثم بتنا فهي خير مبيت وماؤه كثير جداً فوجدنا فسقيانه مملوءة فاغترف الجميع من واحدة فلم يوثروا فيها شيئاً.

ثم ظعنا آخر الليل وانفصلت عن هذا البندر إذ فيه قصر عظيم وعمارة حوانيت ولما ذهبنا سويعة وإذا بولد خالي الفاضل الكامل الشريف نجل ابن عمنا سيدي عبدالعزيز ابن سيدي محمد جدي من قبل أمي عم لأبي سيدي الحاج أحمد رزوق هذا قد حجّ في زمان الشيخ عبدالباقي والخرشي وكان فقيهاً

يحفظ العقائد الثلاث متناً وشرحاً وكان يتعلم عليه ولد الشيخ عبدالباقي حين كان صغيراً وهو الشيخ محمد الزرقاني شارح الموطأ وشارح المذاهب الدينية وكان من أكبر المحدثين وقد سمعنا عنه حكاية عظيمة وهي أنه كان يحضر مع والده مجلس الشيخ الخرشي وكان لا يقرأ الحديث إلا إذا حضر الشيخ محمد.

فتأخر عن الدرس ذات يوم فمسك الشيخ عن الحديث فقيل له إن لم يأت الشيخ محمد فلا تقرأ فقال نعم ثم قال إني سمعت رسول الله ﷺ يقول لا تقرأ حديثي حتى يأتي الشيخ محمد وكان في عصره يسمى مالكاً الصغير (نعم) سمعت أنه كان يعلم على جدي أول أمره بإذن الشيخ عبدالباقي والده وأنه ذات يوم في مجلسه ألقى الولد على الجد مسالة من مسائل الإعراب وهي كل إنسان وصَنْعَتُهُ وكل صانع وما صنع والجد وإن كان يعرف النحو غير أن أهل وطننا لا يشتغلون بالإعراب أتمّ اشتغال وإنما آدابهم الفقه وأصول الكلام وأما مسائل الإعراب والمنطق والتصريف والبيان والأصول فعلى طرف اللثام فلما لم يعرفه الجد إعراباً شافياً قام الولد أعني الشيخ محمداً فتفوه للجد وأساء معه الأدب لما علمت » (الورثيلاني، ص 546-549).

-84-

ايلـة مـرة أخـرى

1- ايلــة : (الروض المعطار / الحميري: ص **70-71**)

« أيلة[1]: في طريق مكة، حاطها الله، من مصر، وهي أول حد الحجاز، وهي مدينة جليلة القدر على ساحل البحر المالح بها يجتمع حاجّ مصر والمغرب، وبها التجارة الكثيرة وأهلها أخلاط من الناس. وسميت بأيلة بنت مدين قالوا: وأيلة القرية التي كانت حاضرة البحر المذكورة في القرآن.

(1) رحلة الناصري: 201-202.

قال ابن إسحاق[1]: ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية وكتب له كتاب أَمَنَةٍ هو مذكور في سير ابن إسحاق. وروى أبو حميد الساعدي في خبر تبوك أن صاحب أيلة أهدى للنبي ﷺ بغلة بيضاء وكساه برداً وكتب له.

وتسير من أيلة فتلقى العقبة التي لا يصعدها راكب لصعوبتها ولا تقطع إلا في طول اليوم لطولها ثم تسير مرحلتين في فحص التيه[2]، وإيلة حد مملكة الروم في الزمن الغابر وعلى ميل منها كان معقود لقيصر قد كان مُسَلَّحتُهُ يأخذون [عنده] المكوس. ومن أيلة إلى بيت المقدس ست مراحل، والطور الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام على يوم وليلة من أيلة، وينزلها اليوم قوم من بني أمية وأكثرهم موالي عثمان رضي الله عنه كانوا سقاة الحاج، وبها علم كثير وآداب ومتاجر وأسواق عامرة، وهي كثيرة النخل والزرع وأصلح عقبة أيلة فائق مولى خمارويه بن أحمد بن طولون وسوّى طريقها وردم ما استردم فيها، وبأيلة أسواق ومساجد، وفيها كثير من اليهود يزعمون أن عندهم برد لنبي ﷺ وأنه وجهه إليهم أماناً وهم يظهرونه رداءاً عدنياً ملفوفاً في الثياب قد أبرز منه مقدار شبر فقط.

ثم أصلحها السلطان [الأشرف قانصوه الغوري آخر ملوك الجراكسة من جملة ما أصلح في طريق الحجاج في أواخر عمره قبل العشرين والسبعمائة] (الحميري: ص 70-71).

2- أيلـة : (كتاب الجغرافيا / المغربي: ص 161)

«أيلة: وتقع أيلة على رأس خورها الخارج من بحر القلزم، حيث الطول ثمان وخمسون درجة وأربعون دقيق والعرض ثلاثون درجة وخمسون دقيقة.

---

(1) ابن هشام 525:2.

(2) المقصود هنا هو النقب، وقد شرحناه في الجزء الأول من هذا الكتاب.

وكانت من قواعد اليهود فخربت. وفي شمالها العقبة الشاقة المنسوبة إليها، يسير الراكب من أولها إلى آخرها مرحلة. وفي شماليها يقع الشوبك حيث الطول سبع وخمسون درجة والعرض إحدى وثلاثون درجة. وتقع الكرك المشهورة في شماليها، حيث الطول ست وخمسون درجة وخمسون دقيقة والعرض إحدى وثلاثون درجة ونصف» (المغربي: ص 151).

3- أيلـة : (الموسوعة الإسلامية: ص 207-209)

«أيلة» اسم ميناء في الزاوية الشمالية الشرقية من خليج العقبة، على خط عرض 29.30° شمالاً وعلى خط طول 35° شرقي جرنتش. وهي قائمة شمالي ظهر جبل أم نصيلة المنحدر انحداراً شديداً. والاسم العربي أيلة أو ويلة يقابل الاسم العبري إيليم، إيلات إيلوت، وهو بالأرامية إيلون أو إيلونا، وباليونانية وباللاتينية Ailath, Aelath, Aelana, Leena Helim. Aila .

وكانت أيلة في القرون القديمة وفي القرون الوسطى كذلك، لها شأن عظيم في التجارة البحرية وفي تجارة القوافل لأن موضعها في أقصى خليج العقبة كان ملتقى القوافل التي كانت تذهب من مصر إلى أواسط بلاد العرب وكذلك القوافل التي كانت تتجه من الموانئ الفينيقية الفلسطينية إلى جنوب بلاد العرب. ولهذا جعل بنو إسرائيل الاستيلاء عليها نصب عيونهم عندما كانوا يكافحون لبسط سلطانهم، ونجح داود الذي أخضع أيدوم كلها في فتح أيلة[1]. وفقد سليمان الجزء الشرقي من إيدوم حتى حداد (أي بئر خداد قرب الشوبك)

---

(1) هذا برهان أن أيلة كانت العاصمة البحرية لمملكة أدوم (إيدوم) المعروفة بصراعها المرير مع بني إسرائيل، وأن أيلة كانت المنفذ البحري لهذه الدولة، ونقطة الاتصال مع الشرق وبلاد اليمن وفلسطين وشرق إفريقيا ومصر، وربما جنوب القارة السوداء أيضاً. فطالما يوجد ثغر بحري لأية دولة، فلابد من آثار ومخلفات لها تصل السفن إليها.

ولكن الجانب الغربي منها ظل جزءاً من مملكة يهوذا التي ظلت في حوزته، واستعان بالفينيقيين على بناء سفن تجارية في أيلة (انظر سفر الملوك الأول، إصحاح 9، فقرة 26 وأخبار الأيام الثاني، إصحاح 26 فقرة 2) ولا نجد ذكراً لهذه لمدينة بعد وفاته. وظلت أيلة زمناً ما تباعة لدولة يهوذا وأقام عزيا فيها الحصون (انظر: سفر الملوك الثاني، إصحاح 26 فقرة 2) ولكنها سقطت بعد ذلك في يد أهل إيدوم ثم استولى عليها النبط.

وفي سنة 105 م استولى الروم على أيلة وضموها إلى ولايتهم العربية[1]. ونجد هذه المدينة تذكر في مستهل القرن الرابع الميلادي باعتبارها جزءاً من ولاية فلسطين وبوصفها معسكراً لفرقة من الجيش ويرجع هذا إلى أن الطرق الحربية كانت تصل بينها وبين سورية وفلسطين[2].

واستقرت المسيحية في أيلة في عصر متقدم؛ فإن بطرس أسقف أيلة كان من بين من وقعوا قرار مجمع نيقية. وعندما تضعضعت قوة بيزنطة على تخوم أيلة كسدت تجارتها لأن أيلة والبلاد المحيطة بها كانت خاضعة لنفوذ الأمراء من بني غسان.

وفي العام التاسع الهجري (630 م) صالح يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة. ويقول المسعودي إنه كان أسقفها - النبيّ على جزية قدرها 300 دينار وكان

(1) الولاية العربية في زمن روما، كانت تتألف من بلاد الشام والأردن.

(2) نجد أن إلحاقها بفلسطين في زمن الدولة البيزنطية، بسبب سهولة الطرق والمواصلات مع البحر المتوسط وساحله وبالتالي مع روما مركز الدولة البيزنطية الرئيسي مضافاً إلى القسطنطينية أكثر منها عبر شرق الأردن ذات الجبال الوعرة، والصحراء الصعبة. ولكن ذلك لا ينفي وجود طريق عبر وادي عربة حتى طبريا، ليجعل أيلة مرتبطة مع فلسطين والأردن كليهما على حدٍّ سواء في وقت واحد، وتكون متنفساً بحرياً لكليهما، وهذا ما نجده، حتى في الدول الحديثة في بعض المواقع.

ذلك في غزوة تبوك. ولقاء هذا لم يصب المدينة أي ضرر على يد جيوش المسلمين، بل انتشر فيها الرخاء.

ولما أصبحت الميناء غير صالحة للملاحة نقلت إلى الجنوب من موقعها الأول وأقيمت المدينة في هذه الجهة. وهجر الناس أيلة القديمة منذ القرن التاسع أما مدينة ويلة الجديدة واسمها مشتق من « أيلة » فكانت في عهد الخلفاء مركزاً للثقافة العقلية والثقافة المادية.

وأمر أحمد بن طولون (254-270 هـ / 868-883 م) بإنشاء طريق جديد على حافة جبل أم نصيلة بدلاً من طريق القوافل القديمة الذي كان ضيقاً محصوراً بين منحدر الجبل من ناحية وبين البحر من ناحية أخرى، فكانت تطغى عليه الأمواج في أغلب الأحيان. وسمي هذا الممر العميق « عقبة أيلة » نسبة إلى المدينة التي كانت تجاوره.

وأراد الصليبيون أن يبسطوا سلطانهم على البحر الأحمر أيضاً فظهرت جيوشهم في أيلة سنة 1116 وضموها إلى الإقليم الذي كان يحكمه « كراك دون مونتريال » Crac don Montreal ، وأقاموا الحصون في جزيرة صغيرة أمام أيلة وأنشأوا في المدينة نفسه حصناً صغيراً فحصروا بذلك الاتصال بين مصر وبلاد العرب (سورية). ولهذا كان لابد لصلاح الدين من استعادة المدينة والجزيرة فأرسل عمارة من السفن إلى خليج أيلة، نقل أخشابها مفككة على ظهور الإبل ثم حاصر المدينة والجزيرة واستولى عليهما سنة 1171. وحدثت حادثة شبيهة بهذه عندما نقل رجنالد أمير حصن الكرك عمارة من السفن إلى هذه الجهة وحاصر بها حامية المسلمين فضيق الخناق عليهم. وفي هذا الحصار دمرت حصون الجزيرة وهدم جانب من المدينة ولكنها سرعان ما استعادت مجدها في عهد حكام حصن الكرك من بني أيوب ومن المماليك.

وكانت الفتن التي نشبت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر سبباً في القضاء على تجارة أيلة وفي دمار المدينة نفسها وبقي منها فقط القلعة الموجودة على أرض القارة لتحمي العقبة طريق الحجاج الوافدين من مصر. وسميت المدينة بعد ذلك باسم العقبة فقط وأسقط من التسمية اسم أيلة.

والعقبة في الوقت الحاضر من أعمال الحجاز وهو ولاية تركية، وليست من أعمال الشام. وقد اتصلت المواصلات البرقية أخيراً بينها وبين معان ودمشق وهي مقر محافظ (شريف) يخضع لوالي جدة[1].

وفي سنة 1898 كان في العقبة نحو 50 كوخاً يبدو عليها البؤس والفاقة أقيمت على سهل كلسي، بين جبل أم نصيلة والبحر. وفي نصف القرية الجنوبي تقوم القلعة المربعة ويحيط بها خيام على شكل نصف الدائرة، وفيها حامية قوامها 220 جندياً. وترسو السفن التركية في هذا المكان مرتين أو ثلاثاً كل سنة لتسريح الجنود أو لتمدهم بالمؤونة. وجو هذه البقعة غير صحي ومياه ينابيعها العديدة القريبة من البحر ملحة تنشر الحميات.

ويعيش سكانها في الغالب على التجارة وعلى الزراعة أيضاً في حالات قليلة، وهم يزرعون أشجار النخيل. ويملك زعماء البدو نحو 3500 نخلة على مقربة من العقبة وهم يدفعون لسكان القرية نحو نصف محصولها أو ثلثيه أو ثلاثة أرباعه لقاء زرعها، ولا يُصاد السمك في هذا المكان، ولم يكن في سنة 1898 سفينة واحدة في القرية كلها.

ولم يبق من آثار أيلة إلا القليل على بُعد ميل وربع ناحية الشمال. وفي الجنوب الشرقي من هذه الآثار يوجد الآن شجرة سيال (سيله جرمى) يقدسها

(1) كانت العقبة تابعة للإدارة الحجازية فترة من الوقت ثم اعيدت إلى الوطن الأم، وهو الأردن، أرضاً وإدارةً وسياسةً وسكاناً.

الناس ويعتقدون أن روحها تسكنها. وهذا شيء جدير بالملاحظة فإن اسم أيلة القديم وهو إيلات ومعناها شجرة مقدسة يظهر أنه نسبة إلى هذه الشجرة.

المصادر:

1- Arabia Petraea: Musil ، ج 2 ، ص 305 وما بعدها وج 2 (أ)، ص 256 وما بعدها وج 2 (ب) ص 187 وما بعدها وج3، ص 47.

[موسيل A. Musil]

-85-

بحـــر القلـــزم

(الموسوعة الإسلامية: ص 382-384)

« بحر القلزم » البحر الأحمر لم يستعمل العرب الأسماء القديمة التي تُطلق على البحر الأحمر في حين أنهم عرفوا الاسم العبري لبحر البوص (يام سوف) وأطلقوه خطأً على البحر الأحمر كله، وهم يطلقون عليه غالباً اسم بحر القلزم نسبة لمدينة القلزم التي كانت معروفة قديماً باسم كليسما Klysma في أقصى شمال هذا البحر بالقرب من مدينة السويس. أما اسم بحر الحجاز فهو شائع الاستعمال ومذكور في « المحيط التركي » وفي المصورات الجغرافية الحديثة، في حين أن اسم بحر السويس لا يُطلق إلا على خليج السويس أما خليج العقبة فيسمى خليج أيلة وهو يُعرف الآن باسم بحر العقبة. وقد طغت الرمال على مدينتي أيلة وقلزم شأنهما في ذلك شأن جميع الثغور في الأراضي الجبلية المرتفعة.

وتذهب الرواية الإسلامية إلى أن بحر المحيط الذي يحيط بالعالم يتفرع منه بحر كبير في الشرق وبحر آخر في الغرب. وهذان البحران يقتربان من بعضهما أشد الاقتراب عند قلزم والفرما (برزخ السويس). والقسم المتوغل جهة الغرب من البحر الشرقي المعروف كذلك باسم البحر الصيني أو البحر الهندي هو بحر

القلزم. وحد هذا البحر جهة الشمال معلوم، أما جهة الجنوب في حده يواز باب المندب، ويَعُدُّ البعض كذلك خليج عدن الخليج البربري (نسبة إلى بربرا) نهاية لبحر القلزم، وقد وصف معظم الجغرافيين البلاد على شاطئ هذا البحر ابتداءً من باب المندب. وكان بوغاز باب المندب الضيق باعثاً لقيام أسطورة من الأساطير تذهب إلى أن البحر الأحمر كان في سالف الأزمان أرضاً خصبة فجاء ملك وقدّ الجبل الموجود عند باب المندب بقصد إغراق بلاد العدو بواسطة قناة صغيرة تتصل بالمحيط الهندي، غير أن مياه المحيط بأجمعها اندفعت إلى داخل هذه الأراضي فكونت بذلك بحراً مكان البلاد المزدهرة.

وقد ذكرت المعلومات الآتية فيما يختص باتساع هذا البحر: يقطع المسافر طول هذا البحر في ثلاثين مرحلة كما يبلغ عرضه في أوسع نواحيه مسيرة ثلاثة أيام، أي أن طوله 1500 ميل وعرضه 400 ميل (يذكر البعض أن عرضه 90 ميلاً) والصحيح هو أن طول هذا البحر من السويس حتى باب المندب 2240 كيلومتراً كما يبلغ عرضه في أوسع نواحيه 350 كيلومتراً.

ولبحر القلزم شهرة سيئة عند العرب بسبب الزوابع والصخور التي به (الحواجز المرجانية) وخاصة في الجزء الشمالي منه، ولهذا السبب تتجنب السفن التجارية السير فيه (انظر مادة عيذاب). وكانوا يخشون كذلك الملاحة عند الطرف الجنوبي لشبه جزيرة سيناء بسبب اصطفاق الرياح التي تهب من ناحية شعبتيه الشماليتين وخاصة بالقرب من جزائر تيران التي كثيراً ما تعرف في المصادر العربية باسم تاريان وهي عند مدخل خليج العقبة وعند جُبال التي هي عين جبيلات أو جبيلان على مدخل خليج السويس، وهم يذكرون أن فرعون مصر وجيشه هلك في تلك المنطقة في بحر القلزم، وتلك هي القصة التي ورد ذكرها كثيراً في القرآن الكريم. ويذكر القلقشندي (ضوء الصبح، ص 225) والعمري

(التعريف، ص 123) أن بحر البوص يسمى بركة الغرندل وهي عين سُرُنْدَلَة أو أرنْدَرة المذكورة في كتب الحجاج المسيحيين. وبسبب العواصف في هذا البحر فإن السفن كانت ولا تزال تسير بالقرب من الشاطئ إبان النهار فإذا ما أرخى الليل سدوله ألقت مراسيها منزوية بين الحواجز المرجانية.

ومع ذلك فقد كانت التجارة مزدهرة منذ عهد قديم في البحر الأحمر. وفي بداية العهد الإسلامي كانت هناك قناة تربط النيل بالقلزم وكانت السفن المحملة بالغلال تجري ما بين الفسطاط و « الجار » ثغر المدينة. وكانت السفن التي تنقل التجارة ما بين أوروبا والهند والتي كانت في أيدي اليهود تقطع برزخ السويس ثم تتابع السير في البحر الأحمر دون أن تقف بالسواحل المصرية حتى تصل الحجاز وجدة، ومن هناك تتابع السير إلى الهند والصين. وفي عهد ازدهار الخلافة العباسية كانت تجارة التوابل العظيمة تأخذ عادة طريق بغداد، ولكنها تحولت كذلك نحو وادي النيل نتيجة للمكانة الهامة التي أخذت تحتلها مصر.

وكانت عدن أهم مرسى لهذه السفن ومن هناك تبحر نحو موانئ الحجاز ونحو القصير وميناء قوص المصري ثم كانت تذهب بعد ذلك طيلة عدة قرون إلى ميناء عيذاب. ولم تصبح لمدينة الطور التي في الشمال عند سفح جبال سيناء أهمية كبرى إلا منذ نهاية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي). وأدت حركة الحجاج إلى قيام الصلات القوية بين القصير وعيذاب والطور وجدة من جهة أخرى كما أدت إلى قيام الصلات بين جدة والموانئ الجنوبية. ويظهر أن حركة الملاحة في النصف الجنوبي من البحر الأحمر كانت في جميع الأوقات أنشط منها في الجزء الشمالي منه وذلك بسبب الحضارة القديمة التي للأقاليم التي على شواطئه وكذلك بسبب اعتدال الرياح في ذلك النصف الجنوبي، وربطت الصلات القديمة بصفة خاصة ما بين اليمن والحبشة. وكان باب المندب والمناطق بالقرب منه بمثابة معبر مشهور أمام الشعوب المختلفة.

وقد درس كلونزنجر Klunzinger في كتابه Oberagypten شعوب البحر الأحمر وحركة هذا البحر وسير السفن فيه ونشاط ثغوره. وفي لغة الأهالي الذين يسكنون شواطئ هذا البحر عدد من الألفاظ المستعملة بين أهل الشاطئ الشرقي لإفريقية والتي تشبه اللغة المستعملة بين أهل المحيط الهندي. وقد حاولوا بمختلف أنواع السحر تجنب الأهوال التي تكتنف السفر في ذلك البحر، تلك الأهوال التي كثيراً ما وصفها الرحالة العرب. ونجد بعضها مذكوراً Archiv fur Religions-wissenschaft (ج11 عام 1908، ص157 وما بعدها).

والأماكن التي على بحر القلزم والتي سنذكرها فيما بعد تصطبغ بالصبغة الأسطورية. وهم يقولون إن حبل المغناطيس جنوبي القلزم يجذب الحديد، ولذلك فإن السفن التي تبنى في تلك الجهة لا يدخل الحديد في بنائها وإن جزيرة الجهة الجسّاسة أو الجاسة عبارة عن حيوان يتلقط الأخبار بقصد إبلاغها إلى الدجال ويتحدثون كذلك عن الأسماك التي يبلغ طول الواحدة منها أكثر من مائتي ذراع والأسماك التي تشبه رؤوسها رأس البومة وغير ذلك من الحيوانات البحرية العجيبة. وأساس هذه الروايات كلها إما أن يكون ملاحظات غير دقيقة وإما أن يكون من نسج الأساطير الشرقية مثل قصة الإسكندر.

المصادر:

1- ياقوت: معجم البلدان، ج 1، ص 503، ج 4، ص 158.
2- المكتبة الجغرافية العربية، ج 3، ص 2، ج 6، ص 153.
3- الإدريسي، طبعة دوزي وده غوى، ص 164، 195.
4- القفشندي، ترجمة فستنفلد، ص 169.
5- القلقشندي: ضوء الصبح، ص 224.
6- المقريزي: الخطط، ج 1، ص 16-17.
7- ابن الوردى: جزيرة العجائب، القاهرة عام 1316، ص 96-97.
8- Bittner et Dic topographischen Capitel: Tomaschck des indischen Seesdiegels Mohit فينا عام 1897.

9- Bilder: C.B. Klunzing aus Obergypte, per Wuste und dem rotten Meer.
10- Das: von Neimans Roths Meer und Kustenlander im JAHRE 1857 IN Handelspolitischer Beziehung
11- Zeitschr. D. Deutsch. Morgenl. Ges.
12- Levantehandel. Heyd
13- W. Weber

-86-

البتـراء ومِدْيَـن

1- البتراء : (معجم ما استعجم / البكري: ج 1، ص 224)

« البترا: تأنيث أبْتر. ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما غزا بن لِحْيَان، سار على غُرَاب، جَبَل بناحية المدينة، على طريق الشام، ثم على البتراء. هكذا اتفقت الروايات عن ابن هشام عنه. وهذا اسم مجهول في المواضع. وصوابه النفراء، والله أعلم، ثم على النّفراء، بالنون والفاء، وهي تلقاء ديار بني لِحْيان. وقال ابن إسحاق عند ذكر مساجد رسول الله ﷺ بين ألْمَدْيَنْ وتبوك: « ومسجد بطرف البتراء من ذنب كواكب ». كذا قال: كواكبن وإنما هو كوكب؛ والله أعلم. وهو جبل في ذلك الشقّ، في بلاد بني الحارث بن كعب.

2- البتراء : (معجم البلدان / الحموي: ج 1، ص 335)

« البتراء: كأنه تأنيث الأبتر: موضع ذكره في غزو النبي ﷺ لبني لِحْيان؛ قال ابن هشام: سلك النبي ﷺ على غُراب ثم على مَخيض ثم على البتراء؛ وذكر ابن إسحاق في مساجد النبي ﷺ في طريقه إلى تبوك فقال: ومسجد بطرف البتراء من ذنَب الكواكب.

3- مَدْين : (المسالك والممالك / ابن خرداذبة: ص 129، 149، 190، ص 248)

ورد ذكرها في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة في أكثر من موقع. وقد ذكرها ابن خرداذبة في معرض حديثه عن المدينة المنورة.

« ... ومنها الفُرْع وذو المرْوَة ووادي القُرى ومَدْيَن وطَيّر...» (ابن خرداذبة: ص 129). وفي وصف الطريق من مصر إلى مكة. « ثم إلى ايلة، ثم إلى حَقْل، ثم إلى مَدْيَن، ثم إلى الإغراء، ... » (ابن خرداذبة: ص 149). وفي بند من كتاب الخراج لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي في وصفه الطريق من مصر إلى مكة. فيقول: « ... منزل أيلة، شرف البحل، مَدْيَن، الإغراء، منزل الكلأبة... » (ابن خرداذبة: ص 190).

وفي نفس البند من كتاب الخراج. «... ويثرب، وتيما دومة الجندل، والفرع، وذي المروة، ووادي القرى، مَدْيَن، خيبر، فدك...» (ابن خرداذبة: ص248).

4- مَدْيَـن : (..... ابن حوقل: ص 32-33)

وتبوك بين الحِجْر وبين أول الشأم على أربع مراحل في نحو نصف طريق الشام وهي حصن وله عين ماء ونخيل وحائط يُنسب إلى النبي ﷺ ، ويقال أن أصحاب الأيْكَة الذين بعث الله إليهم شعيباً كانوا بها ولم يكن شعيب منهم وإنما كان من مدين، ومدين على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو ست مراحل ومدين أكبر من تبوك وبها البئر التي استسقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب وهي بئر مغطاة قد عُمل عليها بيت؛ وماء أهلها من عين تجري لهم ومدين اسم القبيلة التي كان منها شعيب وإنما سميت القرية بهم ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف: 85] (ابن حوقل: ص 32-33).

5- مَدْين / وأيلة : (أحسن التقاسيم / المقدسي: ص 179)

« على تخوم الحجاز، في الحقيقة لأن جزيرة العرب كلها (كل ما) دار عليه البحر ومدين في هذه الخطة، وثمَّ ألْحَجَر الذي رفعه موسى عليه السلام حين سقى غنم شعيب والماء بها غزير، وأرطالهم شامية. وفي ويلة (أيلة) تنازع بين الشاميين

والحجازيين والمصريين كما في عبّادان وإضافتها إلى الشام أصوب لأن رسومهم وأرطالهم شامية وهي فرضة فلسطين ومنها يقع جلابهم. وتبوك مدينة صغيرة بها مسجد النبي ﷺ (المقدسي: ص 179).

6- مديـن : (معجم ما استعجم / البكري: ج 4، ص 1201)

« مَدْيَن: بلد بالشام معلوم تلقاء غزة، وهو المذكور في كتاب الله تعالى.

وبعث رسول الله ﷺ سريّة إلى مدين، أميرهم زيد بن حارثة، فأصاب سَبْياً من أهل ميناء، قال ابن إسحاق: وميناء هي السواحل، فبيعوا، وفُرِّقَ بين الأمهات وأولادهن، فخرج رسول الله ﷺ وهم يبكون، فقال: ما لهم. فأخبر خَبَرَهم، فقال: لا تبيعوهم إلا جميعاً.

ومَدْين[1]: منازل جذام. والصحيح في نسبه أنه جُذام بن عيدّ بن الحارث بن مُرَّة بن أُدَد بن زيد بن عمر بن عريب بن زيد بن كهلان. وشعيب النبي عليه السلام المبعوث إلى أهل مدين أحد بني وائل من جذام. وقال النبي ﷺ لوفد جُذام: مرحباً بقوم شعيب. وأصْهار موسى، ولا تقوم الساعة حتى يتزوّج فيكم المسيح، ويولَدَ له. قال محمد بن سهْل الأحْوَل: ومدين من أعراض المدينة أيضاً، مثل فَدَكَ والفُرْعِ ورُهَاط » (البكري: ج 4، ص 1201).

7- مديـن : (معجم البلدان / الحموي: ص 77-78)

« مدين: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وفتح الباء المثناء من تحت، وآخره نون؛ قال أبو زيد: مدين على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل وهي

(1) هذا يبرهن أن مدين هم بطن من بطون جذام، وأن سيدنا شعيب عليه السلام وهو من جذام نزل في بطن من قبيلته. وأن بلاد مدين تمتد جنوباً حتى شواطئ بحر العقبة (القلزم) محاذية لتبوك ثم تمتد شمالاً لتشمل معان والكرك وما حولهما. ومدين: قبيلة عربية ولا علاقة له بالنبي إبراهيم عليه السلام .

أكبر من تبوك وبها البئر الذي استقى منها موسى ﷺ لسائمة شعيب، قال: ورأيت هذه البئر مغطاة قد بني عليها بيت وماء أهلها من عين تجري، ومدين اسم القبيلة، وهي في الإقليم الثالث، طولها إحدى وستون درجة وثلث، وعرضها تسع وعشرون درجة، وهي مدينة قوم شعيب سميت بمدين بن إبراهيم ﷺ ، قال القاضي أبو عبدالله القُضاعي: مدين وحيزها من كورة مصر القبلية، وقال الحازمي: بين وادي القرى والشام، وقيل: مدين تجاه تبوك بين المدينة والشام على ست مراحل وبها استقى موسى ﷺ لبنات شعيب وبها بئر قد بني عليها ببيت، وقيل: مدين اسم القبيلة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف: 85] ؛ وقيل: مدين هي كفر مندة من أعمال طبرية وعنده أيضاً البئر والصخرة، وقد ذكر ذلك في كفرمندة؛ قال كثير:

رُهبان مدين والذين عهدتُهم   يبكون من حذر العِقاب قُعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها   خرُّوا لعزَّة رُكَّعاً وسجودَا

وقال كُثيّر أيضاً:

يا أم خَرْزَةَ ما رأينا مثالكم   في الُمنجدين ولا بغَوْر الغاير
رُهبانُ مدينَ لو رأوْك تنزَّلوا   والعُصمُ في ضَعَف الجبال الفاجر

وقال ابن هَرْمة يمدح عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك:

ومعجب بمديح الشعر يمنعه   من المديح ثواب المدْح والشفقُ
لأنتَ والمدحُ كالعَذراءِ يعجِبها   مَسُّ الرجال ويثني قلبها الفَرَقُ
لكن بمدْيَنَ من مفضى سُويمرة   من لا يُذمُّ ولا يُثنى له خُلُقُ
أهل المدائح تأتيه فتمدحه،   والمادحون بما قالوا له صدَقوا

يكـادُ بـابُك مـن جـود ومـن كـرم   مـن دونِ بَوّابـه للـناس يـندلق»

(الحموي: ج 5، ص 77-78)

8- مدين : (آثار البلاد وأخبار العباد / القزويني: ص **261**)

« مَدْين: مدينة قوم شعيب ﷺ . بناها مدين بن إبراهيم الخليل جدّ شعيب[1]، وهي تجارة تبوك بين المدينة والشام. بها البئر التي استقى منها موسى، ﷺ لماشية شعيب؛ قيل: إن البئر مغطاة وعليها بيت يزوره الناس. وقيل: مدين هي كفرمندة من أعمال طبرية، وبها البئر وعندها الصخرة التي قلعها موسى، وهي باقية إلى الآن، وقد مرّ ذكره في كفرمندة » (القزويني: ص 261).

9- مدين : (تلخيص الآثار / الياكوتي: ص **30** (أ) + ص **30** (ب))

«مدين: مدينة قوم شعيب بناها مدين بن إبراهيم جدّ شعيب ﷺ وهي تجاه تبوك بين المدينة والشام بها البير الذي استقى منها موسى ﷺ لماشية شعيب ﷺ قيل إن البير مغطاة عليها، بير تزوره الناس وقيل مدين وهي كفرمندة من أعمال طبرية » (الياكوتي: ص 30 (أ) + ص 30 (ب)).

10- مدين : (الروض المعطار / الحميري: ص **525-526**)

« مدين[1]: بالشام على ساحل بحر القلزم، وهي أكبر من تبوك، وبها البئر التي استقى منها موسى ﷺ لسائمة شعيب ﷺ قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ

---

(1) سيدنا شعيب ﷺ جذامي من بني وائل من جذام من عرب اليمن، ولا علاقة له نسباً بسيدنا إبراهيم، وأنا أثق برواية البكري، وأعتمدها، ولكن هذه الرواية لدى القزويني غير مقنعة بالنسبة لي.

(2) نزهة المشتاق: 112، وابن الوادي: 24، وصبح الأعشى 188: 3، وانظر ياقوت (مدين) وفي رحلة الناصري: ص 205 نقل عن الروض.

مَدْيَنَ ﴾ [القصص: 23]، ويحكى أنها بئر معطلة[1]، وسميت مدين بالقبيلة التي كان منها شعيب ﷺ، وفيه معايش ضيقة وتجارات كاسدة، ومن مدين إلى أيلة خمس مراحل.

ومدين الذي سميت به البلدة هو مدين بن إبراهيم ﷺ. وفي القرآن ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف: 85]، وقال بعضهم[2]: لم يكن شعيب ﷺ من ذرية إبراهيم ﷺ، وإنما هو من ذرية بعض من آمن به، وهم أصحاب الأيكة من ولد مدين بن إبراهيم، وسلّط الله على قومه حرّاً شديداً أخذ بأنفاسهم، ثم بعث الله سحابة فوجدوا لها برداً، فلما صاروا تحتها أرسلها عليهم ناراً، فذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ [الشعراء: 189]، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلى، وكانوا أهل كفر بالله وبخس في المكيال والميزان.

وزعم قوم أن أهل مدين بعث الله إليهم شعيباً من العرب العاربة والأمم الداثرة وليسوا من ولد مدين بن إبراهيم.

ومدين[3] في الطريق من مدينة النبي ﷺ إلى مصر وهي بين جبال شامخة متكائدة[4]، وبقرب مدين البئر التي استقى منها موسى ﷺ، قد بني على رأسها بيت من صخر فيه قناديل معلقة، وبها كهف شعيب كان يؤوي إلى غنمه، وفي الجبال التي هناك بيوت منقورة في صخر صم قد حُفر في البيوت قبور، وفي تلك القبور عظام بالية كأمثال عظام الإبل، يكون مقدار كل بيت عشرين ذراعاً أو

---

(1) ع ص: معظمة.
(2) الطبري 365:1 ما بعدها.
(3) البكري: 77.
(4) البكري: أي متكاثرة.

نحوها ولتلك البيوت روائح خبيثة ولا يدخل الداخل فيها حتى يضع يده على أنفه من شدة النتن، يقال إنهم لما أخذهم عذاب يوم الظلة دخلوا فيه فهلكوا. وبقرب هذه البيوت تلال تراب عظيمة قيل إنها كانت مواضعهم[1] عامرة خسف بها.

ومع[2] يهود مدين كتاب يزعمون أن النبي ﷺ كتبه لهم، وهم يظهرونه للناس حتى الآن، وهو في قطعة أديم قد اسودت لطول الزمن عليها، إلا أن خطها بيّن، وفي آخره: وكتب علي بن أبي طالب، غير معرب[3]، وقال قوم: إنه بخط معاوية بن أبي سفيان، ولم يذكر علياً، وهو عند أهل قرية من ساحل مدين يقال لها مسي، ومن هناك لا تزال تسير والجبال تيامنك والبحر بيسارك حتى تفضي إلى أيلة » (الحميري: ص 525-526).

11- مدين : (الرحلة الورثيلانية / الورثيلاني: ص 340-343)

(قلت) « ولمدين أخبار وآثار ذكر المقريزي منها نبذة ولما صلينا العصر بالمغارة كما تقدم تجاوزنا ونزلنا بين العشاءين في بسيط أفيح ثم ارتحلنا منه يوم الثلاثاء ونزلنا عيون الأقصاب بعد العصر وهو ماء جار في مضيق بين جبلين في محل كثير القصب والديس وفي أعلى الوادي نخل وأرض صالحة للحرث قلما يخلو ذلك المحل من أعراب نزول به فيكثر الخوف ويعظم ضررهم لا سيما مع نزول الليل فيأخذ الناس حذرهم فيطلعون الرماة إلى أعلى الوادي مراقبين حتى يأخذ الناس حاجتهم من الماء ويكتفوا فيأتي الرماة لمنازلهم على شفير الوادي. وعند منزل الركب مسجد مبني بالحجارة المنحوتة ومنبر بإزائه.

---

(1) البكري: مواضع.
(2) النقل عن البكري مستمر.
(3) لعل المقصود: وكتب علي بن أبي طالب.

ثم ارتحلنا منه يوم الأربعاء إلى أن قال إلى بندر المويلح وبنينا الأخبية بحيث تقرب الأمواج من الأستار وماء هذا البندر كثير حلو فيه آبار كثيرة وبساتين حسنة ونخل وهناك حصن كبير وفيه عسكر وأمير وتخزن فيه الميرة والفول كثيراً وعلى بابه سوق كبير يوجد فيه غالب المحتاج وبه مرسى حسنة تنزل بها السفن القادمة من السويس والقادمة من جدة ومن القصير.

(تتميم) قال البكري ﷺ في ذكر المراحل من العقبة إلى المويلح ثم سرنا إلى مرحلة يقال لها ظهر الحمار وهي محطة عالية كثيرة الأوعار، يصعد إليها من عقبتين، واليمنى أوسع من اليسرى في المسلكين، قال الشاعر:

صـعدوا عـلى ظهـر الحمار لعلهم ... أن يبـلغوا بصعودهم كل الأمل
تعـب الحمـار مـن الطـريق وطولها ... ومديدها واجتثَّ من بعد الرمل
حـتى الجمال به شكت يا هل ترى ... يُقبل[1] به عذر الحمار أم الجمل

ومدة المسير إليه ثمانية من الساعات، محررة عند أهل الميقات، ثم سرنا إلى بين الجرفين، وهو مكان كأن الجبال قد قسمت به شطرين، يحترز منه أن يقذف بالحجاج، في أيام السيل إلى البحر المالح الأجاج، قال الشاعر ملغزاً فيه:

وخمسـة أجـرف في الـلفظ تقـرا ... فـإن صَـحّفْتَها صَحَّت بحرفين
وإن أسـقطت خامسـه فيتـبقى ... ثلاثـة أحرف من أصلى الفيَن

ومنها إلى الشرفة، وهي بطول السري متصفة، تتعب فيها الجمال، ولو رحلت بلا أحمال، لما فيها من الوهاد، والطلوعات الشداد، وخلف جبالها قبيلة بني عطية، المعروفين بالسرقة والأذية[2]، قال الشاعر:

---

(1) في الرحلة العياشية به: يا هل ترى نقبل.

(2) إشارة أخرى إلى بني عطية وأنهم على ساحل البحر الأحمر قرب العقبة.

إذا مـــا جـــئت للشـــرفة تـــرى العـــربان مختـــلفة
وأمـــا العيـــس فاجعـــلها بحســـن الحفـــظ متصـــفة
فـــإن مُـــنِعَتْ بحارســـها وإلا فهـــي منصـــرفة

ومدة المسير إليها خمس عشر ساعة من غير ريب، وبعدها المغار المعروف بمغار شعيب، وهو غار يتبرك به الناس، وترى فيه الحظ والإيناس، وبه الماء العذب والنخيل، وشجر المقل والإثل والظل الظليل، قال الشاعر:

قـد وصـلنا إلى مغـار شـعيب فرأيـنا الميـاه كالأنهـار
فاسـتقينا مـن مائـه واشـتفينا وظفـرنا بغايـة الأوطـار
وذكـرنا بغـاره غـار ثـور مـن حوى للصِدِّيقِ والمُختار
خـير مـن انـزل الإلـه عـليه ثـاني اثـنين إذ همـا في الغـار

ومدة المسير إليه ثمان عشرة ساعة، محررة عند الأهل الصناعة، ثم منها إلى عيون القصب، إذا نظر إليها العاجز أذهبت عنه الوصب، لأن خضرتها نضرة؛ والأشجار بها منتظمة ومنتشرة، قال الشاعر:

قـد وصـلنا لعيـون القصـب واستراح القـلب بعد النصب
وعيـون المـاء فيهـا قـد جـرت كسيول الغيث بين القصب[1]
فجلســنا بصــفاء حولهــا وظفــرنا عـندها بـالإرب
وتشــوقنا لشــاد مطــرب يتغــني بعيــون القصــب

ورأينا مجاوراً لتلك العيون، نسوة من العرب يوصفن بحسن العيون، ويتعاجبن بظفائر الشعور، فيمنعن من عقل الحب الشعور، كأنهن الأقمار،

(1) في نسخة الغصب أو الغضب.

وكأنما نبتت في وجناتهن الأزهار، فكان قطع المفاوز والأوعار، كالمتنزهات في الرياض والأزهار، قال الشاعر في بدوية اسمها ساكتة:

بـــروحي أفـــدي ظـــبية بدويـــة ... لهـــا وجهـــة فيهـــا الأزاهر نابتة
إذا رُمـــتُ منها أن تكلمني غدت ... تكـــلمني ألحاظهـــا وهي ساكتة

ومدة المسير إليها عشرة ساعات وثلاثة من ادرج، يتعب في سيرها من ركب ومن درج، ثم ارتحلنا منها إلى بندر المويلح المشهور، ورأينا بساحله المراكب من السويس والطور، فيا له من بندر فاق البنادر، يأتي إليه الوارد والصادر، وبه جملة من الكروم، التي تذهب برؤيتها الهموم، وبمخازن القلعة تودع الودائع، وإلى سوقها تساق نفائس البضائع، من ثمار تجلبها العين وزلابية[1] عجينها كاللجين فإذا قُليت أشبهت الذهب، وبهذا البندر رجل من أرباب الأحوال، حاز رتبتي الجلال والجمال، صاحٍ مجذوب، تميل إليه محبة القلوب، وله أسرار ظاهرة، ومكاشفات باهرة، يعتقده الناس، ويحصل لهم به الإيناس، لا يعرف الدرهم ولا الدينار، ولا يقبل إلا القوت عند الاضطرار، لباسه جبة من صوف، ورأسه في غالب الأوقات مكشوف، إن نطق تكلم على الخواطر، وإن صمت نطقت عليه ألسنة الناس بالثناء » (الورثيلاني: ص 430-342).

(1) الزلابية: عجين من طحين القمح تكون رخوة وتوضع كل قطعة في إيناء به زيت يغلي على النار، ثم تُقلب حتى تنضج من وجهيها، وهي مأكول مفضل لدى بدو الأردن وأهلها جميعاً. ومن طيب أكلها يقال فيها مثل: ما كلّ الأكلات زلابية، أي ليس كل الأكل دائماً بطيب أكلة الزلابية، ويُضرب المثل لمن يتعثر في موضوع، كان التوفيق حاله فيه أو في شبيهه من قبل، فيقال له: ليس كل الأكلات زلابية. وقد يتم قليها بالسمن البلدي. أما الفطير فهي خبز ساخن سميك توضع قطعة العجين على الصاج ثم تقلب حتى تنضج من الوجهين ثم تقطّع وتُدهن بالسمن أو الزبد أو الزيت، وهي أكلة مفضلة عن الأردنيين جميعاً.

-87-

1- الأيْكَة[1] : (معجم ما استعجم / البكري: ج 1، ص 215-216)

« الأيْكَة: المذكورة في كتاب الله تعالى، التي كانت منازل قوم شعيب: رُوي عن ابن عباس فيها روايتان: إحداهما أن الأيكة من مَدْين إلى شَغْب وبَدَا؛ والثانية أنها من ساحل البحر إلى مَدْيَن. قال: وكان شجرهم المُقْل؛ والأيكة عند أهل اللغة: الشجر الملتفّ، وكانوا أصحاب شجر ملتفّ. وقال قوم الأيكة: الغيضة، ولَيْكة: اسم البلد حولها، كما قيل في مكة وبكّة. قال أبو جعفر ابن النحّاس: ولا يُعلم « لَيْكَة » اسم بلد » (البكري: ج 1، ص 215-216).

2- الأيكة : (الروض المعطار / الحميري: ص 71)

« الأيكة: المذكورة في كتاب الله تعالى: قيل إنها مدين وقيل من ساحل البحر إلى مدين، وقيل غيضة نحو مدين وهو مدين بن إبراهيم ﷺ ، ونبيّهم شعيب ﷺ ، وفيهم قال الله تعالى ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: 176]، وفي آية أخرى: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الحجر: 78-79]. ومن ملوكهم أبو جاد وهوّز وحطي على تواليها فكان أبو جاد ملك مكة وما يليها من الحجاز، وكان هوّز وحطي ببلاد وجّ وهي الطائف وما اتصل بها من أرض نجد، وكلمن وسعفص وقريشات ببلاد مصر، وفيما لحق بهم من عذاب الله تعالى يقول المنتصر بن المنذر:

ملوك بني حطي وسعفص ذي الندى   وهوّز أرباب البنيّة والحجر

---

(1) سبق وقلنا أن الأيكة هي في وادي شعيب حيث يرقد سيدنا شعيب ﷺ . وهي ليست في جنوب الأردن، بل في وسطه، والله أعلم.

هـم مـلكوا أرض الحجـاز بأوجـه　　كمثل شعاع المس أو صورة البدر
وهـم قطـنوا أرض الحـرام وزيـنوا　　قصوراً وفازوا بالمكارم والفخر[1]

وسلط الله على قوم شعيب ﷺ حراً شديداً أخذ بأنفاسهم ثم بعث الله سبحانه سحابة فوجدوا لها برداً فلما صاروا تحتها أرسلها الله عليهم فذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ [الشعراء: 189] فاحترقوا كما يحترق الجراد، وكانوا أهل كفر وبخس في الميزان والمكيال » (الحميري: ص 71).

-88-

1- تبوك : (فتوح البلدان / البلاذري: ص 59، 108، 68)

وهي المنطقة الواقعة في أقصى الجنوب وباسمها سميت آخر غزوات رسول الله ﷺ والتي عرفت باسم غزوة تبوك وقد انتصر فيها الرسول دون قتال. وقد ورد اسم تبوك في أكثر من موقع في كتاب فتوح البلدان للبلاذري.

« قالوا لما توجّه رسول الله ﷺ إلى تبوك من أرض الشام لغزو من انتهى إليه أنه قد تجمّع له من الروم وعامِلَة ولخم وجذام وغيرهم وذلك في سنة 9 من الهجرة لم يلق كيداً فأقام بتبوك أياماً فصالحه أهلها على الجزية وأتاه وهو بها يُحَنّة بن رُؤبة صاحب أيْلَة فصالحه على أن جعل له على كل حالم بأرضه في السنة ديناراً فبلغ ذلك ثلثمائة دينار واشترط عليهم قِرَى من مرّ بهم من المسلمين وكتب لهم كتاباً أن يُحفظوا ويُمنعوا ... » (البلاذري: ص 59).

« ... وأمر أبو بكر ﷺ عمر بن العاص أن يسلك طريق أيلة عامداً لفلسطين وأمر يزيد أن يسلك طريق تبوك وكتب إلى شرحبيل أن يسلك أيضاً

---

(1) انظر هذه الأبيات في التاج (بجد) والمروج 3:304.

طريق تبوك وكان العقد لكل أمير في بدء الأمر على ثلاثة آلف رجل ... » (البلاذري: ص 108).

« ... حدثنا عمرو الناقد قال: أخبرنا عبدالله بن وهب المري عن يونس بن يزيد عن ابن شهاب الزهري قال: أنزلت في كفّار قريش والعرب ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: 39] وأنزلت في أهل الكتاب ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة: 29] إلى قوله صاغرون – فكان أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب أهل نجران فيما علمنا وكانوا نصارى ثم أعطى أهل أيلَة وأذرح وأهل أذرعات الجزية في غزوة تبوك » (البلاذري: ص 68).

2- تبوك : (المسالك والممالك / الاصطخري: ص 24)

« وتبوك بين الحِجْر وبين أول الشام على أربع مراحل نحو نصف طريق الشام، وهو حصن به عين ونخيل، وحائط ينسب إلى رسول الله ﷺ ، ويقال إن أصحاب الأيكة الذين بُعث إليهم شعيب كانوا بها، ولم يكن شعيب منهم، وإنما كان من مدين. ومدين على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل، وهي أكبر من تبوك، وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب، ورأيت هذه البئر مغطاة قد بني عليها بيت، وماء أهلها من عين تجري لهم، ومدين اسم القبيلة التي كان منها شعيب، وإنما سميت القرية بهم، الا تر أن الله يقول: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف: 85 ، هود: 84].

3- تبوك : (معجم البلدان/ الحموي، ج 2، ص 14)

« تبوك: بالفتح ثم الضم، وواو ساكنة، وكاف: موضع بين وادي القُرَى والشام، وقيل بركة لأبناء سعد بن بني عُذرة، وقال أبو زيد: تبوك بين الحِجر

وأول الشام على أربع مراحل من الحجر نحو نصف طريق الشام، وهو حصن به عين ونخل وحائط يُنسب إلى النبي ﷺ ، ويقال إن أصحاب الأيكة الذين بُعث إليهم شعيب عليه السلام كانوا فيها ولم يكن شعيب منهم، وإنما كان من مدين، ومدين على بحر القلزم على ست مراحل من تبوك، وتبوك بين الجبل حِسْمى وجبل شَرَوْرَى، وحسمى غربيه وشرورى شرقيها؛ وقال أحمد بن يحيى بن جابر: توجه النبي ﷺ في سنة تسع للهجرة إلى تبوك من أرض الشام، وهي آخر غزواته، لغزو من انتهى إليه أن قد تجمع من الروم وعاملة ولخم وجُذام، فوجدهم قد تفرقوا فلم يلق كيداً[1]؛ ونزلوا على عين فأمرهم رسول الله ﷺ ، أن لا أحد

(1) ما ذكره الحموي هنا، في غاية الأهمية وهو تجمع جيوش من الروم والعشائر الأرنية في سنة 9 للهجرة، وقد كانت نيّتهم الغزو والاعتداء على المسلمين، وربما التحرك نحو المدينة المنورة. فما أن وصل الرسول ﷺ إلى تبوك، حتى تفرّق هذا الجيش المشرك، ولم يعد يوجد منهم أحد في ميدان المعركة المفترضة. وهذا يدلّنا على أن العشائر الأردنية ومنها في هذا المجتمع الذي ينوي غزو المسلمين: عربان من جذام ولخم وعاملة مع الروم.
أقول هذا التجمع يبيّن مهارة العشائر الأردنية في التكيف مع الظروف السياسية المتقلّبة فنحن نعرف أن العشائر الأردنية كانت تتقاضى من الروم مبالغ سنوية لزعمائها وبالتالي فإن مسيرهم مع الروم هو نمط من المجاملات والتظاهر بأنهم سيحاربون مع الروم ضد العرب والمسلمين.
وعندما جاء الجد، وتحرك الرسول ﷺ نحو هؤلاء لقتالهم اختفوا وتفرّقوا، إذن لم يكونوا جادين في التقال، ولا التضحية من أجل الروم، وإنما لإظهار وجودهم والحصول على حصتهم المالية، أما إذا جاء القتال، فإنهم يتصرفون على الطريقة الأردنية «عندما تتعامل مع من لا تحب عناك وما أنا عندك» أي التظاهر بالإعانة والدعم، حتى إذا ما جدّ الجد، لا تجد من حولك أحداً.
كما تدل هذه الحركة أن العشائر الأردنية لم تكن جادة في دعم الرومان، وإنما المسايرة لتحقيق المصالح، لكنهم (الأردنيون) يفضلون الحكم العربي الإسلامي ضد الروماني الأعجمي الغريب. وأستطيع تخيّل المنظر بدقة وسهولة، لأنه لا زال يتكرر حتى الآن.
كما تدل على قدرة العشائر على تحديد الأهداف، فهم يرون دولة الروم مهترئة، وأن هناك دولة عربية جديدة فتيّة، صاعدة واحدة، وعقيدة التوحيد الإسلامية كبديل عن العقائد السابقة الوثنية والدينية. وبالتالي أصبح هدفهم أن يكونوا مع المسلمين والعرب بدلاً من الروم الكفار، =

يمس من مائها، فسبق إليها رجلان وهي تبض بشيء من ماء فجعلا يدخلان فيها سهمين ليكثر ماؤها فقال لهما رسول الله، ﷺ : ما زلتما تبوكان منذ اليوم، فسميت بذلك تبوك؛ والبوك: إدخال اليد في شيء وتحريكه، ومنه باك الحمار الأتان إذا نزا عليها، يبوكها بوكاً؛ وركز النبي ﷺ عَنَزَته فيها ثلاث ركزات، فجاشت ثلاث أعين، فهي تهمي بالماء إلى الآن؛ وأقام النبي ﷺ بتبوك أياماً حتى صالحه أهلها، وأنفذ خالد بن الوليد إلى دومة الجندل، وقال له: ستجد صاحبها يصيد البقر، فكان كما قال: فأسره وقدم به على النبي ﷺ ؛ فقال بُجير بن بجرة الطائي يذكر ذلك:

تبارَكَ سابقُ البقرات، إني رأيتُ الله يهدي كل هاد
فمن يك حائداً عن ذي تبوك، فإنّا قد أُمِرْنا بالجهاد

وبين تبوك والمدينة اثنتا عشر مرحلة، وكان ابن عريض اليهودي قد طوى بئر تبوك لأنها كانت تنطمّ في كل وقت، وكان عمر بن الخطاب، ؓ ، أمره بذلك » (الحموي: ج 2، ص 14).

= فهم مع الدولة القادمة، وليسوا مع الدولة التي تبدو عليها علامات النهاية، كما تدل على أن هذه العشائر وضعت الرعب في قلوب الروم الذين كانوا معهم، بالتالي فهي حركة ابتزازية لهؤلاء الروم في أن النبي ﷺ قوة لا تُقهر وبالتالي فالروم مضطرون لإغماض أعينهم عن أخطاء العشائر لقاء ما تقوم به من حماية للروم والبقاء في الإخلاص الوهمي للروم. وبالتالي فالرومان مضطرون لدفع المزيد من الأموال لهذه العشائر والصمت عن تصرفات تستحق العقاب لولا وجود قوة الإسلام.

كما أن مثل هذه الحركة ستؤدي إلى عودة المسلمين بقيادة الرسول ﷺ ، وذلك ما تفسّره العشائر في حينه أن انسحابها من امام الرسول ﷺ ، هو الذي منعه ﷺ من التقدم أكثر، وبالتالي فإن هذه العشائر تضحك على الروم أن تحركها ثم انسحابها هو الذي أدى إلى هذه النتائج.

4- تبوك : (الروض المعطار / الحميري: ص 130)

« تبوك[1]: الحجر وأول الشام، وشرب أهلها من عين ماء خرارة وبها نخيل كثير، ويقال إن أصحاب الأيكة الذين بُعث إليهم شعيب النبي ﷺ كانوا بها، وكان شعيب من مدين. وتبوك أقصى أثر رسول الله ﷺ ، روي أنه جاء في غزوة تبوك وهم يبوكون حسيها بالقِدْح أي يدخلونه فيه ويحركونه ليستدير ماؤه، فقال ﷺ : « ما زلتم تبوكونها » ، فسميت تبوك، وفي تسع (أي سنة 9 للهجرة) غزا رسول الله ﷺ الروم في تبوك فكانت أقصى أثره، وبنى بها مسجداً وهو بها إلى اليوم وقصة تبوك مستوفاة في سيرة ابن إسحاق[2] ».

-89-

1- جرش : (معجم البلدان / الحموي: ج 2، ص 127)

« جرش: بالتحريك: وهو اسم مدينة عظيمة كانت، وهي الآن خراب، حدثني من شاهدها وذكر لي أنها خراب، وبها آبار عادية تدل على عِظَم، قال: وفي وسطها نهر جارٍ يدير عدة رحى عامرة إلى هذه الغاية، وهي في شرقي جبل السواد من أرض البلقاء؛ وحوران من عمل دمشق، وهي في جبل يشتمل على ضياع وقرىً يقال للجميع جبل جرش اسم رجل وهو جرش بن عبدالله بن عُلَيم بن جناب بن هُبل بن عبدالله بن كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رُفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة، ويخالط هذا الجبل جبل عوف، وإليه يُنسب حمى جرش، وهو من فتوح شرحبيل بن حَسَنَة في أيام عمر ﷺ ، وإلى هذا الموضع قصد أبو الطيب المتنبي أبا الحسن عليّ بن أحمد المرّي الخراساني ممتدحاً؛ وقال تليد الضبي وكان قد أُخذ في أيام عمر بن عبدالعزيز على اللصوصية فقال:

---

(1) معجم ما استعجم 303:1.
(2) ابن هشام 515:2 وما بعدها.

يقولــــون جاهـــرنا تـــليد بســتوبة، وفي الـنفس مـني عـودة سـاعودها
الا ليـت شـعري ! هل أقودَنَّ عصبة، قـليل لـرب العـالمين سـجودُها
وهـل أطْرُدَنّ الدهر، ما عشت، هَجْمَة معرّضـة الأفخـاذ سُـجحاً خدودُها
قضـاعيّة حُـم الـذُّرى، فتربعـت حِمَى جرش قد طار عنها لبودها[1]

2- **عجلون** : (كتاب الجغرافيا / المغربي: ص 125)

« جاء ذكر حصن عجلون عند الجغرافيين المسلمين، وفي شرقيه وجنوبه جبل عوف وكان أهله عصاة فبنى عليهم أسامة حصن عجلون حتى دخلوا في الطاعة. وفي جنوبيه جبل السلط، وكان أهله عصاة فبنى العظم عليهم حصن السلط حتى دخلوا في الطاعة وبينه وبين عجلون مرحلتان وكذلك بينه وبين الكرك » (المغربي: ص 152).

-90-

بيت راس
(الموسوعة الإسلامية: ج 4، ص 372)

« بيت راس: وهي الصيغة الأصيلة التي وردت في الشعر، وينطقها أهلها بيت الراس مع تشديد قليل أو كثير على أداة التعريف. ووردت بهذا الرسم أيضاً في تواريخ الحروب الصليبية. ولعل بيت الراس هي عين المدينة القديمة كابتولياس Capitolias ، وهي الآن خرائب ترجع إلى العهد البيزنطي. وعلى مسيرة ساعة واحدة منها ناحية الشمال الغربي قرية صغيرة في قائمقامية إربد (عجلون) تسمى بالاسم نفسه. وقد حصنها أباطرة الروم وذكرت ضمن المدن التي فتحت في جند الأردن وأصبحت جزءاً منه فيما بعد.

---

(1) نجد هنا أن جرش كانت من بلاد قضاعة زمن عمر بن عبدالعزيز حيث يتغزّل بفتاة قضاعيّة، وأنها كانت تعيش في حمى جرش.

وتغنى شعراء الجاهلية أمثال النابغة الذبياني وحسان بن ثابت بخمرها. وقد احتفظت بشهرته هذه بعد ذلك. ولا وجود الآن لأي أثر يدل على زراعة الكروم في هذه القرية وإن الخليفة الأموي يزيد الأول وُلد بها وأقام فيها أحد خلفائه، وهو يزيد الثاني الذي اشتهر بالشراب، مع مَحْظِيَّته حبابة، وإنا لنذهب إلى أن آثار القصر الذي ابتناه يزيد توجد بين الأطلال التي ظن أنها أطلال كنيسة قديمة. وماتت حبابة في هذه القرية ودُفنت فيها ولحق بها يزيد. ويُظن أن قبره في إربد. وبيت راس اسم قرية أخرى بالقرب من حلب اشتهرت بنبيذها.

المصادر:

1- النابغة الذبياني: ديوان، طبعة درنبرج 26، 10.
2- الأخطل: ديوان، طبعة صالحاني 207، 19.
3- ابن خرداذبة، طبعة ده غوى، ص 78.
4- ياقوت، ج 1، ص 776-777؛ ج 2، ص 1463؛ ج 8، ص 11 ؛ ج 13 ، ص 165-166.
5- الطبري، ج 2، ص 1463.
6- Schumasher. Abila, Pella and Northern Ajlun ، ص 154-168.
7- العيني: مخطوط، في دار الكتب المصري، ج 11، ص 150.
8- البكري؛ ص 189.
9- البلاذري: طبعة ده غوى، ص 116.
10- ابن عساكر: مخطوط بالأزهر في القاهرة.

-91-

متفرقات في شمال الأردن

1- بيت رأس : (فتوح البلدان / البلاذري: ص 116)

وقد فتحها القائد المسلم شرحبيل بن حسنة فيقول البلاذري في كتابه فتوح البلدان:

« ... وفتح أفيق، وجرش، وبيت رأس، وقدس، والجولان، وغلب على سواد الأردن وجميع أرضها » (البلاذري: ص 116).

2- **طفيل** : (فتوح البلدان / البلاذري: ص 11)

ورد ذكرا في كتاب فتوح البلدان للبلاذري في بيت من الشعر لبلال ﷺ فهو يقول:

الا لَيْتَ شِعْري هل ابيتَنَّ لَيْلَةً   بفَخٍّ وحَوْلي إذخِرٌ وجَليلُ
وَهَلْ أرِدَنْ يَوْماً مِياهَ مَجَنَّةٍ   وَهَلْ تَبْدُواً لي شَامَةٌ وطَفيلُ[1]

(البلاذري: ص 11)

3- **كفر عاقب** : (معجم البلدان / الحموي: ج 4، ص 47)

« قرية على بحيرة طبرية من أعمال الأردن ذكرها المتنبي فقال:

أتاني وعيدُ الأدعياء وأنهم   أعدّوا لي السودان في كفر عاقبٍ،
ولو صدقوا في جدّهم لجذرتهم   فهل فيّ وحدي قولهم غير كاذب؟

(الحموي: ج 4، ص 47)

جسر بنات يعقوب : (الموسوعة الإسلامية: ص 457-458)

« جسر بنات يعقوب: جسر على الأردن جنوبي بحيرة الحولة حيث يمر الطريق البحري الممتد من دمشق إلى صفد وعكا فوق هذا النهر، وقد أخذت أهمية هذا الطريق التجاري في الازدياد في عهد الصليبيين، ومن ثمَّ، فليس بعجيب أن يكون قد دار في سبيل الاستيلاء على هذا المعبر قتال عنيف عدة مرات، ففي عام 552 هـ (1157م) هزم نور الدين الفرنجة عند مخاضة يعقوب.

وابتنى بلدوين الرابع عام 573 هـ (1178م)، حصناً في تلك البقعة على الضفة اليمنى للأردن عند بيت يعقوب بالقرب من مخاضة الأحرار. ويقول ياقوت (ج 1، ص 775) إن هذه المخاضة سميت بهذا الاسم، لأن يعقوب بكى ولده يوسف في هذا الموضع، وسرعان ما خرب صلاح الدين هذا الحصن بعد ذلك مباشرة عام 575 هـ (1179م) واستؤنف الحج إلى مشهد اليعقوبي (ابن الأثير، طبعة ترونبرج، ج11، ص301، ابو شامة في Recueil des Hist. Des Creis ج4، ص 194، 203 وما بعدها؛ وانظر أيضاً Les Coonies Franques de la Syrie: Rey ص438).

ويذكر الدمشقي (طبعة مهران، ص 107) جسر يعقوب الذي يعبر الأردن في هذا الموضع. وابتنى أحد تجار دمشق خاناً في هذه البقعة في القرن التاسع الهجري الموافق القرن الخامس عشر الميلادي (انظر المجلة الآسيوية، المجموعة التاسعة، ج6، ص262). وظل هذا الطريق في القرون التالية هو الطريق الرئيس إلى دمشق من الغرب، ومن ثم دأب الرحالة المشارقة والمغاربة على ذكر هذا الجسر في كتبهم باسمه المعروف به حتى الآن وهو جسر بنات يعقوب، (جسر بنات يعقوب، جسر يعقوب Pons Jacob؛ يعقوب كوبرو، انظر .Zeitschrift der Deutsch Morgenl. Ges ج 64، ص 694).

وتحققت أهمية هذا الجسر الحربية في الأزمنة الحديثة عندما تقدمت الجنود الفرنسية نحوه عام 1799. ويقول بيدكر Pa'estina) Baedeker ص 247) إن الجسر الحالي يرجع تاريخه إلى القرن الخامس عشر. ويبجل الناس قبر بنات يعقوب وهو غير بعيد من الجسر. وما زالت إلى الجنوب من هذا الجسر بمسافة قصيرة بقايا قليلة من الحصن الذي يرجع تاريخه إلى عهد الصليبيين.

المصادر:

1- Erdkunde: Ritter ج 15، ص 266 وما بعدها.
2- Pal. Explor, Fund Quart. Statements ، 1898 ص 29 وما بعدها.
3- Palastina-Jahrbuch ج 2، ص 82، ج 5، ص 19. [هارتمان R. Hartmann]

5- تَبالة وجرش : (فتوح البلدان / البلاذري: ص 59، ص 116)

« حدثني بكر بن القيثم، عن عبدالرزاق عن معمر، عن الزهري، قال: أسلم أهل تبالة وجرش من غير قتال، فأمرهم رسول الله ﷺ على ما أسلموا عليه وجعل على كل حالم ممن بهما من أهل الكتاب ديناراً. واشترط عليهم ضيافة المسلمين. وولي أبا سفيان بن حرب جرش » (البلاذري: ص 59).

وورد ذكر جرش في مكان آخر من نفس الكتب في معرض الحديث عن الفتوحات التي قام بها شرحبيل بن حسن في الأردن.

« .. وفتح شرحبيل جميع مدن الأردن وحصونها على هذا الصلح فتحاً يسيراً بغير قتال ففتح بيسان، وفتح سوسية، وفتح أفيق، وجرش، بيت رأس، وقدس، والجولان، وغلب على سواد الأردن وجميع أرضها » (البلاذري: ص 116).

6- الصِّنَّبْرَة : (معجم البلدان / الحموي: ص 425-426)

« بالكسر ثم الفتح والتشديد ثم سكون الباء الموحدة، وراء: موضع بالأردن مقابل لعقبة أفيق بينه وبين طبرية ثلاثة أميال، كان معاوية يشتو بها، والصنبر، بكسر الباء البرد، ويقال الصنبر بثلاث كسرات، وينشد قول طرفة:

بجـــنانٍ تعـــتري ناديـــنا   مـن سديفٍ حين هاج الصِّنَّبْر

والصنبر: أحد أيام العجوز؛ قال الشاعر يذكر:

كُسِـعَ الشـتاء بسـبعَة غُـبْر   أيـام شـهلتنا مـن الشـهر
فـإذا انقضـت أيـامُ شـهلتنا   صِـنٌّ وصـنبر مـع الوَبْـرِ
وبآمـر وأخيـه مؤتمـرٍ   ومعـلِّلَ وبمطـفئ الجَمْـرِ
ذهَـبَ الشّـتاءُ مولّيـاً عجـلاً   وأتيـك وافـدةٌ مـن البَشْـرِ

(الحموي: ج 3 ص 425-426)

7- صفورية : (فتوح البلدان / البلاذري: ص **116**)

هي من المدن التي فتحها شرحبيل بن حسنة وقد ورد ذلك في كتاب فتوح البلدان للبلاذري في معرض حديثه عن مدن الأردن.

« قال أبو حفص، قال أبو محمد سعيد بن عبدالعزيز، وبلغني أن الوضين ابن عطاء، قال: فتح شرحبيل عكا وصور، وصفورية، ... » (البلاذري: ص 116).

8- نيابة عجلون : (صبح الأعشى / القلقشندي: ج **4**، ص **200-201**)

« الثانية - (نيابة عجلون) - وقد أشار في (التثقيف) إلى أنها نيابة حيث قال: وعجلون إن كانت نيابة فإن نائب الشأم يستقل بالتولية فيها؛ ولم تجر له عادة بمكاتبة من الأبواب الشريفة » (القلقشندي: ج 4، ص 200).

9- جبل السلط : (كتاب الجغرافيا / المغربي: ص **152**)

وفي شرقيه وجنوبيه جبل السلط، كان أهله أيضاً عصاة، فبنى المعظم عليهم حصن السلط حتى دخلوا في الطاعة وبينه وبين عجلون مرحلتان وكذلك بينه وبين الكرك » (المغربي: ص 152).

-92-

الولايات

الصلت وحسبان وأذرعات

(صبح الأعشى / القلقشندي: ج **4**، ص **200-201**)

وأما الولايات:

فالأولى – (ولاية بيسان) – وواليها جنديٌ.

الثانية – (ولاية بانياس) – وواليها جندي تارة، وتارة إمرة عشرة.

الثالثة – (ولاية قلعة الصُّبَيْبَة) – وكانت ولاية صغيرة وبها جندي ثم أضيفت إلى بانياس.

الرابعة – (ولاية الشَّعْرا) – وكانت في الأيام الناصرية مضافة إلى بانياس، وهي الآن ولاية مفردة، وواليها جندي.

الخامسة – (ولاية أذرعات) قال في (التعريف): وبها مقرّ ولاية الحاكم على جميع الصفقة؛ ثم الحاكم على جميع الصفقة تارة يكون طلبخاناه وتكون ولايته عن نائب الشام، وتارة يكون مقدّم ألف فتكون ولايته من الأبواب السلطانية. أخبرني بعض كُتّاب دَسْت دمشق أنه إن كان مقدم ألف، سمي كاشف الكُشّاف وإن كان طلبخاناه سمي والي الولاة وهو الغالب.

السادسة – (ولاية حسبان والصّلْت) – من البلقاء. أخبرني القاضي ناصر الدين بن أبي الطيب كاتب السر بدمشق أنهما إن دعا لوال واحد كان أمير طبلخاناه أو أمير عشرة، وإن أفرد كل منهما لوالٍ كان جندياً » (القلقشندي: ج4، ص200-201).

السلـط : (نخبة الدهر / الدمشقي: ص **201**)

«ومن أعمال دمشق عَمّتا وغور دامية وهي الأوسط ومدينة السلط ولها عمر كبير كالزرقا والصويت وجبل بني عوف وجبل بن يهلال» (الدمشقي: ص201).

بيت رأس : (معجم ما استعجم / البكري: ج **1**، ص **288-289**)

« بيت راس: وهو حصن بالأردن، سمي بذلك لأنه في رأس جبل، قال حسّان:

كـأن سَـبيئةً مـن بَيْـتِ راسٍ   يكسـون مِـزاجَها عَسَـلٌ وماءُ

وقال أيضاً:

شَــجٌ بصَــهْبَاءَ لهــا سَــوْرَةٌ   من بَيْتِ راس عَتُقَتْ في الخِتَامِ

وقال النابغة الذبياني:

كـأنّ مُشَعْشَـعاً مـن خَمْرِ بُصْرَى   نَمَتْه البُخْتُ مشدودَ الخِتَامِ
حَمَـلْنَ قلالَـهُ مـن بيـت راسٍ   إلى لُقْمـان في سُـوقٍ مُقَـامِ

قال أبو عمرو وابن الكلبي: لُقمان: مكان. وقال الأصمعي: لقمان: اسم خمّار. قال ابن الكلبي: لو كان لُقمان رجلاً لعرفناه.

وقيل: بيت راس: كبير من أكابر العجم » (البكري: ج 1، ص 288-289).

-93-

1- اذرعـات : (المسالك والممالك / ابن خرداذبة: ص 99)

وهي المعروفة اليوم باسم درعا.

ورد ذكرها في كتاب المسالك والمالك لابن خرداذبة خلال وصفه للطريق من الكوفة إلى دمشق. « ... ثم إلى البقيعة، ثم إلى العانك، ثم إلى أذرعات، ثم إلى منزل، ثم إلى دمشق » (ابن خرداذبة: ص 99).

2- اذرعـات : (فتوح البلدان / البلاذري: ص 68، 126، 139)

وهي المعروفة اليوم باسم درعا، والواقعة على الحدود الأردنية السورية. ورد ذكرها في كتاب فتوح البلدان للبلاذري في أكثر من موقع.

«... فكان أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب أهل نجران فيما علمنا وكانوا نصارى ثم أعطى أهل أيلة وأذرح، وأهل أذرعات الجزية في غزوة تبوك» (البلاذري: ص 68).

«..وحدثني أبو حفص الدمشقي عن سعيد بن عبدالعزيز عن مؤذن مسجد دمشق وغيره قالوا اجتمع المسلمون عند قدوم خالد على بصرى ففتحوها صلاً وانبثوا في أرض حوران جميعاً فغلبوا عليها وأتاهم صاحب أذرعات فطلب الصلح على مثل ما صولح عليه أهل بصرى...» (البلاذري: ص 126).

« ... وحدثني هشام بن عمّار قال حدثني الوليد بن مسلم عن تميم بن عطية عن عبدالله بن قيس قال: كنت فيمن يلقى عمر مع أبي عبيدة مقدمة الشام فبينما عمر يسير إذ لقيه المُقَلّسون(*) من أهل أذرعات بالسيوف والريحان فقال عمر: مَهْ امنعوهم. فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين هذه سنّتهم (أو كلمة نحوها) وإنك إن مَنَعْتَهُمْ منها يروا أن في نفسك نقضاً لعهدهم. فقال: دعوهم » (البلاذري: ص 139).

3- اذرعات : (معجم البلدان / الحموي: ج 1، ص 130-131)

« أذرِعَات: بالفتح، ثم السكون، وكسر الراء، وعين مهملة، وألف وتاء. كأنه جمع أذرعة جمع ذراع جمع قلة: وهو بلد في أطراف الشام، يجاور أرض البلقاء وعمّان، ينسب إليه الخمر، وقال الحافظ أبو القاسم: أذرعات مدينة بالبلقاء. وقال النحويون بالتثنية والجمع تزول الخصوصية عن الأعلام، فتُنكّر وتجري مُجرى النكرة من أسماء الأجناس، فإذا أردت تعريفه، عرّفته بما تُعرّف به الأجناس، وأما نحو أبانين وأذرعات وعرفات فتسميته ابتداءً تثنية وجمع، كما لو سميت رجلاً بخليلان، أو مساجد، وإنما عُرّف مثل ذلك بغير حرف تعريف، وجُعلت أعلاماً لأنها لا تفترق، فنزلت منزلة شيء واحد، فلم يقع إلباس، واللغة الفصيحة في عرفات الصرف، ومنع الصرف لغة، تقول: هذه عرفات

(*) المُقَلّسُون ومفردها مقلّس وهو اسم فاعل للفعل قَلّسَ ومصدره تَقْلِيس والتقليس هو استقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو.

وأذرعات، ورأيت عرفات وأذرعات، ومررت بعرفات وأذرعات؛ لأن فيه سبباً واحداً، وهذه التاء التي فيه للجمع لا للتأنيث لأنه اسم لمواضع مجتمعه، فجعلت تلك المواضع اسماً واحداً، وكان اسم كل موضع منها عرفة وأذرعة.

وقيل: بل الاسم جمع والمسمى مفرد، فلذلك لم يتنكّر؛ وقيل: إن التاء فيه لم تتمحّضْ للتأنيث ولا للجمع، فأشبهت التاء في نبات وثبات، وأما من معها الصرف فإنه يقول: إن التنوين فيها للمقابلة التي تقابل النون التي في جميع المذكر السالم، فعلى هذا غير منصرفة. وقد ذكرتها العرب في أشعارها، لأنها لم تزل من بلادها في الإسلام وقبله؛ قال بعض الأعراب:

ألا أيها البرقُ، الذي باتَ يرْتقي ويجلو دُجى الظَّلْماءِ ذكَّرتني نجدا
وهَيَّجتني من أذرعات وما أرى، بنجدٍ على ذي حاجة، طرباً بَعْدَا
الم ترَ أن الليل يقصُرُ طُولُهُ بنجْد، وتزداد الرياحُ به بَرْدَا؟

وقال امرؤ القيس:

ومِثلِكِ بَيضاء العوارض طُفْلة لَعوبٍ تُنسِّيني، إذا قُمتُ، سِرْبالي
تورَّثْهُا من أذرعات، وأَلُها بيَثْرِبِ، أدنى دارِها نظَرٌ عال

وينسب إلى أذرعات أذرعيٌّ، وخرج منها طائفة من أهل العلم؛ منهم إسحاق بن إبراهيم الأذرعي بن هشام بن يعقوب بن إبراهيم بن عمرو بن هاشم بن أحمد؛ ويقال: ابن إبراهيم بن زامل أبو يعقوب النهدي، أحد الثقات من عباد الله الصالحين، رحل وحدث عن محمد بن الخضر بن علي الرافعين ويحيى بن أيوب بن ناويى العلاّف، وأبي زيد يوسف بن يزيد الخضر بن علي الرافعين ويحيى بن أيوب بن ناوي العلاّف، وأبي زيد يوسف بن يزيد القراطيسي، وأحمد بن حماد بن عُيينة، وأبي زُرعة، وأبي عبدالرحمن النسائي، وخلق كثير غير هؤلاء وحدث عنه أبو علي محمد بن هارون بن شعيب، وتمام

ابن محمد الرازي، وأبو الحسين بن جميع، وعبدالوهاب الكلابي، أبو عبدالله بن منده، وأبو الحسن الرازي وغيرهم.

وقال أبو الحسن الرازي: كان الأذرعيّ من أجلّة أهل دمشق وعُبّادها وعلمائها، ومات يوم عيد الأضحى سنة 344 عن نيف وتسعين سنة، ومحمد بن الزُّعَيْزِعَة الأذرعي وغيرهما، ومحمد بن عثمان بن خراش أبو بكر الأذرعي. حَدَّثَ عن محمد بن عقبة العسقلاني، ويَعْلَى بن الوليد الطبراني، وأبي عبيد محمد بن حسان البسري، ومحمد بن عبدالله بن موسى القراطيسي، والعباس بن الوليد بن يوسف بن يونس الجرجاني، ومسلمة ابن عبدالحميد. روى عنه أبو يعقوب الأذرعي، وأبو الخير أحمد بن محمد بن أبي الخير، وأبو بكر محمد بن إبراهيم بن أسد القَنَوي، وأبو الحسن عليّ بن جعفر ابن محمد الرازي وغيرهم. وعبدالوهاب بن عبدالله بن عمر بن أيوب بن المعمّر ابن قَعْنب بن يزيد بن كثير بن مرة بن مالك أبو نصر المرّي الإمام الحافظ الشروطي يُعرف بابن الأذرعي وبابن الجبّان. روى عن أبي القاسم الحسن بن علي البجلي، وأبي عليّ بن أبي الزمام، والمظفر بن حاجب بن أركين، وأبي الحسن الدارقطني وخلق كثير لا يُحصوْن. روى عنه أبو الحسن بن الكناني وجماعة كثيرة، وكان ثقة؛ وقال عبدالعزيز الكناني: مات شيخنا وأستاذنا عبدالوهاب المرّي في شوال سنة 425 وصنف كتباً كثيرة، وكان يحفظ شيئاً من علم الحديث، (الحموي، ج1، ص130-131).

4- اذرعات : (الروض المعطار / الحميري: ص **19-20**)

« أذرعات[1]: من بلاد دمشق بالشام يصرف ولا يصرف، والتاء في الحالين كسورة ويقال لها يذرعات بالياء، وقال الخليل: من كسر الألف لم يصرف.

(1) أوله عن معجم ما استعجم 131:1 حتى قوله: « في طاعة أبي عبيدة »؛ وصبح الأعشى 105:4.

ولما قدم عمر ﷺ الشام تلقاه أبو عبيدة ﷺ ، فبينما هو يسير تلقاه المقلسون من أهل أذرعات بالسيوف والريحان، فقال عمر ﷺ : مَه رُدُّهُمْ، فقال أبو عبيدة ﷺ : يا أمير المؤمنين هذه سنّة العجم، إنك إن منعتهم منها يرون أن في نفسك نقضاً لعهدهم، فقال عمر ﷺ دعوهم، عمر وآل عمر في طاعة أبي عبيدة؛ وتنسب إليها الخمر الجيدة؛ ومرّ سُحَيم بن المخرّم وهو شاعر بدوي نجدي بأذرعات فتذكّر وطنه وحنّ إليه فقال:

ألا أيها البرق الذي بات يرتقي ... ويجلو دجى الظلمات ذكّرتني نجدا
وهيجتني في أذرعات ولا أرى ... بنجدٍ على ذي حاجة طربٍ بُعدا
ألم ترى أن الليل يقصر طوله ... بنجدٍ وتزداد الرياحُ به بردا

ومن أهل أذرعات أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم الأذرعي[1] من أهل أذرعات، مدينة بالبلقاء[2]، وهو أحد الثقات وعباد الله الصالحين قال: خلوت في بعض الأوقات ففكرت وقلت: ليت شعري إلى ما نصير؟ فسمعت قائلاً يقول: إلى رب كريم. وكان به إدرار البول فكانت القارورة [لا تفارقه] فأعطاه مرة إلى من يغسلها أو يريق ما فيها واحتاج إليها ولم يحضره من يناوله إياها، فقال: أسأل من حضر من إخواننا المسلمين والجيران[3] يناولونيها، فنووها. وقال سألت إعادته فأعاده بفضله.

قال ابن عساكر: ولي دمشق في أيام المعتمد على الله في ست وخمسين ومائتين والٍ يقال له ماحوز وكان صارماً شجاعاً لا يُقْطَع في عمله الطريق، فوجه مرة فارساً إلى أذرعات فمرّ باليرموك فصادفه أعرابي، فنتف من سبال

(1) تهذيب ابن عساكر 427:2، وكانت وفاة الأذرعي سنة 344 وهو ابن نيف وتسعين سنة.
(2) هذا ما نجده هنا في الروض المعطار للحميري أن أذرعات من البلقاء (وبالتالي من الأردن).
(3) التهذيب: من الجن.

الجندي خصلتين من شعره، فلما رجع الفارس واتصل بماحوز أخبره ما فعل الأعرابي، حبس الفارس وقال لكاتبه: اطلب لي معلماً يُعَلِّمُ الصبيان، فجاءه بمعلم، فقال له: ها أنا أعطيك نفقةً واسعة واخرج إلى اليرموك فقل إني معلم صبيانكم، فإذا تمكنت فارصد الأعرابي وارتقب بها مدة طويلة، فإذا وافى الأعرابي القرية فخذ هذا الكتاب الذي أعطيك وادفعه أهل القرية حتى يقرأوه، وأعطاه طيوراً وقال له: أرسل إليّ بهذه الطيور بالخبر؛ ففعل المعلم ذلك، وأقام باليرموك ستة أشهر حتى وافى الأعرابي القرية، فلما رآه المعلم أخرج الكتاب إلى أهل القرية وفيه: «الله الله في أنفسكم اشغلوا الأعرابي حتى أوافيكم، فإن جئت ولم أوافه خرّبت القرية وقتلت الرجال»، وأطلق المعلم الطيور إلى دمشق بالخبر، فلما وصل الخبر إلى ماحوز ضرب البوق وخرج من وقته حتى وافى اليرموك في أسرع وقت، فأخذ الأعرابي وأردفه خلف بعض غلمانه ووافى به دمشق.

فلما أصبح دعا به فقال: ما حملك على ما فعلت برجل من أولياء السلطان لم يؤذيك ولم يعارضك؟ قال: كنت سكران أيها الأمير لم أعقل ما فعلت، فدعا بحجّام وقال له: لا تدع في وجه هذا الأعرابي ولا في رأسه ولا في سائر بدنه شعرة إلا نتفتها، فبدأ بأشفار عينيه ثم بحاجبيه ثم بلحيته ثم بشاربيه ثم برأسه ثم بذقنه فما ترك عليه شعرة إلا نتفها، ثم قال: هاتوا الجلادين، فضربه أربعمائة سوط ثم حبسه، فلما كان من الغد ضربه ثم قطع يديه، وفي اليوم الثالث قطع رجليه، وضرب رقبته في اليوم الرابع وصلبه، ثم أخرج الجندي من الحبس فضربه مائة عصاً وأسقط اسمه وقال له: أنت ليس فيك خير حيث رأيت أعرابياً واحداً فخضعت له حتى فعل بك ما فعل، كيف يكون لي فيك خير إذا احتجت إليك؟ ثم طرده. ورؤي ماحوز هذا بعد موته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال غفر لي، قيل له: بماذا؟ قال: بضبطي أطراف المسلمين وطريق الحجاج » (الحميري: ص 19-20).

5- أذرعـات : (احسن التقاسيم / المقدسي: ص **162**)

« أذرعات: مدينة قرية من البادية رستقها جبل جرش يقابل جبل عاملة، كثيرة القرى، وجلت طبرية بهذين الجبلين » (المقدسي: ص 162).

6- أذرعات : (معجم ما استعجم / البكري: ج **1**، ص **131-132**)

« أذرعات: أرض بالشام. قال الخليل: هي منسوبة إلى اذرع، مكان أيضاً. قال: ومن كسر الألف من أذرعات لم يصرفها، ومن فتح الألف صرفها.

ولما قدم عمر ﷺ الشام تلقّاه أبو عبيدة، فبينما عمر يسير لقيه المُقَلّسون من أهل أذرعات بالسيوف والريحان، فقال عمر: مَهْ، رُدُّوهم. فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، هذه سُنّة للعجم، وإنك إن منعتهم منها يروْا أن في نفسك نقضاً لعهودهم. فقال عمر: دعوهم، عمر وآل عمر في طاعة أبي عبيدة. وقال امرؤ القيس:

تَـنَوَّرْتُها مِـن أذرِعَـاتَ وأهْـلُها ... بيَـثْرِبَ أدنـى دارِها نظرٌ عالي

وتُنسب إليها الخمرُ الجيدة، قال أبو ذؤيْب:

فمـا إنْ رَحيـقٌ سَـبَتْها الـتُّجا ... رُ مـن أذرِعـاتٍ فـوادى جَدَرْ

جَدَر: وادٍ هناك.

قال أبو الفتح: أذرعات تصرف ولا تصرف، والصرف أمثل، التاء في الحالين مكسورة، وأما فتحها فمحظور عندنا، لأنها إذا فُتحت زالت دلالتها على الجمع، وقد رواها الكوفيون في بعض الأحوال مفتوحة، وكل ذلك مُتأوّل عندنا إن صحّت روايته، ووجب قبوله.

-94-

طبريــة

(معجم البلدان / الحموي: ص 17-20)

« طبرية: هذه كلها أسماء أعجمية، وقد ذكرنا آنفاً أن طَبَر في العربية بمعنى قفز واختبأ، وطبرية في الإقليم الثالث، طولها من جهة المغرب سبع وخمسون درجة وخمسون وأربعون دقيقة، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة.

وفتحت طبرية على يد شرحبيل بن حَسَنة في سنة 13 صلحاً على أنصاف منازله وكنائسهم، وقيل: إنه حاصرها أياماً ثم صالح أهلها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم إلا ما جَلَوْا عنه وخلوه واستثنى لمسجد المسلمين موضعاً ثم نقضوا في خلافة عمر، ﷺ ، واجتمع إليهم قوم من شواذ الروم فسير أبو عبيدة إليهم عمرو بن العاص في أربعة آلاف وفتحها على مثل صلح شرحبيل وفتح جميع مدن الأردن على مثل هذا الصلح بغير قتال، وهي: بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية وهي من أعمال الأردن في طرف الغور، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وكذلك بينها وبين بيت المقدس، وبينها وبين عكا يومان، وهي مستطيلة على البحيرة عرضها قليل حتى تنتهي إلى جبل صغير فعنده آخر العمارة، قال عليّ بن أبي بكر الهروي: أما حمامات طبرية التي يقال إنها من عجائب الدنيا فليست هذه التي على باب طبرية على جانب بحيرتها فإن مثل هذه كثيراً رأينا في الدنيا.

وأما التي من عجائب الدنيا فهو موضع في أعمال طبرية شرقي قرية يقال لها الحسينية في واد، وهي عمارة قديمة يقال إنها من عمارة سليمان بن داود، وهو هيكل يخرج الماء من صدره وقد كان يخرج من اثنتي عشرة عيناً كل عين مخصوصة بمرض إذا اغتسل فيها صاحب ذلك المرض برئ بإذن الله تعالى، والماء

شديد الحرارة جداً صاف عذب طيب الرائحة ويقصده المرضى يستشفون به، وعيون تصب في موضع كبير حرّ يسبح الناس فيه، ومنفعته ظاهرة وما رأينا ما يشابهه إلا الشرميا المذكور في موضعه؛ قال أبو القاسم: كان أول من بناها ملك من ملوك الروم، يقال له طبارا وسميت باسمه، وفيها عيون ملحة حارة وقد بُنيت عليها حمامات فهي لا تحتاج إلى الوقود تجري ليلاً ونهاراً حارة وبقربها حمة يَغْتَمِس فيها الجُرْبُ؛ وبها مما يلي الغور بينها وبين بيسان حمة سليمان بن داود، عليهما السلام، ويزعمون أنها نافعة من كل داء، وفي وسط بحيرتها صخرة مقورة قد طبقت بصخرة أخرى تظهر للناظر من بعيد يزعم أهل النواحي أنه قبر سليمان بن داود عليهما السلام.

وقال أبو عبدالله بن البنّاء: طبرية قصبة الأردن بلد وادي كنعان موضوعة بين الجبل وبحيرة فهي ضيقة كربة في الصيف وخمة وبئة، وطولها نحو من فرسخ بلا عرض، وسوقها من الدرب إلى الدرب، والمقابر على الجبل، بها ثمانية حمامات بلا وقيد ومَيَاض عدة حارة الماء، والجامع في السوق كبير حسن، فرشه مرفوع بالحصى على أساطين حجارة موصولة.

ويقال: أهل طبرية شهرين يرقصون من كثرة البراغيث وشهرين يلوكون يعني البق فإنه كثير عندهم وشهرين يثاقفون يعني بأيديهم العصيّ يطردون الزنابير عن طعومهم وحلاوتهم وشهرين عُراة يعني من شدة الحر وشهرين يمرون يعني يمصُّون قصب السكر وشهرين يخوضون من كثر الوحل في أرضهم.

قال: وأسفل طبرية جسر عظيم عليه طريق دمشق، وشربهم من البحيرة، وحول البحيرة كله قرىً متصلة ونخيل، وفيها سفن كثيرة، وهي كثيرة الأسماك لا تطيب لغير أهلها، والجبل مطلّ على البلد، وماؤها عذب ليس بحلو، والنسبة إليها طبراني على غير قياس، فكأنه لما كثرت النسبة بالطبري إلى طبرستان

أرادوا التفرقة بين النسبتين فقالوا طبراني إلى طبرية كما قالوا صنعاني وبهراني وبحراني، ومن مشهور من ينسب إليها الإمام الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب ابن مُطَير أبو القاسم الطبراني أحد الأئمة المعروفين والحفّاظ المكثرين والطلاب الرحالين الجوالين والمشايخ المعمرين والمصنفين المحدثين والثقات الأثبات المعدلين، سمع بدمشق أبا زرعة البصري وأحمد بن المعلى وأبا عبدالملك البسري وأحمد بن أنس بن مالك وأحمد بن عبدالقاهر الخَيْبَري اللخمي وأحمد بن محمد ابن يحيى بن حمزة وأبا علي إسماعيل بن محمد بن قيراط وأبا قصيّ بن إسماعيل ابن محمد العُذري، وبمصر يحيى بن أيوب العلاّف، وببرقة أحمد بن عبدالله بن عبدالرحيم البرقي، باليمن إسحاق بن إبراهيم الدّبري والحسن بن عبدالأعلى البَوْسي وإبراهيم بن محمد ابن برة وإبراهيم بن مؤيد الشيباني أربعتهم يروونه عن عبدالرزاق بن همان، وسمع بالشام أبا زيد أحمد بن عبدالرحيم الحَوْطي وإبراهيم بن أبي سفيان القيسراني وإبراهيم بن محمد بن عرق الحمصي وأبا عقيل بن أنس الخولاني، وسمع بالعراق أبا مسلم الكجيّ وإدريس بن جعفر الطيار وأبا خليفة الفضل ابن الحُباب الجُمَحي والحسن بن سهل بن المجوّز وغير هؤلاء، وصنّف المعجم الكبير في أسماء الصحابة الكرام والأوسط في غرائب شيوخه والصغير في أسماء شيوخه وغير ذلك من الكتب، روى عنه أبو خليفة الفضل بن الحُباب وأبو العباس بن عقدة وأبو مسلم الكجّي وعبدان الأهوازي وأبو علي أحمد بن محمد الصحّاف، وهم من شيوخه، وأبو الفضل محمد بن أحمد ابن محمد بن الجارود الهروي وأبو الفضل بن أبي عمران الهروي وأبو نُعيم الحافظ وأبو الحسين بن فادشاه ومحمد بن عبيد الله بن شهريار وأبو بكر بن زيدة، وهو خر من حدث عنه؛ قال أبو بكر الخطيب: أنبأنا أبو النجيب عبدالغفار بن عبدالواحد الأرْمَوي مذاكرة قال سمعت الحسن بن علي المقرئ يقول سمعت أبا الحسين بن فارس اللغوي يقول سمعت الأستاذ ابن العميد

يقول: ما كنت أظن في الدنيا حلاوةً ألذّ من الرئاسة والوزارة التي أنا فيها حتى شاهدت مذاكرة سلميان بن أحمد الطبراني وأبي بكر الجعابي بحضرتي، فكان فالطبراني يغلب الجعابي بكثرة حفظه وكان الجعابيّ يغلب الطبراني بفطنته وذكائه حتى ارتفعت أصواتهما ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه فقال الجعابي:

عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي، فقال: هاته، فقال حدثنا أبو خليفة عن سليمان بن أيوب، وحدث بالحديث، فقال الطبراني: أنا سليمان بن أيوب ومني سمع أبو خليفة فاسْمَعْه مني حتى يعلو إسنادك ولا تروِ عن أبي خليفة بل عني، فخجل الجعابي وغلبه الطبراني، قال ابن العميد: فوددت في مكاني أن الوزارة والرئاسة لم تكونا لي وكنت الطبراني وفرحت مثل الفرح الذي فرح الطبراني لأجل الحديث، أو كما قال؛ ولما قضى الطبراني وَطَرَهُ من الرحلة قدم أصبهان في سنة 290 فأقام بها سبعين سنة حتى مات بها في سنة 360، وكان مولده بطبرية سنة 260 فوفى مائة سنة عمراً؛ وبطبرية من المزارات في شرقي بحيرتها قبر سلمان بن داود، عليهما السلام، والمشهور أنه في بيت لحم في المغارة التي بها مولد عيسى عليه السلام.

وفي شرقي بحيرة طبرية قبر لقمان الحكيم وابنه وله باليمن قبر، والله أعلم بالصحيح منهما؛ وبها قبر يزعمون أنه قبر أبي عبيدة بن الجراح وزوجته، وقيل: قبره بالأردن، وقيل: بيسان، وفي خلف جبل طبرية قبر يقولون إنه قبر أبي هريرة رضي الله عنه، وله قبر بالبقيع وبالعقيق.

وبطبرية عين من الماء تُنسب إلى عيسى عليه السلام، وكنيسة الشجرة وفيها جرت له القصة مع الصُنّاع، وفي ظاهرة طبرية قبر يرون أنه قبر سُكَينة، والحق أن قبرها بالمدينة، وبه قبر يزعمون أنه قبر عبيد الله ابن عباس بن علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وكعب بن مُرّة البهري؛ ومحمد ابن عثمان بن سعيد بن هاشم بن

مَرْثد الطبراني، سمع بدمشق أحمد بن إبراهيم ابن عباد: حدّث عنه وعن جده سعيد بن هاشم، روى عنه محمد بن يوسف بن يعقوب بن أيوب الرقيّ وأبو الفرج عبدالواحد بن بكر الورثاني؛ وعمر بن أحمد ابن رشيد أبو سعيد المذحجي الطبراني، حدّث عن عبدالرحمن بن القاسم وعبدالصمد بن عبدالله بن أبي زيد وجعفر بن أحمد بن عاصم، روى عنه عبدالرحمن بن عمر بن نصر وإدريس بن محمد بن أحمد بن أبي خالد وغيرهم؛ والحسن بن حجاج بن غالب ابن عيسى بن جدير بن حَيدرة أبو علي بن حَيدرة الطبراني، روى عن هشيم ومحمد بن عمران بن سعيد الاتقاني وأحمد بن محمد ابن هارون بن أبي الذهب ومحمد بن أبي طاهر بن أبي بكر وأبي طاهر الحسن ابن أحمد بن إبراهيم بن قيل وأبي عبدالرحمن النسائي وغيرهم، روى عنه أبو العباس بن السماسر وتمام بن محمد وعبدالرحمن بن عمر بن نصر وغيرهم، قال أبو الفضل: عبدالله بن أحمد الطبراني من طبرية الشام، حدث عنه أبو الحسن محمد بن الحسين الهمذاني العلوي ونسبه هكذا؛ وذكر أبو بكر محمد بن موسى أن طبرية موضع بواسط » (الحموي: ج 4، ص 17-20).

-95-

نخبة الدهر في عجائب البر والبحر

شمس الدين أبي عبدالله محمد أبو طالب الأنصاري

(ق 7 هـ) / (ق 13 م)

ومن المباني العجيبة ملعب أنصنا من أعمال مصر كان مقياساً للنيل وينسب إلى أشمون بن قفطيم بن صريم وبناؤه مدوّر كأنه بركة وعليه عُمُد بين العمود والعمود قدر خطوة وكان النيل يدخل إليها من فوهة فيها عند زيادته فإذا بلغ الحدّ الذي يحصل به الريّ جلس الملك في مستشرف له ويصعد قوم إلى رؤس العمد فيتجاورون عليها يلتقي الغادي بالرائح فمن زلت قدمه وقع في البكرة.

ومثل هذا الملعب أيضاً بدمنة مدينتي العمّان وجرش بالشام بالبلقاء فأما جرش فمنها أتلال وجبال وحجارة منقولة وبعض بناء أبوابها قائم في الهواء نحو خمسين ذراعاً وبهذه الدمنة موضع كصورة نصف دائرة مقطوعة بحائط وذلك بالحائط به مجلس للملك وأما النصف المستدير فإنه مدرّج درج درج بعضها فوق بعض وهي دوائر وكل دائرة فوقانية أوسع من السفلى وبين هذه الدرج الدائرة أبواب ومسالك وكل درجة عليها مرتبة من الناس يقفون عليها طبقات طبقات بحسب منازلهم عند الملك وكلّهم ينظرون إلى الملك وهو ينظر إليهم كلهم لا يُحْجبون عنه ولا يُحْجب عنهم في ذلك المجلس وكأنما هو اليوم الحكم العام فقط وبالقرب من هذا الملعب أيضاً ملعب وفيه عمد طوال قائمات وفي كل منهن بكرة وهن مستديرات المراكز كصورة دائرة وكأنما كان على رؤوسها من الحجارة عتبات من عمود إلى عمود وفوق ذلك أبنية لأهلها وآثار ذلك مشاهدة إلى اليوم ولا يعلم في الشام من الآثار مثل هاتين المدينتين إلا بمدينة بعلبك وبباب البريد من دمشق المحروسة والله أعلم.

الفصل الثامن في ذكر الأحجار والأشياء الممتازة من التراب بوصف معدني وذكر كيفية توليدها:

قال ابن وحشية في كتاب التعافين المسمى بأسرار الشمس والقمر أصل سائر الأحجار والأجساد المعدنية رطوبة اجتمعت في باطن الأرض من بردها فطبختها حرارة طبقات الأرض والغمر الذي هي فيه فتعفنت وتجسّمت حتى صارت جسداً إما من الأجساد الذاتية أو من الكباريت والزرانيخ أو الزاجات أو الأملاح أو البواريق والدهانات وسائر الأحجار والأجساد المعدنيات الممتازة من التراب ثم انتقل من هذا إلى أن قال في النبات أنه يكون بوقوع البرز في الأرض ويسقى الماء ثم تسخّنه الشمس بحرارتها فتعفن في الأرض وهي الوعاء

الحاوي للبرز فإذا عفن انقلب من صورته تلك الضئيلة إلى أن يصير شجرة عظيمة تحمل ثمرة وتبرز برزاً يخرج منه البعض مثله.

ثم قال في تكوين الجنين في الرحم أن المني الذي ينتقل إلى الأنثى من الرجل إنما هو رطوبة يسخنها الرحم بحرارة الأحشاء وأصل هذه الحرارة حرارة القلب الغريزية فتعفن النطفة في ذلك الوعاء فتنقلب من المني إلى الدم ومن الدم إلى التجسيم ومن التجسيم إلى الصورة ومن الصورة إلى الحيوة التي هي آلة الحسّ والحركة وسببها فيتمّ كون الجنين بإذن الله تعالى، فمن ذلك الزرنيخ الأصفر والأحمر وهو أخو الكبريت وقد مضى الكلام على الكبريت ولكن الزرنيخ أشد يبساً وأقل دهانةً ونارية، ومن قسم الكبريت أيضاً حجر الصرف الذي يسقى للمخمورين إذا قوى عليهم الخمر ومعدنه بوادي موسى (عم)، وحجر المغرة معدنه بوادي موسى أيضا، وحجارة الجو المتولدة فيه بواسطة السحاب وهي كالصواعق المجسّدة، وأحجار الهداة وكلها صلبة متفتتة كبريتية متتنة مرقشاشية.

وأما ما يذوب بالرطوبات فيصير في أعداد المائعات فمنه ما يتكون على سطح الأرض ومنه ما ينبع منها فالذي يتولد على سطحها الأملاح والشبوب والبورقات وكلها ترابية طينية ثمَّ نضجها في أقل من السنة وعلّة تكوينها أن المياه إذا بقيت في البقاع واختلطت بتربتها وعملت فيها حرارة المعدن فحللت أكثر الرطوبات فصارت بخاراً فارتفع في الهواء ويبقى ما بقي من الرطوبات محبوساً ملآناً ما للأجزاء الأرضية فإن كانت تربة تلك الأرض سبخة غلظ وانعقد بطبخ الحرارة له فيكون عنه ضروب الأملاح والشبوب والبورقات وإن كانت تربة البقاع عفصة انعقد فيها ضروب الزاجات وإن كانت حصوى ورملاً وتراباً مختلطاً انعقد فيها ضروب الجصّ والأزواقات الإسفيداجية وإن كانت

طيناً ليناً تولد عنها ضروب العشب والكلأ والكمأة قال أن زهر الكمأة يتولد في الأرض الرملة الرطبة وكأنها بين النبات والمعدن. وأما ما ينبع من الأرض وبعد مكان نبعه من ارض فأصناف سماها الأطباء الأقافر وهي كالعنبر الموميا وقفر اليهود والقار والنفط والسندروس.

فالملح مما امتاز عن التراب وهو أنواع فمنه الأندرانيّ وهو أصفاها وألطفها ومعدنه بأرض سدوم عند بحيرة لوط وكيف ما تكسّرت حجراته ما تكسّرت إلا فصوصاً مربعات الزوايا والملح الداخل في الطعام فأجوده الأبيض العطر الرائحة تشبه رائحته البنفسج والملح الهندي وهو أبيض صلب وفيه منافع مذكورة في كتب الطبّ والملح السبخيّ وهو ألوان وأنواع فمنه أبيض يقق ومنه أحمر دموي مشرق ومنه أصفر ورسّى ومنه أخضر زنجاري ومعادن هذه الأنواع الثلاثة بأرض إصفهان وأرض خراسان وأرض سجستان والملح المرّ وهو جبلي وسبخي (والنطرون نوعان أبيض وأحمر ومن معادنه الطبرانة بصر لو ألقى فيها ما ألقى صار نطرونا بقوة بإحالة المعدن له ولو كان حيواناً ونباتاً ومعدناً والملح.

ومنها أيضاً دم الأخوين صمغ يؤتى به من جزيرة سقطرة ومن بلاد الهند أيضاً ودم الأخوين أيضاً حجري يؤتى به من بحر القلزم، والميعة شجر شبيه بشجر السفرجل والتفاح وله ثمر أكبر من الجوز يشبه الخوخ الأبيض يؤكل الظاهر منه وفيه مرارة يسيرة والنوى الذي للثمرة يستخرج منه دهن هو الميعة اليابس ومنه تستخرج الميعة السائلة أيضاً. والمقل الأزرق صمغ شجر كبار فيما بين الشجر وعمان وكذلك اللبان هناك وفي أماكن من اليمن والله أعلم.

والكبريت حجر كان رطوبة دهنية فجمد فإذا أصابه حر النار ذاب والتصق بأجساد الأحجار ومازجها فإذا تمكنت النار منه احترقت وأحرقها معه وإن كان ذهباً أو ياقوتاً والله أعلم. وقفر اليهود واسمه الحمّر وهو يخرج من

بحيرة زغر ويقال لها بحيرة لوط ﷺ وهو ينبع من قرار البحر إلى الساحل قطعة واحدة كالمكر بالكبير ويسمى البقرة فإن كانت كبيرة ولها تبع يقال أنها سنة مباركة مخصبة وإن كانت صغيرة يقال أنها سنة مجذبة فإن كان الريح غربياً رماها إلى جهة المشرق وبالعكس وله منافع والله أعلم.

فيأخذون ذلك والمسك يوجد في التمساح أيضاً وقد ذكرناه ويوجد في نوع من الحيّات ولا يعرف في أي شيء هو منها والله أعلم. ثم نهر بالق وهو نهر عظيم غزير الماء سريع الجرية يخرج من جبال الخطا ثم يمر ببلاد الخرخيز إلى أطراف كاشغر ثم يعطف وينصب في نهر إتل ويجمد هذا النهر في الشتاء.

ثم نهر إتل التركي نهر كبير غزير الماء سريع الجرية مخرجه من صحاري القبجق وجبالها وينضم إليها عيون وأنهار تأتي من وراء بلغار ومصبّه في بحر الخزر ومن ابتداء بحريته إلى انتهائها ببحر المخزر لحو من سبع مايه فرسخ وهو يمر على بلغار المسلمين وهذا النهر يجمد وجهه في الشتاء فيكون ثخانة وجهه الجامد عشرة أشبار ومن هناك بشواطيه يحفرون في الجليد آباراً إلى الماء الجاري يستقون منه الماء وربما اشتد البرد ويتشقق وجهه ويغور منه الماء ويجمد على وجهه لوقته فيصير الماء هضبات وتلال ماء جامد ويسمع السامع لصوته عند تشققه أشد من صوت الصواعق ويدوم جامداً ماية يوم فما دونها وذكر صاحب تحفة الغرائب أن لهذا النهر حيواناً كصورة إنسان أسود اللون طويل القامة كبير الجثة يخرج من الماء إلى سرّته وينظر يميناً وشمالاً فإذا أحسّ بإنسان في البرّ غاص في البحر لا يعلم منه غير هذا ولا يصطاد بحيلة قطْ وبه أيضاً السمّور كثيراً وبجوانبه حيوان الجند باجدستر كذلك والله أعلم. ثم نهر الصقالبة والروس نهر عظيم يخرج من جبال سقسين ومن جبال الكلابية وتصبّ إليه أنهار من بلاد باشقرد وماجار ومن بلاد سرداق وهو أيضاً يجمد في الشتاء أشد جموداً من نهر إتل.

ثم نهر الكرّ ونهر الرسّ وهما نهران غزيران جراران فأما نهر الرسّ فسريع الجرية لا يحمل السفينة ولا كلكا كذلك ويقال أن أصحاب الرسّ المذكورين في القرآن العزيز كانوا سكان جوانب هذا النهر وبهم سمى الرس وأن بشواطيه آثارهم ظاهرة إلى الآن ويخرج نهر الرسّ من أقاص بلاد الروم على ما كره المسعودي وقال غيره يخرج من أرض طرابزندة التي هي اليوم طرابزون.

ثم نهر الأردن وهو الشريعة نهر غزير الماء ينبعث من بانياس ويمتد إلى الحولة فيعمل بحيرة تسمى بحيرة قدس باسم مدينة عبرانية دمنتها بالجبل وقدس ملك عبراني لتلك الأرض وينصبّ إلى تلك البحيرة أنهر وعيون ثم يمتد في الخيطة إلى جسر يعقوب ﷺ إلى تحت قصر يعقوب إلى أن يصل إلى بحيرة طبرية فيصب فيها ثم يخرج إلى الغور ويخرج من حمامات طبرية مياه سخنة مالحة هي من العجائب في سخونتها ثم نهر يصب في بحيرة طبرية ويخرج من الحمّة إلى قرية يقال لها جدر وفي هذه العين منافع كثيرة لأمراض كثيرة في الناس يخرج من الحمة نهر كبير يلتقي هو والخارج من بحيرة طبرية إلى مكان يقال له المجامع في الغور ويصيران نهراً واحداً.

وكلما امتد منحدراً غرز ماؤه وكثر وينصبّ إليه من بيسان من أعين إلى هذا النهر وينصب إليه أعين أخرى ويمتد إلى بحيرة زغر المالحة المنتنة وتسمى بحيرة لوط فينصب فيها ولا يخرج منها وهذه البحيرة لا تزيد في الشتاء لزيادة المياه المنحدرة إليها فإنها مياه كثيرة ولا تنقص في الصيف ولا يزال هذا النهر يصب فيها ليلاً ونهاراً وللناس في مغيض الماء فيها أقوال فمن الناس من قال أن هذا الماء بحر أرض بعيدة يخرج فيها فيسقيها ويزرعوا عليه ويشربوا منه مسيرة شهرين ومن الناس من يقول أن أرضها شديدة الحرارة ومعادنها كبريتية ملتهبة فهي لا تزال ترقاً بخاراً متحللاً يخلفه الماء الداخل ويتحلل بخاراً كذلك. وقيل بل

هي خسفة في الأرض متصلة ببحر القلزم وقيل بل هي خسفة لا قرار لها إلى البهموت والله أعلم وهذه البحيرة التي يخرج منها الحمر ولا يعيش فيها حيوان ولا ينبت حولها نبات.

ومن العجائب عين صور والبحر الروميّ منها رمية نشّاب وهي مربعة البناء من خارج وهي مثمنة من داخل وعمق الماء إلى أسفل ثلاثة وأربعون ذراعاً بالكبير قاسوها في أيام قطلوبك لما كان نائباً بالصفد قاسها ابن سعادة معلّم قلعة صفد بالرصاص والشمع ونزل فيها غطّاس أخرج منها سيف حديد له زمان مرميّ فيها ويخرج من هذه العين ماء كثير وجريته فرسخين يجري إلى المعشوقة يسقى أقصاباً ومزررعات وقيل أن هذه العين أخرجتها الجانّ لسليمان ابن داود عليه السلام ويقال أن ماءها من الفرات لأنها إذا زادت الفرات زادت زيادة عظيمة واحمرّ ماؤها وتعكّر، وإذا نقصت الفرات نقصت وحولها العين كمثلها بل أصغر منها ويصبوا في البحر الروميّ وهؤلاء من العجائب أيضاً والله أعلم. ونهر الشريعة كأنه في الاعتبار فلك دائرة يطلع من أول الغور من بحيرة قدس ويتوسّط ببحيرة طبرية ويغور في بحرة زغر.

ومن الأنهار الكبار غير الدائمة خلجان النيل وهي سبعة كل واحد منها بحر أحدها خليج الإسكندرية والثاني خليج دمياط والثالث خليج فيّوم والرابع خليج دوس والخامس خليج المنهى والسادس خليج سخا والسابع خليج القاهرة وبلبيس وهذه الخلجان كان خراج النيل بها في أيام كبقاوس أحد ملوك العالم الأول مائة ألف ألف وثلاثون ألف دينار وجباه عمرو بن العاص في أيام معاوية اثني عشر ألف ألف دينار وجباه عبدالله بن أبي سرح أربعة عشر ألف ألف دينار وجباه القائد جوهر مولى العبي ثلاثة ألف ألف دينار ومائتي ألف قال المعتنون بعلم ذلك أن سبب تقهقره أن الملوك لم تسمح نفوسها بما كان يصرف

في الرجال المتوكلين بحفر خلجانه وإصلاح جسوره ورزم قناطره وسدّ تُرَعِه وكانوا على ما حكاه ابن لهيعة ماية ألف رجل وعشرون ألف رجل مرتبين على كور المصر سبعون ألف للصعيد وخمسون ألفاً لأسفل الأرض.

ويقال إن ملوك القبط كانوا يقسمون الخراج أربعة أقسام قسم لخاصة الملك وقسم لأرزاق الجند وقسم لمصالح الأرض وقسم آخر لحادثة تحدث ومُسحت أرض مصر في أيام هشام عبدالملك بن مروان فكان من يركبه الماء العامر والغامر مائة ألف الف فدان واعتبر أحمد بن المدبر ما يصلح للزرع بمصر وقت ولايته فوجده أربعة وعشرين ألف ألف فدّان والباقي قد استبحر وتلف واعتبر مدة الحرث فوجدها ستين يوماً والحرّاث الواحد يحرث خمسين فداناً فكانت محتاج إلى أربعة مائة ألف حرّاث وأربعين ألف حرّاث والله أعلم.

قال كتب عمر بن الخطاب ﷺ كتاباً على عمرو بن العاص وكان عاملاً بمصر يقول أما بعد يا عمرو إذا أتاك كتابي فابعث إليّ جوابه تصف لي مصر ونيلها وأوضاعها وما هي عليه حتى كأنني حاضرها فأعاد عليه مكتوباً جواب كتابه يقول بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد يا أمير المؤمنين فإنها تربة غبراء وحشيشة خضراء بين جبلين جبل رمل وجبل كأنه بطن أقبّ وظهر أجبّ مكتنفها ورزقها ما بين أسْوان إلى منشا من البر يخطُّ وسطها نهر مبارك الغدوات ميمون الرواحات يجري بالزيادة والنقصان كمجاري الشمس القمر له أوان تظهر إليه عيون الأرض ومنابعه مسخرة له بذلك ومأمورة له حتى إذا اطْلخم عجاجه وتغطْغطَتْ أمواجه.

الفصل الخامس في ذكر البحيرات المالحة والبطيحات الحلوة وبقاعها ومقاديرها

فمن البحيرات المالحة بحيرة زغر المنتنة وبقعتها بين جانبي الغور من الشام ولا حيوان واحد بها وطولها سبع فراسخ وعرضها الأعرض نحو ثلاث فراسخ

وخرج منها قفر اليهود وهو الحمر وقد تقدّم ذكره وقيل أن طولها ستون ميلاً وعرضها اثنا عشر ميلاً وهو الصحيح وكان لها خمس مدن أسمائهم صعدة صعبة عمرة دوما سدوم وسدوم أكبرهم وهي أصلهم (في الفساد والله أعلم).

ومدينة أذرعات المسماة اليوم أذرعات ومدينة بصرى ومدينة حوران وقلعة صرخد على جبل بني هلال ويسمى هذا الجبل الريّان لكثرة انصباب المياه منه والبثنية من عمل أذرعات ومدينة عمّان وعملها البلقاء ومدينة مرد وعملها السواد وإقليم جرش ومدينة عجلون وفيها حصن حَسَنٌ حصين وفيه أمياه جارية وفواكه كثيرة وأرزاق غزيرة وهو مشرف يُرى من مسيرة أربعة أيام وإقليم بيت رأس وإقليم سوسيا وإقليم سامرة ومدينته نابلس مدينة خصبة نزهة بين جبلين متسعة ما بينهما ذات أمياه جارية وحمامات طيبة وجامع حسن تقام فيه الصلوات وكثير قراءة القرآن به ليلاً ونهاراً والاشتغال فيه كثير وهي كأنها قصر في بستان قد خصّها الله تبارك وتعالى بالشجرة المباركة وهي الزيتون ويحمل زيتها إلى الديار المصرية والشامية وإلى الحجاز والبراري مع العربان ويحمل إلى جامع بني أمية منه في كل سنة ألف قنطار بالدمشقي ويعمل فيه الصابون الرقي يحمل إلى سائر البلاد الذي ذكرنا وإلى جزائر البحر الروميّ ولها البطيخ الأصغر الزائد الحلاوة على جميع بطيخ الأرض ولها الجبلان وهما طور زيْتا وإليهما حجّ السامرة وقرباهم على الطور يذبحون الخرفان ويحرقون لحومها ولا توجد في بلد من البلدان من السامرة ما يوجد منهم بها ويقولون أنهم لا يبلغون في بلد منهم الألف أصلاً ويقال أنه إذا اجتمع في طريق مسلم ويهودي وساميّ ونصرانيّ رافق السامريّ المسلم.

وإقليم فحل والغور الأعلى والقصَيْر ومدينة بيسان والغور مقسّم ثلاثة أقسام الأعلى هذا والأوسط غور حقاً وأريحا والأسفل غور زغر [ومدينة زغر

وطوله نحو من أربعة أيام وعرضه الأعرض يوم] ومن عجيب مياهه الجارية أن بأعلاه بحيرة قدس يفيض الماء ويسيح نهراً هو نهر الأردن ثم يمر ويصب في بحيرة طبرية بوسط الغور ثم يخرج ويمر بالغور في وسطه حتى يصب في بحيرة لوط عليه السلام باسفل الغور ثم لا يخرج منه فكأن نهر الأردن فلك دائر مطلعه من بحيرة قدس بأعلى الغور وبوسط دورة قوسه بحيرة طبرية [وغروبه ببحيرة زغر وبه من العجائب ما سنورد ذكرها في خصائص البلاد عند ذكرنا لها].

ومن أعمال دمشق أيضاً كورة بيت جبريل وكورة عمواس وكورة بني عطية[1] وبلد الخليل عليه السلام واسمه حَبْرون وغور مدينة عَمّتا وغور دامية وهي الأوسط ومدينة السلط ولها عمل كبير كالزَرْقا والصويت وجبل بني عوف وجبل بني هلال ومن أعمال دمشق وجندها أيضاً البيت المقدس بمدينة القدس (واسمها بالعبراني أورشليم يعني دار السلام ومدينة سلم) وأرضها الأرض المقدسة المبارك حولها وحدود الأرض المقدسة طولاً من أذيال جبل السنير وهو جبل الثلج شمالاً عند مرج عيون وإلى آخر جبل الخليل عليه السلام وأول التيه وعرضها من الأرض إلى البحر الرومي غرباً.

والقسم السادس مملكة صفد ومضافاتها وصفد حصن بقبة جبل كنعان في أرض الجرمق كانت قرية فبنى مكانها حصن سميت صفت ثم قيل صفد وهو حصن منيع وكان بها طائفة من الفرنج يقال لهم الداويّة فحصرهم فيها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحيّ رحمه الله وفتحها وقتل كل من فيها على رأس تل بالقرب منها ثم رماها وبنى في وسطها برجاً مدوّراً سماه قلة؛ ارتفاعه في السماء مائة وعشرون ذراعاً وقطره سبعون ذارعاً وإلى سطحه طريقتان يصعد في الطريق إلى أعلاه خمسة أفراس صفاً بلا درج في ممشى حلزون وهو ثلاث

(1) هذا ذكر آخر لعشائر بني عطية.

طبقات أبنية ومنافع وقاعات ومخازن وتحت كله بئر للماء من الشتاء يكفي لأهل الحصن من الحول إلى الحول [أشبه بمنارة إسكندرية].

وبهذا الحصن بئر تسمى الساتورة وعمقه مائة وعشرة أذرع في ستة أذرع بذراع النجار والدلاء التي لها بتاتي من الخشب تَسَعُ البنية نحو قلة من الماء وهما بنيتان في حبل واحد [يسمى سرباق كغلظ ندن الإنسان وكلما وصلت بنية إلى الماء وصلت الأخرى إلى رأس البئر وكلما وصلت واحدة إلى رأس البئر وصلت الأخرى إلى الماء وعلى رأس البئر ساعدان من حديد بكفّيْن وأصابع تتعلق الأصابع في حافة البتية الملآنة وتجذبها الكفّان فينصب الماء في حوض يجري فهي إلى مقرّه فإذا انصبّ الماء من البتية حصل القصد والجاذب لهاتين البتيتين مرمّة هندسية بقسي ودوائر وحركات لا يزال ذلك السرباق راكباً على بكرته طرداً وعكساً يمنة ويسرة وحول المرمّة بغال معلّمات تدور بذلك فإذا سمع البغل الدائر خرير الماء وجرّ السلسلة انقلب راجعاً على عقبه ودار يمشي في مرتبه بخلاف ما كان يمشي إلى أن يسمع خرير الماء وجرّ السلسلة فينقلب دائراً إلى خلاف دورته كذلك أبداً وهي من أعاجيب الدنيا. فإذا وقف واقف وتكلم كلمة واحدة في رأس البئر سمع رجع صوته بتلك الكلمة نازلاً نحو لحظة جيدة حتى يبلغ الماء ثم يعود إليه فيسمعه كما قالها فإن صاح وغلب سمع دوياً واضطراباً بذلك الصياح كالرعود لبُعد الماء وعمقه والكفّان الحديد مثلهما في وضعهما كهذه الهيئة والله أعلم.

ومن البلاد والأعمال المضافة إلى صفد نفر شقيف وهو حصن منيع فتحه الملك الظاهر من الإفرنج وله عمل واسع ونهر ليطة يمر تحت جبله. ومعليا قلعة مليحة جبلية حصينة وبأرض معليا القرين قلعة مليحة منيعة بين جبلين كان ثغراً للفرنج فتحه المالك الظاهر ﷺ وله وادٍ نزه معروف به من أنزه البقاع وبه

من الكمثرى المسكّى المعطر الرائحة الطيب الطعم ما لا بغيره ومن الأترج ما تكون الثمرة الواحدة نحو ستة أرطال مشقية جبل عاملة عامرة بالكروم والزيتون والخروب والبطم وأهله رافضة، إمامية وجبل جَبَع كذلك أهله رافضة وهو جبل عال كثير المياه والكروم والفواكه وجبل جزين كثير المياه والفواكه وقلعة شقيف تيرون قلعة حصينة على جبل عال ولها عمل (ولها نائب ولم يحكم عليها منجنيق) وجبل تِبْنين وله قلعة ولها أعمال دولاية وهم رافضة إمامية وقلعة هونين وهي على حجر واحد (ولها أعمال والخيط وهو قطعة من الغور الأعلى شبيه بأرض العراق في الأرز والطير والماء السخن والزروع المنجبة).

ومن أعمال صفد مرج عيون وأرض الجرمق، وهي مدينة قديمة عادية كانت بها طافة من العبرانيين ينسبون إليها يقال لهم الجرامقة والكنعانيون بوادي كنعان بن نوح ﷺ ومن عملها جبل بقيعة (وبه قرية يقال لها البقيعة) لها أمياء (مياه) جارية ولها سفرجل مليح وبه قرى كثيرة الزيتون (والفواكه والكرم وجبل الزابود مشرف على صفد والزابود قرية وبها أيضاً قرى كثيرة) وأهل هذا الجبل دروز وحاكمية وأمرية وهم قوم دهرية حلولية يكذبون الرسل وينكرون الشرائع ويعتقدون التناسخ وأن لا بعث ولا نشور ويأكلون لحم الخنزير والميتة، ولا يصومون ولا يصلون ويلا يحجون ولا يزكون (ويعتقدون أن الحاكم ظهر مظهر الإله وتقدس عما يقولون عُلوّاً كبيراً).

ومن عملها طبرية وكانت قصبة الأردن وهي مدينة مستطيلة على شاطئ بحريتها وطول البحيرة اثنا عشر ميلاً وعرضها ستة أميال والجبال تكتنفها ومنها يخرج نهر الشريعة ويصب في بحيرة زغر وعلى شاطئ بحيرة طبرية منابع حارة شديدة تسمى الحمامات وماء هذه المنابع ملحيّ كبريتيّ نافع من ترهل البدن (ومن الجرب الرطب ومن غلبة البلغام وإفراط العبالة يقال أن في البحيرة قبر

سليمان بن داود ﷺ وحطين بها قبر شعيب ﷺ وعلى هذه القرية كانت وقعة عظيمة بين المسلمين والإفرنج (وكان ملك المسلمين صلاح الدين وكسر الإفرنج على قرن حطين وقُتل منهم خلق كثير وأسر ملوكهم وبنى على قرن حطين قبّة يقال لها قبّة النصر ومن أعمالها كفركنّا وهي قرية كبيرة بها مقدّمو العشائر ورؤساء الفتن والهوى (يسمون قيس الحمراء) ولها من الأعمال (البطوف) ويسمى مرج الغرق وهي بين جبال حيطة بها من كل مكان ومياهه الأمطار تجتمع فيها فتصير بحيرة متّسعة (تشرب مياهها الأرض وكل ما جفّ مكان منها زرعوه الزرّاع كما يفعلون أهل مصر).

ومن أعمال صفد أيضاً مدينة النصارى وهي مدينة عبرانية تسمى ساعير ومنها ظهر المسيح ﷺ وموضع البشارة به من الملائكة لأمه مريم عليها السلام معروف يزوره النصارى وغيرهم وفي التوراة تسميتها وتسمية مكة شرّفها الله تعالى لتبين رسالتي المسيح ومحمد ﷺ وذلك ما ترجمته جاء الله من سيدنا (يعني موسى بن عمران والتوراة) وأشرق من ساعير وجبال الساعير يعني المسيح الناصريّ الذي خرج من الناصرة وجبال الساعير جبال الناصرة واستعلن بفاران وبريّة فاران يعني مكة والحجاز (ونبينا محمد ﷺ والقرآن) وأهل الناصرة كانوا مفتاح دين النصرانية ومنشأه وأساسه وذلك في زمن قسطنطين (وسنقص القصة في مكانها إن شاء الله).

ومن أعمال صفد مدينة اللجون وهي مضافة إلى العشير والهوى (واليمن أهل الناصرة كما أهل كفركنا قيس ولهذا القس أيضاً) جينين وهي مدينة صغيرة ولها عمل ومن أعمال صفد عكا وصور وأعمالها وصيدا وأعمالها وهي مدن قديمة ولهما أعمال كبرا ويقال أن الإسكندر نزل صور فلم يصل إليها من سهامه سهم ولا من حجارة مجانيقه حجر فأرسل من أهله خفية من أهلها ورجع فأخبره أن قوماً قد

صرفوا هممهم إلى صرف ما ترمونهم به فاجتمع رأى من مع الإسكندر في وضع الكوسات وأن يضربون عليها في وقت واحد عند السحر ويزحفون مع الضرب لها ففعلوا وفتحوها حين اشتغلت قلوب أولئك وتشوّشت خواطرهم ففاتهم.

ومدينة عكا بناها عبدالملك بن مروان وغلبت عليها النصارى ثم فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو الملك الناصر.

القسم السابع مملكة كرك وهو حصن منيع عال على قبة جبل خندقه أودية بعيدة السفل يقال أنه كان ديراً للروم فبني حصناً ومن جنده الشوبك حصن (مدينة خصبة ولها فواكه كثيرة وعيون غزيرة) ومعان مدينة صغيرة على سيف البرية عَمَّرَها طائفة من بني أمية وسكنوها ثم ذهبوا وهي اليوم منزلة للحجاج (يقام بها سوق في غدوّهم ورواحهم) وإقليم الجبال ومدينة الشراة ومدينة مآب على اثني عشر ميلاً منها قرية مؤتة ومن جند الكرك اللجون والحسا والأزرق والسلط ووادي موسى ووادي بني نمير وجبل الضباب وجبل بني مهديّ وقلعة السلع وأرض مدين وأرض القلزم وأرض الريّان وبالغور الزَرْقا والأزرق والجفار والتيه وزغر (وهي مدينة بالغور ومعها السافية وبها رطب شبيه بالبرني والزاد بالعراق ومدينة عمان التي لم تبق إلا دمنتها وعملها وأرض البلقاء) وحصن الكرك خزانة الأتراك ومعقلهم وبه أبداً نائب مأمون عندهم. (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، لشمس الدين أبي عبدالله محمد أبو طالب الأنصاري ق 7 هـ/ ق 13 م).

-96-

بـلاد الشـــام

في عام 50 هـ

بقلم الدكتور محمود سعيد عمران

(مجلة هنا لندن، العدد 447، ك 2، 1986)

«الحديث الثقافي» أيام الاثنين في الخامسة والنصف مساء بتوقيت جرينتش.

وفد إلى بلاد الشام عدد من الرحالة الأجانب قبل الفتح الإسلامي للمنطقة وبعده. وقد سجل هؤلاء الرحالة جانباً من مشاهداتهم عن هذه البلاد. ولما كان معظم هؤلاء الرحالة من رجال الدين فقد غلب على ما سجلوه الطابع الروحي ووصف الآثار والأماكن المسيحية والطرق المؤدية إليها. ولما كان ما يعنينا في هذا المقال هو ما سجله الرحالة الأجانب عن بلاد الشام، فقد وقع اختيارنا على أول رحالة غربي زار بلا الشام عقب الفتح الإسلام بحوالي 670م/ 50هـ.

لما كانت المصادر العربية لم تسجل أحداث عصر الخلفاء الراشدين إلا بعد ما يزيد عن قرن ونصف القرن من الزمان، فإن ما سجله الرحالة أركولف في عام 50 هـ هو على جانب كبير من الأهمية باعتباره أول من سجل في الغرب والشرق مشاهداته عن بلاد الشام في الفترة التي صمتت أو ضنت أو اختلط فيها الأمر على المصادر العربية التي سجلت الأحداث المتعلقة بعصر الخلفاء الراشدين ولم تسجلها إلا في فترة زمنية متأخرة.

والحقيقة أن ما سجله الرحالة أركولف عن الآثار المسيحية وطرزها المعمارية كان على جانب كبير من الأهمية خاصة إذا علمنا أن الفرس عندما دخلوا مدينة بيت المقدس في عام 614 أحرقوا الكنائس وألقوا القبض على بطريق المدينة زكريا، وأن خليفته مودستوس Modestus أعاد بناء بعض الكنائس على أنقاض الكنائس القديمة، وأن هذه الكنائس قد بنيت قبل فترة وجيزة من الفتح الإسلامي. وكان أركولف أول من سجل مشاهداته عن هذه الآثار الجديدة. كما أن أركولف يعتبر أول من كتب في الشرق أو الغرب عن الآثار الإسلامية التي أقامها المسلمون في بلاد الشام مثل جامع عمر بن الخطاب وجامع دمشق المعروف حالياً باسم الجامع الأموي، كما تحدث عن أسوار مدينة بيت المقدس، وأسوار مدينة دمشق وبعض أماكن أخرى.

كان أركولف هذا أحد رجال الدين في بلاد غاله (فرنسا)، وقد زار بلاد الشام في الفترة من يناير / كانون الثاني إلى سبتمبر / أيلول 670 . ورافقه في جانب من رحلته أحد رجال الدين أيضاً يدعى بطرس البرغندي الذي كان مقيماً بالمنطقة منذ فترة طويلة والذي سجّل هذه الرحلة هو القديس آدم نان ST. Adamnan رئيس دير جزيرة أيونا Iona الواقعة غربي اسكتلندا، على ألواح من الشمع وهي إحدى وسائل التسجيل في ذلك العهد. وقد تأثر بهذه الرحلة عدد من المؤرخين الغربيين وأخذوا عنها وعلى رأس هؤلاء المؤرخ الإنجليزي بيد Bede.

تقع تفصيلات رحلات أركولف في ثلاث وستين صفحة واشتملت على ثلاثة فصول، خصص الفصل الأول منها للحديث عن مدينة بيت المقدس، فتحدث عن موقع المدينة وأبوابها والسوق السنوية التي يقام فيها ومسجد عمر ابن الخطاب، هذا بالإضافة إلى وصف العديد من الكنائس وطرزها المختلفة وعلى رأسها كنيسة القيامة وغير ذلك من الأماكن المتعلقة بالسيد المسيح والسيدة مريم العذراء وبعض القديسين.

واشتمل الفصل الثاني على ثمانية وعشرين موضوعاً، وبدأه بالحديث عن مدينة بيت لحم مسقط رأس المسيح، ونهر الأردن ومنابعه والبحر الميت وبحيرة طبرية والناصرة وجبل الطور ومدينة دمشق ومسجدها وكنيسة يوحنا المعمدان ومدينة صور. وانتهى هذا الفصل بالحديث عن مدينة الإسكندرية وأسوارها وفنارها ومركزها التجاري.

أما الفصل الثالث فقد تضمن ستة موضوعات بدأه أركولف بمشاهداته عن مدينة القسطنطينية وكنيسة أيا صوفيا، وأورد فيه بعض المعلومات عن القديس جورج المعترف.

أما فيما يتعلق بما ورد في الرحلة عن بلاد الشام، فالواقع أن أركولف لم يترك لنا شيئاً يذكر عن التاريخ السياسي ولكنه ترك جانباً طيباً من المعلومات الحضارية والأثرية الإسلامية عن هذه البلاد، في عصر الخلفاء الراشدين، وقد صنف الباحث هذا الموضوع إلى أربع نوعيات متجانسة هي الجوانب الجغرافية والاقتصادية والمعمارية والاجتماعية.

وأهم ما ورد في الجانب الجغرافي ما ذكره عن البحر الميت وأملاحه والقار الأسود الذي تقذف به مياه البحر وكذلك حديثه عن بحيرة طبرية وطولها وعرضها وأسماكها ذات المذاق الممتاز، كما تحدث عن ميناء يافا الذي أبحر منه إلى الإسكندرية عقب انتهاء زيارته للأراضي المقدسة.

وتناول حديثه نهر الأردن ومكان تعميد السيد المسيح ومناسب مياه النهر في أيام الفيضان وأيام الجفاف وعذوبة مياه النهر وأوضح أن تسمية النهر باسم الأردن — إنما يرجع إلى أنه ينبع من نهر جور Jor (بانياس) ونهر دان Dan وأن اتحاد الاسمين معاً يكون كلمة واحدة هي Jordan أي الأردن. وقد تتبع الباحث هذا التفسير بوضوح لاسم النهر هو الرحالة اليوناني يوخيريوس Eucherius الذي زار بلاد الشام حوالي عام 440 وأن هذا المفهوم ظل سارياً في كتب رحلة العصور الوسطى ومؤرخيها ومؤرخي الحروب الصليبية حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي.

وفي الجانب الاقتصادي ذكر أركولف أنه من أجل تكريم مدينة القدس تفد عليها يوم الخامس عشر من شهر سبتمبر / أيلول كل عام أعداد لا تحصى من جنسيات مختلفة ومعهم دوابهم بغرض البيع والشراء ويظل هؤلاء التجار في المدينة المضيافة لبضعة أيام. ويقول أركولف أنه بعد رحيل هؤلاء التجار

بدوابهم تسقط الأمطار بكمية وتغسل كل شوارع المدينة من القاذورات وكأن هذه المياه قد عمدت المدينة. ومن الطبيعي أنه لا يمكن اتخاذ هذا التاريخ قاعدة سنوية لسقوط الأمطار، ولكن يبدو أن أركولف أراد أن يربط بين مناسبة عيد الصليب 14 سبتمبر/أيلول وإقامة هذه السوق من أجل تكريم المدينة. كما تحدث أيضاً عن تجارة المالح، وهو الملح الذي تقذف به مياه البحر الميت ثم يترك ليجف ومن ثم يصدر إلى البلاد البعيدة.

وفي الجوانب المعمارية تحدث أركولف عن سور مدينة القدس وأبوابها الستة كما تحدث عن مسجد عمر بن الخطاب وذكر أنه مقام على دعائم خشبية وأنه يتسع لثلاثة آلاف مصلي في وقت واحد. ومن هذه المعلومات يستطيع الباحث أن يستنتج أن مساحة المسجد كانت بين 1500 و 1800 متر مربع إذا أخذنا في الاعتبار أن الفرد الواحد يحتاج إلى 2/1 أو 5/3 المتر المربع للصلاة، وإن هذا المسجد بُني على هيئة مسجد الرسول ﷺ في المدينة في مراحله الأولى. وتناول أركولف أيضاً مدينة دمشق وسورها. ويستنتج مما ذكره أن المدينة كانت محاطة بسور واحد عليه شرفت مزودة بالأبراج، وكان يوجد خندق حول السور يملأ بالماء، وبالسور سبعة أبواب على شكل قناطر تغلق لأعلى عندما تشد السلاسل وتفتح لأسفل عندما ترخى هذه السلاسل. كما تحدث عن مسجد دمشق وروى أن بالمدينة كنيسة بنيت على شرف يوحنا المعمدان وأن المسلمين بنوا لهم مسجداً هناك وهم يترددون عليه.

وبعد دراسة كافة المصادر الإسلامية والغربية التي تحدثت عن مسجد دمشق يتبين للباحث أن راس يوحنا المعمدان لم يصل إلى مدينة دمشق وأن المسلمين لم يناصفوا المسيحيين كنيسة يوحنا المعمدان، وأن المشهد القائم الآن بالمسجد الأموي للنبي يحيى أقيم للتكريم ولا يضم الراس أو الجسد.

أما الناحية الاجتماعية فقد جاء أركولف فيها على ذكر حياة الرهبان والكنائس والمسيحية واليهود الذين عاشوا في بلاد الشام أيام الخلفاء الراشدين ما يستدل منه أنهم عاشوا جميعاً آمنين في ظل سماحة الإسلام.

-97-

البلقاء في التاريخ

من مقال بقلم د. محمد المناصير

(مجلة البلقاء – العدد الأول – حزيران، تموز، آب 1982، ص 6-10)

عُرفت البلقاء على مرّ التاريخ لما لهذه البلاد م موقع متوسط بين مختلف البلدان إذ كانت هي بوابة الحجاز إلى بلاد الشام وعبرها تمر قوافل رحلة الصيف التي عرفها التاريخ العربي لقديم وكانت البلقاء همزة الوصل بين مصر والشام والحجاز وبلاد الرافدين.

والبلقاء في اللغة عندما نرجعها لأصلها الثلاثي (بلق) نجد أن البلق يعني سواد وبياض، والبلقة سواد وبياض، والبلوقة هي المفازة أو الأرض المستوية اللينة وجمعها بلاليق، وأنثى الأبلق بلقاء. ثم إن معنى بلق بلوقاً أي أسرع وأبلق بالباب فتحه كله أو أغلقه بسرعة وانبلق الباب أي انفتح. ويوجد في بلاد الشام طائر يطلق عليه « أبو بليق » والبلق هو الفسطاط أي البيت من الشعر.

وفي عهد الإمبراطور طيطس 79-81 نودي على ضجعم أحد زعماء قبيلة قضاعة ملكاً عليها فكان المؤسس الأول للدولة التي عرفت باسم « دولة الضجاعمة » والتي أفسحت المجال لقبيلة قضاعة لأن تنتشر في المناطق الواقعة بين جبل الشيخ وجبال فلسطين والبلقاء والغور وما بين الشام والحجاز والعراق وفي العقبة وجبال الكرك.

وتجدر الإشارة إلى أن أبا بكر الصديق أنفذ أسامة بن زيد إلى الشام فأغار على (أبنى) وغيرها من بلاد البلقاء وابنى هذه هي خان الزبيب على الطريق الصحراوي في الأردن. ثم إن قبائل كهذه كما يذكر المؤرخون كانوا يقيمون في البلقاء تلك القبيلة منها امرؤ القيس بن عابس الكندي والصحابي الجليل شرحبيل بن حسنة الذي مات في طاعون عمواس وقبره في الغور الأردني.

ويذكر أن من القبائل التي استقرت في بلاد البلقاء أثناء الفتح كانت كندة ومن كندة عبادة بن أنس القاضي الذي كان ينعت بسيد أهل الأردن الذي توفي سنة 118هـ. ثم إن قريش قد استقر منها الكثير في البلقاء خاصة في عمان.

1- البلقاء في العهد الأموي

أما في العهد الأموي فقد كان في عمان قوة من الجند لحماية الطريق إلى الحجاز ولقربها من قصور الخلفاء بالبادية الأردنية حتى أن الخليفة الأموي يزيد ابن الوليد كان يستعمل جنود البلقاء في حفظ الأمن والقضاء على الفتن فقد أمر سليم بن ذكوان ومحمد بن سعيد بن مطران الكلبي بإلقاء القبض على يوسف ابن عمر والي العراق الذي هرب إلى أهله بالبلقاء فأخذا منهما خمسين من جنود البلقاء وأتمّا هذه المهمة.

ولم تكن البلقاء بمنأى عن الأحداث في تلك الفترة ففي سنة 64 هـ حين استتب الأمر لمروان بن الحكم وأصبح صاحب الأمر بالشام بعد انتصاره على أصحاب الزبير كان من جملة من بايعه القائد المشهور الحصين بن نمير الذي اشترط عليه أن ينزل بالبلقاء من كان بالشام من كندة.

وفي عهد هشام بن عبدالملك كان الوليد بن يزيد يقيم بالبلقاء وفي قصر الأزرق وقد اتخذ من زيزياء الواقعة جنوبي عمان مكاناً يستقبل فيه كل من كان

يقفل من أهل الصائفة عائداً من بلاد الجزيرة العربية ولاستقبال كل من يصدر عن الحج.

وكان الخليفة هشام بن عبدالملك قد ولي يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم الثقفي وهو من أهل البلقاء ولاية اليمن سنة 106 هـ وبقي فيها إلى 120 هـ حين ولأه العراق وهو الذي هرب من العراق زمن الوليد بن يزيد كما ذكرنا.

ولقد شهدت منطقة البلقاء أول حركة سرية في تاريخ الإسلام ففي سنة 110 وجه محمد بن علي بن عبدالله بن عباس الدعاة من الحميمة في البلقاء إلى أنحاء العالم الإسلامي داعين للهاشمية والإطاحة بالأمويين.

ثم إن مروان بن محمد كتب إلى عامله بدمشق يأمره أن يكتب إلى صاحبه بالبلقاء أن يسير إلى الحميمة ويأخذ إبراهيم بن محمد فسار عامل البلقاء بقواته إلى الحميمة وكبس مسجد الحميمة مع صلاة الصبح وألقى القبض على إبراهيم الذي نعى نفسه إلى أهله وطلب منهم المسير إلى الكوفة.

2- البلقاء في العهد العباسي

وحين انهارت الدولة الأموية أمام العباسيين واجتاحت قواتهم خراسان والعراق وتقدمت إلى الشام وتعرضت دمشق إلى حصار شديد من قبل العباسيين بقيادة عبدالله بن علي وصالح بن علي فخف أهل البلقاء لنجدة دمشق إلا أن قوات العباسيين تمكنت من دخولها يوم الأربعاء 10 رمضان 132 هـ ثم إن أهل الشام لم يطمئنوا للحكام الجدد من العباسيين فقام حبيب بن مره المري الذي كان أحد قواد مروان بن محمد بثورة على العباسيين رفع شعار الأمويين وانضمت إليه جموع البلقاء فتقدم عبدالله بن علي بقواته والتقى جيشه مع حبيب بن مرة بأرض البلقاء فدخلت عمان في فلك بني العباسيون بمعاهدة صلح بينهم.

وأولى العباسيون البلقاء اهتماماً خاصاً لموقعها الجيد كمركز اتصالات متوسط بين الأقطار فجعلوا عمان مركزاً للوالي المسؤول عن البلقاء فتولى في العهد العباسي صالح بن علي زمن عبدالله السفاح الذي كانت البلقاء مكان مولده ولأنها طريق البريد والقوافل التجارية والحجاج إلى الجزيرة العربية وفي عهد أبي جعفر المنصور تولى البلقاء محمد بن عبدالله بن محمد بن سلمان بن عبدالمطلب بن ربيعة بن الحارث.

إلا أن البلقاء تعرضت في ولاية صالح بن سليمان إلى العصبية بسبب أن رجلاً من بني القين خرج بطعام يطحنه في الرحى بالبلقاء فمرّ بأرض لرجل من لخم به بطيخ وقثاء فتناول شيئاً منه فشتمه صاحب البطيخ، فثار الخلاف بينهم فاستند صاحب البطيخ من لخم بقوم من أهل اليمن. واستنجد بنو القين بقيس فساروا إلى أرض البلقاء واقتتلوا قتالاً شديداً استمر لمدة سنتين إلى أن أرسل الرشيد موسى بن عيسى والياً على دمشق فقضى على الفتنة وهكذا كانت البلقاء قد شهدت نشوب الخلاف بين قيس ويمن في بلاد الشام.

ثم قامت العصبية مرة أخرى بالشام سنة 180 هـ حتى أن الرشيد أراد الخروج بنفسه للقضاء عليها إلا أن جعفر بن يحيى قال له أنا أكفيك فذهب وأسكت الفتنة وولى صالح بن سليمان على البلقاء وسيّره إلى عمان.

وهكذا نستطيع القول أن منقطة البلقاء كانت تمثل بؤرة ثورية ضد الدولة العباسية لوجود العديد من الأمويين واتباعهم فيها خاصة في البلقاء عمان وماسوح وحسبان.

ثم إن محمد بن طغج بن الأخشيد الذي هرب من بغداد بعد أن قتل الوزير العباسي بن الحسن ولجأ إلى والي الشام الخزري قلّده الخزري عمان وما يتبعها إلى أيلة (العقبة جنوباً) وأثناء ولايته للبلقاء تعرض أعراب من لخم لقافلة

حجاج من الشام والعراق فنهض بقواته من عمان وبدّد شملهم فاشتهر أمره عن طريق جارية للخليفة العباسي المقتدر بالله فأنفذ إليه الخليفة خلعاً وزاده في رزقه فأخذ نجم الإخشيد بالصعود فتولى دمشق ثم مصر مؤسساً بذلك الدولة الإخشيدية.

وحين تم الأمر لجوهر الصقلي في مصر وأقام الدولة الفاطمية فيها أرسل قواته إلى دمشق وفلسطين والأردن وكانت أكثر المدن الشامية عرضة للنفوذ الفاطمي هي عمان في البلقاء ولقيت مركزاً للوالي فر إليها من دمشق الشريف حيدر العلوي من وجه بدر الدين الجمالي سنة 462 هـ وكانت عمان البلقاء مركزاً لسك الدنانير الذهبية المنسوبة إليها والمسماة بالدنانير العمّانيّة.

وفي عهد الأتراك السلاجقة أقيمت إمارات مستقلة وبذلك أصبحت عمان البلقاء والشراة تابعة لإمارة دمشق السلجوقية. وفي العهد الصليبي أسس الصليبيون القلاع الحصينة في الشوبك وأيلة ووادي موسى والطفيلة والكرك وحين أدرك صاحب دمشق ظهر الدين طغتكين أهمية البلقاء فانتهز وصول أحد أمراء التركمان ويدعى الأصفهيد التركماني إلى دمشق في جموع قواته أكرمه بأن أقْطَعَه البلقاء وهكذا استمرت عمان في أوائل القرن السادس الهجري إحدى مراكز العمران.

وشهدت البلقاء حركة جيوش نور الدين محمود بقيادة أسد الدين شيركوه وكانت آخر المعاقل الصليبية في الأردن الشوبك بعد حصار دام سنتين فأقطع صلاح الدين الكرك لأخيه العادل وكان يضمن الإقطاع البلقاء إلى العقبة جنوباً.

وذكر المقريزي في كتاب السلوك أن صلاح الدين طلب سنة 580 هـ أن توافيه العسكر من سائر الولايات الإسلامية لفتح الكرك فنزل العسكر الحلبي على عمان مدينة البلقاء وبعد أربعة أيام توجهوا منها إلى حسبان وشهدت البلقاء حركة جيوش صلاح الدين ضد إمارة الكرك الصليبية.

وكان صلاح الدين يخيم على عمان والزرقاء وحسبان والربّة ومن عمان هاجم صلاح الدين قوات الفرنج في نابلس.

وبعد أن تم فتح الكرك من قبل الأيوبيين انتقل إليها مركز ولاية البلقاء وأصبحت عمان تابعة لها. وفي سنة 1196 م / 592 هـ جعل الملك العادل ابنه المعظم عيسى نائباً له في الكرك.

فحدث مرة أن مرّت بالبلقاء قافلة بها عدد من جواري الملك المعظم وعند مرورها قرب السلط تعرض لها جماعة من بني رحمان سكان قرية مجاورة فهاجموا القافلة وسبوا الجواري ولما وصل النبأ إلى الملك المعظم عيسى غضب وهاجم القرية ولتأمين السلامة للمسالك المؤدية للشام ومصر والحجاز عبر البلقاء رأي الملك بناء قلعة للحراسة فاختار رأس جبل يعرف برأس الأمير وبنى قلعة الصلت والجدير بالذكر هنا أن البلقاء كانت ذات خيرات وخصوبة ففي زمن صلاح الدين اعتمد عليها الأيوبيون لنقل الغلال إلى معظم مدن وقرى فلسطين التي تعطلت بها الزراعة بسبب الحروب الصليبية.

وهاجم التتار الأردن وفلسطين فهاجموا زيزياء والسلط وعجلون وعمان فتوجه الناصر يوسف من مصر إلى البلقاء واستجار بأعراب البلقاء فأجاروه وبقي الحال إلى أن تمكن التتار من القبض عليه في زيزياء فأحضر إلى عجلون وأرغم على أن تسلم حامية عجلون فتسلموها وهدموها.

وما أن انهزم التتار في عين جالوت 658 هـ / 1260 م حتى دخلت البلقاء في أملاك المماليك، فأعاد الظاهر بيبرس بناء قلعة الربض وجدّد جامعها وكان الظاهر بيبرس قد عاش في عجلون في عام 643 هـ / 1246 م مع سيده علاء الدين البندقدار الذي ناب فيها للملك الصالح نجم الدين أيوب.

وأدرك قلاوون الأهمية الخاصة لمنطقة البلقاء فوجه اهتمامه إليها واستولى عليها سنة 678 هـ/ 1279 م وولى الأمير جمال الدين الشريفي نيابة السلطنة الشريفة بالصلت والبلقاء. وكانت البلقاء تضم عمان والصلت وحسبان والزرقاء.

وبعد قضاء قلاوون على الملك المسعود في الكرك انتقل مركز ولاية البلقاء من الصلت إلى عمان فقيل « جمعاً بين الأختين حلالاً والذروتين منالاً والرايتين نهوضاً بهما واستقلالاً... ».

وفي أوائل القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي انتقل مركز ولاية البلقاء من عمان والصلت إلى حسبان ومن أحداث البلقاء أن الناصر قلاوون أعلن الثورة في الكرك ضد المماليك في مصر الذين استولوا على عرشه في مصر وأمر بالخطبة لنفسه على منابر الكرك وأعمالها واتصل مع نواب الشام وخرج من الكرك في رجب 709 هـ باتجاه دمشق فوصل بركة بزيزياء ثم حطّ رحاله في البرج الأبيض (برج الحمام) مرج الحمام حالياً وهو من أعمال البلقاء ثم تابع شمالاً وسيطر على حوران. فرأي المظفر أن يستعمل الدهاء مع الناصر فوعده بالبلقاء وحوران بشرط أن يرجع عما هو فيه ثم عاد وصالح المظفر على أن تكون الشام له ودخل دمشق 17 شعبان 709 هـ ثم سار إلى مصر وجلس على عرش السلطنة وقام عام 716 هـ بإبطال المكوس عن البلقاء وزار حسبان مركز ولاية البلقاء وفي سلطنة الناصر الثانية زاد نفوذ الأمير صرغتمش الذي بنى مدرسة في عمان تدرس المذهب الحنفي سنة 757 هـ / 1356 م ونقل الولاية والقضاء في البلقاء من حسبان إلى عمان.

وكان في البلقاء قضاء في عمان والصلت وحسبان ومحتسب في كل سوق.

وفي القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي برزت مدينة الصلت لتعود قاعدة البلقاء حتى أن القلقشندي يقول: «إن المستقر الصلت فقط والبلقاء

مضافة إليها[1] ثم إن البلقاء تبعت نيابة عجلون فيما بعد وفي القرن العاشر الهجري اجتمعت عجلون البلقاء لنائب دمشق ».

وفي العهد العثماني شهدت البلقاء إهمالاً شديداً حتى سيطر عليها شيخ البدو ولم يكن هناك نظام خارج الكرك والطفيلة ومعان والسلط وكانت كل واحدة تعتني بنفسها وتحمي أموالها من غارات البدو. وفي عام 1760 بعث ظاهر العمر صاحب عكا قبيلة الزيادنة لغزو العدوان شيوخ البلقاء فاحتل زعيمهم قاسم السعيد قلعة السلط وزحف إلى العدوان لكنه كسر وعاد أدراجه واتخذت العدوان والقبائل المجاورة السلطة حصناً للعصيان ضد الدولة العثمانية لإخراج صالح شيخ العدوان منها فهرب إلى جبل الدروز وخلفه نمر في الزعامة.

وتمكن إبراهيم باشا ابن محمد علي عزيز مصر من السيطرة على البلقاء فتحالف العدوان مع بني صخر وعرب البلقاء فاصطدموا بجيوش إبراهيم باشا ولكنه أسر زعيم العدوان ونفاه إلى حمص وبقي فيها إلى خروج المصريين من البلاد 1841. وعلى أية حال شهدت البلقاء حالة من الركود الاقتصادي والعلمي في عهد الدولة العثمانية بسبب سوء الإدارة والانشغال بالحروب وزيادة الاهتمام بالمنطقة التركية وإهمال البلاد العربية.

وهكذا كانت هذه محاولة موجزة لإلقاء الضوء على تاريخ البلقاء والتي تمثل الكيان الأردني الحالي بكامله من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه.

حكم الغساسنة في البلقاء وكانت البلقاء تضم قبل الفتح الإسلامي معان ونقب اشتار جنوباً بالإضافة على وسط وشمال الأردن ولعب جند البلقاء دوراً هاماً في العهد الأموي حتى أن أبناء البلقاء تولوا اليمن والعراق والشام.

---

(1) هذه وما قبلها دلائل وشواهد تاريخية على أن السلط مدينة عريقة، وأن ما يقال أنها حديثة العهد والسكان كلام عارٍ عن الصحة تماماً.

وشهدت منطقة البلقاء أول دعوة سرية في تاريخ لإسلام وهي الدعوة للهاشميين العباسيين في الحميمة. وكانت البلقاء مركز شغب في العهد العباسي وشهدت البلقاء أول صراع بين قيس ويمن في بلاد الشام. وحين تولى الإخشيد البلقاء كانت أملاكها تمتد إلى العقبة جنوباً وإلى إربد شمالاً والأزرق شرقاً. وشهدت عمان اهتماماً فاطمياً منقطع النظير وكانت عمان البلقاء مركزاً لسك الدنانير العمانية الذهبية.

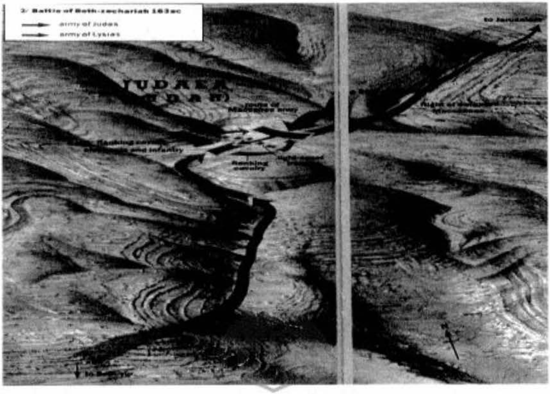
وعاشت البلقاء العهد الأيوبي وكانت ميداناً لحركة جيوش صلاح الدين الأيوبي ومركزاً لمهاجمة الصليبيين في فلسطين ورافداً لفلسطين في محنتها أثناء الحروب الصليبية بمدها بالغلال والخيرات.

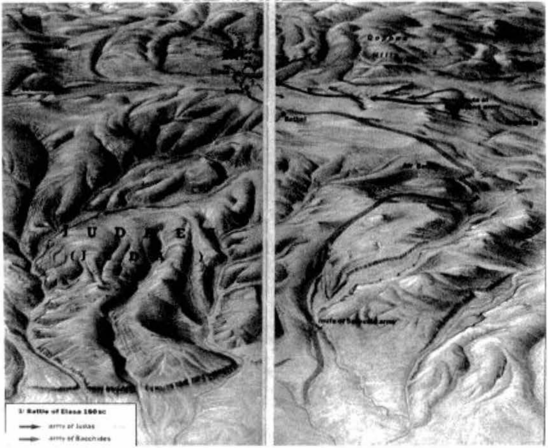
واهتم المماليك بالبلقاء وشهدت قيام مملكة الكرك في العهد المملوكي والتي كانت تجسد الكيان الأردني الحالي، وفي العهد العثماني شهدت البلقاء تقلصاً في مساحتها عبثت القبائل البدوية في البلاد فساداً إلى أن تفجرت الثورة العربية الكبرى فأصبحت بلقاء الأردن دولة مستقلة ذات سيادة وأصبحت البلقاء منطقة محافظة مركزها مدينة السلط.

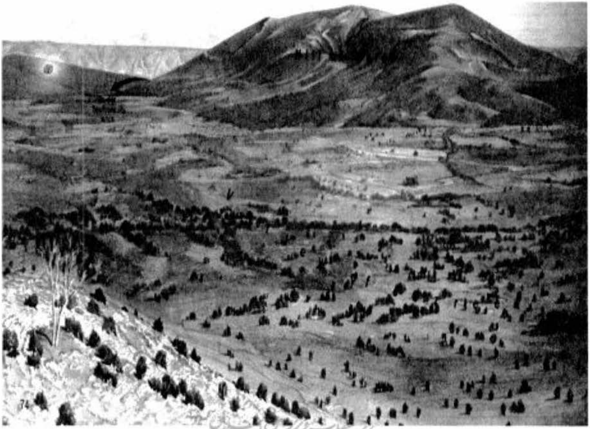
* * *

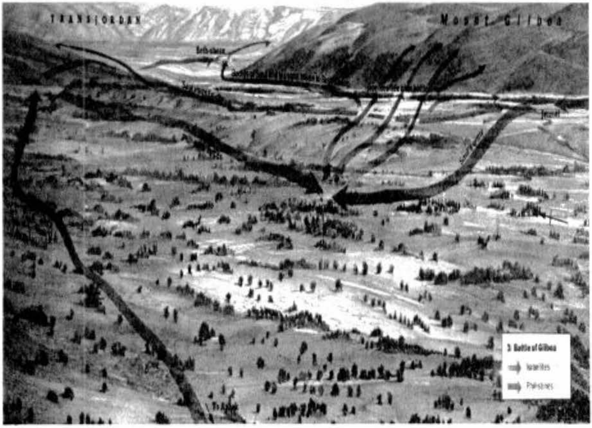
انتهى

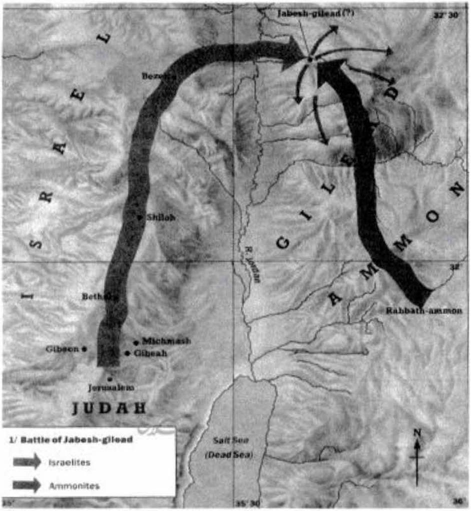
الجزء الثاني


2/ Battle of Beth-zechariah 163BC
army of Judas
army of Lysias
JUDAEA
to Jerusalem

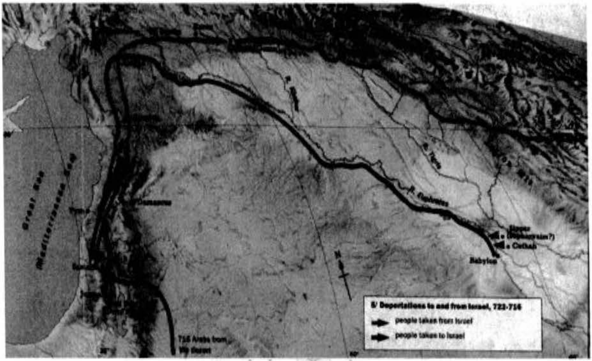

1/ Battle of Elasa 160BC
army of Judas
army of Bacchides

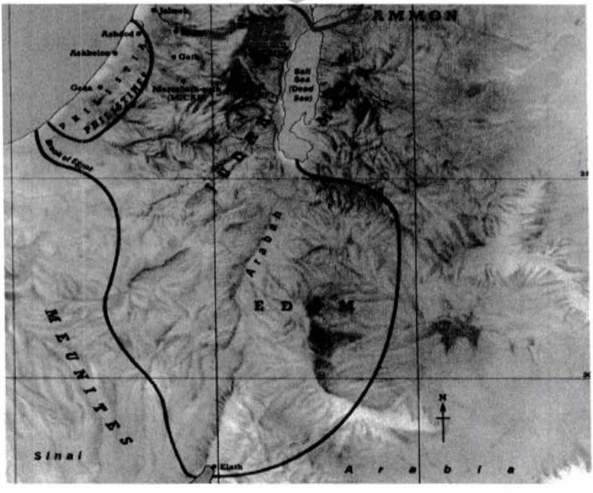


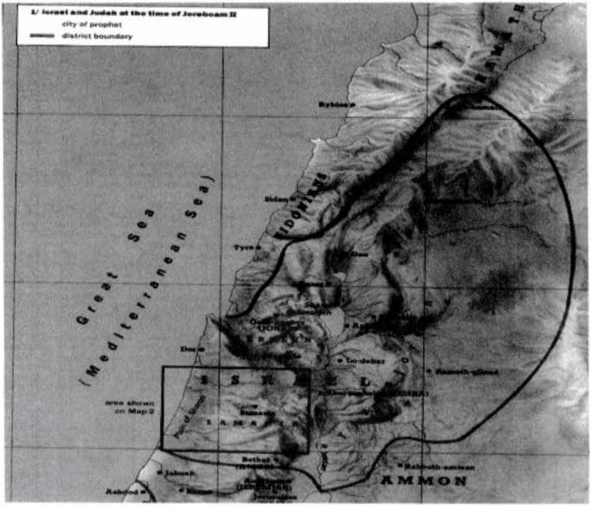

TRANSJORDAN
Mount Gilboa
3. Battle of Gilboa

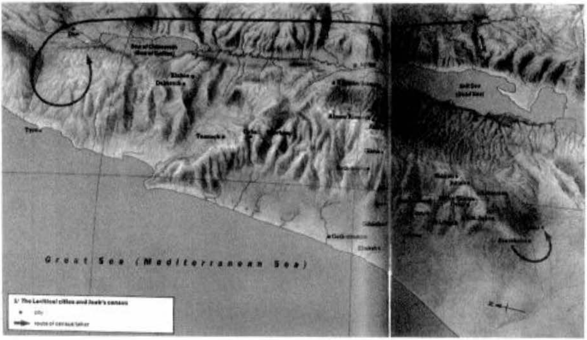

Jabesh-gilead (?)
32° 30'
I S R A E L
G I L E A D
A M M O N
Shiloh
R. Jordan
32°
Rabbath-ammon
Michmash
Gibeon
Gibeah
Jerusalem
JUDAH
1/ Battle of Jabesh-gilead
Israelites
Ammonites
Salt Sea
(Dead Sea)
N
35°
35° 30'
36°

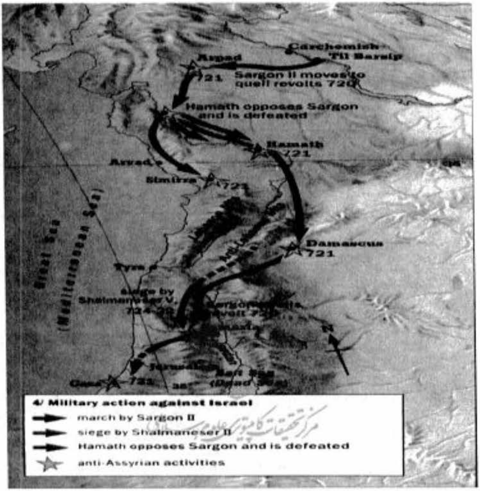


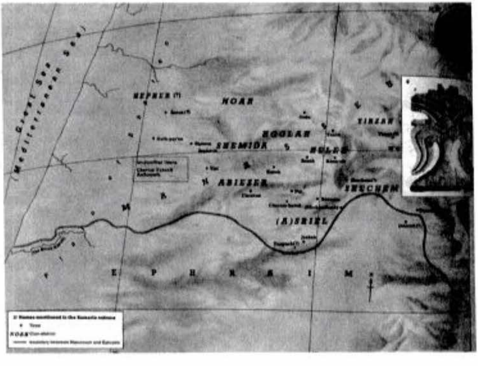

Great Sea
Mediterranean Sea
Damascus
R. Euphrates
Babylon
Cuthah
N
Deportations to and from Israel, 723-716
people taken from Israel
people taken to Israel

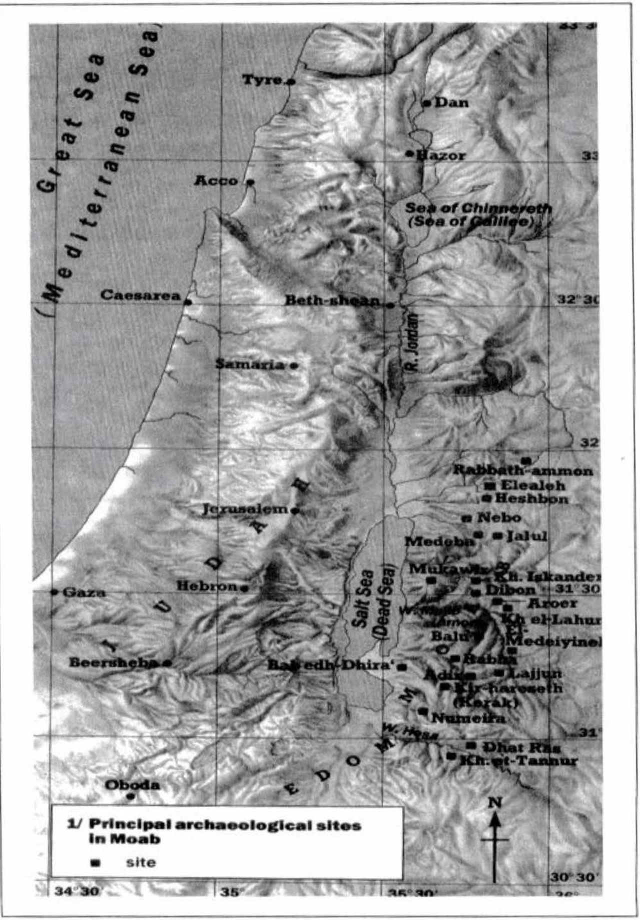

AMMON
Ashdod
Ashkelon
Gath
Gaza
PHILISTINES
Salt Sea (Dead Sea)
Arabah
EDOM
MEUNITES
Sinai
Elath
Arabia
N

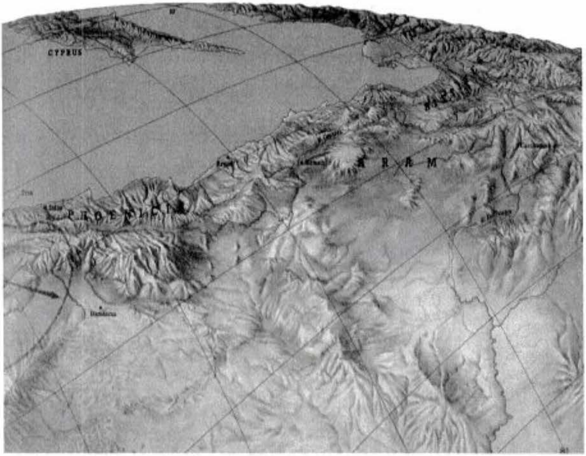

1/ Israel and Judah at the time of Jeroboam II
city of prophet
district boundary
Byblos
Sidon
Tyre
Dan
Dor
Great Sea
(Mediterranean Sea)
area shown on Map 2
Lo-debar
Ramoth-gilead
Bethel
Jabneh
Ashdod
Rabbath-ammon
AMMON

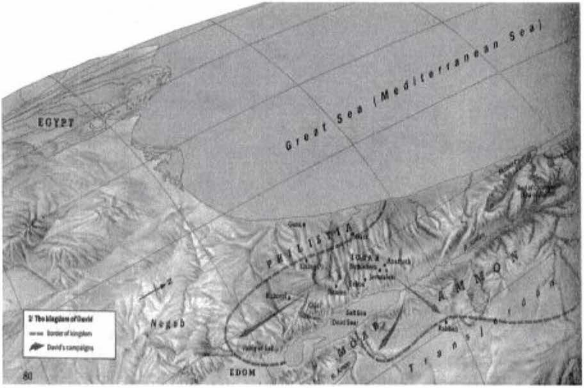

Tyre
Great Sea (Mediterranean Sea)
1/ The Levitical cities and Joab's census

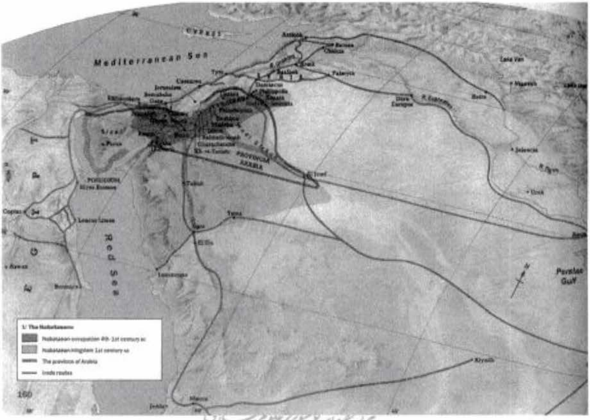

Carchemish
Til Barsip
Arpad
721
Sargon II moves to
quell revolts 720
Hamath opposes Sargon
and is defeated
Hamath
721
Arvad
Simirra
721
Damascus
721
Tyre
Great Sea
(Mediterranean Sea)
Gaza
721
Salt Sea
(Dead Sea)
4/ Military action against Israel
march by Sargon II
siege by Shalmaneser II
Hamath opposes Sargon and is defeated
anti-Assyrian activities

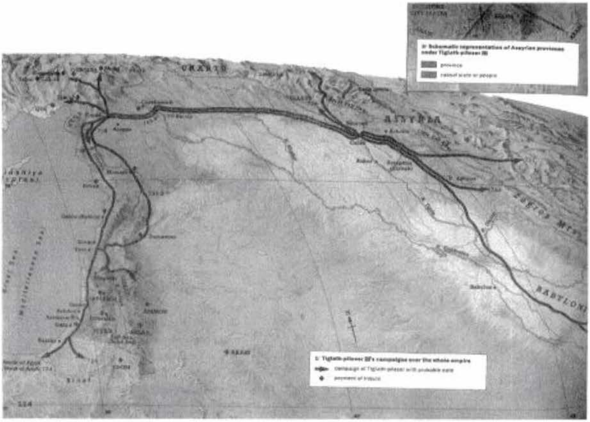

Great Sea
(Mediterranean Sea)
HEPHER
NOAH
HOGLAH
TIRZAH
SHEMIDA
ABIEZER
SHECHEM
(A)SRIEL
E P H R A I M

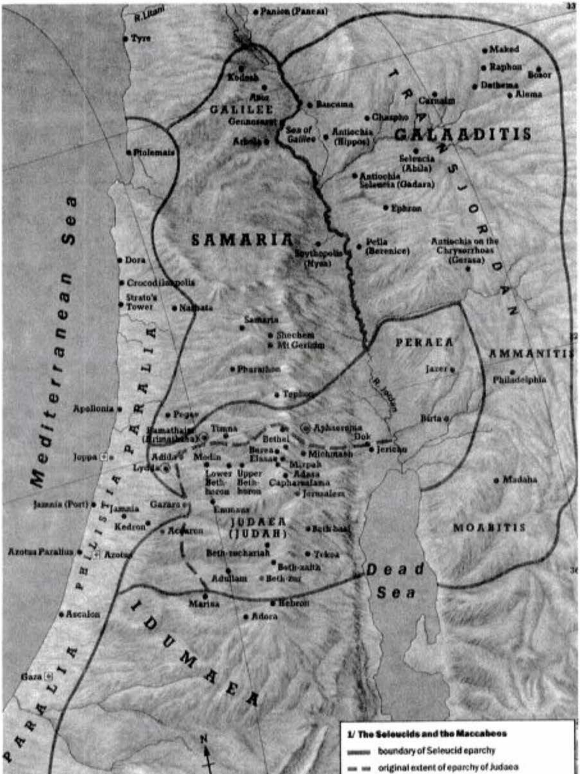

Great Sea
(Mediterranean Sea)
Tyre
Dan
Hazor
Acco
Sea of Chinnereth
(Sea of Galilee)
Caesarea
Beth-shean
R. Jordan
Samaria
Rabbath-ammon
Elealeh
Heshbon
Jerusalem
Nebo
Medeba
Jalul
Mukawir
Kh. Iskander
Gaza
Hebron
Dibon
Salt Sea
(Dead Sea)
Aroer
Kh el-Lahun
El-Medeiyineh
Balu'
JUDAH
Beersheba
Bab edh-Dhira'
Rabba
Adir
Lajjun
Kir-hareseth
(Karak)
MOAB
Numeira
W. Hasa
Dhat Ras
Kh. et-Tannur
EDOM
Oboda
N
1/ Principal archaeological sites in Moab
site
33°
32°30'
32°
31°30'
31°
30°30'
34°30'
35°
35°30'

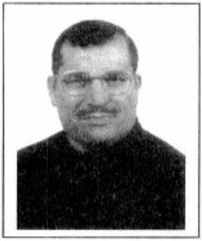

CYPRUS
PHOENICIA
ARAM


EGYPT
Great Sea (Mediterranean Sea)
PHILISTIA
AMMON
MOAB
EDOM
Negeb
2/ The kingdom of David
Border of kingdom
David's campaigns
80


Mediterranean Sea
Red Sea
PROVINCIA ARABIA
Persian Gulf
160


URARTU
ASSYRIA
Zagros Mts
124


Mediterranean Sea
GALILEE
SAMARIA
GALAADITIS
TRANSJORDAN
PERAEA
AMMANITIS
MOABITIS
JUDAEA (JUDAH)
IDUMAEA
PARALIA
Dead Sea
Sea of Galilee
R. Jordan
Panion (Paneas)
Tyre
Ptolemais
Dora
Strato's Tower
Apollonia
Joppa
Jamnia (Port)
Jamnia
Azotus Paralius
Azotus
Ascalon
Gaza
Kedesh
Pella (Berenice)
Antiochia on the Chrysorrhoas (Gerasa)
Ephron
Philadelphia
Jazer
Madaba
Samaria
Shechem
Mt Gerizim
Jericho
Jerusalem
Michmash
Mizpah
Bethel
Timna
Lydda
Modin
Emmaus
Accaron
Kedron
Beth-zechariah
Tekoa
Adullam
Marisa
Hebron
Adora
Beth-zur
Maked
Raphon
Bosor
Alema
Carnaim
1/ The Seleucids and the Maccabees
boundary of Seleucid eparchy
original extent of eparchy of Judaea
attacked by Jonathan
Maccabean campaign
given to Jonathan by Alexander Balas 147 BC
given to Jonathan by Demetrius II 145 BC
taken and fortified by Simon 144-143 BC



المؤلف في سطور

الدكتور أحمد عويدي العبادي

- عضو مجلس النواب الأردني الثالث عشر (1997-2001).
- عضو مجلس النواب الأردني الحادي عشر (1989-1993).

المؤهلات العلمية

- دكتوراه في العلوم السياسية والاجتماعية والانثربولوجية من جامعة كمبردج في بريطانيا (سنة 1982).
- ماجستير بالدراسات الإسلامية والتاريخية والجغرافية من معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة (1978)، بمرتبة الشرف.
- بكالوريوس في الآداب/ جغرافيا من بيروت العربية (1969) جيد.
- عقيد متقاعد من الأمن العام (1987).
- رئيس تحرير مجلة الشرطة الأردنية بشكل دوري (1973-1980).
- كاتب مقالات صحفية سياسية في الصحف الأردنية بشكل دوري (1993-1997)، (2003-2005).
- شاعر بالفصحى والشعر النبطي.
- خبرات واستعمالات الحاسوب.
- معدّ ومقدم برامج تلفزيونية مختلفة (سابقاً).

المؤلفات المطبوعة

1- المرأة البدوية (1973).

2- من القيم والآداب البدوية (1976).

3- مقدمة لدراسة العشائر الأردنية، طبعتان (1983، 1985).

4- العشائر الأردنية (الأرض والإنسان والتاريخ) (1985)، الجزء الأول.

5- العشائر الأردنية (الأرض والإنسان والتاريخ) (1988)، الجزء الثاني.

6- عشائر الأردن (جولات ميدانية وتحليلات) الجزء الثالث.

7- المناسبات عند العشائر الأردنية، طبعتان (1980، 1988).

8- الأدلة القضائية عند البدو (1983).

9- الجرائم الكبرى عند العشائر الأردنية (1984).

10- الجرائم الصغرى عند العشائر الأردنية (1985).

11- في ربوع الأردن جولات ومشاهدات، جزءان (1988).

12- الأردن في كتب الرحّالة والجغرافيين المسلمين، (1988)، (2005).

13- العادات والقيم البدوية عند العشائر الأردنية، (2005).

14- معارك برلمانية (1989 - 1993 - 1997 - 2001) (2005).

15- القضاء عند العشائر الأردنية (1988).

الترجمات:

1- ملحوظات عن البدو، بيركهارت (1810-1817) مطبوع (2005) (جزءان كبيران).
2- خشخشة الأشواك، كركبرايد (1916-1817) (مطبوع).
3- قصة الجيش العربي، كلوب باشا (1930 - 1946) (مطبوع).
4- وادي الأردن والبتراء، (البعثة الأمريكية) مجلدان (1952) (مطبوع 2005).
5- أعمال المساحة في شرق الأردن، كوندر (1876) (مطبوع 2004) (قسمان كبيران).
6- أرض جلعاد، لورنس أوليفانت (1883) (مطبوع 2004).
7- مع البدو، جيري هيل (1890) (مطبوع 2005).
8- رحلات في شرق الأردن (بلاد مؤاب)، تريسترام، (1872) (مطبوع 1993) (طبعة منقّحة ومزيدة 2004).
9- ما وراء الأردن حياة ومغامرات (نهاية القرن التاسع عشر) (2005).
10- عدالة بدو الأردن (1921-1982) للمؤلف بالإنجليزية أصلاً. (Bedouin Justice in Jordan 1921-1982).
11- التاريخ السياسي للعشائر الأردنية بالإنجليزية والعربية (مجلدان). Political History of the Jordanian Tribes (تحت الطبع).
12- عبر نهر الأردن (شوميخر 1884)، (2005)
13- مؤلف مسلسلات بين منشورة وغير منشورة، وذلك على النحو التالي:
   1- المسلسل البدوي «وضحى وابن عجلان» (13) حلقة، تم تنفيذه في (1975).
   2- المسلسل البدوي «صقور الصحراء»، (13) حلقة، تم تنفيذه في عام (1997).
   3- المسلسل البدوي «تعاليل» (15) حلقة، تم تنفيذه في عام (1984).
   4- المسلسل البدوي «حكايات من البادية»، (13) حلقة، تم تنفيذه في عام (1987).
   5- المسلسل البدوي «الفوز» (15) حلقة، جاهز للتنفيذ.
   6- «من قصص العرب» (بالفصحى) (13) حلقة، جاهز للتنفيذ.
   7- «من نوادر الأذكياء» (بالفصحى) (30) حلقة، تلفزيوني وإذاعي.

المؤتمرات التي قدمت بها أوراق بحث

- مؤتمر الدراسات العربية/ جامعة لندن 1978، بحث العادات البدوية (بالإنجليزية).
- مؤتمر الدراسات العربية/ جامعة كمبردج 1981، بحث عن العادات البدوية (بالإنجليزية).
- مؤتمر حقوق الإنسان/ لندن 1998، بحث عن القدس/ حقوق الإنسان (بالعربية).
- مؤتمر الدراسات الاجتماعية في عمّان 1985، دراسة القضاء العشائري (بالإنجليزية).
- مؤتمر البرلمانيين العرب والأفارقة 1998/ كوتونو، غرب أفريقيا.
- مؤتمر البرلمانيين الأسيويين 1999، ورقة عن التعاون البرلماني الدولي (بالإنجليزية).
- مؤتمر مجموعة كوبنهاجن. القاهرة 1999 (خطاب بالإنجليزية).
- مؤتمر البرلمانيين الأسيويين لعام 2001 في فنوم بنه/ كمبوديا (بالإنجليزية).
- المشاركة في ندوات ومقابلات وبرامج سياسية في محطات فضائية عربية.
- مؤتمر المياه في الفاتيكان في إيطاليا، شهر تشرين الأول 2004.